نحو فهم صحيح للحقائق الإسلامية

إسْعَافُ السَّـؤُول

بشـرح

ثلاثـةِ الأصُـول

لأبي عبد الله صادق بن عبد الله

المجلد الثاني

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

وَفِي الْحَدِيثِ:(الدُّعَاءُ مخ الْعِبَادَةِ).وَالدَّلِيلُ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر:٦٠]. وَدَلِيلُ الْخَوْفِ:قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [آل عمران:١٧٥]. وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}[الكهف:١١٠]. ودَلِيلُ التَّوَكُلِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[المائدة:٢٣]. وقوله:{وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}[الطلاق:٣]. وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالْخُشُوعِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء:٩٠]. وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي} الآية [البقرة:١٥٠]. وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ}الآية [الزمر:٥٤]. وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}[الفاتحة:٥]. وَفِي الْحَدِيثِ:"وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ".وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[الفلق:١]. وَ:{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}[الناس:١]. وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ} الآية [الأنفال:٩].

وَدَلِيلُ الذَّبْحِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَه وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } [الأنعام:١٦١-١٦٣].

وَمِنَ السُنَّةِ:{لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ}.وَدَلِيلُ النَّذْرِ:قَوْلُهُ تَعَالَى: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً} [الإنسان:٧].

الشرح

قوله:(وفي الحديث الدعاء مُخُّ العبادة): شرع المؤلف رحمه الله تعالى يفصّل ما أجمله من قبل، مستعملا الأدلة من الكتاب والسنة كما هي الجَادَّة؛ لِيُبَيِّن أن هذه الأعمال التي سيذكرها على سبيل المثال لا الحصر، قَلْبِيَّةً كانت أو جَوَارِحِيَّة؛ فإنها عبادة لله جل وعلا، وينْطَبِقُ عليها الحكم المتقدم في قوله:(فمن صرف منها شيئا لغير الله فهو مشرك كافر)، وكما تقدم كل عبادة ثبتت بالكتاب والسنة أنها عبادة لله تعالى، فإن صرفها لغير الله تعالى شرك وكفر أكبر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مسألة: بم تعرف العبادة؟.

الجواب: إن المتأمل في أحوال الأمم في الكتاب والسنة، بل وفي الواقع اليوم؛ يجد أن الطريقة التي يُحدِّد بها كثير من الناس، ما يعظمون، وبِمَ يَتَعَبَّدُون، ومَنْ يَعْبُدُون، هي طريقة جاهلية شيطانية، مَبْنِيَّةٌ على الهوى، والعادات والتقاليد، وفعل الآباء والأجداد، والتجربة والخبرة، وفعل الأكثر، واتباع السادات والسلاطين والكبراء، ونحو ذلك من سبل الجاهلية الضالة المنحرفة، بعيدا عن الحق وإصابته، وإليك شيئا من النصوص الدالة على ذلك:قال تعالى:{إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا} [النساء:١١٧-١٢١]، وقوله:{وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} [الإسراء: ٦٤]، وقوله:{وَجَعَلُوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا للهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ للهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [الأنعام:١٣٦] إلى قوله:{وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام:١٣٨-١٣٩]، وقوله:{سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ}[الأنعام:١٤٨]، وقوله:{أَلَا إِنَّ للهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [يونس:٦٦]، وقوله:{مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [المائدة:١٠٣].

ولهذا كان لزاما علينا أن نعلم، ونتبين السبيل، التي بها نتعرف على العبادات؛ لنصرفها لله الواحد القهار لا شريك له، فإن المؤمن مطالب ألا يعمل عملا إلا بعلم وبصيرة، ومن أجمع الآيات الدالة على هذه السبيل قوله تعالى:{وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠)يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف:٢٨-٣٣]، وقوله:{إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَّ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللهَّ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [النحل:٩٠-٩١]، وقوله:{أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُّ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد:١٩-٢٢]، وقوله:{ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} [الطلاق:٥]، وقوله:{إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَّ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الزمر:٧]، ونحو ذلك من الآيات.

وبهذا نتبين أن من أجمع التعاريف للعبادة، ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فيما تقدم، من أنها:(اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة)، فمدار المسألة إذن على ما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، ففعل المَرْضِيِّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عند الله تعالى، عبادة، وترك ما نهى الله تعالى عنه، عبادة أيضا، إذا ابتغى العبد بذلك وجه الله تعالى، وكان في ذلك على علم وبصيرة.

وعليه فنقول: تُعْرَفُ العبادة بأحد خمسة أمور:

الأمر الأول: أمر الله تعالى بها، إما في كتابه أو فيما صح من سنة نبيه **r**، كالركوع والسجود وغيرها من المأمورات:

مثال ذلك، قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الحج:٧٧-٧٨]، وقوله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [الأنفال:١]، وقوله: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} [البقرة:٤٣]، وقوله: {وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ} [الرحمن:٩]، وقوله: {وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ} [النساء:٢]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة:٣٥]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم:٦]، وقوله: {وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور:٣١]،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [المجادلة:١١]، ونحو ذلك مما أمر الله تعالى به، إما أمر إيجاب، أو أمر استحباب، فإن الله تعالى لا يأمر إلا بما يحب ويرضى جل الله في علاه.

الأمر الثاني: ثناء الله تعالى، على فعل من الأفعال، قولية كانت أو عملية، كقوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا} [مريم:٥٤-٥٥]، وقوله: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال:٢-٤]، وقوله: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة:٢٢٢]، وقوله: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [آل عمران:٧٦]، وقوله: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران:١٥٩]، وقوله: {الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ} [الأنبياء: ٤٩]، ونحو ذلك من الآيات.

الأمر الثالث: حث الله تبارك وتعالى على الفعل أو الفاعلين، وهذا ربما يكون فيه تداخل مع الأمر الثاني، كقوله تعالى: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠) إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[البقرة:٢٧٠-٢٧١]، وقوله:{وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [التوبة:١٢١]، وقوله:{إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} [الصف:٤]، وقوله:{هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن:٦٠]، وقوله:{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [آل عمران:١٣٤-١٣٦]، وقوله:{وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران:١٤٦-١٤٨]، وقوله:{وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ} [المائدة: ٨٣-٨٥]، وقوله:{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا} [الكهف:١٣-١٥]، وقوله:{ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر: ١٧ - ١٨] ، وقوله:{وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ} [الأعراف:١٧٠]، وقوله:{قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ} [الطور:٢٦-٢٨]، ونحو ذلك من الآيات.

الأمر الرابع:أن ينهي الله تعالى عن أي فعل ما، فإن اجتنابه عبادة كما تقدم، كما قال تعالى:{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام:١٥١-١٥٣]، وقوله:{وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا} [الإسراء:٣١-٣٩]، وقوله: {وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ} [هود:١١٣]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة:٣٨-٤٠]، ونحو ذلك من الآيات.

الأمر الخامس: أن يذم الله تبارك وتعالى شيئا ما، قولا كان أو عملا أو شخصا، فنعلم بذلك أن اجتنابه عبادة لله تعالى، كقوله تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأعراف: ١٦٩]، وقوله: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا} [مريم:٥٩]، وقوله: {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ} [التوبة:١٢٠]، وقوله: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة:١٢٢]، وقوله: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا} [المدثر:١١-١٧]، وقوله: {إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا} [الشمس:١٢]، وقوله: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا} [النساء:١٤٥]، وقوله: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [الجمعة:٥]، ونحو ذلك من الآيات.

ومن السنة أكتفي بحديث جامع مانع، ألا وهو الحديث المخرج في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ: "دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم رحمك الله، أنه لابد من التَّقَيُّد بالهدي النبوي، في الفعل والتَّرْك؛ وطريقته r في ذلك؛ حتى لا نستعمل مسمى العبادة الشرعي، ثم نتبع أهواءنا في تنزيلها والعمل بها، فإننا بذلك لم نصنع شيئا، إذ لم نزل مُتَّبِعين للشيطان والهوى، مُبْحِرِينَ بعيدا عن الهدى، الذي جاء به المصطفى r من عند ربه تبارك وتعالى.

ولا تنس في كل ذلك، أن أمر رسول الله r، ونهيه داخل في ذلك أيضا، فإنما هو r مبلغ عن الله تعالى، كما قال تعالى: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم:١-٤]، وسيأتي بيان ذلك في كلام المؤلف فيما بعد إن شاء الله تعالى.

واعلم رعاك الله أن تحديد درجات العبادات من المأمورات والمنهيات، يرجع إلى موارد ذلك ومظانه، من الكتاب والسنة، فتحديد الواجب من الفرض من المستحب، وتحديد المحرم ومن المكروه كراهة تَنْزِيه، كل ذلك لابد من الرجوع فيه إلى جمع الأدلة المتعلقة بالمسألة؛ لاستخلاص الحكم الشرعي، فإن هذه عبادة من أجل العبادات، قال الله تعالى فيها: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: ١٠٨]، وقال: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً} [النساء:٨٣].

قوله:(وَفِي الْحَدِيثِ: "الدُّعَاءُ مخ الْعِبَادَةِ"، بدأ المؤلف بالدعاء؛ لأنه عَصَبُ الأمر، وأُسُّه وأَسَاسُه، فإن الدعاء في عمومه يمثل العبادة كلها، كما سيأتي معنا، بإذن الله تعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والدعاء لغة[١]: الطلب، ومنه النداء، وهو حث على الإصغاء لأمر ما، وتحقيق الاستجابة للطلب.

وشرعا: أكمل تعريف وأعدله، هو ما قاله النبي r :"الدعاء هو العبادة": وسيأتي.

*** * وهذا بحث قيم جليل وقفت عليه في المجلة الإسلامية بالمدينة النبوية، أنقله بحروفه:[(المسألة الأولى - وهي دعاء غير الله)، نريد أن نعرف حقيقة الدعاء لغة وشرعا.**

١ - قال في الصحاح:[دعوت فلانا صحت به واستدعيته ودعوت الله له وعليه].

٢ - وقال في القاموس:[الدعاء: الرغبة إلى الله].

٣ - وقال في المصباح:[دعوت الله أدعوه دعاء ابتهلت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير ودعوت زيدا ناديته وطلبت إقباله].

٤ - وقال الحافظ ابن حجر في الفتح:[والدعاء الطلب والدعاء إلى الشيء الحث على فعله ودعوت فلانا سألته ودعوته إستغثته]ا.هـ. فالدعاء إذا استدعاء ورغبة ونداء وابتهال بالسؤال واستغاثة والذي يدعو الله راغب إليه ومنادٍ له ومبتهل وسائل له ومستغيث به والداعي لغير الله من ميت وغائب كذلك.

---

١ - جاء في تفسير ابن عرفة:[وفي شرح الأسماء الحسنى للشيخ ابن العربي : الدّعاء لغة الطّلب. {اغفر لنا}، ويطلق على النداء وعلى الترغيب مثل:{والله يدعوا إلى دَارِ السلام}، وعلى التكوين مثل:{ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأرض}]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- **(حقيقة الدعاء في القرآن):**

١ - قال تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} آل عمران.

٢ - وقال تعالى عن زكريا أيضا: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً} .

فالدعاء المذكور في آل عمران سمّاه هنا نداء وفسر النداء في سورة مريم بطلب الولد.

(حقيقة الدعاء في السنة):

١ - عن أبي هريرة t أن رسول الله r قال: "إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر لي إن شئت ولكن ليعزم المسألة وليعظم الرغبة فإن الله سبحانه لا يتعاظمه شيء أعطاه".

فسمى ما يطلبه العبد من ربه دعاء ومسألة رغبة وهو موافق لأقوال أئمة اللغة.

٢ - وعنه t قال: قال رسول الله r :"يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لي" متفق عليه وأخرجه الترمذي.

٣- وعن أنس t قال: قال رسول الله r : "إذا دعا أحدكم فليعزم الدعاء ولا يقل اللهم إن شئت فأعطي فإن الله لا مستكره له" متفق عليه.

والأحاديث ومؤلفات العلماء وتراجمهم في الدعاء شيء لا يأتي عليه العد بل عوام الناس إذا ذكر لفظ الدعاء لا يتبادر إلى أذهانهم إلا هذه الحقيقة وهي النداء والسؤال والطلب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذا تقررت وفهمت حقيقة الدعاء على ضوء الكتاب والسنة واللغة العربية وواقع الناس فالله تعالى قد أمرنا بدعائه ونهانا أشد النهي عن دعاء غيره.

قال تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} . أمرنا الله بدعائه وعلمنا آداب الدعاء التي يرجى من ورائها الإجابة وهي: ١ - التضرع ٢ - الخفية ٣ - الخوف ٤ - الطمع.

وقال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}. فهنا ندب تبارك وتعالى عباده إلى دعائه وأخبر أن المستكبرين عن دعائه مستكبرون عن عبادته لأن الدعاء أهم أنواع العبادة وأعظمها فالتارك لدعائه استكبارا كافر سيدخل جهنم داخِرا أي صاغرا وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وأبن أبي حاتم عن النعمان بن بشير عن النبي r قال: "إن الدعاء هو العبادة"ثم قرأ {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}.قال الترمذي صحيح الإسناد، ومعنى الدعاء هو العبادة، كما قال العلماء، أي جلها ومعظمها كقوله r :"الحج عرفة" أي أعظم أركان الحج، وكقوله r :"الدين النصيحة" ولا شك أن الدعاء كذلك ولذا تعبدنا الله به في كل صلاة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ}. هذه لُمَحَةٌ عن أهمية الدعاء وإشارة خاطفة إلى بعض ما أمرنا به ربنا تعالى من دعائه وحده.

أما دعاء غير الله فقد نهى الله تبارك وتعالى عنه أشد النهي وحكم على فاعله بالضلال وضرب فيه الأمثال وأبدى فيه وأعاد وركز عليه تركيزا قويا واعتنى بموضوعه أقوى عناية وأشدها وكيف لا يكون كذلك وهو أعلى أنواع العبادة وقد قال رسول الله r :"الدعاء هو العبادة" بتعريف الجزءين وهو من طريق القصر المعروفة عند البلاغيين.

وَلْنُشِر الآن إلى قليل من كثير مما ورد في القرآن الكريم في هذا الموضوع قال تعالى مخاطبا نبيه الكريم: {وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ}. والظلم هنا هو الشرك: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ}. فهذا نهي صريح للنبي r عن دعاء غير الله مهما علت منزلته وارتفعت درجته سواء كان نبيا أو ملكا مقربا، فهذا أكمل المخلوقات وسيد المرسلين والنبيين لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا قال تعالى في سورة الأعراف آمرا نبيه r :{قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}. وإذا كان النبي r لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فبديهي أنه لا يملك ذلك لغيره وصرح بهذا المعنى في آيات أُخر قال الله آمرا نبيه r :{قُلْ إِنِّي لا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً}. {قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ}. {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}. وقال r حين أنزل عليه {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ}: "يا معشر قريش -أو كلمة نحوها- اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئا. يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا" .

فإذا كان أكمل الخلق r كذلك، فغيره أبعد عن ذلك وأبعد، فهذه البيانات الواضحة والتصريحات القوية التي تصدر عن أصدق القائلين الهدف الأصيل منها أن يقطع المؤمن الصادق كل أمل وكل رجاء من غير الله ويتجه بدعائه ورجائه ورغباته وكل مطالبه إلى الله وحده مباشرة.

ولذا قال عقب هذه الآية التي تلوناها عليكم من سورة يونس: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} .

وقال في سورة الأنعام مستعملا الأسلوب نفسه: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

٢- وقال تعالى ضاربا مثلا لحال من يدعو غير الله: {قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} .

شبهت حال من يدعو غير الله بحال شخص استولت عليه الشياطين فحرفته عن الجادة فهو تائه مضطرب الفكر والعقل ذاهب اللب يتخبط في سيره لا يهتدي لجهة ولا يعرف مقصدا في الوقت الذي يدعي فيه إلى خلاصه والطريق الذي فيه نجاحه وفلاحه فيمعن ويوغل في البعد عن طريق الخلاص والنجاة حتى يلقى هلاكه ومصيره المشئوم.

٣- وقال ضاربا مثلا لخيبة الأمل التي يُمنى بها من يدعو غير الله: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ} .

فهل يستجيب ماء بئر في الدنيا لمن وقف على حافته يمد كفيه ويبسطهما إليه ولو كان ملتهب الأحشاء محترق الفؤاد من الظمأ؟

٤- وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}.

وهذا تصوير صحيح لواقع كل مدعو من دون الله وأن من في السماوات والأرض لو اجتمعوا لخلق ذرة فضلا عن ذباب لا يستطيعون، ولوقفوا عاجزين وهذا غاية الغايات في العجز، فإذا كان هذا حال المدعوين فلماذا لا يثوب الداعون لهم إلى رشدهم ولذا قال ما قدروا حق قدره إن الله لقوي عزيز، فهو قادر على كل شيء غالب على كل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شيء إنما أمره إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون، والواقع أن الذين يستجيزون لأنفسهم دعاء غير الله لا يشعرون أن هذا النداء في هذه الآية موجه إليهم وأن هذا المثل فيها مضروب لهم ومن جراء فقدان هذا الشعور والإحساس لم يرهفوا أسماعهم لهذا المثل الذي قال الله فيه فاستمعوا له وإلا لكان لهم منه أكبر زاجر وأقوى رادع ولفتحوا أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم على قدرة الله الهائلة التي يصغر أمامها كل شيء فاتجهوا إليه وحده ضارعين وداعين.

٥ - وقال تعالى مبينا غناه المطلق وفقر من عداه المطلق وأن المدعوين من دون الله جميعا صفر اليدين مما يتعلق به المشركون بهم الداعون لهم من دون الله: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} .

فهذه الآية فيها تحطيم لكل أمل يتعلق به المشركون فالمدعوون من دون الله لا يملكون من هذا الملك الواسع والكون الكبير السموات والأرض مثقال ذرة لا على سبيل الاستقلال ولا على سبيل المشاركة والله غني غنىً مطلقا فليس هو سبحانه وهي متوقفة على إذنه، على أنه لا حظ فيها لهؤلاء المشركين الداعين لغير الله، وإنما هي للموحدين فماذا استفاد المشركون؟! إنما هي النار، هي مولاهم، ولبئس القرار والمصير، ولا كرامة.

وقال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَمَنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}. فالله تبارك وتعالى يأمر رسوله r بأن يتحدى المشركين بأن يشيروا إلى أي نقطة من السموات والأرض قد خلقها آلهتهم ولو مجتمعة أو أي جزئية شاركوا فيها في الخلق والتصرف وهم لا يمكن أن يدعو ذلك فهم معترفون بأن الله وحده المنفرد بخلق الكون والتصرف في شئونه.

فإن تَوَقَّحَ مُتَوَقِّحٌ منهم فليت بالبرهان الواضح ولا يمكنه ذلك لا من طريق النقل ولا من طريق العقل وبعد عجزهم الفاضح أمام التحديات فما حكمهم إن أصروا على دعاء غير الله؟. حكمهم أنهم خلق الله إنهم غارقون في ضلال بعيد لأنهم يدعون من لا يملك شيئا في السماوات والأرض لا لنفسه ولا لغيره وقد عجزوا وأفحموا عن إقامة البرهان على شيء من ذلك وهم مع ذلك لا يستجيبون لهم ولو بحت أصواتهم وانقطعت حناجرهم من النداء والهتاف ولو استمروا فيهما إلى يوم القيامة.

والنتيجة المرة أنهم يوم القيامة يبارزونهم ويصارحونهم بالعداء الشديد: {وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} إنها لنهاية أليمة ومصير مشئوم وهذا الذي أشرنا إليه قليل من كثير فما يزخر به القرآن من محاربة هذا الاتجاه المخزي فمن أراد أن يعرف الحقيقة فليمط عن وجهه حجاب التعصب الأعمى وليقرأ القرآن ملاحظا ما أشرنا إليه فسيجد الأمر أوضح وأقوى]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

****** وهذا بحث أخر، نفيس أيضا متمم للفائدة، منقول عن:(الموسوعة الفقهية الكويتية):**[دُعَاءٌ:التَّعْرِيفُ:

١ - الدُّعَاءُ لُغَةً مَصْدَرُ دَعَوْتُ اللهَّ أَدْعُوهُ دُعَاءً وَدَعْوَى، أَيِ ابْتَهَلْتُ إِلَيْهِ بِالسُّؤَال وَرَغِبْتُ فِيمَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ. وَهُوَ بِمَعْنَى النِّدَاءِ يُقَال:دَعَا الرَّجُل دَعْوًا وَدُعَاءً أَيْ:نَادَاهُ، وَدَعَوْتُ فُلاَنًا صِحْتُ بِهِ وَاسْتَدْعَيْتُهُ، وَدَعَوْتُ زَيْدًا نَادَيْتُهُ وَطَلَبْتُ إِقْبَالَهُ. وَدَعَا الْمُؤَذِّنُ النَّاسَ إِلَى الصَّلاَةِ، فَهُوَ دَاعِي الله، وَالْجَمْعُ:دُعَاةٌ وَدَاعُونَ. وَدَعَاهُ يَدْعُوهُ دُعَاءً وَدَعْوَى: أَيْ: رَغِبَ إِلَيْهِ، وَدَعَا زَيْدًا: اسْتَعَانَهُ، وَدَعَا إِلَى الأَمْرِ:سَاقَهُ إِلَيْهِ.

وَالدُّعَاءُ فِي الاِصْطِلاَحِ:الْكَلاَمُ الإِنْشَائِيُّ الدَّال عَلَى الطَّلَبِ مَعَ الْخُضُوعِ، وَيُسَمَّى أَيْضًا سُؤَالاً.

وَقَدْ قَال الْخَطَّابِيُّ:حَقِيقَةُ الدُّعَاءِ اسْتِدْعَاءُ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ الْعِنَايَةَ وَاسْتِمْدَادُهُ إِيَّاهُ الْمُعُونَةَ، وَحَقِيقَتُهُ إِظْهَارُ الاِفْتِقَارِ إِلَيْهِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الْحَوْل وَالْقُوَّةِ الَّتِي لَهُ، وَهُوَ سِمَةُ الْعُبُودِيَّةِ وَإِظْهَارُ الذِّلَّةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَفِيهِ مَعْنَى الثَّنَاءِ عَلَى الله، وَإِضَافَةُ الْجُودِ وَالْكَرَمِ إِلَيْهِ.

٢ - وَقَدْ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِمَعَانٍ مِنْهَا:

أ - الاِسْتِغَاثَةُ: كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى:{قُل أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ الله أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَل إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ}.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ب - الْعِبَادَةُ:كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى:{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ}. وقَوْله تَعَالَى:{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيّ}. وقَوْله تَعَالَى:{لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا}.

ج - النِّدَاءُ:وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى:{يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ}. وَقَوْلُهُ:{قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا}.

د - الطَّلَبُ وَالسُّؤَال مِنَ الله:وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى:{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}. وقَوْله تَعَالَى:{وَقَال رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}. وَيُوَافِقُ هَذَا الْمَعْنَى مَا يُقَال:دَعَوْتُ اللهَ أَدْعُوهُ دُعَاءً، أَيِ ابْتَهَلْتُ إِلَيْهِ بِالسُّؤَال، وَرَغِبْتُ فِيمَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَالدَّاعِي اسْمُ الْفَاعِل مِنَ الدُّعَاءِ، وَالْجَمْعُ دُعَاةٌ، وَدَاعُونَ، مِثْل قَاضٍ وَقُضَاةٌ وَقَاضُونَ]ا.هـ.

والمؤلف رحمه الله تعالى:احتج على كون الدعاء عبادة، بحديث"الدُّعاء مُخُّ العبادة"، وهذا هو حديث أنس t عند الترمذي والطبراني في الأوسط بلفظ:"الدعاء مُخُّ العبادة"، قال أبو عيسى الترمذي:هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة، وقال الطبراني في المعجم الأوسط:[لم يرو هذا الحديث عن أبان إلا عبيد الله تفرد به ابن لهيعة]ا.هـ.

وَمُخَّ الشيء لُبْه ولُبَابُه، فإذا عُدِمَ الْمُخُّ عُدِمَت فَائِدَةُ الشَّيء.بَيْدَ أن هذا الحديث ضعيف الإسناد؛ لأنه من رواية عبد الله بن لهيعة، وهو ضعيف الحديث مطلقاً، وإن هو في رواية العبادلة عنه أعدل منه في غيرها، ولكنه حتى فيهم لا يحتج بحديثه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويمكن أن نستعيض عنه بما رواه الترمذي[1] أيضا بإسناد صحيح، وبعد هذا الحديث مباشرة في سننه عن النعمان بن بشير t قال:قال رسول الله r :"الدعاء هو العبادة"، وهذا الحديث أبلغ لفظاً، وأقوى سنداً من السابق.

ووجه الدلالة في الحديث ظاهرة في بيان أن الدعاء من العبادة، حيث أن أسلوب تعريف الجزءين يفيد الحصر والقصر، وهو من الأساليب البلاغية الفصيحة.

كما أن هذا السياق يتضمن الحث على الدعاء، وهذا كما تقدم هو أحد الطرق، التي يُسْتَدَلُّ بها على العبادة الشرعية.

قوله:(وَالدَّلِيلُ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}، احتج المؤلف رحمه الله تعالى أيضا، على أن الدعاء من العبادة، بهذه الآية المطابقة في دلالتها للمراد؛ لأن الله تبارك وتعالى استفتح الآية بالأمر بالدعاء، ثم أخبر أن من استكبر عن هذا الأمر؛ فقد استكبر عن العبادة؛ فدل السياق إذن على أن الدعاء عبادة، وهي طريقة متبعة في القرآن الكريم، بحيث يذكر الله تعالى الشيء ثم يعطف بذكر صلته بالعبادة، مما يفيد أن ذلك الشيء عبادة لله جل وعلا.

---

١ - ورواه لبن المبارك في مسنده وأحمد ولبن أبي شيبة والبخاري في الأدب المفرد ولأبو داود والنسائي في الكبرى وابن ماجة وغيرهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومثال ذلك قوله تعالى: {وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا} [مريم:٤٨-٤٩]، ففي الآية الأولى ذكر الله تعالى دعاء المشركين غير الله، وأن إبراهيم اعتزلهم إلى دعاء الله وحده لا شريك له، وفي الآية التالية بيَّن الله تعالى أن إبراهيم اعتزلهم وما يعبدون، أي وما يدعون، فدل على أن دعاء غير الله شرك، وأن دعاء الله تعالى عبادة. وهذه الآيات كلها تبين معنى قوله r :"الدعاء هو العبادة".

وكذلك قوله تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف:٦]. ذكر الدعاء، ثم سماه عبادة في الآية التالية.

ومن ذلك قوله تعالى: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف:٤٠]، فذكر تبارك وتعالى الحكم واختص به نفسه، ثم ذكر العبادة؛ ليتبين الجميع أن كون الحكم لله والتشريع خاص به، هو عبادة من أجل العبادات، فمن صرفها لغير الله فهو مشرك كافر، الشرك والكفر الأكبر، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.

فإذا عَرَفْتَ ذلك، فاعلم أن من صرف شيئاً منه، ولو كان يسيراً، لغير الله تعالى؛ فهو شرك أكبر وذنب لا يغفر، إلا بالتوبة النصوح، وهذا يقال في جميع العبادات، فلا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فرق فيها بين القليل والكثير، ولا فرق في حكم من تعاطى ذلك، بين العظيم والحقير، ولا بين الغني والفقير، فمن دعا حجراً أو شجراً أو بشرا، أو أي جماد أو حيوان،، فهو ومن دعا ملكاً أو نبياً أو ولياً، سواء بسواء، ليس هناك فرق بينهما البتة.

وكذلك يقال في التشريعات الجاهلية، لا فرق فيها بين المسألة والمسألتين، والقليل والكثير، فطالما ثبت أن التشريع حق لله تعالى، فصرف شيء منه، ولو كان يسيراً، لغير الله، شرك أكبر.

واعلم رحمك الله، أن الدعاء إذا كان من الأدنى إلى الأعلى؛ سُمِّيَ التماساً وطلباً، كقولك:(اللهم اغفر لي) فأنت لا تأمر الله جل وعلا، وإنما تلتمس منه المغفرة، وتتضرع إليه أن يغفر لك، فهو طلب والتماس بغاية الذل والحب والخضوع وإحسان الظن.

وفي الآية التي استدل بها المؤلف فوائد منها:

١- إثبات صفة الكلام لله جل وعلا، وذلك في قوله: {وقال ربكم}.

٢- أن الرب هو المعبود، وذلك في قوله: {وقال ربكم أدعوني}.

٣- تعلق الاستجابة بالدعاء، ففيه الأخذ بالأسباب لأن ترك الأسباب قدح في التوحيد، والاعتماد عليها شرك في التوحيد، كما سيأتي في الحديث عن التوكل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤ - أن حقيقة الاستكبار، عدم الانقياد للأوامر واجتناب النواهي، ولهذا قال r :"الكبر بطر الحق[١]" أي التعالي عليه وعدم الانقياد له.

٥ - أن مآل المشركين والكافرين إلى جهنم وبئس المصير، واكْتَفَى بذكر حالهم في الدخول؛ في قوله: {داخرين} أي ذليلين حقيرين؛ لأنهم لا حال لهم عند الخروج تُذْكَر؛ لأنهم لن يخرجوا منها أبدا، نسأل الله العافية والسلامة.

والدعاء ينقسم إلى قسمين: ١ - دعاء عبادة . ٢ - دعاء مسألة.

أما دعاء المسألة: فهو ما تضمن طلبا وسؤالا، وهذا أكثر ما يطلق عليه لفظ الدعاء، وهو أكثر ما وقع فيه الشرك بالله تعالى، فالقرآن مليء بذكر، دعاء المشركين لأوليائهم؛ ليفرجوا كربهم، ويقضوا حوائجهم؛ ولهذا كان مما قابل به إبراهيم قومه، أنه بَيَّنَ لهم أنه قد تعلق ظاهرا وباطنا بالله تعالى، كما هي حالتهم مع أوليائهم، كما قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ

---

١ - أخرجه مسلم في صحيحه عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ". قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ:"إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَّ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء:٦٩-٨٩].

فبين لهم أن الله تعالى هو الذي يفعل ذلك كله، وأنتم آلهتكم لا تفعل من ذلك شيئا، فكانت دعوته إياهم، بالحال والمقال، إلى توحيد ذي الجلال والإكرام.

كما قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَّ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ} [الحج:١١-١٣]، وقوله:{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف:٦].

وفي الحديث الذي في الصحيحين عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ t عن رَسُولَ اللهِ r قَالَ:"أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ" قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي قَالَ:"لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهذه الكلمة دالة على غاية الافتقار لله جل جلاله، وهكذا ينبغي أن يكون العباد، متعلقين بربهم تبارك وتعالى من كل وجه، وفي كل شيء، فيسألونه حوائجهم، ويستعينون به على قضائها، وتيسيرها، فكم حاجة للعبد يحتاج قضاءها، وهي بين يديه، فلا يستطيع إلا بحول الله وقوته، وتأمل في كثير من الأشغال التي تريد أن تقوم بها وأنت عاجز عنها.

ولهذا أخبرنا تبارك وتعالى أن خزائن كل شيء عنده وإليه، وأن مقاليد الأمور بيديه، جل الله في علاه؛ لتتعلق القلوب به رغبة ورهبة، كما قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ} [الحجر: ٢١]؛ ولهذا كان الأنبياء يوجهون أممهم إلى الله تعالى؛ لعلمهم أنه لا أحد بيده أن يقضي الحوائج، ولا يفرج الكربات، ولا يغيث اللهفات، سوى الله رب العالمين، فلا يملك ذلك أحد سواه، لا ملكا مقربا، ولا نبيا مرسلا، ولا وَلِيّاً صالحا، وقد قص الله تبارك وتعالى ذلك عن أول الأنبياء وآخرهم، وإِخْوانُهم مِثْلُهم في ذلك، فأصل دينهم واحد، عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، كما قال تعالى عن نبينا r: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ} [الأنعام:٥٠]، وقال عن نوح عليه السلام: كما قال تعالى: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ} [ص:٩-١٠]، وقوله: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ} [الطور:٣٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَرَدَّ على المنافقين وأشباههم، الذين ظنوا أن امتِنَاعَهم عن الإنفاق على من عند رسول الله r ؛ كفيل بِفِرَاقِهم إياه، وانْجِفَالِهم عنه، وهذا من خزيهم وخبثهم، حيث ظنوا أن الصحابة y، إنما اجتمعوا على النبي r ؛ لأنه يُنْفِقُ عليهم، وهذا ليس بمستغرب منهم فإنهم ينظرون بعين طبعهم الخبيث، وإلى زماننا هذا لم يزل أهل النفاق يتكلمون بنحو من ذلك، فرد الله تعالى عليهم، أن الخزائن عند الله، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، كما قال تبارك وتعالى: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلله خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلله الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [المنافقون:٧-٨].

أَقْوَى وأَعْتَى الأَسْلحَة الفَتَّاكَة:

واعلم رحمك الله، أن الدعاء، هو أقوى وأعتى سلاح تلقى به أعداءك، وتستعين به على قضاء حوائجك، ومن أسرار الدعاء، أن العبد يكون معتمدا فيه على الله تبارك وتعالى تمام الاعتماد، بخلاف الأسباب المادية الأخرى، فإن العبد يكون فيها معتمدا، على الضعيف مهما كانت قوته، وعلى المحتاج الفقير مهما كان غناه، فإذا علمت ذلك علمت أن المقولة الشائعة بين الناس: فعلت كل شيء وما بقي إلا الدعاء، هي مقولة خاطئة، وهي مشعرة بأن الدعاء هو أضعف السبل، وهو أقل ما يمكن الالتفات إليه، عند قلة الحيلة، وانْقِطَاعِ المُعِين، ولو فتشت وجدت كثيرا من الناس هكذا يظن.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، فهم بخلاف ذلك تماما، فإنهم يجعلون الدعاء نصب أعينهم، وفي كل حال، ولا يلتفتون إلى شيء قبله، بل يبدؤون بالله تعالى قبل خلقه، وتأمل ما قصه الله تبارك وتعالى علينا من ذلك ؛ لنقتدي بهم ونهتدي بهديهم صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين.

قال تعالى عن نوح عليه السلام: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥) **قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ** (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ} [المؤمنون:٢٣-٢٧]، وقوله: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) **فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ** (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} [القمر:٩-١٦]، وقوله: {**وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ** وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنبياء:٧٦-٧٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال سبحانه عن أحد رسله عليه السلام: {**قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ** (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ} [المؤمنون: ٣٩ - ٤٢]

وقال عن لوط عليه السلام: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) **قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ**} [العنكبوت: ٢٨ - ٣٠]

وقال عن موسى عليه السلام: {وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وأَلَا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) **فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ**(٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ}[الدخان:١٩-٢٩].

وقال عن جَمْع من أنبيائه ورسله عليهم السلام: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) وَذَا النُّونِ إِذْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء:٨٣-٩٠].

وقال عن زكريا عليه السلام:{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ } [آل عمران:٣٨-٣٩].

وقال عن إبراهيم الخليل عليه السلام:{رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣)وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء:٨٣-٨٩]، وقوله:{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} [الصافات:٩٩-١٠١].

وفي الحديث في صحيح مسلم عن ابْنِ عَبَّاسٍ قال:حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللهِ r إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ r الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ:"اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ". فَمَازَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ. وَقَالَ يَا نَبِيَّ اللهِ كَذَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ} فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلاَئِكَةِ. قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ أَقْدِمْ حَيْزُومُ. فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ، فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ، قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ. فَجَاءَ الأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ r فَقَالَ:"صَدَقْتَ ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ". الحديث.

وفي صحيح البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ يَوْمَ بَدْرٍ:"اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ اللَّهُمَّ إِنْ تَشَأْ لَا تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ" فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللهِ أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ، وَهُوَ يَثِبُ فِي الدِّرْعِ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ:"{سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}".

وما حفظ عن النبي r من الدعاء وكثرته وإكثاره منه، شيء لا يمكن استيعابه في مثل هذا المقام، وإن هذه الكثرة الكاثرة، دالة على ما كان عليه النبي r ، من التعلق بربه وسؤاله ودعائه، وهكذا كان أصحابه من بعده y .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في (الرسالة الواسطة بين الخلق والحق):[وَالدُّعَاءُ مِنْ جُمْلَةِ الْأَسْبَابِ الَّتِي قَدَّرَهَا اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - . وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ : فَالِالْتِفَاتُ إِلَى الْأَسْبَابِ شِرْكٌ فِي التَّوْحِيدِ وَمَحْوُ الْأَسْبَابِ أَنْ تَكُونَ أَسْبَابًا نَقْصٌ فِي الْعَقْلِ وَالْإِعْرَاضُ عَنْ الْأَسْبَابِ بِالْكُلِّيَّةِ قَدْحٌ فِي الشَّرْعِ؛ بَلْ الْعَبْدُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ تَوَكُّلُهُ وَدُعَاؤُهُ وَسُؤَالُهُ وَرَغْبَتُهُ إلَى الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَاَللهُ يُقَدِّرُ لَهُ مِنْ الْأَسْبَابِ - مِنْ دُعَاءِ الْخَلْقِ وَغَيْرِهِمْ - مَا شَاءَ . وَالدُّعَاءُ مَشْرُوعٌ أَنْ يَدْعُوَ الْأَعْلَى لِلْأَدْنَى وَالْأَدْنَى لِلْأَعْلَى]ا.هـ.

فَشَتَّانَ بين من الله ناصره ووليه، وبين من يعتمد على المخلوقين من أمثاله، كما قال تعالى:{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَّ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} [الأعراف:١٨٩-١٩٨]

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

آداب الدعاء: واعلم أن للدعاء آدابا ينبغي التحلي بها وهي:

١- الإخلاص.

٢- الثناء على الله تعالى ثم الصلاة على نبيه r قبل الدعاء.

٣- الجمع بين الرغبة والرهبة والتضرع والتذلل والإلحاف في المسألة.

٤- الإلحاح على الله تعالى.

٥- استشعار الافتقار إليه جل وعلا.

٦- الإقبال على الله تعالى حال الدعاء.

٧- الجِدِّية في الدعاء، لا كحال الذين قال الله فيهم: {وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [الأنفال: ٣٥]

٨- الاعتراف بالذنوب والخطايا.

٩- ترك أكل الحرام، والمعاملات المحرمة.

١٠- ترك سبيل المفسدين والذين لا يعلمون.

١١- الاستجابة لأمر الله ورسوله r .

١٢- عدم استعجال الإجابة.

١٣- تحري أوقات الإجابة.

١٤- إحسان الظن بالله تعالى.

١٥- عدم الصراخ والصياح والعويل ورفع الصوت الفاحش.

١٦- ترك التَّشْقِيق والتفصيل الغير مفيد، والحرص على جوامع الكلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٧ - ألا يتضمن الدعاء إثما ولا شركا ولا قطيعة رحم.

أما دعاء العبادة: فهو كل عبادة أدَّتْ مُؤَدَّى دعاء المسألة، وإن لم تَتَضَمَّن السؤال والطلب الصريح، كالذكر والصلاة والصيام والزكاة والصدقة والحج وبر الوالدين والجهاد وغير ذلك، فهذه العبادات كلها إنما يفعلها العبد، طلبا لما عند الله من الخير والثواب والإحسان والإنعام، من حظ الدنيا أو الآخرة.

وبهذا نكون قد فهمنا معنى قوله r :"الدعاء هو العبادة" إذ لم يخرج شيء من أفراد العبادة، عن مُسَمَّى الدعاء العام، وما اشتمل عليه من المعاني، فلله الحمد والفضل والمنة.

قوله:(وَدَلِيلُ الْخَوْفِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:{فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ})، شرع المؤلف رحمه الله في ذكر العبادة الثانية، بحسب ترتيبها، فيما أجمله من قبل، وهذا من فقهه رحمه الله، فإن هذا مما يسهل على الطالب، حفظ هذه العبادات مرتبة مع أدلتها، بعد أن كان قد حفظها مَلْفُوفَة دون أدلتها.

وكأنه أراد أن يقول لك: لا تحمل هَمَّ حِفْظ هذه العبادات مُفَصَّلَةً مُرتَّبة، فإني قد سقتها لك على نسق حفظك الأول لها. فيا سبحان الله! كم هو موفق هذا الإمام، رحمه الله، وجزاه عنا وعن المسلمين خير الجزاء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والخوف: هو اضطراب في القلب من جراء مؤثر عليه أفزعه، وهو على درجات ومراتب، فمنه الوَجَل، ومنه الرهبة، ومنه الخشية، والظاهر أن مسمى الخوف ينتظمها جميعا، وإنما هذه مراتب منه.

وينقسم الخوف إلى أقسام:

١ - **الخوف من الله**: وهو عبودية من أجّل العبوديات لله جل وعلا،وسببه إجلال الخالق ومعرفته وتقواه، ولهذا الناس يتفاوتون فيها تفاوتا عظيما، وكل بحسبه، فنسأل الله من فضله العظيم.

وصرفه لغير الله شرك أكبر، ودليل، أنه عبودية، هو ما ذكره المؤلف، من قوله تعالى: {فلا تخافوهم وخافوني إن كنتم مؤمنين}، فعلق الإيمان على عدم الخوف من سواه جل وعلا، فعُلم أن الخوف منه تعالى، هو من صميم الإيمان بالله تعالى، وأن الخوف من غيره ينافي التوحيد، والخوف هنا هو اضطراب في القلب يعتري العبد عند تذكره عظمة الرب جل وعلا.

ومن الأدلة على ذلك، قوله تعالى: {لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [المائدة:٢٨]، وقوله: {قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [الأنعام:١٥]، وقوله: {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنعام:٨٠-٨١]، وقوله:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأعراف:٥٩]، وقوله:{يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا} [مريم:٤٥]، وقوله:{وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ} [الشعراء:١٠-١٥]، ونحو ذلك من الآيات.

٢- **خوف السِّر**: وهذا شرك أكبر، ويُرادُ به الخوف من المخلوق، أن يعلم سَرِيرَتَه، وخَائِنَة عينه، وخَافِيَة أمْرِه، كالخوف من أصحاب القبور، ومن يُسَمُّونَهم برجالات الغيب، والأقطاب والأغواث، فيعتقدون أنهم قادرون على إدخالهم النار، ومسخهم، وقطع أرزاقهم، وإفقارهم، وإفساد حياتهم، وأذية أزواجهم وأولادهم، وغير ذلك، مما هو من خصائص الرب تبارك وتعالى، وسُمِّي بخوف السِّر؛ لأن العبد يشعر بذلك في داخلة نفسه، عند ذكر الأموات والأولياء، ولهذا يُعَظِّمُهُم، حتى إنه ليحلف بالله كاذباً، ولا يجرؤ أن يحلف بالوَلِيِّ كاذباً، بل ويعظمهم أكثر من الله تعالى، ويجد في قلبه من الوَجَلِ والرهبة والخشوع، إذا وقف أمامهم، ما لا يجده إذا وقف في الصلاة بين يدي الله جل جلاله؛ ولو خُوِّفَ بالله ربما لم يلتف إليك، ولو خوف بالولي لم يملك إلا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاستسلام والإذعان. وهو مع ذلك يعتقد أن الولي يسمعه، وإن عصاه فإنه سيلعنه، وقد يكون هذا الولي قد مات منذ زمن، ولو كان حياً لكان شركاً، فكيف وهو ميت!!.

فإن من يرى أن هذا المخلوق أو ذاك - مهما علا كعبه في المنزلة والعلم والفضل، والعبادة والزهد والورع -، أنه يعلم ما في قلبه، ويحصي خائنة عينه، فإنه قد اتخذه إلاها من دون الله، وإن زعم أنه يعبد الله تعالى؛ لأن هذه الصفات مختصة بالله جل وعلا، فمن زعمها في مخلوق كائنا من كان؛ فقد زعم أن هذا المخلوق كالله تعالى، أو أنه إله من دون الله تعالى. فتنبه، فإن المسألة غاية في الخطورة، فإنما هو إسلام أو كفر، وجنة أو نار. نسأل الله العافية والسلامة.

قصة عجيبة جرت معي !!:

وكنت قد ذهبت إلى السوق ذات يوم، فدخلت على صاحب دكان، فوجدت منه علامات التَّعَلُّق بالشيوخ، رغبة ورهبة، فَكَلَّمْتُه في ذلك، وأخذت أُبَيِّنُ له، وكان مما قال لي، وهو يريد أن يظهر احترامه لي: إذا كنت مع العلماء؛ فاحفظ لسانك، وإذا كنت مع الأولياء فاحفظ قلبك، فاستدرجته ليفسر لي ذلك، حتى أُبَيِّنَ له، أ ن هذا القول يتضمن الشرك بالله تعالى، فقال لي: لأنك إذا كنت مع العلماء؛ سَيُحْصَونَ عَليك كَلامَك، ويَعْرِفُونَ جَهْلَك، ويُحَاسِبُونَك على ذلك، فلا تَتَفَلْسَف أمامهم، وأما إذا كنت مع الأولياء، فاحفظ خَوَاطِر قَلْبِكَ وعَقْلِك؛ فإنهم يَطَّلِعُونَ مِنك على ذلك!!.

لا إله إلا الله !!، ما هذا الشرك ؟!! ، وما هذا الخوف الذي لا يليق إلا بذي الجلال والإكرام؟!!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومنه قوله تعالى"{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا} [النساء:٧٧].

٣- **الخوف الفطري**: وهو ما جبل عليه العبد من الفزع مما غُيب عنه، وخوفه مما قد يكون قُدِّرَ عليه، وهذا إن كان في أمر واقع لا محالة، فمن العجز والجهل مجرد الخوف منه، بل على العبد الكَيِّسِ أن يقبل على ما ينفعه، من أخذ العُدَّة، وتوخي الحذر، والاجتهاد في العمل على الاستعداد لما هو حتما لاقيه بقدر الطاقة، كالخوف من الموت، كما قال تعالى: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجمعة:٨].

وإما إن كان الأمر يحتمل الوقُوعَ وعَدَمَه، فهذا إن وقع فعليه بالصبر على أقدار الله جل وعلا، وإن لم يقع فإن كان بمقدوره دفعه؛ فليعمل على ذلك، وإن كان ليس بمقدوره دفعه؛ فليقبل على ما ينفعه من التوكل على الله، ودعائه ورجائه، والاستعانة والاستغاثة به، والأخذ بالأسباب المتاحة، فهذا العبد أحْرَى أن يزول عنه الخوف، مثل إذا قيل لك:(إن العدو قادم إليك)، ومن الخوف الفطري الخوف من السَّبُع، ومن العدو الباطش، وكل هذا يدافعه العبد بصدق التوكل، والالتجاء إلى الله تعالى، ولا يلام العبد على مثل هذا الخوف، إن لم يَقْعُدْ به عما أُمِرَ به في هذا المقام أو ذاك، ولا عما خلق لأجله، ودليل هذا الخوف قوله تعالى: {وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [القصص:٢٠-٢١]، وقوله: هذا خوف فطري طبيعي.

ومنه ما جاء في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:(حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ الله r وِعَاءَيْنِ فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ).

خوف المفسدين في الأرض:

وهناك خوف الدجالين والمجرمين، وهو خوف مُفْتَعَل، يُظْهِره المفسدون في الأرض، زَاعِمِين الحرص على مصالح أتباعهم، ومن تحت أيديهم،كما قال تعالى:{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} [غافر:٢٦]، ونحو ذلك من الأدلة.

وهناك خوف المنافقين، والمتلاعبين، والكذابين، إذا اعترتهم لحظات من الصدق مع النفس، أو جَاءهم ما يَقْهَرُ تَعَنُّتَهُم وكِبْرَهُم، ثم سرعان ما يلبثون أن ينكصوا على أعقابهم، إن وجدوا إلى ذلك سبيلا، كقوله تعالى:{يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [التوبة:٧٤]، وقوله:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} [النساء:٦٠-٦٢]، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء:٩٧]، وقوله: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧)بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الأنعام:٢٧- ٢٨]، وقوله: {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [الأنفال:٤٨]، وقوله: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الحشر:١٦]، ونحو ذلك من الآيات.

والذي أراده المؤلف هو النوع الأول، الذي ضده النوع الثاني، فعلينا أن نعتقد أنه لا نافع ولا ضار إلا الله الواحد القهار، وأنه لا يقع في الكون، إلا ما قدره الله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[فَأَمَّا الشِّرْكُ فِي الْإِلَهِيَّةِ فَهُوَ:أَنْ يَجْعَلَ لله نِدًّا - أَيْ:مِثْلًا فِي عِبَادَتِهِ أَوْ مَحَبَّتِهِ أَوْ خَوْفِهِ أَوْ رَجَائِهِ أَوْ إنَابَتِهِ فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ إلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ. قَالَ تَعَالَى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَهَذَا هُوَ الَّذِي قَاتَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ الله r مُشْرِكِي الْعَرَبِ لِأَنَّهُمْ أَشْرَكُوا فِي الْإِلَهِيَّةِ قَالَ اللهُ تَعَالَى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ الله أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله} الْآيَةَ {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى} الْآيَةَ {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}، وَقَالَ تَعَالَى: {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ} - إِلَى قَوْلِهِ - {الَّذِي جَعَلَ مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ}....إلى أن قال: وَأَمَّا الرُّبُوبِيَّةُ فَكَانُوا مُقِرِّينَ بِهَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ}، وَقَالَ: {قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لله} إِلَى قَوْلِهِ: {فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} **وَمَا اعْتَقَدَ أَحَدٌ مِنْهُمْ قَطُّ أَنَّ الْأَصْنَامَ هِيَ الَّتِي تُنْزِلُ الْغَيْثَ وَتَرْزُقُ الْعَالَمَ وَتُدَبِّرُهُ وَإِنَّمَا كَانَ شِرْكُهُمْ كَمَا ذَكَرْنَا أَنْ اتَّخَذُوا مَنْ دُونِ الله أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله** وَهَذَا الْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا مِنْ دُونِ الله كَمَا يُحِبُّ اللهَ تَعَالَى فَقَدْ أَشْرَكَ وَهَذَا كَقَوْلِهِ: {قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ}، {تَالله إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}، {إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}. وَكَذَا مَنْ خَافَ أَحَدًا كَمَا يَخَافُ اللهَ أَوْ رَجَاهُ كَمَا يَرْجُو اللهَ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ]ا.هـ.

قال المؤلف رحمه الله:(ودليل الرجاء:{فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا})، الرجاء: كلمة تحتمل معنى التعلق بالشيء والأمل فيه، فإن كان هو طلب شيء يمكن حصوله؛ فهو رجاء، وإن كان في طلب شيء لا يمكن حصوله؛ فهو تمني.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كقوله تعالى في التمني: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة:١١١].

ومنه قوله تعالى في الرجاء: {وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [النور:٦٠].

ومنه قول الشاعر:

عجوزٌ ترجِّي أن تكون فتيةً ... وقد غارَتِ العينانِ واحْدَوْدَبَ الظهرُ
تدسُّ إِلى العطارِ سِلْعَةَ أهلِها ... وهل يصلحُ العطارُ ما أفسدَ الدهرُ

فهذا رجاء بمعنى التمني، وكما قال أبو العتاهية:

عَرِيتُ من الشباب وكان غَضّاً ... كَما يَعْرَى من الوَرَقِ القَضِيبُ
ألا لَيْتَ الشباب يعود يوما ... فأخبره بما صنع المشيب

والرجاء، إذا كان فيما لا يقدر عليه إلا الله، فصرفه لغير الله؛ شرك أكبر، كقول المتصوفة لمشائخهم:(أرجوك أن تغفر لي) أو (أرجو منك الولد)، وكالذين يرجون النصر من عند غير الله، والله تعالى يقول: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ} في موضعين من الذكر الحكيم.

وقوله: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران:١٦٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الـرَّحْمَنِ إِنِ الْكَـافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ} [الملك:٢٠].

لا يملك تحقيق النصر أحد إلا الله:

واعلم رحمك الله، أن النصر الذي هو بمعنى تحقيق التوفيـق وحصـول الظفـر، هـو خاص بالله تعالى، وهذا طلبه من غير الله تعالى شرك أكبر، وكذلك اعتقاد أن النصر بيد فلان أو فلان، وأما إن كان المقصود بالنصر هو المناصرة، فهـذا داخـل في جملـة الأخـذ بالأسباب المشروعة، وهو بمعنى التعزير والتقوية، ومنه قوله تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ الله آمَنَّا بِالله وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٥٢]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ فَآمَنَـت طَّائِفَـةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْـبَحُوا ظَـاهِرِينَ} [آل عمران:١٤]، وقوله: {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَـرُواْ السُّـفْلَى وَكَلِمَـةُ اللهِ هِـيَ الْعُلْيَـا وَاللهُ عَزِيـزٌ حَكِـيمٌ} [التوبة:٤٠].

وفي الحديث المتفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها في قصة نزول الوحي على النبي r :(فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله r خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّـامُوسُ الَّـذِي نَـزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا ، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَـالَ رَسُـولُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله r :"أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ"، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا . ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ).ا.هـ.

وكذلك الذين يرجون المخلوقين أن يفرجوا كرباتهم، ويغيثوا لهفاتهم، ويقضوا حاجاتهم، ويزيلوا عنهم الشدائد ويدفعوا عنهم المصائب، هم كذلك واقعون في الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر، كما قال تعالى:{قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [الأحزاب:١٧].

والله تعالى يقول:{أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [النمل:٦٢]، ويقول:{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} [الزمر:٣٨]، ويقول:{قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [الفتح:١١]، ويقول:{وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} [الرعد:١١].

وفي مصنف ابن أبي شيبة بسند جيد قال حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا موسى بن مسلم الطحان عن عبد الرحمن بن سابط قال:كان نفر متواخين، قال: ففقدوا رجلا منهم أياما ثم أتاهم فقالوا:أين كنت؟، فقال:دَيْنٌ كَانَ عَلَيَّ، فقال:هَلَّا دَعَوْتَ بهؤلاء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدعوات:"اللهم مُنَفِّسَ كُلِّ كَرْبٍ وفَارِجَ كُلِّ هم وكَاشِف كُل غَمٍّ ومُجِيبَ دَعوة المُضْطَرِّين رَحْمَانَ الدُّنيا والآخرة ورَحِيْمَهُمَا أنت رَحْمَانِي فَارْحَمْنِي يا رَحْمن رَحْمَةً تُغْنِينِي بها عَن رَحْمَةِ مَنْ سِواك". وروي مرفوعا ولا يصح رفعه.

ويدخل فيه من الأعمال ما يقوم مقام اللفظ، ومنه ما هو من عمل القلب، فلا يلزم أن يقيد الرجاء بلفظة:(أرجو)، كما قال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ} [يونس:٧]، فدلت الآية على أنهم لا يرجون لقاء الله، ولكنهم يرجون الحياة الدنيا بأعمالهم.

وفي مقابلة هؤلاء قال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ } [فاطر:٢٩-٣٠]، وقال تعالى:{وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}[النساء:١٠٤].

وقال تعالى:{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [يونس:١٥].

وقوله:{وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَنْثُورًا } [الفرقان:٢١-٢٣]، وقوله:{وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا} [الفرقان:٤٠]، وقال عن أهل النار:{ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا} [النبأ:٢٧].

وأما إذا كان الرجاء متعلقا بما هو في وسع المخلوق فعله؛ فالظاهر أنه لا حرج في إطلاق لفظ الرجاء عليه، كقولك مثلا:(أرجوك ساعدني في إصلاح سيارتي) ونحو ذلك فهذا فلا حرج فيه.

ودليل أن الرجاء عبادة قوله تعالى:{ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}، أي حتى لا يتعلق العبد بالأماني الكاذبة، أراد الله تبارك وتعالى أن يبين السبيل الصحيحة للرجاء الذي ينتفع به العبد، فأخبر تعالى أنه الرجاء المبني على تحقيق التوحيد لله تعالى، بإفراده العبادة لله جل وعلا، مع الكفر بالطاغوت، وهذا معنى قوله تعالى هنا:{فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}.

لقاء الإكرام والنجاة:

والمتأمل في حديث عدي المخرج في الصحيحين عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ r :"مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ ثُمَّ يَنْظُرُ فَلَا يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ"؛ يعلم يقينا أن كل العباد سيلقون الله تبارك وتعالى، **فما هو هذا اللقاء المذكور في هذه الآية؟**.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والجواب: أن المعنى أن من كان يرجو لقاءً، تكون فيه النجاة يوم لقاء الله، ويُحَدِّثْ نفسه بذلك؛ فعليه بتحقيق شَرْطَيْ قَبُولِ الأعمال:

١ - أن يكون العمل صالحاً، أي موافقا للسنة.

٢ - وأن يكون خالصاً، فلا يصرفه إلا لله وحده.

إذا ليس كل لقاء يوم القيامة ستكون به النجاة والكرامة، وإنما هو لقاء مخصوص، وهو لقاء المُوَحِّدِين المتقين لله رب العالمين، هؤلاء هم الذين يرجون لقاء الإكرام والأمن والأمان، وهؤلاء هم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. نسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

ولهذا في الحديث المخرج في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ الله r قَالُوا يَا رَسُولَ الله هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ رَسُولُ الله r :"نَعَمْ".قَالَ:"هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ". قَالُوا لاَ يَا رَسُولَ الله. قَالَ:"مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. فَلاَ يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ الله سُبْحَانَهُ مِنَ الأَصْنَامِ وَالأَنْصَابِ إِلاَّ يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيُقَالُ لَهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ الله. فَيُقَالُ كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ فَمَاذَا تَبْغُونَ قَالُوا عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلاَ تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ. ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فَيُقَالُ لَهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللهِ. فَيُقَالُ لَهُمْ كَذَبْتُمْ. مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ. فَيُقَالُ لَهُمْ مَاذَا تَبْغُونَ فَيَقُولُونَ عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. - قَالَ - فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلاَ تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَّ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا.قَالَ فَمَا تَنْتَظِرُونَ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. قَالُوا يَا رَبَّنَا فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ. فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ لاَ نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا - حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ. فَيَقُولُ هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ. فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلاَّ أَذِنَ اللهُ لَهُ بِالسُّجُودِ وَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلاَّ جَعَلَ اللهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ....الحديث".

فتأمل في هذا الحديث العظيم، كم هو رجاء العباد في هذا المقام كبير!!، ومَن الذي كان يرجوا هذا اللقاء بحق وحقيقة؟، وتأمل كيف خذل الله المنافقين!!، وقد اندسوا في صفوف المؤمنين إلى آخر اللحظات، حتى كَشَفَ رَبُّنَا تبارك وتعالى عن سَاقِه، فَتَمَايَزَت الصفوف، ولم يَنْجُ إلا الذين كانوا يرجون لقاء الأمن والأمان، والسعادة والإكرام والإحسان؛ فعملوا لمثل هذا اللقاء؛ فشكر الله سعيهم، ورحمهم، فاللهم، ارحمنا ووفقنا إلى هداك، واجعل عملنا في رضاك حتى نلقاك، يا أكرم الأكرمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأمل في قوله تعالى عن أهل الجنة نسأل الله من فضله العظيم: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ} [الصافات:٥١-٦١].

قال ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين:[فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الرجاء، قال الله تعالى: {أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجعون رحمته ويخافون عذابه}، فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب والخوف والرجاء، قال تعالى: {من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت}، وقال: {فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا}، وقال تعالى: {أولئك الذين يرجون رحمة الله والله غفور رحيم}، وفي صحيح مسلم عن جابر t قال: سمعت رسول الله يقول قبل موته بثلاث:"لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه"، وفي الصحيح عنه:"يقول الله عز و جل : أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء".

الرجاء حَادٍ يَحْدُو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار الآخرة ويطيب لها السير، وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى والارتياح لمطالعة كرمه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سبحانه، وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى والفرق بينه وبين التمني أن التمني يكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد و الرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل، فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها، والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها ويرجو طلوع الزرع ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل]ا.هـ.

مقولة خاطئة:

واعلم أن أقواما جَنَحُوا وأخطئوا السبيل، لما قالوا: نحن لا نعبد الله تعالى رجاء جنته، ولا خوفا من ناره، فإن هذا غلط فاحش، ومصادم للنصوص الشرعية، فإن الله تعالى رغب في جنته، وخوف من ناره، وأمر عباده أن يرجوا رحمته، وأن يخافوا من عذابه، فمن الجهل اعتقاد أن طلب الجنة، أو الخوف من النار، يتنافي مع تحقيق العبودية لله تعالى، فإن العبادة كما تقدم، فعل ما يحبه الله ويرضاه، عملا وتركا، ومن ذلك أن نرغب في جنته، وأن نخاف من ناره، كيف وقد جاء النص الصريح من الله تعالى في ذلك، كما قال تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [العنكبوت:٣٦].

فهذا القول وإن كان صاحبه، يقصد أن الله تبارك وتعالى، أَهْلٌ لأن يُعْبَدَ لِذَاتِه، لا لما وعد به عباده، أو خَوَّفَهُم به، فهذا المعنى، وإن كان حقا، إلا أنه لا يجوز أبدا، أن نَنْفِي به ما أمر الله تبارك وتعالى به عباده، من سؤاله الجنة والتعلق بذلك، والخوف من النار والفرار من ذلك، ولم يكن عند السلف هذه المفارقات، ولا هذه الأقوال، ولا تكلم بها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النبي r ، بل كان الرجل يأتي يَسأل عن الجنة، والنبي r يَعِدُ أصحَابَه الجنة، ويُبَـايِعُهم على ذلك، مصدقا لما قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز، فلا تنافي بين مقام استحقاق الله تعالى أن يُعْبَدَ وحده، مع مقام تعلق القلب بما وعد الله به عبـاده، أو خـوفهم بـه أو منه، فمن قال:لا أعبد الله خوفا من نـاره، ولا رغبـة في جنتـه، فقـد أتي بكـلام مبتـدع مخالف للكتاب والسنة، ولا سلف له في ذلك عـن الصـحابة الكـرام y ومـن تـبعهم بإحسان.

قوله رحمه الله:(ودَلِيلُ التَّوَكُلِ:قَوْلُهُ تَعَـالَى:{وَعَـلَى اللهِ فَتَوَكَّلُـواْ إِن كُنـتُم مُّـؤْمِنِينَ}، وقوله:{وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ})، التوكل هو عمل القلب، كما قال الإمام أحمد رحمه الله، وحقيقته اعتماد القلب الجازم على الله جل وعلا، واستيقانه بـذلك، والتوكـل من أعظم دلالات التوحيد، التي تُظهر مقـدار التوحيـد في قلـب العبـد، فكلـما عَظُـمَ التوكل؛ كان ذلك علامة على قوة توحيد العبد لربه، فالعلاقة بينهما طردية.

قال ابن مفلح في (الآداب الشرعية):[وقال ابن عقيل في الفنون: والله ما اعتمد على أني مؤمن بصلاتي وصومي بل أعتمد إذا رأيت قلبي في الشدائد يفزع إليه، وشكري لمن أنعم علي، وقال: قد صُنْتُكَ بكل معنى عـن أن تكـون عبـدا لِعَبْـد، وأعلمتـك أني أنـا الخالق الرازق؛ فتركتني وأقبلت على العبيد، كُلُّكُم تسألوني وقت جدب المطـر، وبعـد الإجابة يَعْبُد بَعْضُكُم بَعْضَا، { أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار}].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَالْمُدَّعُونَ للتوكل كثير، والْمُتَزَيِّنُون به قليل، فاللهم اجعلنا من عبادك المتوكلين الصادقين، قال ابن القيم في (مدارج السالكين):[فصل فلنذكر معنى التوكل ودرجاته وما قيل فيه قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب، ومعنى ذلك:أنه عمل قلبي ليس بقول اللسان ولا عمل الجوارح ولا هو من باب العلوم والإدراكات، ومن الناس: من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول : هو علم القلب بكفاية الرب للعبد، ومنهم: من يفسره بالسكون وخمود حركة القلب، فيقول: التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب، كانطراح الميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف يشاء، وهو تَرْكُ الاختيار والاسترسال مع مَجَارِي الأقدار، قال سهل: التوكل الاسترسال مع الله مع ما يريد]ا.هـ.

رَاجع تَوَكُّلك على الله:

والمتأمل في أحوال الناس اليوم يرى خللاً بَيِّناً في حقيقة التوكل، ومما يخطئ فيه العامة في هذا الباب اعتمادهم على الأسباب، ويظنون أن هذا توكل، وهو حقيقة من الشرك بالله تعالى، إذ أن الاعتماد عليها، ونسيان الله جل وعلا، لا شك أنه شرك أكبر، كما أن الذين يتركون الأسباب السائغة، شرعاً وعقلاً وتجربةً، هم أيضاً يخطئون في التوكل الواجب أو كماله، وهذا إضافة إلى أنه نقص في العقل، فهو قدح في الشرع أيضاً؛ لأن الله خلق الأشياء وخلق معها أسبابها، فلا وكس ولا شطط، ولا إفراط ولا تفريط، والتوكل بين هذين؛ اعتماد على الله، وأخذ بالأسباب التي شرعها الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والسبب إن كان ثبوته بالشرع، فهذا لا أشكال فيه، ويجوز الأخذ به، بل لربما يجب؛ بل لربما كان ركناً من أركان الدين، وأما إن لم يثبت شرعاً، ولكن ثبت نفعه عقلاً، فهذا إن كان العقل سليماً - فإن العقل السليم يدل على الصراط المستقيم – جاز الأخذ به، فإذا تظافر العقلاء على نفع شيء ما، أُخذ به سبباً؛ لأن العقل السليم، لا يعارض في الشرع المنزل، فإن عارضه؛ كان العقل فاسداً، وقد يثبت السبب بالخبرة، كأن يجرب أهل كل صنعة طريقة ما، فيجدونها نافعة؛ فهذا من الأسباب التي يؤخذ بها، وهذا معنى قوله r :"**أنتم أعلم بأمور دنياكم**" أي فيما لم ينص عليه الشرع، أمرا أو نهيا، فما لا ينكره العقل السليم، وأثبتت التجربة جدواه،أخذ به، ويدخل في ذلك الطب وما يلحق به، فما جُرب وعُلم نفعه، أخذ به، فيخطئ البعض فيظنون أنه منافٍ للتوكل، مع أنه بمنزلة خبرة الزراع، ونحو ذلك، فيأخذون النافع ويدعون الضار.

ومن الأخطاء أيضاً، أن يجعل العبد عجزه وكسله تَوَكُّلاً، فيدع ما ينفعه في تحصيل خيري الدنيا والآخرة، بحجة التوكل، وإذا قيل له:(لم لا تعمل)؟، قال: الله هو الرازق ذو القوة المتين، وهو خير الرازقين، فيدع بذل الأسباب التي تجلب الرزق، زعماً منه أنه متوكل على الله، وهذا ينافي حقيقة التوكل، فلابد من التفريق بين التَّوَكُّل والتَّوَاكُل، وهذا باب نافع لمن تأمله.

وفي مسند أحمد وأبي يعلى وعبد بن حميد وهو في سنن الترمذي عن عمر بن الخطاب قال:قال رسول الله r :"لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطَّير تَغْدُو خِمَاصَا وتَرُوحُ بِطَانَا". قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأفاد هذا الخبر، ضرورة الأخذ بالأسباب، فالطيور لا تمكث في عُشِّهَا، مُنْتَظِرَة الرزق من الله تعالى، ولو شاء الله لفعل، ولكنها التربية الإيمانية على العمل بالأسباب المشروعة، فأفاد الخبر أن الطير تعمل، فهي تغدو وتروح، والله يرزق من يشاء، بما شاء، كيف شاء، جل الله في علاه.

ولما ذُكِرَ للإمام أحمد، أن هناك رجلا يريد أن يحج، ولا يأخذ معه الزاد أبدا، وزعم أنه متوكل على الله تعالى، فقال الإمام أحمد:هذا متوكل على مَزَادَةِ أصحابه، أي سيأكل منهم، ويتكفف ما في أيدي الناس، شَحَّاذاً، والمعنى أن هذا ليس من التوكل في شيء.

قال ابن القيم في (مدارج السالكين):[فترك الأسباب المأمور بها: قادح في التوكل وقد تولى الحق إيصال العبد بها]ا.هـ.

وقال أيضا في (طريق الهجرتين):[الوجه الرابع أن قوله لأنك رفضت الأسباب ووقفت مع التوكل إن أراد به رفض الأسباب جملة فهذا كما أنه ممتنع عقلا وحسا فهو محرم شرعا ودينا فإن رفض الأسباب بالكلية انسلاخ من العقل والدين وإن أراد به رفض الوقوف معها والوثوق بها وأنه يقوم قيام ناظر إلى سببها فهذا حق ولكن النقص لا يكون في السبب ولا في القيام به وإنما يكون في الإعراض عن المسبب تعالى كما تقدم فمنع الأسباب أن تكون أسبابا قدح في العقل والشرع وإثباتها والوقوف معها وقطع النظر عن مسببها قدح في التوحيد والتوكل والقيام بها وتنزيلها منازلها والنظر إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مسببها وتعلق القيام به جمع بين الأمر والتوحيد وبين الشرع والقدر وهو الكمال والله أعلم.

الوجه الخامس: قوله: فصار التوكل بدلا عن تلك الأسباب، هذا حق فإن التوكل من أعظم الأسباب ولكنه بدل عنها كما تكون الطاعة بدلا عن المعصية والتوحيد بدلا عن الشرك فهو بدل واجب مأمور به مطلوب من العبد والمذموم أن يجعل العبد الأسباب بدلا عن التوكل لا أن يجعل التوكل بدلا عن الأسباب]ا.هـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في (التحفة العراقية في الأعمال القلبية):[كَمَنْ اشْتَغَلَ بِالتَّوَكُّلِ عَنْ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي هِيَ عِبَادَةٌ وَطَاعَةٌ مَأْمُورٌ بِهَا ؛ فَإِنْ غَلِطَ هَذَا فِي تَرْكِ الْأَسْبَابِ الْمَأْمُورِ بِهَا الَّتِي هِيَ دَاخِلَةٌ فِي قَوْله تَعَالَى:{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} كَغَلَطِ الْأَوَّلِ فِي تَرْكِ التَّوَكُّلِ الْمَأْمُورِ بِهِ الَّذِي هُوَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِه تَعَالَى:{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}]ا.هـ.

وقال أيضا في مجموع الفتاوى:[وَكَذَلِكَ مَنْ تَرَكَ الْأَسْبَابَ الْمَشْرُوعَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا أَمْرَ إيجَابٍ أَوْ أَمْرَ اسْتِحْبَابٍ مِنْ جَلْبِ الْمَنَافِعِ أَوْ دَفْعِ الْمَضَارِّ قَادِحٌ فِي الشَّرْعِ خَارِجٌ عَنْ الْعَقْلِ وَمِنْ هُنَا غَلِطُوا فِي تَرْكِ الْأَسْبَابِ الْمَأْمُورِ بِهَا وَظَنُّوا أَنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ التَّوَكُّلِ وَالتَّوَكُّلُ مَقْرُونٌ بِالْعِبَادَةِ فِي قَوْلِهِ:{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } وَالْعِبَادَةُ فِعْلُ الْمَأْمُورِ فَمَنْ تَرَكَ الْعِبَادَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا وَتَوَكَّلَ لَمْ يَكُنْ أَحْسَنَ حَالًا مِمَّنْ عَبَدَهُ وَلَمْ يَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ بَلْ كِلَاهُمَا عَاصٍ لله تَارِكٌ لِبَعْضِ مَا أُمِرَ بِهِ . وَالتَّوَكُّلُ يَتَنَاوَلُ التَّوَكُّلَ عَلَيْهِ لِيُعِينَهُ عَلَى فِعْلِ مَا أَمَرَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ لِيُعْطِيَهُ مَا لَا يَقْدِرُ الْعَبْدُ عَلَيْهِ فَالِاسْتِعَانَةُ تَكُونُ عَلَى الْأَعْمَالِ وَأَمَّا التَّوَكُّلُ فَأَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ وَيَكُونُ التَّوَكُّلُ عَلَيْهِ لِجَلْبِ الْمَنْفَعَةِ وَدَفْعِ الْمَضَرَّةِ]ا.هـ.

وقال أيضا في مجموع الفتاوى:[وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي حَمْلِ الزَّادِ فِي الْحَجِّ وَغَيْرِهِ مِنْ الْأَسْفَارِ فَالَّذِي مَضَتْ عَلَيْهِ سُنَّةُ رَسُولِ الله r وَسُنَّةُ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَأَكَابِرُ الْمَشَايِخِ هُوَ حَمْلُ الزَّادِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ طَاعَةِ الله وَرَسُولِهِ وَانْتِفَاعِ الْحَامِلِ وَنَفْعِهِ لِلنَّاسِ. وَزَعَمَتْ " طَائِفَةٌ " أَنَّ مِنْ تَمَامِ التَّوَكُّلِ أَلَّا يَحْمِلَ الزَّادَ وَقَدْ رَدَّ الْأَكَابِرُ هَذَا الْقَوْلَ كَمَا رَدَّهُ الْحَارِثُ المحاسبي فِي كِتَابِ التَّوَكُّلِ وَحَكَاهُ عَنْ شَقِيقٍ البلخي وَبَالَغَ فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ قَالَ بِذَلِكَ وَذَكَرَ مِنْ الْحُجَجِ عَلَيْهِمْ مَا يُبَيِّنُ بِهِ غَلَطَهُمْ وَأَنَّهُمْ غالطون فِي مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ التَّوَكُّلِ وَأَنَّهُمْ عَاصُونَ لله بِمَا يَتْرُكُونَ مِنْ طَاعَتِهِ وَقَدْ حُكِيَ لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ أَنَّ بَعْضَ الْغُلَاةِ الْجُهَّالِ بِحَقِيقَةِ التَّوَكُّلِ كَانَ إذَا وُضِعَ لَهُ الطَّعَامُ لَمْ يَمُدَّ يَدَهُ حَتَّى يُوضَعَ فِي فَمِهِ وَإِذَا وُضِعَ يُطْبِقُ فَمَهُ حَتَّى يَفْتَحُوهُ وَيُدْخِلُوا فِيهِ الطَّعَامَ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ حَرَّمَ الْمَكَاسِبَ . وَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ قِلَّةِ الْعِلْمِ بِسُنَّةِ الله فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْمَخْلُوقَاتِ بِأَسْبَابِ وَشَرَعَ لِلْعِبَادِ أَسْبَابًا يَنَالُونَ بِهَا مَغْفِرَتَهُ وَرَحْمَتَهُ وَثَوَابَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ بِمُجَرَّدِ تَوَكُّلِهِ مَعَ تَرْكِهِ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ مِنْ الْأَسْبَابِ يَحْصُلُ مَطْلُوبُهُ وَأَنَّ الْمَطَالِبَ لَا تَتَوَقَّفُ عَلَى الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ أَسْبَابًا لَهَا . فَهُوَ غالط فَاَللهُ سُبْحَانَهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ ضَمِنَ لِلْعَبْدِ رِزْقَهُ وَهُوَ لَا بُدَّ أَنْ يَرْزُقَهُ مَا عَمَّرَ فَهَذَا لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الرِّزْقُ الْمَضْمُونُ لَهُ أَسْبَابٌ تَحْصُلُ مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ وَغَيْرِ فِعْلِهِ . وَ "أَيْضًا" فَقَدْ يَرْزُقُهُ حَلَالًا وَحَرَامًا فَإِذَا فَعَلَ مَا أَمَرَهُ بِهِ رَزَقَهُ حَلَالًا وَإِذَا تَرَكَ مَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَمَرَهُ بِهِ فَقَدْ يَرْزُقُهُ مِنْ حَرَامٍ. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الدُّعَاءُ وَالتَّوَكُّلُ؛ فَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ ذَلِكَ لَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي حُصُولِ مَطْلُوبٍ وَلَا دَفْعِ مَرْهُوبٍ وَلَكِنَّهُ عِبَادَةٌ مَحْضَةٌ وَلَكِنْ مَا حَصَلَ بِهِ حَصَلَ بِدُونِهِ وَظَنَّ آخَرُونَ أَنَّ ذَلِكَ مُجَرَّدُ عَلَامَةٍ وَالصَّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ وَالْجُمْهُورُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُنَالُ بِهَا سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَمَا قَدَّرَهُ اللهُ بِالدُّعَاءِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْكَسْبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْبَابِ إذَا قَالَ الْقَائِلُ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ السَّبَبُ مَاذَا يَكُونُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَقُولُ هَذَا الْمَقْتُولُ لَوْ لَمْ يُقْتَلْ هَلْ كَانَ يَعِيشُ وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ الْقَدَرِيَّةِ أَنَّهُ كَانَ يَعِيشُ وَظَنَّ بَعْضُ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى السُّنَّةِ أَنَّهُ كَانَ يَمُوتُ وَالصَّوَابُ أَنَّ هَذَا تَقْدِيرٌ لِأَمْرِ عَلِمَ اللهُ أَنَّهُ يَكُونُ فَاَللهُ قَدَّرَ مَوْتَهُ بِهَذَا السَّبَبِ فَلَا يَمُوتُ إلَّا بِهِ كَمَا قَدَّرَ اللهُ سَعَادَةَ هَذَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِعِبَادَتِهِ وَدُعَائِهِ وَتَوَكُّلِهِ وَعَمَلِهِ الصَّالِحِ وَكَسْبِهِ فَلَا يَحْصُلُ إلَّا بِهِ وَإِذَا قَدَّرَ عَدَمَ هَذَا السَّبَبِ لَمْ يَعْلَمْ مَا يَكُونُ الْمُقَدَّرُ وَبِتَقْدِيرِ عَدَمِهِ فَقَدْ يَكُونُ الْمُقَدَّرُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ يَمُوتُ وَقَدْ يَكُونُ الْمُقَدَّرُ أَنَّهُ يَحْيَى وَالْجَزْمُ بِأَحَدِهِمَا خَطَأٌ . وَلَوْ قَالَ الْقَائِلُ : أَنَا لَا آكُلُ وَلَا أَشْرَبُ فَإِنْ كَانَ اللهُ قَدَّرَ حَيَاتِي فَهُوَ يُحْيِينِي بِدُونِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ كَانَ أَحْمَقَ كَمَنْ قَالَ : أَنَا لَا أَطَأُ امْرَأَتِي فَإِنْ كَانَ اللهُ قَدَّرَ لِي وَلَدًا تَحْمِلُ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ]ا.هـ.

كيف تَقيسُ تَوَكُّلَك على الله؟:

واعلم رحمك الله تعالى، أن المَحَكَّ الحقيقي، الذي تَظْهَرُ فيه مُخَبَّآت الصدور، ويتحَقَّقَ العبد به، عن حقيقة ما معه من التوكل، ذلك الذي يقع من العبد عند الشدائد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمُلِمَّات، فإن العبد في مثل هذه المقامات يَنْجُمُ التوكل الذي في قلبه، ويَعْلَمَ حقيقة، على من هو متوكل؟، أَعَلَى الله جل وعلا؟، أم على من سواه؟.

ولو تأملت فيمن حولك، أو فَتَّشْتَ دَاخِلَةَ نَفْسِك،؛ لَوَجَدت أن كثيرا من الناس، عند الشدائد، يتذكرون بعض قدراتهم وعلاقاتهم، وتفزع قلوبهم، إلى فلان وفلان، وهذا خلل عظيم وشر مستطير، فلنتنبه لذلك.

ومن جميل ما أفاده شيخنا العلامة سليمان بن ناصر العلوان، وكثيرا ما كان يُرَدِّدُهُ:

[قال ابن عقيل رحمه الله:أنا ما أقيس إيماني عند الازدحام عند أبواب المساجد ولا في الحج (لبيك اللهم لبيك) ولكن أنظر إلى إيماني وأقيسه، أين يفزع قلبي عند حدوث النكبات والشدائد]ا.هـ.

واعلم أن كثيرا من أهل العلم، يرى أن اتخاذ أسباب لم يشرعها الله تعالى، أن هذا من الشرك بالله تعالى، وقد يكون أصغر، وقد يكون أكبر، بحسب طبيعة السبب، وحاله مع العمل.

أعمال تنافي التوكل:

واعلم أرشدك الله، أن من الأمور ما يقع منافيا للتوكل، إما في كماله الواجب أو في أصله، كالتطير بالمخلوقات ومجريات الأحداث، وهو من صنيع المشركين، وأهل الجاهلية، وذلك أن البعض إذا أراد أن يعمل عملا أو يقضي حاجة، فظهر له شيء من الدواب، كالغراب والبوم ونحو ذلك، أو رأى أعْوَرا أو مَجْذُوما، أو أعْرَجا، أو حصل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حدث معين، أو ذُكِرَ عنده خَبَرٌ ما؛ تشاءم وترك العلم وامتنع منه، وهذا لا شك أنه من الضلال المبين، وقد ذكره الله تعالى عن الضالين عن الصراط المستقيم، كما قال تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ} [يس:١٣-١٩]، وقوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَّ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَّ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ الله بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ}[النمل:٤٥-٤٧]، وقوله: {فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ الله وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف:١٣١].

قال ابن مفلح وهو يذكر فصلا في الطيرة والشؤم والتطير والتشاؤم والتفاؤل في كتابه (الآداب الشرعية):[وصح عنه عليه السلام لا طيرة ويعجبني الفأل الكلمة الحسنة الطيبة وصح عنه أيضا:"لا طيرة وأحب الفأل الصالح"، روى ذلك أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم، وفي الطيرة توقع البلاء وسوء الظن والفأل رجاء خير، وعن أنس أن رسول الله r كان يعجبه إذا خرج لحاجة أن يسمع يا راشد يا نجيح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رواه الترمذي وقال حسن غريب، وعن عبد الله بن مسعود مرفوعا:"الطيرة شرك ولكن الله يذهبه بالتوكل" رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه، وعندهم:"وما منا إلا" وجعله الترمذي من قول ابن مسعود، ولأحمد من حديث عبد الله بن عمرو:"من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك" قالوا: وما كفارة ذلك، قال:"أن يقول اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك"، وعن الفضل بن عباس قال خرجت مع رسول الله r يوما فبرح بي ظبي فمال في شق فاحتضنته فقلت يا رسول الله تطيرت، قال:"إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك" رواه أحمد من رواية محمد بن عبد الله بن علاثة، وهو مختلف فيه، وفيه انقطاع.

قوله: برح بي أي طار عن اليسار والبارح ما جرى من اليسار والسانح ما جرى من اليمين

وقال معاوية بن الحكم للنبي r منا رجال يتطيرون، قال:"ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم"، وفي رواية:"فلا يصدنكم"رواه مسلم، ومعناه أن الطيرة شيء تجدونه في نفوسكم ضرورة ولا تكليف به لكن لا تمنعوا بسببه من التصرف لأنه مكتسب فيقع به التكليف. قال في النهاية: الطيرة هي التشاؤم بالشيء يقال تطير طيرة وتخير خيرة ولم يجئ من المصادر هكذا غيرهما وأصله فيما يقال التطير بالسوانح والبوارح وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم فنفاه الشرع وأبطله ونهى عنه وأخبر أنه لا تأثير له في جلب نفع ولا دفع ضرر، وفي المسند والصحيحين وغيرهما:"الشؤم في المرأة والدار والدابة" زاد مسلم:"والخادم" ورووا أيضا:"إن كان الشؤم في شيء"

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيكون على ظاهره، واختار جماعة من العلماء أنه مخصوص من النهي عن الطيرة ورووا أيضا:"لا عدوى ولا طيرة وإنما الشؤم" وذكروه عن حكيم بن معاوية مرفوعا:"لا شؤم وقد يكون اليمن في الدار والمرأة والفرس" رواه الترمذي ورواه ابن ماجه من حديث مخمر بن معاوية وفيهما معاوية بن حكيم تفرد عنه يحيى بن جابر الطائي،ولأحمد من حديث سعد:"لا عدوى ولا طيرة وإن يك ففي المرأة والفرس والدار" رواه أبو داود وفيه:"إن تكن الطيرة في شيء" فذكره وهو حديث جيد، وذكر ابن عبد البر وغيره الخبر المروي عنه عليه السلام:"ثلاثة من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة والمسكن الصالح والمركب الصالح وثلاثة من شقوة ابن آدم المرأة السوء والمسكن السوء والمركب السوء"، وروى أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا هشام عن قتادة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال كان رسول الله r :"لا يتطير من شيء ولكنه إذا أراد أن يأتي أرضا سأل عن اسمها فإن كان حسنا رؤي البِشْرُ في وجهه وإن كان قبيحا رؤي ذلك في وجهه وكان إذا بعث رجلا سأل عن اسمه فإن كان حسن الاسم رؤي البشر في وجهه وإن كان قبيحا رؤي ذلك في وجهه. ورواه أبو داود عن مسلم بن إبراهيم عن هشام وفيه فإذا دخل قرية وذكر معناه، ورواه النسائي عن ابن مثنى عن معاذ بن هشام عن أبيه ولأحمد وابن ماجه من حديث ابن عباس:"لا تديموا إلى المجذومين النظر" زاد أحمد من حديث علي:"وإذا كلمتموهم فليكن بينكم وبينهم قدر رمح"، وذكر بعض العلماء أن الطيرة من الكبائر وما تقدم من أنها مكروهة ذكره غير واحد من الأصحاب والأولى القطع بتحريمها ولعل مرادهم بالكراهة التحريم وظاهر ما تقدم أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حديث:"لا عدوى ولا طيرة" على ظاهره فيحتمل أن حديث:"لا يورد" بكسر الراء :"مُمْرِضٌ على مُصِح"، وهو في المسند والصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة ليس للعدوى بل للتأذي بقبح صورة ورائحة كريهة والأولى أن حديث:"لا عدوى ولا طيرة" نفي لاعتقاد الجاهلية أن ذلك يعدي بطبعه ولم ينف حصول الضرر عند ذلك بفعل الله تعالى وقدره فيكون قوله:"لا يورد ممرض على مصح" إرشادا منه عليه السلام إلى الاحتراز وفي شرح مسلم أن هذا قول الجمهور وزعم بعض العلماء أن الخبر الثاني منسوخ بخبر لا عدوى وليس بالقوي. وقد قال إسحاق بن بهلول وذكرت لأحمد بن حنبل هذا الحديث يعني حديث جابر أن رسول الله r أخذ بيد مجذوم فوضع يده معه في القصعة، فقال:"باسم الله ثقة بالله"، فقال إليه أذهب فيحتمل أن هذا كما ذهب إليه عمر وغيره من السلف إلى الأكل معه وخبر جابر هذا رواه أبو داود وعثمان بن بي شيبة عن يونس عن محمد بن مفضل بن فضالة عن حبيب بن الشهيد عن محمد بن المنكدر عن جابر مفضل هو البصري لا المصري قال ابن معين ليس بذاك وقال أبو حاتم يكتب حديثه وقال النسائي ليس بالقوي ووثقه ابن حبان وقال ابن عدي لم أر له أنكر من هذا ورواه ابن ماجة من حديث يونس وكذا الترمذي وقال غريب ورواه شعبة عن حبيب بن بريدة أن عمر أخذ بيد مجذوم وقال وحديث شعبة عندي أشهر وأصح، وللبخاري من حديث أبي هريرة:"وفر من المجذوم كما تفر من الأسد" ولأحمد ومسلم عن الشريد بن سويد قال كان في وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه النبي r :"إنا قد بايعناك فارجع"، وعند هؤلاء أن هذا منسوخ ويحتمل أن مراد الإمام أحمد أنه لا يجب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اجتنابه وإن استحب احتياطا وهو قول الأكثر وهو أولى إن شاء الله تعالى؛ ولهذا يقول الأطباء إن الجذام والسل من الأمراض المعدية المتوارثة وإن كل مرض له نتن وريح يعدي كالجذام والسل والجرب والحمى الوبائية والرَّمَد وإنه ربما أعدى بالنظر إليه والقروح الرديئة والوباء وهو يحدث في أخر الصيف ولا يريدون بذلك معنى العدوى بل لأجل الرائحة وهم أبعد الناس عن الإيمان بيمن وشؤم لا سيما وقد يكون في بدن الصحيح قبول واستعداد لذلك الداء والطبيعة سريعة الانفعال نقالة لا سيما مع الخوف والوهم فإنه مستول على القوى والطبائع ويتوجه احتمال يجب ذلك هنا. وفي قوله:"لا يورد ممرض على مصح: عملا بظاهر الأمر والنهي لما في ذلك من الضرر وهذا ظاهر كلام بعض العلماء وأظنه قول ابن قتيبة في كتاب اختلاف الحديث]ا.هـ.

وفي الصحيحين عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ r :"عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْأُمَّةُ وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ النَّفَرُ وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْعَشَرَةُ وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْخَمْسَةُ وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَحْدَهُ فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ قُلْتُ يَا جِبْرِيلُ هَؤُلَاءِ أُمَّتِي قَالَ لَا وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ قَالَ هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ وَهَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قُدَّامَهُمْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ قُلْتُ وَلِمَ قَالَ كَانُوا لَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ"، فَقَامَ إِلَيْهِ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، فَقَالَ:ادْعُ اللهَّ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ،قَالَ:"اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ"، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ، قَالَ ادْعُ اللهَّ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ:"سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

توجه إلى من بيده مقاليد الأمور:

واعلم رحمك الله، أن الله تعالى هو مقدر الأقدار، ومكور الليل على النهار، وأنه لن يأتيك إلا ما كتب الله لك، فَثِقْ به وتوكل عله، ولتكن همة قلبك مصروفة إلى الله تبارك وتعالى، ولا تعلق قلبك بمخلوق، بل واعلم أن المخلوق لربما أَضَرَّ بِك من حيث تظن أنه ينفعك، فإذا أخذت بالأسباب المشروعة فلا تلتفت بقلبك إليها، بل أَلِحَّ على الله تعالى بالدعاء، أن يوفقك ويقضي حاجتك، فإن المخلوق ما هو إلا سبب، والله تعالى يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، فلا تعلق قلبك بأحد سواه، مهما كان استيثاقك من إمكانيات وعلاقات، هذا العبد أو ذلك.

وفي الحديث الذي في مسند أحمد وأبي يعلي وفي سنن الترمذي عَنْ عَبْدِ الله بنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّهُ رَكِبَ خَلْفَ رَسُولِ الله r يَوْمًا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله r يَا غُلَامُ إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظْ اللهَّ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللهَّ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ وَإِذَا سَأَلْتَ فَلْتَسْأَلْ اللهَّ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُّ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُّ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ". قال الترمذي:هذا حديث حسن صحيح.

ومن جميل ما نقل عن الشافعي:

سَهِرَتْ أَعينٌ، وَنَامَتْ عُيونُ ... في أمورٍ تكونُ أو لا تكونُ

فَادْرَأ الهمَّ مَا استَطعْتَ عَنْ النَّفْـ...ـس فحملانكَ الهمومَ جنونُ

إن رَّباً كفاكَ بالأمسِ ما كا ... نَ سَيَكْفِيكَ في غَدٍ مَا يَكُونُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال الشيخ ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ:مَا قَالَهُ طَائِفَةٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ.قَالُوا:الِالْتِفَاتُ إلَى الْأَسْبَابِ شِرْكٌ فِي التَّوْحِيدِ. وَمَحْوُ الْأَسْبَابِ أَنْ تَكُونَ أَسْبَابًا نَقْصٌ فِي الْعَقْلِ وَالْإِعْرَاضُ عَنْ الْأَسْبَابِ بِالْكُلِّيَّةِ قَدْحٌ فِي الشَّرْعِ وَإِنَّمَا التَّوَكُّلُ وَالرَّجَاءُ مَعْنًى يَتَأَلَّفُ مِنْ مُوجِبِ التَّوْحِيدِ وَالْعَقْلِ وَالشَّرْعِ. وَبَيَانُ ذَلِكَ : أَنَّ الِالْتِفَاتَ إلَى السَّبَبِ هُوَ اعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَيْهِ وَرَجَاؤُهُ وَالِاسْتِنَادُ إلَيْهِ وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ مَا يَسْتَحِقُّ هَذَا لِأَنَّهُ لَيْسَ مُسْتَقِلًّا وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ شُرَكَاءَ وَأَضْدَادٍ وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ فَإِنْ لَمْ يُسَخِّرْهُ مُسَبِّبُ الْأَسْبَابِ لَمْ يُسَخَّرْ وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ اللهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَأَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا وَالْأَفْلَاكَ وَمَا حَوَتْهُ لَهَا خَالِقٌ مُدَبِّرٌ غَيْرَهَا]ا.هـ.

توكل الصَّادعين بالحق:

ومن أعظم مراتب التوكل، ما يكون في مقام تبليغ الدين، والصدع بالحق، كما قال ابن عباس t ، كما في صحيح البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ:({حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ r حِينَ قَالُوا:{إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ})، وعليه يحمل قوله r الذي في صحيح مسلم من طريق قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلاَةِ مَرْوَانُ فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ الصَّلاَةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ. فَقَالَ قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ. فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال ابن القيم في:(مدارج السالكين):[التوكل نصف الدين والنصف الثاني الإنابة فإن الدين استعانة وعبادة فالتوكل هو الاستعانة والإنابة هي العبادة]ا.هـ.

قال المؤلف:(والدليل قوله تعالى:{وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين})، تقديم المعمول على العامل في هذه الآية يفيد الحصر والقصر، ففي الآية قدم الله تبارك وتعالى الجار والمجرور {وعلى الله} على الفعل {فتوكلوا}، وهذا الأسلوب يؤكد على أن التوكل عبادة من أجل العبادات لا يجوز صرفها لغير الله تبارك وتعالى، والمعنى، أي ليس بمؤمن من توكل على غير الله تعالى، فالعامل هنا فعل الأمر، والمعمول الجار والمجرور وتقدمه يفيد ما تقدم، ومن هنا يُعلم خطأ من أجاز قولك:(توكلت على الله ثم عليك).

وذلك أن التوكل عمل قلبي كما تقدم تقريره، فلا يجوز صرف هذا العمل لغير الله عز وجل، فلا يجوز التوكل في شيء على المخلوقين، بل التوكل كله لابد أن يكون على الخالق جل وعلا؛ ولهذا فالراجح منع (ثم) في هذا الموطن، والاكتفاء بقولك:(توكلت على الله) ومنه قول:(حسبي الله ثم فلان)، فهو بمنزلة ذلك.

أما إذا استعمل الواو، فقال:(توكلت على الله وعليك)، فهذا شرك بالله تعالى، وقد يكون أكبر، وقد يكون أصغر، بحسب ما قام بقلب العبد، من المعاني.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا تقل توكلت على الله ثم عليك:

وكذلك لا يجوز إطلاق (توكلت على الله ثم عليك)، بمعنى الوكالة في عمل الجوارح؛ لأن الواجب على العبد التأدب مع الله تعالى، ومن أعظم ذلك ترك الألفاظ المُحْتَمِلَةِ والمُوهِمَة، والمَصِير إلى الألفاظ الصريحة في ذلك كقولك (وَكَّلْتُ فلانا).

الفرق بين التوكل والوَكالَة:

واعلم أن هناك فرقا بين التوكل والوكالة، فيجوز أن تقول:(وكَّلْتُ فلانا)، ولا يجوز أن تقول:(توكلت على فلان)، فإن الوكالة هنا بمعنى الإنابة، وهي من أعمال الجوارح، وهذا لا يُنَافِي الشرع، بل جاء الإسلام بجوازه وبيانه.

وأما:(توكلت على فلان)، فالتوكل عمل القلب فلا يجوز هذا اللفظ كما تقدم، ومن الألفاظ المنهي عنها في هذا المقام قول:(دع هذا الأمر علي).

قوله:{إن كنتم مؤمنين}، تذكير بالإيمان، وتهديد بذهابه، والسياق دال على انتفاء الإيمان في حق من اعتمد بقلبه على المخلوقين، يرجو منهم قضاء حاجته وتفريج كربته وإغاثة لهفته، فإن هذا لا يكون إلا لله رب العالمين.

وقد يدل السياق في بعض مقاماته، على أن قوله تعالى:{إن كنتم مؤمنين} لا يلزم منه انتفاء الإيمان بالكلية، إذا كان العمل أو المعصية لا ترتقي إلى حد الشرك الأكبر، إلا بقيد الاستحلال أو الجحود ونحو ذلك، وذلك كقوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة:٢٧٨]، وقوله:{قَالَ رَجُلَانِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [المائدة:٢٣]، فإن جُبْنَهُم وخَوَرَهُم لا يعد ناقضا لإسلامهم، لوجود أدلة أخرى تدل على أن التخلف عن الجهاد، وقتال العدو، والجُبن عن ذلك والنُّكول عنه، لا ينقض الإسلام.

فائدة واستنباط من قوله تعالى:{الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا} [البقرة: ٢٧٥].

إن صيغة المضارعة هنا:{يأكلون} دالة على الاستمرارية والاستمراء للربا، وهنا تقع الورطة:{أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} [فاطر:٨]؛ فيتحول الإحساس بالمنكر إلى إحساس بالرضى عنه، الذي يكون سبيلا إلى استحلاله:{إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا}؛ ولهذا قال تعالى في السياق:{فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، وقال:{وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ}، ومن هنا تعلم عظيم فقه السلف القائلين:**إن المعاصي بريد الكفر**. والله أعلى، وأعلم.

قال المؤلف:({والدليل قوله تعالى:{ومن يتوكل على الله فهو حسبه}})، {مَنْ}:اسْمُ شرط، تجزم فِعْلَين، الأول:فعل الشرط، والثاني: جَوَابُه وجَزَاءُه ، والفَاءُ رَابِطَةٌ فيه، ولا يتحقق أحدهما إلا بالآخر، فيكون المعنى: من أراد أن يكون في حَسْبِ الله وكفايته؛ فعليه أن يتوكل عليه وحده، ومن أراد أن لا يكون في حسب الله وكفايته، فليتوكل على غيره، ممن شاء من المخلوقين الضعفاء، وكما قيل: ومن تَوَكَّلَ على شيء وُكِلَ إليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بم نَنَال دفَاعَ الله عَنَّا؟:

فلن تَنَال من الله تعالى، الحَسْبَ والكفاية والمُدَافَعَة، بحق وحقيقة، حتى تحقق مقام التوكل على الله تعالى، واعتبر بمقام الأنبياء والصديقين في هذا الباب، كما قال تعالى **عن موسى الكليم**، وهو يظهر عظيم التوكل والاعتماد على الله تعالى، عندما ظهر فرعون بجنوده، وهو يطارد موسى عليه السلام ومن معه، فَشَكَّ بَعْضُ قومه، وتَرَدَّدَ بعضهم، فقال عليه الصلاة والسلام: {كلا إن معي ربي سيهدين}، كما قال تعالى: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الشعراء:٦١-٦٨].

وقال **عن نوح عليه السلام**: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ} [يونس:٧١-٧٣].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال **عن نبيه هود عليه السلام** في خطاب قومه له، وما رَدَّ عليهم: {قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣)إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} [هود:٥٣-٥٨].

وقال **عن شعيب عليه السلام**: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود:٨٧-٨٨].

وقال **عن يعقوب عليه السلام** مع بَنِيهِ: {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [يوسف:٦٧].

وقال **عن نبيه محمد r والأنبياء من قبله**: {كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ} [الرعد:٣٠]، وقوله:{قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَّ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى الله وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} [إبراهيم:١١-١٥].

وفي صحيح البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ:{حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ r حِينَ قَالُوا {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}.

حصول الحسب والكفاية عام لكل من كان أهلا لذلك:

واعلم أن هذا ليس خاصا بالأنبياء والمرسلين، بل هي كذلك لأتباعهم، حِزْبِ الله المفلحين المتقين، ولكن بقدر ما يكون الاتباع، والتوحيد والطاعة، بقدر ما يكون النصر والتأييد، والمدافعة، من الله تعالى عن عبده. وهذا معنى دقيق يَعِزُّ من يَتَفَطَّنُ إليه عَمَلاً، وإلا فالقائلون به كُثُر، نسأل الله تعالى من فضله، ونعوذ به من الخذلان.

قال ابن القيم في (زاد المعاد):[والمقصود أن بحسب متابعة الرسول تكون العزة والكفاية والنصرة، كما أن بحسب متابعته تكون الهداية والفلاح والنجاة، فالله سبحانه علق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته، فلأتباعه الهدى والأمن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والفلاح، والعزة والكفاية والنصرة، والولاية والتأييد، وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذلة والصغار، والخوف والضلال، والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة]ا.هـ.

ومنه قوله تعالى:{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال:٦٤]، إي إن الله تعالى كافيك، وكافي أتباعك على الحق، إلى قيام الساعة، كما قال تعالى:{أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ } [الزمر:٣٦-٣٧]، وقوله:{فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[البقرة:١٣٧].

قال ابن القيم في (زاد المعاد):[وقال تعالى:{ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين}. وقال تعالى:{فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم}. وقال تعالى:{يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين}. أي الله وحده كافيك وكافي أتباعك فلا تحتاجون معه إلى أحد. وهنا تقديران أحدهما:أن تكون الواو عاطفة ل "مَن" على الكاف المجرورة ويجوز العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار على المذهب المختار وشواهده كثيرة وشبه المنع منه واهية. والثاني:أن تكون الواو واو "مع" وتكون "مَن" في محل نصب عطفا على الموضع "فإن حسبك" في معنى "كافيك" أي الله يكفيك ويكفي من اتبعك، كما تقول العرب:حسبك وزيدا درهم، قال الشاعر:

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا .... فحسبك والضحاك سيف مهند

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفيها تقدير ثالث أن تكون "مَنْ" في موضع رفع بالابتداء أي ومن اتبعك من المؤمنين فحسبهم الله.

وفيها تقدير رابع وهو خطأ من جهة المعنى وهو أن تكون "مَن" في موضع رفع عطفا على اسم الله، ويكون المعنى:حسبك الله وأتباعك، وهذا وإن قاله بعض الناس،فهو خطأ محض، لا يجوز حَمْلُ الآية عليه، فإن "الحَسْبَ" و "الكفاية" لله وحده، كالتوكل، والتقوى، والعبادة، قال الله تعالى:{وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين}. فَفَرَّقَ بين الحَسْبِ والتَّأْيِيد، فجعل الحَسْبَ لَهُ وحده، وجعل التَّأييد له بنصره وبعباده، وأثنى الله سبحانه على أهل التوحيد والتوكل من عباده، حيث أفردوه بالحَسْبِ، فقال تعالى:{الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل}. ولم يقولوا:حسبنا الله ورسوله، فإذا كان هذا قولهم، ومَدْحُ الرب تعالى لهم بذلك، فكيف يقول لرسوله الله: وأتْبَاعُكَ حَسْبُكَ؟! وأتْبَاعُه قد أفردوا الرب تعالى بالحَسْبِ، ولم يشركوا بَيْنَه وبين رسوله فيه، فكيف يشرك بينهم وبينه في حسب رسوله؟!، هذا مِن أمْحَلِ المُحَال، وأبْطَلِ الباطل، ونظير هذا قوله تعالى:{ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون}. فتأمل كيف جعل الإيتاء لله ولرسوله، كما قال تعالى:{وما آتاكم الرسول فخذوه}. وجعل الحَسْبَ له وحده، فلم يقل، وقالوا:حسبنا الله ورسوله، بل جعله خَالِصَ حَقِّهِ، كما قال تعالى:{إنا إلى الله راغبون}. ولم يقل وإلى رسوله، بل جعل الرغبة إليه وحده، كما قال تعالى:{فإذا فرغت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فانصب وإلى ربك فارغب}. فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده، كما أن العبادة والتقوى والسجود لله وحده، والنذر والحلف لا يكون إلا لله سبحانه، {أليس الله بكاف عبده}. فالحسب هو الكافي، فأخبر سبحانه وتعالى، أنه وحده كافٍ عَبْدَه، فكيف يجعل أتباعه مع الله في هذه الكفاية؟! والأدلة الدالة على بطلان هذا التأويل الفاسد، أكثر من أن تذكر هاهنا]ا.هـ.

المُتَوَكِّلون على الشَّهَادات العلمية كُثُر:

تنبيه هام: وفي زماننا هذا، هناك من يتوكل على الشهادات النظامية، فيعلق بها الآمال، ويرى أنها مخلصة له من أيام الشدة وسوء الأحوال، بل وحتى صار كثر من الناس يعتقد أنه إذا كان معه شهادة نظامية؛ فقد نجى من كل كرب وبلاء، وهذا من أخبث ما يكون في هذا الزمان، حتى أخرجنا نساء المسلمين من بيوتهن إلى المدارس والجامعات، فصارت خَرَّاجَة ولاَّجَة، وأكثرهن كاسية عارية، مع اختلاط بالرجال، ناهيك عن الدساتير الجاهلية التي تحكم تلك المستنقعات الآسنة – سيأتي بيانه في الكلام عن الديمقراطية - فإذا سألت لما تفعلون هذا بالمرأة؟!!، ألم تعلمون أن الله تعالى أمرها بالقرار، وتكفل لمن اتقاه بالمخرج والرزق الحسن؟!!، قالوا مباشرة، لابد أن يكون معها سلاح، وربما قال بعضهم، من أين تأكل وتشرب، ومن أين تعيش وتقضي حوائجها، فلا حول ولا قوة إلا بالله من هذا الخذلان.

وهكذا صار بعض أفراد هذه الأمة، يركب المحرمات بل والشركيات والكفريات، طلبا للرزق وتكثيرا لماله. {نسوا الله فنسيهم}، {نسوا الله فأنساهم أنفسهم}.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد جاء في ديوان الإمام الشافعي:

تَـوكلْتُ في رِزْقي عَلَى اللهِ خَـالقـي ... وأيقنتُ أنَّ اللهَ لا شــكٌ رازقي
ومـا يـكُ مـن رزقي فليسَ يفوتني ... وَلَو كَانَ في قَاع البَحَارِ الغَوامِقِ
سـيـأتي بـهِ اللهُ العظـيـمُ بفـضـلـهِ ... ولو لم يكن مني اللســانُ بناطقِ
ففي أي شيءٍ تذهبُ النفسُ خسرةً ... وَقَدْ قَسَمَ الرَّحْمَنُ رِزْقَ الْخَلاَئِقِ

قال المؤلف رحمه الله:(ودليل الرغبة والرهبة والخشوع، قوله تعالى:{إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين})، الرغبة:لغة الابْتَهَالُ أو هو الضَّراعَةُ والمَسْأَلَةُ والطلب، هكذا أصل وضعها في اللغة، فلما جاء الإسلام بين الممنوع منها والمأذون فيه، فقيد وفصل، فإذا كنت متضمنة الضراعة، وتعلق القلب، واعتقاد النفع والضر، فهذا خاص بالله تعالى، وهو بهذا الاعتبار عبادة من أجل العبادات، فمن صرفها لغير الله فهو مشرك كافر، وفي زماننا هذا هناك من عباد القبور والأولياء، والمشاهد والأضرحة وغيرها، من يدعوا هؤلاء الأنداد، بهذه الحال أو أشد عياذا بالله من الشرك بالله تعالى.

والرغبة في هذه الآية، هي هنا بيان لحال هؤلاء الكرام البررة عند الدعاء، أنهم يطلبون الخير من الله تعالى وحده، حالة كونهم ضارعين، مبتهلين، راجين، منكسرين، ملحفين في المسألة، وهذه كلها صفات رفعة للعبد، وشرف له، فإن العبد كلما كان أكثر تَذَلُّلا لله تعالى؛ كان أكثر قربا من الله تعالى، وأشرف وأكرم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد اختلف المفسرون في عودة الضمير في هذه الآية، أهُوَ عائد على جميع من تقدم من الأنبياء والمرسلين، أم أنها عائدة على زكريا وأهل بيته عليهم السلام، قولان لأهل العلم.

والرغبة من الألفاظ المتضادة، التي تستعمل في الشيء وضده، فإذا عُدِّيَت بـ (في) أو (إلى) دلت على طلب الشيء وسؤاله، وأما إذا عديت ب (عن) دلت على النفرة منه، والابتعاد عنه، وإذا لم تعد لا بهذا ولا ذاك، حَدَّدَ معناها السياق الذي وردت فيه، كما هو هنا في هذه الآية. والله أعلم.

كما في قوله تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [البقرة:١٣٠]، وقوله: {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [التوبة:١٢٠]، وقوله: {قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا} [مريم:٤٦]، وقوله: {عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ} [القلم:٣٢]، وقوله: {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ} [التوبة:٥٩]، وقوله: {وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ} [الشرح:٨].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكما في الصحيحين عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَتْ قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ الله r فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ الله r قُلْتُ **وَهِيَ رَاغِبَةٌ** أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ نَعَمْ:"صِلِي أُمَّكِ". فهنا السياق دل على أنها جاءت مقبلة تريد الخير.

وفي الصحيحين من طريق ابْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ r وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ أَيْ عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ الله بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ يَا أَبَا طَالِبٍ **تَرْغَبُ عَنْ** مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ النَّبِيُّ r :"لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ"، فَنَزَلَتْ:{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} وَنَزَلَتْ {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}.

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"لَا **تَرْغَبُوا عَنْ** آبَائِكُمْ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ أَبِيهِ فَهُوَ كُفْرٌ".

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ t يَقُولُ جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ r يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ r فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ r قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ أَحَدُهُمْ أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا فَجَاءَ رَسُولُ الله r إِلَيْهِمْ فَقَالَ:"أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَالله إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر عن النبي r في قصة النفر الثلاثة الذين أطبقت عليهم الصخرة في الغار، فسأل كل واحد منهم ربه تبارك وتعالى بصالح العمل، الحديث وفيه: "قَالَ الثَّالِثُ اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ أَعْطِنِي حَقِّي فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ **فَرَغِبَ عَنْهُ** فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيَهَا فَجَاءَنِي فَقَالَ اتَّقِ اللهَّ فَقُلْتُ اذْهَبْ إِلَى ذَلِكَ الْبَقَرِ وَرُعَاتِهَا فَخُذْ فَقَالَ اتَّقِ اللهَّ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي فَقُلْتُ إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ فَخُذْ فَأَخَذَهُ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ مَا بَقِيَ فَفَرَجَ اللهُّ".

وفي الصحيحين قَالَتْ عَائِشَةُ وَقَوْلُ اللهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ}، يَعْنِي: هِيَ رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ لِيَتِيمَتِهِ الَّتِي تَكُونُ فِي حَجْرِهِ حِينَ تَكُونُ قَلِيلَةَ الْمَالِ وَالْجَمَالِ فَنُهُوا أَنْ يَنْكِحُوا **مَا رَغِبُوا فِي** مَالِهَا وَجَمَالِهَا مِنْ يَتَامَى النِّسَاءِ إِلَّا بِالْقِسْطِ مِنْ أَجْلِ **رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ**. ونحو ذلك من المواضع من الكتاب والسنة.

والمقصود أن الأدلة دلت على أن الرغبة تكون عبادة لله تعالى، إذا كانت بمعنى التذلل والتضرع، والابتهال، وتعلق القلب، فهذا لا يكون إلا لله رب العالمين، فمن فعل مثل ذلك مع أي مخلوق كائنا من كان؛ فقد أتى الشرك بالله تعالى، عياذا بالله من الخذلان، ومن ذل القلوب لغير علام الغيوب.

قوله: (والرهبة)، الرهبة لغة: الخوف، ويكون في الحال وفي المآل، فيدخل فيه الخوف من سوء العاقبة، ويدخل في ذلك معنى الزَّهَادَةُ في الدنيا، ومنها الرهبانية، والزهد منه الممدوح ومنه المذموم بحسب موارد الأدلة، وقد ذم الله تعالى رهبانية النصارى حيث

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كانت بالمعنى الفاسد، كما قال تعالى: {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد:٢٧].

جاء في القاموس المحيط:[رَهِبَ كَعَلِمَ رَهْبَةً ورُهْباً بالضم وبالفتح وبالتحريكِ ورُهْباناً بالضم ويُحَرَّكُ: خافَ، والاسْمُ:الرَّهْبَى. وأرْهَبَهُ واسْتَرْهَبَهُ:أخافَهُ. وتَرَهَّبَهُ:تَوَعَّدَهُ. والتَّرَهُّبُ:التَّعَبُّدُ]ا.هـ.

وبمعنى الخوف جاءت الآيات، كقوله تعالى: {قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} [الأعراف:١١٦]، وقوله: {وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} [الأعراف:١٥٤]، وقوله: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال:٦٠]، وقوله: {اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [القصص: ٣٢].

وفي استعمال الشارع، تنوعت مواردها لاختلاف السياقات التي وردت فيها، ولكنها كلها داخلة في درجات الخوف، وهي درجة من الخوف تدخل العبد من جراء عظمة ما بلغه، رؤية أو سماعا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأصل الكلمة مبني على التعظيم، وحيث لا أعظم من الله تعالى؛ كان لزاما أن تكون الرهبة الحقيقة منه تبارك وتعالى، وهي بهذا الاعتبار عبودية عظيمة، ومما يدل على ذلك أمر الله تعالى عباده بها، كقوله تعالى:{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} [البقرة:٤٠]، وقوله:{وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} [النحل:٥١].

وفي الصحيحين عن الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ لِي رَسُولُ الله r :"إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ وَقُلْ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَهْبَةً وَرَغْبَةً إِلَيْكَ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ فَإِنْ مُتَّ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ فَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ" فَقُلْتُ أَسْتَذْكِرُهُنَّ: وَبِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ قَالَ:"لَا وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ".

وفي صحيح مسلم من طريق حطان بن عبد الله الرقاشي قال:صليت مع أبي موسى الأشعري صلاة فلما كان عند القعدة قال رجل من القوم أُقِرَّت الصلاة بالبر والزكاة، قال فلما قضى أبو موسى الصلاة وسلم انصرف، فقال: أيكم القائل كلمة كذا وكذا؟، قال فَأَرَمَّ القَوْمُ، ثم قال:أيكم القائل كلمة كذا وكذا؟، فَأَرَمَّ القوم، فقال:لعلك يا حطان قلتها؟، قال: ما قلتها، ولقد رَهِبْتُ أن تَبْكَعَنِي بها...الحديث".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأمل في قوله تعالى: {لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} [الحشر:١٣]؛ لتعلم أن هناك معنى شركي في الرهبة، وذلك عندما يكون قدر المخلوق في القلب أعظم من الخالق أو مساويا له، عياذا بالله من الخذلان.

والمقصود بالرغبة والرهبة هنا التي هي عبودية، هي طلب الخير الذي لا يقدر عليه إلا الله، ودفع الشر الذي لا يدفعه إلا الله، أما إن كان فيما هو في وسع المخلوق، وقدرته مما خوله الله جل وعلا إياه، فهذا لا حرج فيه، بالضوابط الشرعية، حتى لا يدعي عبد ما ليس له كما تقدم.

قوله:(والخشوع): لغة الخضوع والسكون، ويكون في الظاهر والباطن، وقيل الخضوع في البدن، والخشوع في الصوت والبصر.

جاء في القاموس المحيط:[الخُشوعُ:الخُضوعُ كالاِخْتِشَاعِ، والخُشُوعُ في الصوتِ والبَصَرِ:السُّكونُ والتَّذَلُّلُ، وفي الكَوْكَبِ:دُنُوُّه من الغُروبِ. والخاشِعُ:المكانُ المُغْبَرُّ لا مَنْزِلَ به، والمكانُ لا يُهْتَدَى له، والمُسْتَكِينُ والراكِعُ.وتَخَشَّعَ:تَضَرَّعَ]ا.هـ.

وفي تاج العروس من جواهر القاموس:[وخَشَعَ بِبَصَرِه، أَيْ غَضَّهُ، وفي النِّهَايَة:الخُشُوعُ في الصَّوْتِ والبَصَرِ كالخُضُوعِ في البَدَنِ. ومِنْهُ حَدِيثُ جابِرٍ:أَنَّهُ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، فقالَ:"أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ" قَالَ:فخَشَعْنَا، أَي خَشِينَا وخَضَعْنا.والخُشُوعُ:السُّكُونُ والتَّذَلُّلُ. ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمنِ} أَي انْخَفَضَتْ. وقِيلَ:سَكَنَتْ. وكُلُّ سَاكِنٍ خَاضِعٌ وخَاشِعٌ]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومنه قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [فصلت:٣٩]

وفي صحيح مسلم من حديث جابر t قال:أَتَانَا رَسُولُ الله r فِي مَسْجِدِنَا هَذَا وَفِي يَدِهِ عُرْجُونُ ابْنِ طَابٍ فَرَأَى فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ نُخَامَةً فَحَكَّهَا بِالْعُرْجُونِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَقَالَ:"أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ". قَالَ:فَخَشَعْنَا، ثُمَّ قَالَ:"أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ". قَالَ:فَخَشَعْنَا، ثُمَّ قَالَ:"أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ". قُلْنَا: لاَ أَيُّنَا يَا رَسُولَ الله. قَالَ:"فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي فَإِنَّ اللهَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قِبَلَ وَجْهِهِ فَلاَ يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ وَلاَ عَنْ يَمِينِهِ وَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ تَحْتَ رِجْلِهِ الْيُسْرَى فَإِنْ عَجِلَتْ بِهِ بَادِرَةٌ فَلْيَقُلْ بِثَوْبِهِ هَكَذَا". ثُمَّ طَوَى ثَوْبَهُ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ....الحديث.

والخشوع في الآية: هو ركون القلب إلى الرب، والتذلل له والسكون إليه، وخضوع البدن بين يدي الله جل وعلا، مما يصرف العبد عن شواغل الدنيا، ويقبل به على الله تعالى، وغالباً الخشوع يطلق على القلب والجوارح، وقال بعضهم إن أريد به الجوارح فأخص به الخضوع، وهو داخل في مسمى الخشوع، ولا مُشَاحَّ إذن بهذا الاعتبار، وقد جاءت النصوص دالة على إطلاق الخشوع على الجوارح كذلك، فمن ذلك قوله وتعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهَّ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد:١٦]، وقوله تعالى: {خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ} [القمر:٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح مسلم عن جابر t قال:"أَتَانَا رَسُولُ الله r فِي مَسْجِدِنَا هَـذَا وَفِي يَـدِهِ عُرْجُونُ ابْنِ طَابٍ فَرَأَى فِي قِبْلَـةِ الْمَسْـجِدِ نُخَامَـةً فَحَكَّهَـا بِـالْعُرْجُونِ ثُـمَّ أَقْبَـلَ عَلَيْنَـا فَقَالَ:"أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ". قَالَ فَخَشَعْنَا ثُمَّ قَالَ:"أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ". قَالَ فَخَشَعْنَا ثُمَّ قَالَ:"أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ". قُلْنَا لاَ أَيُّنَا يَـا رَسُـولَ الله. قَالَ:"فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قِبَلَ وَجْهِهِ فَلاَ يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِـهِ وَلاَ عَنْ يَمِينِهِ وَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ تَحْتَ رِجْلِهِ الْيُسْرَى فَإِنْ عَجِلَتْ بِهِ بَادِرَةٌ فَلْيَقُلْ بِثَوْبِـهِ هَكَذَا". ثُمَّ طَوَى ثَوْبَهُ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ....الحديث.

ومما يدل على أن الخشوع منه ما هو عبادة لله تعالى - إضافة لما جاء في الآية المتقدمة - أمر الله تعالى به، وحث العباد عليه، كما في قوله:{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَـعَ قُلُـوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَـابَ مِـنْ قَبْـلُ فَطَـالَ عَلَـيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد:١٦]، وقوله:{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّـبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة: ٤٥]، وقوله:{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَـابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لله لَا يَشْتَرُونَ بِآيَـاتِ الله ثَمَنًـا قَلِيلًا أُولَئِـكَ لَهُـمْ أَجْـرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِـمْ إِنَّ اللهَ سَرِيـعُ الْحِسَـابِ} [آل عمـران: ١٩٩]، وقوله:{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُـمْ فِي صَـلَاتِهِمْ خَاشِـعُونَ} [المؤمنـون:١-٢]، وقوله:{لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَـدِّعًا مِـنْ خَشْـيَةِ الله وَتِلْـكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر:٢١].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال:ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية:{ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله}، إلا أربع سنين.

وقد كان النبي r يستعيذ بالله من قلب لا يخشع، كما في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله r يقول كان يقول:"اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها".

خشوع المجرمين والمشركين:

وقد بين الله تبارك وتعالى أن أقواما سيأتون بهذه العبادة في غير وقتها؛ فلا تغني عنهم شيئا، كما قال تعالى:{يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} [طه:١٠٨-١٠٩]، وقوله:{وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ} [الشورى:٤٥]، وقوله:{خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} [القمر:٧-٨].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والخشوع الذي هو بهذا المعنى، المتضمن تذلل القلب وانكساره وإخباته وخضوعه، لا يجوز إلا لله الواحد القهار، فالذين يخشعون عند مرور الكبراء، أو عند الدخول على من يسمونهم برجالات الغيب، أو الأقطاب والأغواث، والخلفاء، أو عند ما يسمى بالسلام الوطني أو الملكي (الوثني)، أو عند رفع العَلَم (الجاهلي)، وما يمارسه الرياضيون في الميادين، من الوقوف خاشعين بين يدي الجماهير، والمشجعين، ونحو ذلك، فكل هذا من الشرك بالله تعالى، لو كانوا يفقهون.

ومن جهل هؤلاء أنك ترى الواحد منهم لا يتحرك أبدا، بل لو كان يَقْدِرُ أن يكتم أنفاسه ويحبسها لفعل، ويُعَلِّمُهُ الكُبَراءُ ذلك ويَأْمُرُونَهُ به، ويُثْنُونَ على من كان كذلك، بما لا يفعله هؤلاء ولا ربعه، إذا قام في الصلاة، بين يدي جبار السموات والأرض، ولكنها لوثة اليهود والنصارى، واتّباع مناهجهم الكفرية، والتأمين على مواثيقهم الإلحادية، المحاربة لحق الله تبارك وتعالى وشرعه، والعياذ بالله.

فيجب التحذير من ذلك، والتنبيه عليه، فإن كثيرا من هذه الحقائق خافية، لا يكاد كثير من العلماء والدعاة أن يتكلموا فيها.

قوله: {إنهم كانوا}: تقدم الإشارة إلى الخلاف الواقع في مسألة عودة الضمير، وقوله: {كانوا} تفيد في هذا المقام المداومة على ذلك، وإلا فقد تأتي (كان) بمعنى الغالب، أو بمعنى وقوع الشيء في الماضي، بغض النظر عن تكرره، كَثْرَةً أو قِلَّةً، ويتحدد ذلك بالسياق الذي وردت فيه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وصيغة الاستمرار هنا تذكر، بأن الواجب على العبد أن يكون على الدوام محققا لعبادة الله، فلا يكون ذلك بحسب فراغ العبد، ولا اتباعا لهواه، ولا تأثرا بضغط الواقع، وتغير الأحوال، بل عليه أن يكون دائما عبدا عابدا لله رب العالمين، لا يصرفه عن ذلك صارف، ولا يَثْنِيه عنه ثَانٍ.

المسارعة المحمودة والمذمومة:

قوله:{يسارعون}: أي يتنافسون ويتسابقون، حباً وشوقاً، وإجلالاً وتعظيماً، وذُلاً وانقياداً، ورجاء وخوفاً من الله جل وعلا، وكما قيل:من كان بالله أعرف؛ كان لله أتقى، وله أرجى، ومنه أخوف. قال تعالى:{وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} [طه:٨٣-٨٤].

وقد أمر الله تعالى عباده بالمسارعة والمسابقة إليه، في مواضع أخرى من الذكر الحكيم، ثم ضرب المثل هنا بأنبيائه ورسله؛ لتَتَمَثَّل القدوة العلمية، واقعا عمليا، للركب المبارك من أتباع الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى:{أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ } [الأنعام:٨٩-٩٠]؛ لتطمئن القلوب، وتأنس بالرفقة، وتعلم أنه طريق مُزَكَّى؛ فيحصل الثبات، وتنشط النفوس للتسارع في مراضي الله جل وعلا، صابرة ومحتسبة.

ومن جميل ما نقل عن الشافعي رحمه الله:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذا هَبَّتْ رِياحُكَ فَاغْتَنِمْها ... فَعُقْبَى كُلِّ خافِقَةٍ سُكُوْنُ

ولا تغفل عن الإحسان فيها ... فلا تدري السكونُ متى يكونُ

وهذا بيت نظمته؛ أشد به عزمي وعزمكم؛ لخدمة دين الله تعالى:

إن صَحِيحَ العَزْمِ كالرِّيحِ كُلَّما ... تَقَاعَسَ أصْحَابٌ تَصَدَّرَ وانْبَرَى.

قوله:{في الخيرات}: تزكية ومدافعة وعبودية وتذكير، تزكية للرسل، ومدافعة للظن السيئ بهم، وعبودية من جهة تحديد ما يُتَسَارَع فيه، وتذكير للعباد بأن هناك من يسارع، ولكن في الفواحش والشرور والمنكرات، كما قال تعالى عن قوم لوط عليه السلام:{وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَّ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ} [هود:٧٨]، وقال عن أمم أخرى:{إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} [الصافات:٦٩-٧٠]، وقال عن أصحاب الجنة المفتونين:{فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} [القلم:٢٣-٢٧]، وقوله:{وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ} [ص:٦]، فهذه مسارعة في الباطل والكفر والضلال، وتلك مسارعة الأنبياء والمرسلين في الإيمان والتقى، والذل والانقياد، فإلى أيهما نميل ونختار؟.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نسأل الله أن يجعلنا من المتبعين للرسل، المقتدين بهم، وأن يجعلنا مسارعين في الخيرات، وأن ندعوه سبحانه رغبا رهبا، وأن نكون له من الخاشعين، فاللهم أعنا يا كريم.

لن يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدُ إلا غَلَبَه:

وهنا أصل لابد من التنبه له، بينه سيدنا عليه الصلاة والسلام، فيما أخرجه البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ".

والمعنى أن على العبد أن لا يكلف نفسه ما لا تطيق من الأعمال، وعليه أن يكون ربَّانِيّا، فيربي نفسه بالأصول قبل الفروع، وأن يَسْبُرَ حَالَ نَفْسِه، وأن يُعْطِيَهَا حَقَّهَا، فإن المُنْبَتْ لا أرضا قَطَع، ولا ظَهْراً أبْقَى، والشيطان لا يَعْبَؤُ بالعَبْدِ إنْ هَلَكَ في إفراط أو تفريط. قال تعالى: {طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} [طه:١-٢].

وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ سُئِلَ النَّبِيُّ r أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى الله؟ قَالَ:"أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ وَقَالَ اكْلَفُوا مِنْ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ".

وفي الصحيحين عن عَبْدُ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ لِي رَسُولُ الله r :"يَا عَبْدَ الله أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ" فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله قَالَ:"فَلَا تَفْعَلْ صُمْ وَأَفْطِرْ وَقُمْ وَنَمْ فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ" فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قُلْتُ يَا رَسُولَ الله إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً قَالَ:"فَصُمْ صِيَامَ نَبِيِّ الله دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام وَلَا تَزِدْ عَلَيْهِ" قُلْتُ: وَمَا كَانَ صِيَامُ نَبِيِّ الله دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام؟ قَالَ:"نِصْفَ الدَّهْرِ" فَكَانَ عَبْدُ الله يَقُولُ بَعْدَ مَا كَبِرَ: يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّ r .

وعن أنس t قال:دخل النبي r المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال:"ما هذا الحبل" قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ به. فقال النبي r :"حُلُّوهُ لِيُصَلِّ أحدكم نَشَاطَهُ فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَرْقُدْ". متفق عليه.

وعن ابن مسعود t أن النبي r قال:"هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُون "قالها ثلاثا.رواه مسلم.

فهم خاطىء على علي t :

وفي أثر منسوب إلى علي t وهو مشهور، ولم أقف له على إسناد، ولا أصل له مرفوعا، ولا يصح موقوفا، وروى نحوه ابن قتيبة في غريب الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ولا يصح، (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)، وهذا مع أنه لا يثبت إلا أن بعض الجهال، ظنوا أن علياً t ،يحث الناس على المسارعة في أمور الدنيا، وإطالة النفس فيها، ولهذا إذا قلت لأحدهم: هَوِّنْ عليك، فإن الرزق مكتوب، ولم تخلق لتعبد الدنيا، ولا الدرهم والدينار، وإن هذه الدنيا فانية، فاجعل من وقت لآخرتك، واعمل للباقية، ذكر لك هذا القول ونسبه إلى علي t ، وهذا الخبر مع عدم ثبوته، فليس هذا معناه، بل معناه الذي يتوافق مع حال علي t والصحابة الكرام y ، هو أنه إذا كنت في أمر الدنيا فلا تهلع، ولا تجزع، فإن الذي لا ينقضي اليوم ينقضي غداً، أو بعد غد، كأنك تعيش أبداً ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما فيما يتعلق بأمر الآخرة، فَتَخَيَّل أنك تموت غداً؛ لتبادر إلى العمل الصالح اليوم قبل الغد، قبل أن تَحْتَرِمَكَ المَنِيَّةُ وَلَاتَ حِينَ مَنْدَم.

الفرق بين الاسْتِمْسَاك والغُلُو والتَّنَطُّع:

واعلم رحمك الله تعالى، أن هناك فرقا بين التحذير من التشدد والتنطع في الدين، وبين التحذير من الاستمساك به، فكثيرا ما تسمع ونرى، من يحذر من التمسك بالدين، واتباع هدي سيد المرسلين، بدعوى محاربة التنطع والغلو والتطرف، فالحذر الحذر من مسالك الشيطان ومزالق أعوانه.

واعلم أننا كما نحن مأمورون بترك التنطع والغلو، فنحن مأمورون بالاستمساك بالدين، والدخول وفي السِّلْمِ كَافَّة، وأَخْذِ الكتاب بِقُوَّة، والأخذ بالأحسن في ديننا أبدا، فإياك من تلاعب المبطلين، واستمسك بهذا الدين جملة وتفصيلا، وإن رَمَاكَ الناس بما رَمَوْكَ به، وإن لَفَظَكَ أكثر العباد، فإن أكثرهم على الضلالة والعياذ بالله. ف

افطن لهذا المقام، فإنه خطير، فكم زلت فيه أقدام، وكم ضَلَّت بسببه أقوام. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وفي قوله:{ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين}: استعمال ضمير (نا) المتصل في محل نصب مفعول به، وهو إشارة إلى أكرامهم، وقربهم من الله جل وعلا، والمعنى أنهم في كل أحوال عباداتهم، كانوا يجمعون بين الرجاء والخوف، يرجون رحمة الله ويخافون عذابه، فالعبادة لها جناحان، كالطير مع جناحيه، إن تعطل أحدهما سقط

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهلك، فامتدح الله جل وعلا أنبياءه ورسله، بالاستقامة على الطريقة، والكمال في العبودية، وحَادِيهِم في ذلك حب الله تعالى؛ ولهذا قال تعالى: {وكانوا لنا خاشعين}، بخلاف من يعبد الله بالخوف فقط، أو من يعبده بالرجاء فقط.

والخشوع ضد الارتفاع، فهو متضمن للذل والسكون والتواضع، وهذا منافٍ للعلو والنشوز والاستكبار، كما قال تعالى: {ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة}: أي ساكنة، قال: {فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت}، فامتدحهم الله بالذل له، والسكون إليه، والطمأنينة به.

ومنه قوله تعالى: {قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

ومنه سكون القلب ثقة في الله عند الشدائد، كقوله تعالى: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود:٥٤-٥٦].

ومنه قوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} [الأعراف:١٩٥-١٩٦].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القَلْبُ القَوي:

ومنه سكون القلب والجوارح في الصلاة إلا من حاجة، والقلب القوي هو الذي يخشع في صلاته، مع إعمال أمر الله تعالى فيما يعرض للعبد في صلاته،فقد أمَرَ النبي r بقتل الحية ونحوها في الصلاة، وكان يسمع كلام الجارية، ويجيبها بالإشارة وهو في الصلاة، وكان يفتح الباب لعائشة وهو في الصلاة، هذه هي الحالة الفاضلة،وهذا هو القلب القوي، بخلاف من يضيق عَطَنُهُ عن ذلك، ولهذا عندما نقرأ بأن فلانا كان يسقط الجدار بجانبه ولا يشعر، فلنعلم أن هذه حالة مفضولة، وأن الحالة الفاضلة دائما هي ما كان عليه النبي r وأصحابه y.

قال المؤلف:(ودليل الخشية، قوله تعالى:{فلا تخشوهم واخشوني إن كنتم مؤمنين}): أي دليل أن كون الخشية عبادة، هو قوله تعالى:{فلا تخشوهم واخشوني إن كنتم مؤمنين}.

ومنه قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ} [الرعد:٢١]، وقوله:{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ} [الأنبياء:٤٨-٤٩].

ولقد أمر الله تعالى عباده بالخشية، وهذا دليل آخر دال على أنها عبادة لله تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ} [لقمان:٣٣].

والخشية نوع من أنواع الخوف، والذي يظهر لي والله أعلم، أنها تكون في مقام الإنكار، والصدع بالحق، هكذا جاءت في القرآن العظيم، فالخوف أعم من الخشية، والخشية أخص من جهة متعلقها، ففي نهي الله جل وعلا عن خشية أعداءه؛ التي تورث الذل لهم، والانقياد لباطلهم، والمداهنة لهم في الدين، والتولي يوم الزحف أمامهم، وأمْرِهِ بخشيته سبحانه، المتضمنة للاستعلاء بالإيمان، والتوكل على الرحمن، مما يورث القلب ثباتاً عظيماً، إذْ ما شَاءَ الله كان، وما لم يشاء لم يكن، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، دليل على أن العباد لابد أن يقوموا في هذا المقام أعني مقام الخشية، وبذلك نعلم يقينا أن الخشية من أجل العبوديات.

ولنتأمل في هذه الآيات الدالة، على أن مقام الخشية أخص بمقام تبليغ الدين، والدعوة إليه، وإنكار المنكر والصبر على ذلك، قال تعالى: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَّ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا} [الأحزاب:٣٩]، وقوله: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [البقرة:١٥٠].

وقوله: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُّ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران:١٧٣].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة:٣].

وقوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة:٤٤].

وقوله: {أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [التوبة:١٣].

جهاد البيان صدعا أفضل الجهاد:

ولهذا جعل النبي r أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، كما في مسند الإمام أحمد وسنن النسائي بسند جيد عن طارق بن شهاب أن رجلا سأل النبي r وقد وضع رجله في الغرز:أي الجهاد أفضل؟ قال:"كلمة حق عند سلطان جائر".

وقد أفاد هذا الخبر أن جهاد العلم بالحجة والبرهان إذا صدع به العبد في وجه الطغاة، يعد أفضل من جهاد السنان والمال.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذْ أنَّ مثَلَ هذا العبد، مَثَلُ عبد قد ارتفع رصيد التوكل في قلبه، حتى أصبح لا يرى عظيماً، ولا كبيراً سوى الرب تبارك وتعالى، فهانت عليه نفسه، في جنب الله تبارك وتعالى، وهذا ما فعله الرسل كما تقدم، وهكذا فعل مؤمن آل فرعون، كما قال تعالى: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر:٢٨-٢٩]، إلى قوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ} [غافر:٤١-٤٥].

أثر الخشية على العبد:

ومقام الخشية من أجل وأعظم المقامات، التي ينتفع بها العبد في الدنيا والآخرة، فأصحابها أرق قلوبا، وألين جلودا لذكر الله وتعظيمه وتعظيم حقه، كما قال تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ} [فاطر:١٨]، وقوله:{اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر:٢٣].

والخشية من أعظم أسباب المغفرة، والأجر الكبير، كما قال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [الملك:١٢].

قال المؤلف: ودليل الإنابة:({وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له}):

الإنابة شرعا لها معنيان:

١ -الرجوع إلى الله جل وعلا بالتوبة والاستغفار، ويكون بمعنى ثاب وعاد.

٢ -الانقطاع إلى الله تعالى، بقطع العلائق دونه تبارك وتعالى ذلا وانقيادا.

وفي كل من الحالين لابد أن يكون العبد مسلما لله تعالى أي منقادا لشرعه وحكمه.

ومنه، قولك:عبد منيب، أي: منقاد رَجَّاع، فهو يرجع إلى ربه ويتوب إليه، ومنه أُخِذَ (النَّاب) لأنه أشد الأسنان قطعا.

وفي اللغة: جاء في (تاج العروس من جواهر القاموس):[(وناب) زيدٌ (إِلى اللهِ) تَعالى:أَقبَلَ، و(تابَ)، ورجَعَ إِلى الطّاعَة،(كأَنَابَ) إِليهِ إِنابَةً، فهو مُنِيبٌ، واقتصر الجوهريُّ على الرُّباعيّ. وقيلَ:نابَ:لَزِمَ الطّاعَةَ، وأَنابَ:تابَ ورجعَ، وفي حديث الدُّعاءِ:(وإِليكَ أُنِيبُ)، الإِنابَةُ:الرُّجُوعُ إِلى الله بالتَّوْبة، وفي التَّنْزِيل العَزِيز:{مُنِيبِينَ إِلَيْهِ}، أَي:راجعينَ إِلى ما أَمرَ به، غيرَ خارِجينَ عن شَيْءٍ من أَمره]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفيه:أيضا: [ويُقَالُ:ثَابَ فُلاَنٌ إلى الله وتَابَ، بالثَّاءِ والتَّاءِ، أَيْ عَادَ وَرَجَعَ إلى طَاعَتِه، وكذلك أَثَابَ بمَعْنَاهُ، ورَجُلٌ تَوَّابٌ أَوَّابٌ *!ثَوَّابٌ مُنِيبٌ بِمَعْنًى وَاحد]ا.هـ.

وقال أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري في:(النهاية في غريب الأثر):[وفي حديث الدعاء:"وإليك أَنَبْتُ" الإنابة:الرجوع إلى اللهَّ بالتَّوبة، يقال:أناب يُنيب إنابةً فهو منيب، إذا أقبل ورجَع. وقد تكرر في الحديث]ا.هـ.

وفي الصحيحين عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ كَانَ النَّبِيُّ r إِذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ:"اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ حَقٌّ وَقَوْلُكَ حَقٌّ وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقٌّ وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ لَا إِلَهَ غَيْرُكَ".

وقد أثنى الله تعالى على عباده، سَرِيعِيْ الرَّجْعَةِ إليه، والانقطاع، التائبين إليه من قريب، كما قال تعالى:{إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء:١٧]، وقال:{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَّ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [آل عمران:١٣٥-١٣٦].

والأمر بالإنابة، والثناء على أصحابها، في سياقات الأدلة الشرعية هنا، دال على أنها عبادة لله جل وعلا، بهذا الاعتبار والوصف، يجب صرفها إلى الله وحده لا شريك له، فمن تاب إلى مخلوق وتعلق قلبه به، أن يغفر له ذنبه، ويقيل عثرته، ويتجاوز عن سيئاته؛ فهذا قد اتخذ مع الله آلهة أخرى، عياذا بالله من الشرك الأكبر، والذنب الذي لا يغفر.

وقد وُجِدَ في أصحاب الطرق الضالة المنحرفة - كالرافضة والمتصوفة، وأمثالهم من الفرق الباطنية - مَن يُتَوِّبون أتباعهم للشيوخ، وقد سمعنا وسمعتم عما يسمى بِصُكُوكِ الغفران، التي يصدرها رؤوس الضلال للأتباع، وهذا أشبه ما يكون بالتعميد الذي تفعله النصارى، وصدق رسول الله r :"لتتبعن سنن من كان قبلكم".

مقولة شركية سَرَت بين بعض الناس:

ومن المقولات الشركية المنتشرة بين العوام، قولهم:**(العفو لله والرسول)**، فإن إدخال الرسول r في هذا المقام لا يجوز، فإن معناها، اعف عني لأجل لله والرسول، وهذا تقرب بعبادة لغير الله تعالى، فهو من الشرك والعياذ بالله.

وكل هذا من منازعة الرب جل جلاله في صفات، هي من أخص صفاته جل وعلا، كالرحمة والمغفرة، والعفو والصفح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله:{وأسلموا له}:أي واستسلموا لأمره ونهيه، فلا تعترضوا عليه، ولا تعرضوا عنه، بل عليكم أن تحبوا شرعه، حالة كونكم منقادين له.

فالمستسلم المنقاد يفعل الأوامر محباً لها، وإن كانت شاقة على نفسه، ويترك النواهي مبغضاً لها، وإن كانت محببة إلى نفسه؛ لأن مدار حياته، الحب في الله، والبغض في الله، ومنها محبة ما يحبه الله، وبغض ما يبغضه الله.

فعلينا أن نلزم هذا المقام، في المنشط والمكره، ولنحذر من إنابة واستسلام الكَذَّابين، والمراوغين، والمتلاعبين بحق الله تعالى ، المتبعين لأهوائهم، كما قال تعالى:{وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} [الروم:٣٣].

وقد أثنى الله تبارك وتعالى على إبراهيم الخليل بهذه الخصلة، فقال تعالى:{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ} [هود:٧٥]، بل وبين تبارك وتعالى أن من أكثر العباد انتفاعا، وفكرة في ملكوت السموات والأرض، هو العبد المنيب، كما قال تعالى:{أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} [سبأ:٩]، كما امتدح بها عبده داود وابنه سليمان عليهما السلام، كما قال تعالى:{قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ} [ص:٢٤]، وقوله:{وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ} [ص:٣٤] ، وعمم فقال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} [ق:٦-٨].

مَزَايا العبد المُنيب:

وبين سبحانه وتعالى، أن العبد المنيب مَوْعُودٌ بالهداية من الله تبارك وتعالى، وأنه من أقرب العباد هداية واهتداء إلى الصراط المستقيم، كما قال تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ} [الرعد:٢٧].

بل وبين الله تعالى أن للمنيبين سبيلا، وأوصى باتباعها، وبين أنها هي أهدى وأقوم، أنها هي الحق، وأن ما عداها ضلال وباطل، وجعلهم قدوة للأنام، كما قال تعالى: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [لقمان:١٥].

وبين تبارك وتعالى أنها من أخص خصال الموحدين المحققين، وبشرهم تبارك وتعالى على ذلك، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ} [الزمر:١٧]، وقوله: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [الروم:٣٠-٣٢].

بل وبين تبارك وتعالى أنها خصلة تورث العبد جنات النعيم نسأل الله من فضله العظيم، كما قال تعالى:{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} [ق:٣١-٣٥].

قال المؤلف رحمه الله:(وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}. وَفِي الْحَدِيثِ:: "وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ"): الاستعانة:هي طلب دَفْعِ المكروه، أو طَلَبُ جَلْبِ المَحْبُوب.

مقامات الاستعانة:

وعليه فهذا المقام متوقف على طبيعة مادة الاستعانة، فإن كانت فيما يقدر عليه العباد؛ فلا حرج فيه، فيجوز أن تقول مثلا:(يا فلان أعني على حمل هذا المتاع) ونحو ذلك، وأما إن كان فيما لا يقدر عليه إلا الله جل وعلا؛ فالاستعانة هنا عبودية لله تعالى، وصرفها لغير الله شرك أكبر، كطلب حصول الخشوع في القلب، أو إدخال الهداية فيه، أو إقرار الأولاد في الأرحام، أو غير ذلك من الأعمال التي لا يملك عبد، أن يقذفها في قلب أحد، أو أن يهبها لأحد، فمن طلب العون على ذلك من غير الله تعالى؛ كان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مشركاً بالله كافرا، وكذلك طلب زيادة الهدى، ورفع الإيمان في القلب، والعصمة من الشيطان، كل ذلك لا يطلب إلا من الله وحده، ولا يقدر عليه أحد إلا هو سبحانه.

فلابد من تحرير المقام على هذا المنوال، حتى لا ننفي حقا، ولا نقر باطلا، فلابد من الاستفصال، ليتبين الحال.

فإن الاستعانة تأتي بمعنى المساعدة والمناصرة وشد الأزر، ومنه قوله تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة:٢].

ومنه قول بريرة لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها :(فأعينيني)، كما في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ جَاءَتْنِي بَرِيرَةُ فَقَالَتْ كَاتَبْتُ أَهْلِي عَلَى تِسْعِ أَوَاقٍ فِي كُلِّ عَامٍ وَقِيَّةٌ **فَأَعِينِينِي** فَقُلْتُ إِنْ أَحَبَّ أَهْلُكِ أَنْ أَعُدَّهَا لَهُمْ وَيَكُونَ وَلَاؤُكِ لِي فَعَلْتُ فَذَهَبَتْ بَرِيرَةُ إِلَى أَهْلِهَا فَقَالَتْ لَهُمْ فَأَبَوْا ذَلِكَ عَلَيْهَا فَجَاءَتْ مِنْ عِنْدِهِمْ وَرَسُولُ الله r جَالِسٌ فَقَالَتْ إِنِّي قَدْ عَرَضْتُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَأَبَوْا إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْوَلَاءُ لَهُمْ فَسَمِعَ النَّبِيُّ r فَأَخْبَرَتْ عَائِشَةُ النَّبِيَّ r فَقَالَ:"خُذِيهَا وَاشْتَرِطِي لَهُمْ الْوَلَاءَ فَإِنَّمَا الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ"، فَفَعَلَتْ عَائِشَةُ ثُمَّ قَامَ رَسُولُ الله r فِي النَّاسِ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ:"أَمَّا بَعْدُ مَا بَالُ رِجَالٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ الله مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ الله فَهُوَ بَاطِلٌ وَإِنْ كَانَ مِائَةَ شَرْطٍ قَضَاءُ الله أَحَقُّ وَشَرْطُ الله أَوْثَقُ وَإِنَّمَا الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ".

وفي صحيح مسلم عن رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الأَسْلَمِيُّ قَالَ كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ الله r فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي:"سَلْ". فَقُلْتُ أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ:"أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ". قُلْتُ هُوَ ذَاكَ. قَالَ:"فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، قَدَّمَ المَعْمُولَ على العَامِل، في قوله تعالى:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}؛ لإفادة الحصر والقصر، والمعنى: أي لا نعبد أحدا سواك، قد شرّفتنا يا الله بعبادتك، وأمرتنا ألا نعبد سواك، وهذا مقام عظيم ومنزلة عالية كبيرة؛ فنسألك المعونة على ذلك، إذ لا معين لنا على ذلك سواك، ولا يقدر على العون في ذلك إلَّاك، فكانت الاستعانة بالمولى تبارك وتعالى، عبودية من أجل العبوديات، في مقابلة استعانة المشركين، بأندادهم وآلهتهم الباطلة.

قال ابن جرير الطبري في تفسيره:[القول في تأويل قوله جل ثناؤه:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}.قال أبو جعفر: وتأويل قوله:{إيَّاكَ نعبُدُ}:لك اللهم نَخشعُ ونَذِلُّ ونستكينُ، إقرارًا لك يا رَبنا بالرُّبوبية لا لغيرك]ا.هـ.....إلى أن قال:[القول في تأويل قوله:{وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}.قال أبو جعفر: ومعنى قوله:{وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}: وإياك رَبنا نستعين على عبادتنا إيّاك وطاعتنا لك وفي أمورنا كلها لا أحدًا سواك، إذْ كان من يكفُر بك يَستعين في أمورِه معبودَه الذي يعبُدُه من الأوثان دونَك، ونحن بك نستعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة]ا.هـ..

وجاء في تفسير ابن أبي حاتم:[حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حَرْبٍ، ثنا زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ، عَنْ حُسَيْنِ بْنِ وَاقِدٍ، عَنْ مَطَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ:({إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} دَلَّ عَلى نَفْسِهِ أَنَّهُ كَذَا فَقُولُوا).حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الصَّبَّاحِ، ثنا عَبْدُ الْوَهَّابِ، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ قَتَادَةَ،فِي قَوْلِهِ:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، قَالَ:(يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ، وَأَنْ تَسْتَعِينُوهُ عَلَى أَمَرَكُمْ)]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في تفسير ابن كثير:[وقدم المفعول وهو {إياك}، وكرر؛ للاهتمام والحصر، أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة. والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله عز وجل. وهذا المعنى في غير آية من القرآن، كما قال تعالى:{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}، {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا}، {رَبَّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا}، وكذلك هذه الآية الكريمة:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}]ا.هـ.

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"قَالَ اللهُ تَعَالَى قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ (الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ). قَالَ اللهُ تَعَالَى حَمِدَنِي عَبْدِي وَإِذَا قَالَ (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ). قَالَ اللهُ تَعَالَى أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ). قَالَ مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ). قَالَ هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ). قَالَ هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (مجموع الفتاوى):[وَقَدْ جَمَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ فِي مَوَاضِعَ كَقَوْلِهِ:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} وَقَوْلِهِ:{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} وَقَوْلِهِ:{عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} وَقَوْلِهِ:{وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} {وَيَرْزُقْهُ مِنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهَّ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَّ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} فَالْعِبَادَةُ للهِ وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ وَكَانَ النَّبِيُّ r يَقُولُ عِنْدَ الْأُضْحِيَّةِ:"اللَّهُمَّ مِنْك وَلَك" فَمَا لَمْ يَكُنْ بِاَللهِ لَا يَكُونُ ؛ فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاَللهِ وَمَا لَمْ يَكُنْ بِاَللهِ فَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَدُومُ.

وَلَا بُدَّ فِي عِبَادَتِهِ مِنْ أَصْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا إِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ وَالثَّانِي مُوَافَقَةُ أَمْرِهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ ؛ وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ t يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِك خَالِصًا وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدِ فِيهِ شَيْئًا، وَقَالَ الْفُضَيْل بْنُ عِيَاضٍ فِي قَوْله تَعَالَى: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} قَالَ: أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، قَالُوا يَا أَبَا عَلِيٍّ: مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ قَالَ: إِذَا كَانَ الْعَمَلُ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا؛ وَالْخَالِصُ أَنْ يَكُونَ للهِ وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ وَلِهَذَا ذَمَّ اللهُّ الْمُشْرِكِينَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى اتِّبَاعِ مَا شَرَعَ لَهُمْ شُرَكَاؤُهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُّ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ وَفِعْلِ مَا لَمْ يَشْرَعْهُ مِنْ الدِّينِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُّ} كَمَا ذَمَّهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ حَرَّمُوا مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللهُّ، وَالدِّينُ الْحَقُّ أَنَّهُ لَا حَرَامَ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ اللهُّ وَلَا دِينَ إِلَّا مَا شَرَعَهُ.

ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ فِي عِبَادَتِهِ وَاسْتِعَانَتِهِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:

فَالْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ هُمْ لَهُ وَبِهِ يَعْبُدُونَهُ وَيَسْتَعِينُونَهُ. وَطَائِفَةٌ تَعْبُدُهُ مِنْ غَيْرِ اسْتِعَانَةٍ وَلَا صَبْرٍ فَتَجِدُ عِنْدَ أَحَدِهِمْ تَحَرِّيًا لِلطَّاعَةِ وَالْوَرَعِ وَلُزُومِ السُّنَّةِ؛ لَكِنْ لَيْسَ لَهُمْ تَوَكُّلٌ وَاسْتِعَانَةٌ وَصَبْرٌ، بَلْ فِيهِمْ عَجْزٌ وَجَزَعٌ . وَطَائِفَةٌ فِيهِمْ اسْتِعَانَةٌ وَتَوَكُّلٌ وَصَبْرٌ مِنْ غَيْرِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اسْتِقَامَةٍ عَلَى الْأَمْرِ وَلَا مُتَابَعَةٍ لِلسُّنَّةِ فَقَدْ يُمَكَّنُ أَحَدُهُمْ وَيَكُونُ لَهُ نَوْعٌ مِنْ الْحَالِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا وَيُعْطَى مِنْ الْمُكَاشَفَاتِ وَالتَّأْثِيرَاتِ مَا لَمْ يُعْطَهُ الصِّنْفُ الْأَوَّلُ وَلَكِنْ لَا عَاقِبَةَ لَهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ الْمُتَّقِينَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى، فَالْأَوَّلُونَ لَهُمْ دِينٌ ضَعِيفٌ وَلَكِنَّهُ مُسْتَمِرٌّ بَاقٍ، إنْ لَمْ يُفْسِدْهُ صَاحِبُهُ بِالْجَزَعِ وَالْعَجْزِ، وَهَؤُلَاءِ لِأَحَدِهِمْ حَالٌ وَقُوَّةٌ وَلَكِنْ لَا يَبْقَى لَهُ إلَّا مَا وَافَقَ فِيهِ الْأَمْرَ وَاتَّبَعَ فِيهِ السُّنَّةَ وَشَرُّ الْأَقْسَامِ مَنْ لَا يَعْبُدُهُ وَلَا يَسْتَعِينُهُ]ا.هـ.

قوله:(وفي الحديث: "إذا استعنت فاستعن بالله"): هذا الحديث أخرجه أحمد والترمذي وأبو يعلى وغيرهم من طريق قيس بن الحجاج عن حنش الصنعاني عن ابن عباس قال:كنت خلفت رسول الله r يوما فقال:"يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله **واعلم** أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف". قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

ومعنى: "إذا استعنت فاستعن بالله"، "إذا " ظرف لما يستقبل من الزمان، أي: إذا أردت العون، فابدأ بالله جل وعلا، حتى وإن كان فيما يقدر عليه المخلوق، فاجعل الله تعالى أول مبدوء به جل الله في علاه، وهذا تربية للنفوس على حسن التوكل على الله، ومداومة الالتجاء إليه، وملازمة ذلك، واستشعار الحاجة والفاقة إلى الله جل وعلا، وأن العبد لا حول له، ولا قوة له، إلا بالله جل وعلا، مهما عظمت قدراته وإمكاناته، وهذه عبودية عظيمة جليلة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حِمَايَة النَّبِي r حِمَى التوحيد:

وتأمل كيف أن النبي r ، أمر صاحبه ودَلَّهُ، على الله تعالى، على كل حال، فلم يقل:(فاستعن بي)، مع أنه رأس الأولياء، وإمام الأتقياء، وسيد ولد آدم أجمعين، وهذا دال على ما كان يربي عليه النبي r أتباعه، وهو إرشاد للأمة من بعدهم، فدله r على الأصل الذي ينبغي أن يكون عليه العباد، وهذا إذا كان في الأمور التي يقدر عليها العباد، فكيف فيما لا يقدر عليه إلا الله؟، فويل للمشركين، الذين يَدُلُّونَ الناس على أنفسهم، أو على غيرهم من المخلوقين؛ ليسألوهم تفريج الكربات، وقضاء الحاجات، وإغاثة اللهفات، ألا فليعلم كل من كان كذلك، أن هذا من الشرك الأكبر، والذنب الذي لا يغفر.

الاستعانة بالأخذ بالأسباب المشروعة:

وأعلم أن الله تبارك وتعالى، قد دل عباده على جملة من الأمور، التي يُشْرَعُ الاستعانة بها، فهي من منازل الأسباب التي شرعها الله تعالى لعباده، واعلم أن من أجلها وأعظمها، الاستعانة بِمَحَابِه ومَرَاضِيهِ على طاعته سبحانه وتعالى، وهذا من غاية التفويض والاعتصام، والالتجاء والتقرب، لله جل جلاله، حتى يكون الأمر منه وإليه جل الله في علاه، ومن ذلك الدعاء والصلاة والذكر والتقوى والصبر والصيام، ونحو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك من العبادات التي دل الله تعالى عليها عبده، وجعلها سببا لتحصيل النفع منه سبحانه تعالى.

فمن ذلك قوله تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة:٤٥]، وقوله: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} [البقرة:١٥٢]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة:١٨٣]، وقوله: {وَاتَّقُوا اللهَّ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [البقرة: ١٨٩]، وقوله: {وَاتَّقُوا اللهَّ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُّ} [البقرة:٢٨٢]، وقوله: {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} [آل عمران:١٢٥]، وقوله: {وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَّ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا} [النساء:٩]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَّ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُّ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الأنفال: ٢٩]، وقوله: {قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [يونس:٨٩] ، وقوله: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق:٢-٣]، وقوله: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} [الطلاق:٥]، وقوله: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر:٦٠]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُّ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [الحديد:٢٨]، وقوله: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [القصص:٥٢-٥٤]، وقوله: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}[البقرة: ١٨٦]، وقوله: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور:٢٢]، ونحو ذلك من الآيات.

الاستخارة من أعظم مقامات الاستعانة بالله تعالى:

واعلم أن من أعظم الاستعانة بالله تعالى، استخارته جل وعلا في الأمور، كما في صحيح البخاري عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ r يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنْ الْقُرْآنِ يَقُولُ:"إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلْ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي قَالَ وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[وَيَدْعُو بِالْأَدْعِيَةِ الَّتِي فِيهَا طَلَبُ إعَانَةِ اللهِ لَهُ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ كَقَوْلِهِ:{أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِك وَشُكْرِك وَحُسْنِ عِبَادَتِك}، وَقَوْلِهِ:{يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِك وَيَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ اصْرِفْ قَلْبِي إلَى طَاعَتِك وَطَاعَةِ رَسُولِك}، وَقَوْلِهِ:{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْك رَحْمَةً إنَّك أَنْتَ الْوَهَّابُ}، وَقَوْلِهِ:{رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْك رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا}، وَمِثْلِ قَوْلِهِ:{اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي وَاكْفِنِي شَرَّ نَفْسِي}. وَرَأْسُ هَذِهِ الْأَدْعِيَةِ وَأَفْضَلُهَا قَوْلُهُ:{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}. فَهَذَا الدُّعَاءُ أَفْضَلُ الْأَدْعِيَةِ وَأَوْجَبُهَا عَلَى الْخَلْقِ فَإِنَّهُ يَجْمَعُ صَلَاحَ الْعَبْدِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ "بِالتَّوْبَةِ" فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ الدُّعَاءَ بِأَنْ يُلْهِمَ الْعَبْدَ التَّوْبَةَ وَكَذَلِكَ دُعَاءُ "الِاسْتِخَارَةِ" فَإِنَّهُ طَلَبُ تَعْلِيمِ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ وَتَيْسِيرِهِ لَهُ وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ الَّذِي كَانَ النَّبِيُّ r يَدْعُو بِهِ إذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ. وَهُوَ فِي الصَّحِيحِ:{اللَّهُمَّ رَبَّ جبرائيل وميكائيل وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِك فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اُخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِك إنَّك تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}. وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ الَّذِي فِيهِ:{اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِك مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعْصِيَتِك وَمِنْ طَاعَتِك مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَك وَمِنْ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا}، وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ بِالْيَقِينِ وَالْعَافِيَةِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي قَلْبِي وَنِيَّتِي، وَمِثْلُ قَوْلِ الْخَلِيلِ وَإِسْمَاعِيلَ:{وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَك وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَك}]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في كتاب (التفسير القيم لابن القيم):[فصل إذا عرفت هذا فالناس في هـذين الأصلين وهما العبادة والاستعانة، أربعة أقسام:أجلها وأفضلها أهل العبادة والاستعانة بالله عليها فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليهـا ويـوفقهم للقيـام بهـا ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته وهو الذي علمه النبي لحبه معاذ بن جبل t فقال:"يا معاذ والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول دبـر كـل صلاة اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"، فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هـذا وعلى دفع ما يضاده وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: تأملت أنفع الدعاء فـإذا هـو سـؤال العون على مرضاته ثم رأيته في الفاتحة في:{إياك نعبد وإياك نستعين}، ومقابـل هـؤلاء القسم الثاني: وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به فلا عبـادة ولا اسـتعانة بـل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشـهواته لا عـلى مرضـاة ربـه وحقوقـه فإنـه سبحانه يسأله من في السموات والأرض يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمد هؤلاء وهـؤلاء وأبغض خلقه عدوه إبليس ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها ومتعه بها ولكن لما لم تكن عونا له على مرضاته كانت زيادة له في شقوته وبعده عن الله وطـرده عنـه وهكـذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ولم يكن عونـا عـلى طاعتـه كـان مبعـدا لـه عـن مرضاته قاطعا له عنه ولا بد، وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره ولـيعلم أن إجابـة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكـه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وشقوته ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له فيمنعه حماية وصيانة وحفظا لا بخلا وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته ويعامله بلطفه فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه ويراه يقضي حوائج غيره فيسيء ظنه بربه وهذا حشو قلبه ولا يشعر به والمعصوم من عصمه الله والإنسان على نفسه بصيرة وعلامة هذا حمله على الأقدار وعتابه الباطن لها كما قيل:

وعاجز الرأي مضياع لفرصته ... حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأي هناك معاتبة القدر واتهامه وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ولكن ما حيلتي والأمر ليس إلي والعاقل خصم نفسه والجاهل خصم أقدار ربه، فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئا معينا خيرته وعاقبته مغيبة عنك وإذا لم تجد من سؤاله بدا فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة بل استخارة من لا علم له بمصالحه ولا قدرة له عليها ولا اهتداء له إلى تفاصيلها ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك وانفرط عليه أمره، وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال تسأله أن يجعله عونا لك على طاعته وبلاغا إلى مرضاته ولا يجعله قاطعا لك عنه ولا مبعدا عن مرضاته ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان يمتحن بهما عباده قال الله تعالى: {فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن * وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن *كلا}، أي ليس كل من أعطيته ونعمته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وخولته فقد أكرمته وما ذاك لكرامته علي ولكنه ابتلاء عَلِيٌّ وامتحان له أيشكرني فأعطيه فوق ذلك أم يكفرني فأسلبه إياه وأخول فيه غيره وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه وجعلته بقدر لا يفضل عنه فذلك من هوانه علي ولكنه ابتلاء وامتحان مني له أيصبر فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق أم يتسخط فيكون حظه السخط

فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام وأن الفقر إهانة فقال لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته علي ولم أبتله بالفقر لهوانه علي فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته ويقتر على المؤمن لا لإهانته إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته فله الحمد على هذا وعلى هذا وهو الغني الحميد؛ فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى {إياك نعبد وإياك نستعين}.

فصل القسم الثالث من له نوع عبادة بلا استعانة وهؤلاء نوعان: أحدهما: القدرية القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها وتعريف الطريق وإرسال الرسل وتمكينه من الفعل فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء ولكن أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد أوجب لهم الإيمان وخذل هؤلاء بأمر آخر أوجب لهم الكفر فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة لا استعانة معه فهم موكولون إلى أنفسهم مسدود عليهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

طريق الاستعانة والتوحيد قال ابن عباس رضي الله عنهما الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده.

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر وتلاشيها في ضمنه وقيامها به وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له بل كالعدم الذي لا وجود له وأن القدر كالروح المحرك لها والمعول على المحرك الأول، فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك ومن السبب إلى المسبب ومن الآلة إلى الفاعل فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم فقل نصيبهم من إياك نستعين ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف، فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير بحسب استعانتهم وتوكلهم ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه وكان مأمورا بإزالته لأزاله

فإن قلت فما معنى التوكل والاستعانة؟، قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع والعطاء والمنع وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس فيوجب له هذا اعتمادا عليه وتفويضا إليه وطمأنينة به وثقة به ويقينا بكفايته لما توكل عليه فيه وأنه ملي به ولا يكون إلا بمشيئته شاءه الناس أم أبوه، فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مليان بهما فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه وحبس همه على إنزال ما ينويه بهما فهذه حال المتوكل ومن كان هكذا مع الله؛ فالله كافيه ولا بد، قال الله تعالى: {ومن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يتوكل على الله فهو حسبه} أي كافيه، والحسب الكافي، فإن كان مع هذا من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة وإن لم يكن من أهل التقوى فهو.

القسم الرابع: وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولم يدر مع ما يحبه ويرضاه فتوكل عليه واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه وطلبها منه وأنزلها به فقضيت له وأسعف بها سواء كانت أموالا أو رياسة أو جاها عند الخلق أو أحوالا من كشف وتأثير وقوة وتمكين ولكن لا عاقبة له فإنها من جنس الملك الظاهر والأموال لا تستلزم الإسلام فضلا عن الولاية والقرب من الله فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر والمؤمن والكافر فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه وأنه من أوليائه المقربين فهو من أجهل الجاهلين وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه والتمييز بين ما يحبه ويرضاه ويكرهه ويسخطه فالحال من الدنيا فهو كالملك والمال إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته وتنفيذ أوامره ألحقه بالملوك العادلين البررة وإلا فهو وبال على صاحبه ومبعد له عن الله وملحق له بالملوك الظلمة والأغنياء الفجرة.

فصل إذا عرف هذا فلا يكون العبد متحققا ب إياك نعبد، إلا بأصلين عظيمين، أحدهما: متابعة الرسول، والثاني: الإخلاص للمعبود، فهذا تحقيق إياك نعبد]ا.هـ.

قال المؤلف:(ودليل الاستعاذة:{قل أعوذ برب الفلق} و{قل أعوذ برب الناس}):

الاستعاذة: طلب دفع المكروه، وهي الاعتصام والالتجاء، ومنه (شجرة عُوَّذ) إذا كانت ملتفة كثيرة الأغصان. واللياذ: قيل عكس العياذ: وهو طلب جلب المحبوب،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والظاهر أن ليس هو كذلك على كل حال، بل بينهما تداخل في المعنى، كما في لسان العرب:[لاذَ به يَلوذ لَوْذاً و لواذاً ولُواذاً ولِياذاً: لَجَأَ إِليه وعاذَ به. ولاوَذَ مُلاوَذَةً و لِواذاً و لِياذاً:استتر. وقال ثعلب:لُذْت به لِواذاً احتَضَنْتُ. ولاوَذَ القومُ مُلاوَذةً ولِواذاً أَي لاذَ بَعْضُهُم ببعض ومنه قوله تعالى:{يتسللون منكم لواذاً} .....لاذ به التجأَ إِليه وانضم واستغاث. والمَلاذُ و المَلْوَذَةُ:الحِصن. ولاذَ به ولاوَذَ وأَلاذَ :امتنع. ولاوَذَه لِواذاً:راوَغَهُ]ا.هـ.

ومنه ما في الصحيح البخاري عَنْ أَبِي مُوسَى t عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَطُوفُ الرَّجُلُ فِيهِ بِالصَّدَقَةِ مِنْ الذَّهَبِ ثُمَّ لَا يَجِدُ أَحَدًا يَأْخُذُهَا مِنْهُ وَيُرَى الرَّجُلُ الْوَاحِدُ يَتْبَعُهُ أَرْبَعُونَ امْرَأَةً يَلُذْنَ بِهِ مِنْ قِلَّةِ الرِّجَالِ وَكَثْرَةِ النِّسَاءِ".

وفي اللغة: جاء في (النهاية في غريب الأثر):[يقال:عُذْت به أعُوذ عَوْذاً وعِيَاذاً ومَعاذاً: أي لَجَأت إليه. والمَعاذ المصدرُ والمكان والزمان: أي لَقد لَجَأت إلى مَلْجأ ولُذْت بِمَلاذٍ]ا.هـ.

وفي (تاج العروس من جواهر القاموس):[عوذ:(العَوْذُ: الالْتِجَاءُ، كالعِيَاذِ) بالكسر(والمَعَاذِ والمَعَاذَةِ والتَّعَوُّذِ والاسْتِعاذَةِ) عاذَبه يَعُوذ:لاَذَبه وَلَجَأَ إِليه واعْتَصَم.وعُذْتُ بفُلانٍ واستَعَذْتُ به، أَيلَجَأْتُ إِليه. وفي الحديث:(إِنَّمَا قَالَهَا تَعَوُّذاً) أَي:إِنما أَقَرَّ بالشَّهَادَةِ لاجِئاً إِليها ومُعْتَصِماً بها لِيَدْفَع عنه القَتْلَ، وليس بمُخْلِصٍ في إِسْلامه]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والاستعاذة، إذا أريد بها فزع القلب إلى من يعتصم به ويتوكل عليه، فهذا لا يكون إلا لله الواحد القهار، فمن صرف ذلك إلى غيره تبارك وتعالى فقد كفر بالله أو أشرك، وإن قصد بها عمل العبد في الظاهر، بحيث تكون بمعنى الالتجاء إلى ما يَسْتَتِرُ به ويَتَحَصَّن فيه، مما جعله الله سببا لذلك، فهي هنا بمعنى الاستعانة الجائزة كما تقدم تقريرها، المتأمل في استعمالات هذه اللفظة في الكتاب والسنة، يقطع بأن الأصل في إطلاقها أن تكون لله تبارك وتعالى، وقد ذم الله تبارك وتعالى من يستعيذ بغيره جل وعلا، كما في قوله تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} [الجن:٦]، ولهذا لا تأتي في القرآن إلا مختصة بالله تعالى، كما في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [البقرة:٦٧]، وقوله: {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [هود:٤٧]، وقوله: {قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} [مريم:١٨-١٩]، وقوله: {وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ} [المؤمنون:٩٧]، وقوله: {وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ} [غافر:٢٧]، وقوله: {وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ} [الدخان:٢٠]، وقوله: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} [الفلق:١]، وقوله: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} [الناس:١].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما في السنة، فهي كذلك أيضا، فمن ذلك ما في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ r أَنَّ رَسُولَ الله r كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ:"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ" فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ مِنْ الْمَغْرَمِ، فَقَالَ:"إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ"، وفي صحيح البخاري من طريق عِكْرِمَة قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ وَلِابْنِهِ عَلِيٍّ انْطَلِقَا إِلَى أَبِي سَعِيدٍ فَاسْمَعَا مِنْ حَدِيثِهِ فَانْطَلَقْنَا فَإِذَا هُوَ فِي حَائِطٍ يُصْلِحُهُ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَاحْتَبَى ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُنَا حَتَّى أَتَى ذِكْرُ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ كُنَّا نَحْمِلُ لَبِنَةً لَبِنَةً وَعَمَّارٌ لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ فَرَآهُ النَّبِيُّ r فَيَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْهُ وَيَقُولُ:"وَيْحَ عَمَّارٍ تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ" قَالَ يَقُولُ عَمَّارٌ:"أَعُوذُ بِالله مِنْ الْفِتَنِ". وفي الصحيحين عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ t قَالَ كَانَ النَّبِيُّ r إِذَا دَخَلَ الْخَلَاءَ قَالَ:"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ".وفي الصحيحين عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ r كَانَ يَقُولُ:"أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ"، وفي صحيح مسلم عن ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله r كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ:"سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالأَهْلِ". وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ. وَزَادَ فِيهِنَّ:"آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ"، وفي صحيح مسلم عَنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُولِ الله r وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله r :"ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ وَقُلْ بِاسْمِ الله . ثَلاَثًا. وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِالله وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ"، وفي صحيح مسلم عن سَعْد بْن أَبِى وَقَّاصٍ يَقُولُ سَمِعْتُ خَوْلَةَ بِنْتَ حَكِيمٍ السُّلَمِيَّةَ تَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً ثُمَّ قَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ؛ لَمْ يَضُرُّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ".

بيان ضعف ما ورد بلفظ الاستعاذة بغير الله:

ومثل هذا كثير جدا، ولا أعلم حديثا صحيحا صريحا يدل على جواز إطلاق الاستعاذة بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته، وأما قول غلام أبي مسعود t ، لما كان أبو مسعود t يَضْرِبُه وهو يقول:(أَعُوذُ بِرَسُولِ الله)، فهذه اللفظة شاذة في هذا الخبر فقد أخرج مسلم أصل هذا الخبر وأخرج هذه الرواية وبين علتها وضعفها، حيث تفرد بها ابن أبي عدي في مقابلة جمهرة من الحفاظ الكبار رووا الخبر بدون هذه الزيادة، فهي زيادة شاذة منكرة، لا يجوز الاحتجاج بها.

فأصل الخبر في صحيح مسلم هو من طريق الأَعْمَشُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ كُنْتُ أَضْرِبُ غُلاَمًا لِي بِالسَّوْطِ فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي:"اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ". فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ - قَالَ - فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ الله r فَإِذَا هُوَ يَقُولُ:"اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ". قَالَ فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنْ يَدِي فَقَالَ:"اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلاَمِ". قَالَ فَقُلْتُ: لاَ أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا.

وقد روى هذا الخبر بدون هذه الزيادة كل من سفيان وجرير وأبو عوانة وعبد الواحد بن زياد وأبو معاوية كلهم عن الأعمش به، بينما رواه ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ عَنْ شُعْبَةَ عَنْ سُلَيْمَانَ الأعمش عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ أَنَّهُ كَانَ يَضْرِبُ غُلاَمَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ أَعُوذُ بِالله - قَالَ - فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ فَقَالَ **أَعُوذُ بِرَسُولِ الله**. فَتَرَكَهُ فَقَالَ رَسُولُ الله **r** :"وَالله للهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ".قَالَ فَأَعْتَقَهُ.ا.هـ.

ومع أنه تفرد بهذا عن شعبة عن الأعمش، فقد خالفه حتى في روايته عن شعبة من هو أوثق منه بكثير وهو محمد بن جعفر المعروف بغندر، فروى هذا الخبر عن شعبة عن الأعمش به بدون هذه الزيادة، وهذا ما بينه مسلم بقوله:وَحَدَّثَنِيهِ بِشْرُ بْنُ خَالِدٍ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدٌ - يَعْنِى ابْنَ جَعْفَرٍ - عَنْ شُعْبَةَ بِهَذَا الإِسْنَادِ وَلَمْ يَذْكُرْ قَوْلَهُ :(أَعُوذُ بِالله أَعُوذُ بِرَسُولِ الله **r**). قلت: ورواه عبد الرزاق في مصنفه بهذه الزيادة من مراسيل الحسن، ولا يصح.

ومثله في الضعف الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده من طريق فُلَيْتٌ عَنْ جَسْرَةَ بِنْتِ دَجَاجَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ بَعَثَتْ صَفِيَّةُ إِلَى رَسُولِ الله **r** بِطَعَامٍ قَدْ صَنَعَتْهُ لَهُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَهُوَ عِنْدِي فَلَمَّا رَأَيْتُ الْجَارِيَةَ أَخَذَتْنِي رِعْدَةٌ حَتَّى اسْتَقَلَّنِي أَفْكَلُ[١] فَضَرَبْتُ الْقَصْعَةَ فَرَمَيْتُ بِهَا قَالَتْ فَنَظَرَ إِلَيَّ رَسُولُ الله r فَعَرَفْتُ الْغَضَبَ فِي وَجْهِهِ فَقُلْتُ أَعُوذُ بِرَسُولِ الله أَنْ يَلْعَنَنِي الْيَوْمَ، قَالَتْ قَالَ:"أَوْلَى" قَالَتْ قُلْتُ وَمَا كَفَّارَتُهُ يَا رَسُولَ الله قَالَ:"طَعَامٌ كَطَعَامِهَا وَإِنَاءٌ كَإِنَائِهَا". فهذا إسناد لا يحتج بمثله لحال فليت وجسرة، فقد تُكُلِّم فيهما، كما أنهما لا يحتمل تفردهما بمثل هذه الأصول الكبار.

وعليه فَتُتَّقَى هذه اللفظة في حق البشر، فلا تطلق إلا على رب البشر، تبارك وتعالى، كما هو إطلاقها في الكتاب والسنة، فلا يجوز أن تطلق على غير الله جل وعلا، وهي في ذلك كالتوكل في عدم جواز استعمال (ثم) فيها، كما تقدم، فلا يجوز أن تقول (أعوذ بالله ثم بك).

قال الإمام ابن خزيمة في كتابه (التوحيد):[أفليس العلم محيطًا يا ذوي الحِجَا أنه غير جائز أن يأمر النبي r بالتعوذ من خلق الله من شر خلقه،.....إلى أن قال: أو يُجِيزَ أن يقول أعوذ بالصفا والمروة، أو أعوذ بعرفات ومنى، من شر ما خلق الله، هذا لا يقوله ولا يجيز القول به مسلم يعرف دين الله، محال أن يستعيذ مسلم بخلق الله من شر خلقه]ا.هـ.

---

١ - جاء في النهاية في غريب الأثر:[(أَفْكَلُ) الأَفْكَل بالفتح، الرِّعدة من بَرْد أو خوف.....ومنه حديث عائشة رضي اللّه عنها:(فأخذني أفْكَل وارْتَعَدْتُ من شدة الغَيْرَة)]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:{قل أعوذ برب الفلق} و{قل أعوذ برب الناس}، في قوله{قل} إثبات أن القرآن كلام الله، لا مدخل لفعل عبد فيه، فقد نزل به الروح الأمين، بهذه الحروف:{قل أعوذ برب الفلق}، وهكذا نقله النبي r لأصحابه، وللأمة من بعدهم، فلم يقل النبي r إن الله تعالى أمرني أن أقول:{أعوذ برب الفلق}، بل تلاها r كما نزلت من عند الله تعالى، إذ هي من كلام الله تبارك وتعالى، ولا تصرف لعبد فيها.

قوله:{الفلق}، قيل القمر، وقيل الليل، وقيل الخلق كله، وهذا أشمل وأظهر، فيكون المعنى، أي: أعوذ برب الخلق كله من شر ما خلق، واختصاص ذكر اسم الله (الرب) هنا ظاهر، فإنه أخص بمقام التصرف والكفاية والمدافعة. والله أعلم.

ومثله في قوله:{قل أعوذ برب الناس}، فهو سبحانه رب الناس، ورب الفلق، ورب العالمين، جل الله في علاه، وفي هذا لَمٌّ لِشَعَثِ القلوب على علام الغيوب، جل الله في علاه، فلا تذهب بعيدا أيها العبد، فإن ما حولك من الشرور، لا يعلمها إلا الله رب العالمين، لا تفزع إلى أحد سواه، فإن الله تعالى يعلم وهم لا يعلمون، فاعتصم به وافزع إليه؛ يكفك، شر الأشرار، وكيد الفجار، وشر ما تعاقب عليه الليل والنهار، {أليس الله بكاف عبد ويخوفونك باللذين من دونه}، واعتبر بهذا الآيات، قال تعالى في شأن نبيه صالح عليه السلام مع قومه ثمود:{وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [النمل:٤٨-٥٣]، وقوله: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ } [الأنعام:١٢٣-١٢٤]، وقوله: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ} [يوسف:١٠٢]، وقوله: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل:١٢٧-١٢٨]، وقوله: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} [النمل:٦٩-٧٠]، وقوله: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَللهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ} [فاطر:١٠]، وقوله: {وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَللهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد:٤٢]، وقوله: {وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا (٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} [فاطر:٤٢-٤٤] ، وقوله:{وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} [إبراهيم:٤٦-٤٧] .

فاعتصم بالله وعُذْ بِه والتَجِيء إليه، وتذكر الحديث المتقدم آنفا:"لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ". وقول الله تعالى:{قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} [الجن:٢٢].

وقوله تعالى:{قل أعوذ برب الناس}، أي موجدهم ومربيهم بنعمه، فإذا عُلِمَت هذه الحقيقة وتم الإقرار بها، جاء الأمر الآخر، وهو أن رَبَّ الناس هو مالكهم، والمالك هو المتصرف في خلقه كونا وشرعا، فهو القائم على مصالحهم، وهو الحاكم فيهم جل وعلا، فقال:{ملك الناس} أي هو الذي يملكهم ويحكم فيهم، فإذا عُلِمَت هذه الحقيقة وتم الإقرار بها؛ جاءت النتيجة العظمى، ألا وهي أنه سبحانه هو إلههم الذي لا معبود لهم سواه، ولا يجوز لهم صرف العبادة إلى غيره أبدا؛ فقال:{إله الناس}، أي هو الذي يجب أن يُؤْلَه وحده، ويُحب ويُعبد، على إحسانه إلى خلقه، وعلى كماله في أسمائه وصفاته، وعظيم حكمته، وجماله وجلاله، تبارك وتعالى، ولأنه حقه الذي أمر به عباده، ولم يخلقهم لشيء سواه، وكل ذلك يستلزم ألا يُعْبَدَ أحد إلا إياه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال المؤلف:(ودليل الاستغاثة:{إذ نستغيثون ربكم فاستجاب لكم}: الاستغاثة:هي النداء ومنه الصياح طلبا للعون والنُجدة، ومنه قوله تعالى:{فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ} [القصص:١٥].

ومنه في الحديث قول هاجر عليها السلام:"أَغِثْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ"، أخرجه البخاري. وسيأتي بيانه.

فالاستغاثة إذا، تأتي بمعنى طلب العون من فاقة إلى ذلك، وشدة حاجة، ومن هنا افترقت عن مطلق الاستعانة، وعليه فحكم الاستغاثة، يتوقف على طبيعة حالة المستغيث، ومادة استغاثته؛ ولهذا جاء استعمالها في القرآن الكريم في سياقين مختلفين، فاختلف الحكم فيهما لاختلاف الحال.

وعليه فالاستغاثة على نوعين:

١ - استغاثة مشروعة. ٢ - استغاثة الممنوعة.

والاستغاثة الممنوعة المذمومة تنقسم إلى أقسام:

١ - فيما لا يقدر عليه إلا الخالق تبارك وتعالى فهذه شرك أكبر وذنب لا يغفر.

٢ - الاستغاثة بالخالق جل جلاله على إنفاذ أمر محرم، فهذا جهل بأسماء الله وصفاته، وإثم وعصيان، وربما اسْتُجِيبَ له استدراجا وابتلاء.

٣ - فيما يقدر عليه المخلوق، ولكن مادة الاستغاثة محرمة، كما سيأتي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والاستغاثة المشروعة تنقسم إلى قسمين:

١ - الاستغاثة بالله جل جلاله، فهذه عبودية من أجل العبوديات، يتعين صرفها لله رب العالمين وحده لا شريك له، والتعبد له بذلك جل جلاله، وهي دالة على تعلق قلب العبد بالرب تبارك وتعالى، ومعرفته بالله جل وعلا، كما قال تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [النمل: ٦٢]، وبها توجه إلى الله تعالى، أئمة الهدى، ومصابيح الدجى، وسادات الأولياء والصالحين، وأئمة المتقين، وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون، كما في دعاء ذي النون عليه السلام، في قوله تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} [الأنبياء:٨٧- ٨٨]، وبها قام النبي r يوم بدر يَهْتِفُ بربه، ومعه العصابة المؤمنة y، قد انقطعت القلوب عن العلائق، وتوجهت إلى خالقها ورازقها وولي نعمتها، القوى العزيز، مالك الملك، والمتفرد بالجلال والجمال والكمال، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ألا وهو الله رب العالمين؛ فجاءهم الفرج والمدد من الله رب العالمين، الذي له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين، كما قال تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال:٩]، ومثل ذلك من الفرج ما جاءهم يوم الأحزاب، في غزوة الخندق، التي قال الله تعالى في وصف حال المؤمنين فيها، وما وقع من الإرجاف من المنافقين، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا} [الأحزاب:٩-١٣]، ولكن كانت القلوب المؤمنة متعلقة بالقوي العزيز، العليم الحكيم، في مقابلة خور المنافقين وسوء ظنهم بالله رب العالمين، فاستطار نور الإيمان في قلوب الصادقين، ونجم النفاق من قلوب المنافقين، وكُلٌّ تكلم بما وَعَاهُ قلبه في ذلك الحين، وكما قيل: عند الشدائد تتمايز الصفوف، وتتمحص القلوب، ويجعل الله تعالى العاقبة للمتقين، فأظهر الله تعالى على ألسنة الصادقين، ما امتدحهم الله به، في قوله: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا} [الأحزاب:٢٣-٢٧].

وتأمل ما جرى مع موسى عليه السلام، عندما أراد فرعون اللعين الذميم، أن يستأصل الفئة المؤمنة الصادقة، ولكن هيهات هيهات فإن الله تعالى ليدافع ويغار جل الله في علاه، قال تعالى: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الشعراء:٦١-٦٨].

وهذه العبودية قد عرفها في حال الشدة والضيق والفاقة والورطة ومسيس الحاجة حتى المشركون الأوائل، فإذا استجاب الله لهم، فنجاهم من الكرب؛ عادوا إلى ما كانوا عليه من الشرك بالله تعالى، كما قال تعالى: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ}[الأنعام:٦٣-٦٤]، وقوله: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [يونس:٢٢-٢٣]، وقوله:{فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [العنكبوت:٦٥-٦٦]، وقوله:{وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ} [لقمان:٣٢].

وذلك بخلاف الفئة المؤمنة الصابرة، فإنها تلزم عتبة العبودية على كل حال، فالله تعالى هو معبودها، ولا معبود لها سواه، سيان في السراء أو الضراء، وعلى هذا كانت البيعة على الإيمان والاتباع، كما في الصحيحين عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ:"بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ r عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ".

فيقال إذا: الاستغاثة فيما يقدر عليه المخلوق مما أذن الله تعالى فيه جائزة مشروعة، وأما إن كانت الاستغاثة فيما يقدر عليه المخلوق، ولكن كانت مادتها محرمة، منع الغوث والنجدة في هذه الحال، كصاحب الحرام يستغيث على قضاء وطره منه، وكالقاتل يطلب النجدة والمدد، وكاللص يسأل الملجأ للفرار والنجاة من العقوبة، ونحو ذلك فكل هذا لا يجوز العون فيه ولا الإغاثة وإن كانت في مقدور المخلوق، كما قال تعالى:{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة:٢].

وإن كانت فيما لا يقدر عليه إلا الخالق تبارك وتعالى؛ فهذا كما تقدم هو الشرك الأكبر، كمن ينادي الأموات ويستنجد بهم، مستغيثاً طالبا الفرج منهم، وكذلك من ينادي الغائبين أو حتى الحاضرين فيما لا يقدر عليه إلا الله رب العالمين، فهذا متعلق بما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هو أهون وأوهن من بيت العنكبوت، ولربما أجابه الشيطان، إلى بعض ذلك، مما جعله الله تبارك وتعالى، في مقدور الشياطين، فتنةً من الله وامتحاناً، بل لربما، استغاثهم في أمرٍ فيستجيب الله دعاءه فتنة له، وذلك لأن العبد كما تقدم، لا يجوز له أبدا أن يبني دينه على الأحوال التي تجري بين يديه، خارقة لما اعتاده الناس في هذا الأوان أو ذاك، أو على ما يسمى بالتجربة الناجحة –زعموا-، فإنما هو نجاح مزيف، وكيف يكون نجاحا وهو الشرك بالله تعالى؟!.

ولهذا كما تقدم قد يُسْتَجاب للمشرك، وقد يُعْطَى الكافرُ إمكانات، كحال الدَّجَالِ مثلا، ولكن يبقى التوحيد هو التوحيد، والشرك هو الشرك، فما كان شركا بالله تعالى، لا يمكن أن ينقلب بحال من الأحوال إلى توحيد؛ لحال ظهرت أو كرامة ادُّعِيت، وكذلك التوحيد لا ينقلب أبدا إلى شرك، بدعوى أن صاحبه لم تظهر على يده أحوال ولا كرامات، بل التوحيد ومعالمه وشعائره، والشرك وأنواعه وظلماته، كل ذلك إنما يعرف بالوحي النازل من عند الله تبارك وتعالى، لا بالهرطقات وآراء البشر. فانتبه فإنه مقام عزيز وخطير، وهو هلكة ومزلة أقدام .

مثال لضلال عقول المستغيثين بغير الله تعالى، فيما لا يقدر عليه إلا الله:

وقد ضرب أهل العلم مثلاً لخرق عقول المستغيثين بغير الله تعالى، فقالوا:[مثله كمثل رجل يمشي في أرض فيها حُفَر، وحوله أناس أحياء قادرون، وبينما هو كذلك إذ سَقَطَ في أحد تلك الحفر، فأخذ يستغيث ويستنجد بالأموات، والغائبين؛ لينشلوه، ويخرجوه من ورطته]، فما ذا يقال عن مثل هذا؟، أقل أحواله أن يوصف بالخبل والخلل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في العقل، والطيش والسفه في الفعل، إذ كيف تترك الأحياء القادرين الحاضرين، وتستغيث بالأموات والغائبين.

ولله تعالى المثل الأعلى، فكم من عبد يستغيث بالعباد مثله ويدع الله رب العالمين، وكم من عبد يسأل مخلوقا مثله تفريج كربة أو قضاء حاجة ولا يسأل الله رب العالمين.

والله تعالى يقول: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [المائدة:٧٥-٧٦]، وقال: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ} [النحل:٧٣].

وهناك مثل آخر ضُرِبَ لذلك، قالوا: إنما مثله مثل رجل فقيرٍ معدمٍ، عليه من الديون والهموم ما الله تعالى به عليم، فكتب كتاباً عرض فيه حالته، وبَيَّنَ فيه وَرْطَتَه ومُصِيبَتَه وفاقته وحاجته، ثم دخل على مجلس كبير، فيه رجلان، أحدهما بلغ في غناه، أن كان لديه من جميع الأموال الشيء الكثير، وهو مع ذلك سخي كريم، يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، وآخر فقير معدم، بَالِي الحال، ممزق الثياب، قد بدت عليه علامات الفقر والفاقة، حتى ظهرت على قسمات وجهه، فلما دخل هذا الفقير عليهما، توجه مباشرة إلى الفقير، وترك الغني، ولم يعرج عليه، وأخذ يصيح ويولول عند الفقير، ويصف حالته لهذا الفقير، ويرجوه ويتوسل إليه أن يقضي حاجته، ويسد خُلته وفاقته، فماذا يقال عن مثل هذا الرجل؟! لاشك أنه مجنون، أو كاد، فإذا كان هذا لا يسوغ في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ميزان البشر، فكيف يسوغ ذلك مع رب البشر جل الله في علاه، فكم من الملايين من البشر يطلبون الحوائج من المخلوقين الفقراء الحقراء، وينسون الله رب العالمين، الغني الكريم جل وعلا، ولكن أين التوحيد أين التوحيد، فالقلوب معتمدة على المخلوق، إذ هو المعظّم في النفوس، وإلا في أي عقل يسوغ ترك الخالق والاعتماد على المخلوق.

والله تعالى يقول في وصف نفسه تبارك وتعالى، ومبينا ضعف وافتقار الخلائق إليه جل الله في علاه: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ} [فاطر:١٣-١٧].

ثم أعود وأقول: أما إذا كانت الاستغاثة فيما يقدر عليه المخلوق فهذه جائزة؛ لقوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: {فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه}، ولو كان شركاً لما سكت عنه موسى، ولما لَبَّى طلبته، فإن الأنبياء والمرسلين معصومون من جميع الكبائر، قبل البعثة وبعدها، وأعلاها الشرك الأكبر، وهذا هو الراجح الصواب من قولي أهل العلم، بما في ذلك شعيب عليه السلام، فلا يجوز بحال نسبته إلى الشرك قبل البعثة ولا بعدها، وكذلك إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وإن كان قد قال بهذا بعض الأكابر كابن تيمية رحمه الله، ونُقل عن بعض المتقدمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ الله r مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ...الحديث.

فهذا كان حاله r قبل البعثة، فلم يثبت عنه قط أنه سجد لصنم، ولا عبد إلها غير الله[1].

مسألة: شبهة يلقيها المتصوفة والمُجَوِّزُنَ للاستغاثة بغير الله تعالى في تفريج كل كرب، ورفع كل ضر، وقضاء كل حاجة، ألا وهو ما جاء في صحيح البخاري في الحديث الطويل عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ لَمَّا كَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ أَهْلِهِ مَا كَانَ خَرَجَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّ إِسْمَاعِيلَ وَمَعَهُمْ شَنَّةٌ فِيهَا مَاءٌ فَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَشْرَبُ مِنْ الشَّنَّةِ فَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَوَضَعَهَا تَحْتَ دَوْحَةٍ ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَهْلِهِ فَاتَّبَعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ حَتَّى لَمَّا بَلَغُوا كَدَاءً نَادَتْهُ مِنْ وَرَائِهِ يَا إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَنْ تَتْرُكُنَا قَالَ إِلَى الله قَالَتْ رَضِيتُ بِالله قَالَ فَرَجَعَتْ فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنْ الشَّنَّةِ وَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا حَتَّى لَمَّا فَنِيَ الْمَاءُ قَالَتْ لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا قَالَ فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتْ الصَّفَا فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ هَلْ تُحِسُّ أَحَدًا فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا فَلَمَّا بَلَغَتْ الْوَادِيَ سَعَتْ وَأَتَتْ الْمَرْوَةَ

---

١ - ولمزيد من تحقيق هذه المسألة راجع كتابي (الاستنباطاتالبهية من الأدلة الشرعية): الاستنباط الخامس والسبعون.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَفَعَلَتْ ذَلِكَ أَشْوَاطًا ثُمَّ قَالَتْ لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ تَعْنِي الصَّبِيَّ فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ فَإِذَا هُوَ عَلَى حَالِهِ كَأَنَّهُ يَنْشَغُ لِلْمَوْتِ فَلَمْ تُقِرَّهَا نَفْسُهَا فَقَالَتْ لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتْ الصَّفَا فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا حَتَّى أَتَمَّتْ سَبْعًا ثُمَّ قَالَتْ لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ فَإِذَا هِيَ بِصَوْتٍ فَقَالَتْ أَغِثْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ فَإِذَا جِبْرِيلُ قَالَ فَقَالَ بِعَقِبِهِ هَكَذَا وَغَمَزَ عَقِبَهُ عَلَى الْأَرْضِ قَالَ فَانْبَثَقَ الْمَاءُ فَدَهَشَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَجَعَلَتْ تَحْفِزُ قَالَ فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ r لَوْ تَرَكَتْهُ كَانَ الْمَاءُ ظَاهِرًا"....الحديث بطوله.

ومحل استشهادهم هو في قولها:"فَإِذَا هِيَ بِصَوْتٍ فَقَالَتْ أَغِثْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ".

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن نقول قارن بين هذا السياق، وقوله تعالى:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال:٩]؛ لترى الفرق العظيم والبون الشاسع، بين المقامين والمنزلتين.

الوجه الثاني: أن هاجر كانت من أئمة التوحيد، كيف لا وهي زوجة خليل الله إبراهيم، وأم الذبيح إسماعيل عليهم السلام؛ ولهذا كانت دقيقة في هذه المقامات، فقالت:(إن كان عندك خير)، فعلمنا يقينا أنها تخاطب من لا حول له ولا قوة إلا بالله، ولهذا استعملت أداة التردد (إن كان عندك)، وأما عند سؤال الله تعالى، لا يقال ذلك، وإنما نَعْزِمُ المسألة؛ لأن الله تعالى لا يُعْجِزُهُ شيء، ولا يُكْرِهُهُ شيء، ولا يُكْرِثُهُ شيء، جل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله في علاه. كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ لِيَعْزِمْ الْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهُ لَا مُكْرِهَ لَهُ".

الوجه الثالث: أنها كانت تطلب الماء، وهذا لا شك أنه في مقدور كل من يحمله، فلما سمعت صوتا، نادته طالبة الماء، فَبَنَت نداءها على ما سمعته من حس، وقد علمت يقينا أن المخلوق، قد ينفع وقد لا ينفع، وقد يكون عنده ما تريد، وقد لا يكون، ولهذا قيدت ذلك بقولها (إن كان عندك خير)، أي ماء تسقيناه، فأين هذا ممن يسأل المخلوق مسألة من أيقن أن الفرج عنده والنصر بيديه، وفي مسألة النصر مثلا، - وكما تقدم النصر لا يكون إلا من عند الله -، ترون أن النبي r ومن معه استغاثوا بالله وحده لا شريك له؛ لأنه مقام لا مدخل للعبد فيه أصلا، مهما كانت منزلة ذلك العبد عند الله رب العالمين.

الوجه الرابع: أنها عليها السلام كانت قد علمت من حقائق التوحيد، من إنقاذ الله تعالى إبراهيمَ من النار، ومن إنجائه لِسَارَةَ عليها السلام، من الملك الفاجر، وما موقف الخليل منها ومن ولدها عنها بالبعيد، حيث تركهما بواد غير ذي زرع، فقالت:"يَا إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَنْ تَتْرُكُنَا؟ قَالَ: إِلَى الله، قَالَتْ: رَضِيتُ بِالله"، ناهيك عما تعلمته من الخليل عليه السلام، ما أيقنت معه بأنه لا يغيث المَكْرُوب، ولا يفرج الكُرُوب إلا الله علام الغيوب، وبدليل أنها كانت تسعى بين الصفا والمروة، تبحث عن الماء، مما شاهده الحس، أي مما هو في مقدور العباد ممن يَحْمِلُه، أو يعلم مكانه؛ لتذهب إليه، كما هي عادة العرب، ولو كانت تريد الاستغاثة بغير الله تعالى؛ لأخذت تنادي، كما يفعل المشركون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اليوم، مَدَدْ يا فُلَان، مَدَدْ يا عِلّان، إلا أن قلبها كان فارغا إلا من الله جل جلاله، فكيف يُظَنُّ بها هذا الظن السيء عليها السلام؟!!.

الوجه الخامس: أن النبي r كان قد مَرَّ بأصحابه من الشدائد، قبل الهجرة وبعدها، ما لا يخفى، ومع ذلك ما استغاثوا بالنبي r ، ولا هو أمرهم بذلك، فكيف نظن أنه يحكي استغاثة شركية عن هاجر عليها السلام؟!– وحاشاها -، فإن هذا من أمحل المحال، وأبطل الباطل.فتأمل، وإياك إياك،لا تنخدع بقول المشركين الدَّاعين إلى تعظيم المخلوقين غلوا فيهم، حتى سألوهم ما لا يحل سَؤالُه إلا من الله جل جلاله.

قال المؤلف:قوله:(والدليل): أي على أن الاستغاثة عبودية من أجل العبوديات لا يجوز صرفها لغير الله، قوله تعالى:{إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم}: ففي هذه الآية الثناء من الله تعالى على النبي r وصحابته الكرام y ، الذين رَسَخَ التوحيد في قلوبهم، وعرفوا أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، وأنه لا ينفع ذا الجد منه الجد؛ فأفرغوا قلوبهم من علائق المخلوقين، وتوجهوا إلى الخلاق العظيم؛ فاستجاب لهم سُؤْلَهُم، وأَيَّدَهُم بِنَصْرِه.

فتضمنت الآية الثناء عليهم بذلك، وتضمنت حث العباد على أن يحذوا حذوهم فيكونوا كذلك. وهذا كما تقدم معنا مما نعلم به أن ذلك الفعل عبادة لله تعالى، وأن صرفها بهذا الاعتبار لغير الله تعالى كفر وشرك أكبر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(وَدَلِيلُ الذَّبْحِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَه وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}):

قوله:(الذبح):المقصود به هنا إزهاق النفس، المأذون فيها تقربا لله جل وعلا، ويدخل فيه النحر كذلك، ومنه قوله تعالى:{فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} [الكوثر:٢]، وفي الحديث الذي في صحيح مسلم عن جابر:أن رسول الله r قال:"نَحَرْتُ ههنا ومنى كلها مَنْحَر، فَانْحَرُوا في رحالكم، ووقفت ههنا وعرفة كلها موقف، ووقفت ههنا وجَمْعٌ كلها موقف". وقوله:"وجمع" أي مزدلفة.

ويلحق بذلك كل ما أُهِلَّ وأُشْعِر مما أذن الله تعالى به تقربا لله تعالى، فإنه حق لله رب العالمين، وصرفه لغيره شرك أكبر. وإنما قلت: مما أذن الله به؛ لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا.

وقد كان المشركون يتحكمون في الأنعام بما يشاؤون من أهوائهم، وهذا شرك من وجهين، من جهة تقربهم بها لغير الله تعالى، ومن جهة التشريعات الجاهلية التي وضعوها لذلك، وتأمل في هذه الآيات، قال تعالى:{وَجَعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لله بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى الله وَمَا كَانَ لله فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} [الأنعام:١٣٦-١٤٠].....إلى قوله تعالى:{ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} [الأنعام:١٤٣-١٤٦].

وكذلك قوله تعالى:{مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [المائدة:١٠٣-١٠٤].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعليه فلابد أن نعلم، أن كل من تقرب لغير الله تعالى بشيء من ذلك؛ فهو مشـــرك كافر، وكذلك كل من سَنَّ ذلك لعشيرته أو طريقته وحزبه؛ فهو مشرك كافر.

فالذين يذبحون تقربا لغير الله تعالى، على شرف الولي، أو طلعـة السـلطان، أو عـلى عتبة الضريح، أو على قبر فلان، كل هؤلاء واقعون في الشرك الأكبر، والذنب الـذي لا يغفر.

وكما تقدم أن هذا ليس خاصا بالأنعام، فلو تقرب بحشـرة، أو بعوضة، أو طـائر أو غير ذلك لغير الله تعالى، فقد كفر أو أشرك.

وكذلك الذين، يحلقون رؤوسهم توبـة عنـد الشـيوخ، ومـن يقـوم قانتـا لِلْعَلَـم أو المعظمين من سلاطين ووزراء وأمراء وربما بعض المُعَلِّمـين، وغـير ذلـك، وفي الجملـة فكل عبادة ثبتت لله تعالى فصرفها لغيره شرك أكبر.

أنواع الذبح المشروع:

فالمؤمنون إنما يذبحون لله وعـلى اسـم الله، وعـلى مـا شرعـه الله، كـإكرام الضـيف وإطعام الطعام ونحو ذلك، فالذبح عـلى أنـواع، فمنـه مـا هـو قربـة محضـة لله تعـالى، كالرجل ينذر ذبيحة لله على أن يوزعها كلها على الفقراء والمساكين، فهذه لاحَظَّ للذابح منها، وكذلك في دم الجُبران في المناسك (كفدية حلق الرأس، وكالهـدي يسـاق ليـذبح لفقراء الحرم)، ومنها ما يذبح على اسم الله تعالى ويراد بها القربة واللحم، كالأضحية، ودم الشكران في المناسك (كدم التمتع والقران، وكالذبح للأضـياف فـإن فيهـا معنـى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القربى)، ومنها ما يذبح على اسم الله تعالى ويراد بها اللحم، وقد لا يخطر بذهن صاحب الذبيحة معنى القربى، ولكن المهم أن تكون على اسم الله تعالى، كما قال تعالى: {فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ١١٨-١٢٢].

وفي الحديث الذي في سنن أبي داود بسند جيد عن ثَابِت بْنِ الضَّحَّاكِ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله r أَنْ يَنْحَرَ إِبِلاً بِبُوَانَةَ فَأَتَى النَّبِيَّ r فَقَالَ:إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَنْحَرَ إِبِلاً بِبُوَانَةَ. فَقَالَ النَّبِيُّ r :"هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ". قَالُوا :لاَ. قَالَ:"هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ". قَالُوا: لاَ. قَالَ رَسُولُ الله r :"أَوْفِ بِنَذْرِكَ فَإِنَّهُ لاَ وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ الله وَلاَ فِيمَا لاَ يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ"، وسيأتي قريبا إن شاء الله تعالى الحديث عن النذر وأحكامه.

قوله:(والدليل)، على أن الذبح عبادة لله تعالى فمن صرفها لغيره فهو مشرك كافر، قوله تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَه وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِين}.

والدلالة واضحة من الآية، حيث جعل النسك، والذي هو بمعنى الذبح هنا - على أحد القولين في الآية -، خاصا بالله تعالى وحده لا شريك له، وقد تقدمت الأدلة والمعاني الدالة على ذلك.

جاء في تفسير ابن أبي حاتم:[حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ حَمْزَةَ، ثنا شَبَابَةُ، ثنا وَرْقَاءُ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَوْلُهُ:{صَلاتِي وَنُسُكِي}، قَالَ:ذَبِيحَتِي فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَرُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَالْحَسَنِ، وَالسُّدِّيِّ، وَقَتَادَةَ، مِثْلُ ذَلِكَ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي قَرَأْتُ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ الْفَضْلِ، ثنا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ، ثنا مُحَمَّدُ بْنُ مُزَاحِمٍ، عَنْ بُكَيْرِ بْنِ مَعْرُوفٍ، عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ، قَوْلُهُ:{وَنُسُكِي} يَعْنِي:الْحَجَّ]ا.هـ.

وفي تفسير ابن كثير قال:[{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}، يقول الله تعالى آمرًا نبيه r سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم الله به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف:{دِينًا قِيَمًا} أي:قائمًا ثابتًا، {مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} كقوله:{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} [البقرة:١٣٠] ، وقوله:{وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ}، قوله:{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا للهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}وليس يلزم من كونه عليه السلام أُمِرَ باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه عليه السلام قام بها قيامًا عظيمًا، وأكملت له إكمالا تامًا لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال؛ ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرهب إليه الخلق حتى إبراهيم الخليل، عليه السلام].....إلى قوله:[وقوله تعالى:{قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه، أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى:{فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}، أي: أخلص له صلاتك وذبيحتك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى]ا.هـ.

وقال ابن جرير الطبري في تفسيره: [القول في تأويل قوله:{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد r : (قل)، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنامَ (إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم)، يقول: قل لهم إنني أرشدني ربي إلى الطريق القويم، هو دين الله الذي ابتعثه به، وذلك الحنيفية المسلمة، فوفقني له(دينًا قيمًا)، يقول: مستقيمًا (ملة إبراهيم)، يقول: دين إبراهيم (حنيفًا) يقول: مستقيمًا (وما كان من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المشركين)، يقول: وما كان من المشركين بالله، يعني إبراهيم صلوات الله عليه، لأنه لم يكن ممن يعبد الأصنام]ا.هـ.

الافتخار بملة إبراهيم:

وفي الآيات افتخار بالدين الحق وفرح به، واعتزاز بملة إبراهيم الخليل، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآب} [الرعد:٣٦].

وهكذا ينبغي أن يكون المسلمون، ولكن المشكلة أن كثيرا من المسلمين يعيش على هامش الدين، وبعضهم يعبد الله على حرف، إن أعطي رضي وإن لم يُعط سخط، وكما قيل: من لا يعرف قيمة ما بين يديه؛ فلن يعرف قدره، ولا وما هو الواجب تجاهه.

قوله: {ومحياي}: هذا تعميم بعد تخصيص، فبعد أن ذكر العبادات البدنية، كالصلاة، ثم عطف بالعبادات المالية، كالنسك، -وإن قيل هو الحج، فهو جمع بين العبادتين، المالية والبدنية، والعبادات كلها تتركب منهما، أو أحدها-، أقول بعد أن خصص تبارك وتعالى عاد فعمم، فقال: {ومحياي} أي الحياة كلها لله، فليس هناك ساعة لك، وساعة لربك، بل كلها لله الواحد القهار، ولن يبلغ العبد كمال العبودية حتى يعلم أن لله تعالى عليه حقا في كل صغير وكبير من حياته، وفي كل ساعات العمر، وبالاحتساب تتحول الحياة كلها إلى طاعة وقربة لله الواحد القهار، وتأمل في هذا الحديث الذي في صحيح مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ r قَالُوا لِلنَّبِيِّ r يَا رَسُولَ اللهِ ذَهَبَ أَهْلُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدُّثُورِ بِالأُجُورِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ. قَالَ:"أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ". قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ قَالَ:"أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ".

وفي الصحيحين من طريق عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ أَبَاهُ قَالَ عَادَنِي رَسُولُ اللهِ r فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِنْ شَكْوَى أَشْفَيْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ بَلَغَ بِي مَا تَرَى مِنْ الْوَجَعِ وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ لِي وَاحِدَةٌ أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي قَالَ لَا قُلْتُ فَبِشَطْرِهِ قَالَ الثُّلُثُ كَثِيرٌ إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيَّ امْرَأَتِكَ" أي اللقمة تناولها إياها أو تضعها في فَمِهَا.

ساعة وساعة وكلها في الحق:

وأما قول النبي r لحنظلة:"ساعة وساعة" فالمقصود بها ساعات الحق، وأنها تتفاوت، وإلا فهل يظن عاقل ، فضلا عن المؤمن، أن يأمر النبي r بساعة في الحلال، وأخرى في الحرام؟!!، معاذ الله!! وحاشا رسول الله r !!.

وإنما قلت هذا؛ لأن البعض يفهم هذا الحديث خطأ، بل وسمعت من يحتج بقوله r :"ساعة وساعة" على الترويح عن النفس بالحرام، وهذا كثير عندما تنكر على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعضهم منكره، يقول لك يا أخي لا تشدد ساعة وساعة، وإليك سياق الخبر لتعلم أنه ليس فيه ذكر لمحرم أبدا.

ففي صحيح مسلم عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ قَالَ - وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ الله r قَالَ - لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ سُبْحَانَ الله مَا تَقُولُ قَالَ قُلْتُ نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ الله r يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله r عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ فَوَالله إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ الله r قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ الله. فَقَالَ رَسُولُ الله r :"وَمَا ذَاكَ". قُلْتُ يَا رَسُولَ الله نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ الله r :"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً". ثَلاَثَ مَرَّاتٍ.

ومن جميل وبديع ما قاله بعضهم:(إن الإسلام أرقى من أن يُحْبَسَ بين باب المسجد وقبلته، فالمساجد في الإسلام إنما بنيت؛ ليخرج منها الدين إلى الحياة، لا لتكون أقفاصا للشريعة).

قوله:{ومماتي}: أي وكذلك أموت على هذا الدين، مستقيماً على شرع رب العالمين، ولو كلفني ذلك حياتي، إذ ما خلقنا لنعيش ونحيا، وإنما خلقنا لنعبد الله جل وعلا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمعنى الحياة كلها والممات لله رب العالمين، بدينه أحيا وعلى دينه أموت، أسأل الله لي ولكم حسن الختام، والصدق مع الله تبارك وتعالى، حتى نلقاه مقبلين غير مدبرين ولا مبدلين.

وهذا القدر من الآية فيه التذكير بضرورة الثبات على الأمر والعزيمة على الرشد، حتى يوافي العبدُ ربَّه تبارك وتعالى بذلك، نسأل الله من فضله العظيم.

قوله: {لله}: اللام هنا للملكية والاختصاص، فإنه هو رب العالمين، فيجب ألا يكون ثمة معبود سواه، وألا يُرَادَ بالعمل إلا إياه، ولئلا يظن ظان – لا سيما ممن تمرغ في أوضار الشرك وأوحاله -، أنه يجوز صرف بعض ذلك لغير الله أو مع الله، سواء في عبادة بعينها، أو في أبعاض العبادات، فيصلي لله مثلا ولكنه يدعو غير الله، بل لابد أن تكون العبادات كلها لله وحده؛ ولهذا جاء قوله تعالى: {لا شريك له}: حسماً لمادة الشرك، وقطعاً للقلوب عن غير الله جل وعلا؛ وليعلم الجميع أن هذا هو أمر الله تبارك وتعالى، وأن من لم يمتثل ذلك فليس من المسلمين؛ ولهذا قال سبحانه: {وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين}. أي من هذه الأمة على الراجح، إذ مَنْ قبله من الأنبياء والمرسلين كانوا كذلك، عليه وعليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

كما أن هذا القدر من الآية، جاء مذكرا بالحقيقة التي تكاثر ذكرها في الكتاب والسنة، ألا وهي ضرورة المسارعة إلى أمر الله تبارك وتعالى، كما أنها تذكر بأن الرسل هم رؤوس الناس في ذلك، فَلْيُقْتَدَى بهم، ولا تَغْتَر بغيرهم، ممن قدم أشياء هي دون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التوحيد، زاعما أن هذا أسلم، وأبعد عن الفتن، وأنه هذا هو الأنسب للأحوال والأوضاع الراهنة.

كما أن في الآية تذكيرا، بأن الآمر بالشيء الأصل أن يكون هو أول المسارعين إلى فعله، وكذلك في باب المنهيات، كما قال تعالى في قصة شعيب عليه السلام: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود:٨٨]، وقال تعالى لعموم المؤمنين: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة:٤٤-٤٥].

قوله:(وَمِنَ السُّنَّةِ: "لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ")، بعد أن استدل المؤلف بالكتاب العزيز، عطف بالاستدلال بالسنة الصحيحة - إذ ليس كل حديث يصح الاحتجاج به-، وهذا من تكثير الحجج وإلا فالمؤمن يكفيه مع البر والتقى، دليل واحد ثابت؛ لينقاد ويستسلم، والمبطل المعاند لو حشدت له عشرات الأدلة، فإنه من الصم البكم.

وهنا بين المؤلف أنه إضافة إلى أن الذبح لغير الله تعالى شرك أكبر، فكذلك صاحبه ملعون من قِبَلِ الله تعالى، وسواء قلنا هذا اللفظ من النبي r ، أعني قوله:"لعن الله" سواء أكان ذلك خبرا عن الله تعالى، أو كان دعاء من النبي r عليه؛ فهو دال على عظيم المقت وعِظَم الفجور.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا الخبر الذي ذكره المؤلف جاء في صحيح مسلم عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ سُئِلَ عَلِيٌّ أَخَصَّكُمْ رَسُولُ اللهِ r بِشَيء فَقَالَ مَا خَصَّنَا رَسُولُ اللهِ r بِشَيء لَمْ يَعُمَّ بِهِ النَّاسَ كَافَّةً إِلاَّ مَا كَانَ فِي قِرَابِ سَيْفِي هَذَا - قَالَ - فَأَخْرَجَ صَحِيفَةً مَكْتُوبٌ فِيهَا:"لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ وَلَعَنَ اللهُ مَنْ سَرَقَ مَنَارَ الأَرْضِ وَلَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَهُ وَلَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا".

والشاهد منه قوله r :"لعن الله من ذبح لغير الله" فاقتصر المؤلف على الشاهد، وهذا من هدي بعض السلف، في تقطيع الأحاديث والاقتصار على الشاهد، وصنيع البخاري في صحيحه ظاهر في ذلك، بشرط أن يكون عالماً ورعاً، وأن يكون مميزا بين ما تحيله المعاني من جراء الاختصار المُخِل.

وفي الحديث إثبات أن الله تعالى يلعن من يشاء، والله تعالى إنما يلعن من يستحق اللعن، ومن لازم اللعن الطرد والإبعاد، نسأل لله تعالى العافية والسلامة.

أثبت الصفة أولا ثم بين معناها:

ولا يصح أن نقول: اللعن هو الطرد والإبعاد، وإنما علينا أن نثبت الصفة لله تعالى قبل كل شيء، فنقول: فيه إثبات أن الله تعالى يلعن من يشاء، ثم نثبت ونذكر لوازمها. فتنبه لذلك، خشية الوقوع في التأويل المذموم.

تنبيه: هناك من أهل العلم من إذا ذكر مثل هذه الصفات التي أخبر بها الله تعالى عن نفسه أو النبي t في سنته الصحيحة، كصفة المكر والكيد، يمنع من اشتقاق أسماء منها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لله تعالى، ويعللون ذلك بإيهام النقص في حق الله تعالى، وهذا التعليل عندي فيه نظر كبير، ولكن لو عللوا بأن الله تعالى لم يسم بها نفسه، لكان هذا هو الصحيح، وإلا فإن جميع أسمائه تبارك وتعالى وصفاته ليس كمثله فيها أحد ولا شيء، جل الله في علاه، فلا نقول هذه توهم كذا أو كذا، بل إذا ثبتت الصفة أو الاسم قلنا بها مباشرة وأثبتناها ومعانيها، على ما تقدم تقريره. والله أعلم.

ثم قد يكون الملعون كافراً أو مشركاً، و قد يكون عاصياً أو فاجراً، فليس كل من لُعن حُكِم عليه بالكفر أو الشرك، لورود أحاديث بلعن بعض عصاة الموحدين المستعلنين بالفسق والفجور، ولكن سبب اللعن هنا لكفره بالله تعالى، الكفر الأكبر؛ بدليل الآيات المتقدمة في ذلك، الدالة على أن الذابح لغير الله على وجه التعظيم أو التعبد أو الذل أو القربى، أنه مشرك كافر، وشركه مما هو معلوم من الدين بالضرورة.

وفي الحديث من طريق سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ مَرَّ ابْنُ عُمَرَ بِفِتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيْرًا وَهُمْ يَرْمُونَهُ وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ فَلَمَّا رَأَوُا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ:"مَنْ فَعَلَ هَذَا لَعَنَ اللهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا إِنَّ رَسُولَ الله r لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا". هذا لفظ مسلم وهو في البخاري بمعناه بدون ذكر اللعن.ولفظه في صحيح البخاري :"فَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ r نَهَى أَنْ تُصْبَرَ بَهِيمَةٌ أَوْ غَيْرُهَا لِلْقَتْلِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال الشيخ النووي في (رياض الصالحين):[(باب، جواز لعن أصحاب المعاصي غير المعينين):قال الله تعالى:{ألا لعنة الله على الظالمين}، وقال تعالى:{فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين}.

وثبت في الصحيح أن رسول الله r قال:"لعن الله الواصلة والمستوصلة"، وأنه قال:"لعن الله آكل الربا"، وأنه لعن المصورين:(انظر باب تحريم تصوير الحيوان)، وأنه قال:"لعن الله من غير منار الأرض": أي حدودها، وأنه قال:"لعن الله السارق يسرق البيضة"،وأنه قال:"لعن الله من لعن والديه"، و:"لعن الله من ذبح لغير الله"، وأنه قال:"من أحدث فيها حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين"،أنه قال:"اللهم العن رعلا وذكوان وعصية عصوا الله ورسوله" وهذه ثلاث قبائل من العرب، وأنه قال:"لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"، وأنه:"لعن المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال" وجميع هذه الألفاظ في الصحيح بعضها في صحيحي البخاري ومسلم وبعضها في أحدهما وإنما قصدت الاختصار بالإشارة إليها . وسأذكر معظمها في أبوابها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى]ا.هـ.

قلت: وقول الإمام النووي:(غير المعينين) لعله يريد الأشخاص بأعيانهم، وإلا فالأحاديث دالة على جواز لعن أقوام بأعيانهم، كما ذكره هو في السياق المتقدم.

قوله:(وَدَلِيلُ النَّذْرِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً})، النذر يطلق ويراد به معنيان:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأول:العهد والميثاق بطاعة الله تعالى وعبادته.

الثاني: هو إلزام المكلف نفسه بشيء لم يلزمه به الشارع؛ فصار في حقه بعد التزامه إياه واجبا شرعاً.

جاء في النهاية في غريب الأثر:[يقال: نَذَرْتُ أَنْذِر وأَنْذُر نَذْراً إذا أوجبتَ على نفسِك شيئا تبرُّعا من عبادة أو صدقة أو غير ذلك]ا.هـ.

وبينهما عموم وخصوص، فالأول أعَم؛ لأن إلزام النفس لله تعالى بالشيء، هو عهد وميثاق قطعه العبد لربه، ولم يلزمه به الله ابتداء.

وعلى هذا فالآية تتضمن الثناء على كل من النوعين، ولكن يقيد الثاني منهما بما إذا نذر نذرا منضبطا شرعا، فلا يدخل في الثناء لا من جهة الفعل ولا من جهة الوفاء، كما سيأتي.

جاء في تفسير ابن أبي حاتم:[عَنْ قَتَادَةَ، {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ}، قَالَ: كَانُوا يُوفُونَ بِطَاعَةِ اللهِ مِنَ الصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَالْعُمْرَةِ، وَمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ، فَسَمَّاهُمُ اللهُ الْأَبْرَارَ لِذَلِكَ]ا.هـ.

وقد ورد النذر في القرآن في سياقات متعددة، فمن ذلك قوله تعالى:{وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} [البقرة:٢٧٠]، وقوله:{إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [آل عمران:٣٥]، وقوله:{فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَـذَرْتُ لِلـرَّحْمَنِ صَـوْمًا فَلَـنْ أُكَلِّـمَ الْيَـوْمَ إِنْسِـيًّا} [مـريم:٢٦]، وقوله:{وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ} [الحج:٢٩].

والنذر من جهة أصله ينقسم إلى قسمين:

١ - نذر مشروع. ٢ - نذر ممنوع.

والنذر الممنوع وهو نذر المعصية، ينقسم إلى قسمين:

١ - **النذر الشركي**، وهو النذر لغير الله تعالى تقربا. وهو الـذي عنـاه المؤلـف هنـا؛ ليحذر منه وهو عقد النذر مهِلاً باسم أحد المخلوقين، كأن يقول:(نـذرت للبـدوي أن أتصدق بكذا)، أو يقول:(للدسوقي على إن حصل كـذا وكـذا أن أفعـل كـذا وكـذا)، ونحو ذلك فهذا شرك أكبر يخرج صاحبه من الملة، ومنه النذر لِطَلْعَتِ السـلطان، كـأن يقول:(نذرت أن أريق دم سبع بدنات إبَّانَ طَلْعَتِ السلطان)، فهذا جمع بين نوعين من الشـرك الأكـبر، شرك الـذبح لغـير الله، وشرك النـذر لغـير الله، ومنـه الـذبح للجـن والشياطين، والنذر لهم، كما يفعله عامـة السـحرة والكهـان، ومـن ذلـك الحصـالات الموضوعة عند القبور، والمزارات والمشاهد،والأضرحة، ويسـمونها (صـناديق النـذر)، فهذا كله من الشرك الأكبر، ولن ينتفع صاحبه بصلاته وصيامه وذكره وجميع عباداتـه، ولا فرق في هذا النـوع بـين النـذر للحجـر والشـجر، أو النـذر للملائكـة، والأنبيـاء، والأولياء، والسلاطين، وغيرهم، فكله شرك أكبر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢ - **النذر على اسم الله تعالى ولله تعالى**، ولكن مادة النذر محرمة، كقول القائل مثلا:(لله علي إن حصل كذا أن أقيم حفلة غنائية)، أو قوله:(لله علي لو حصل كذا أن أذهب بأهلي إلى فرنسا مثلا أو غيرها من ديار الكفر)، سواء جاء به بلفظ النذر أو بلفظ العهد، والإلزام.

أما النذر المشروع، فهو نذر الطاعة على اسم الله تعالى، وهذا اختلف أهل العلم في حكمه، فمنهم من قال باستحبابه مطلقاً، واحتجوا بقوله تعالى:{يوفون بالنذر}، وبقرن الله إياه مع النفقة في الآية المتقدمة، ومنهم من قال إنه مذموم ابتداؤه، فيُكره للعبد أن ينذر، ولكن إن نذر وجب عليه الوفاء، ونال الثناء الذي في الآية، واحتج هؤلاء بما الصحيحين عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ نَهَى النَّبِيُّ r عَنْ النَّذْرِ وَقَالَ:"إِنَّهُ لَا يَرُدُّ شَيْئًا وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنْ الْبَخِيلِ" وفي لفظ:"إِنَّ النَّذْرَ لَا يُقَدِّمُ شَيْئًا وَلَا يُؤَخِّرُ وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِالنَّذْرِ مِنْ الْبَخِيلِ". وفي لفظ:"إِنَّهُ لاَ يَأْتِي بِخَيْرٍ وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ".وفي الصحيحين أيضا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"لَا يَأْتِ ابْنَ آدَمَ النَّذْرُ بِشَيْءٍ لَمْ يَكُنْ قَدْ قَدَّرْتُهُ وَلَكِنْ يُلْقِيهِ الْقَدَرُ وَقَدْ قَدَّرْتُهُ لَهُ أَسْتَخْرِجُ بِهِ مِنْ الْبَخِيلِ". وفي لفظ:"لاَ تَنْذُرُوا فَإِنَّ النَّذْرَ لاَ يُغْنِى مِنَ الْقَدَرِ شَيْئًا وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ".

والقول الثالث: التفصيل في ذلك، فيقال: إن من أنشأ النذر معتقداً أنه سبب لجلب الخيرات، ودفع الشرور والمستكرهات؛ فالنذر في حقه مكروه، فإن نذر على هذا الوجه، وجب عليه الوفاء حسب ما سيأتي تفصيله،وعليه تحمل أحاديث النهي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتقدمة، ذلك لأن الله تعالى لم يجعل النذر سبباً لحصول الخير ولا لجلبه، ولا لدفع الضر ولا لرفعه.

أما من نذر قربة وطاعة، لا لسبب دنيوي، إلا أنه يريد أن يتقرب إلى الله تعالى بالنذر، وهو المسمى بالنذر المطلق، أي الذي لم يعلق بسبب ولا شرط، فهذا محمود مطلقاً، وهو كغيره من العبادات المطلقة، كنفل الصلاة والصدقة والصيام والحج والعمرة، ونحو ذلك، وهذا الذي أثنى الله عليه في كتابه، والقول بالتفصيل أرجح من القول بالجواز المطلق أو المنع المطلق، والله أعلم.

أما النذر الشركي، فلا يجوز عقده، فمن فعل فقد أشرك، والشرك لا حرمة له ولا كفارة فيه، بل على صاحبه التوبة النصوص؛ ليخرج مما وقع فيه من كفر بالله تعالى.

كما اختلف أهل العلم في حكم كفارة نذر المعصية - وهو النذر الذي يعقد على اسم الله تعالى وتكون مادته محرمة -، بعد أن اتفقوا على تحريم الوفاء به، فمنهم من قال تجب الكفارة فيه؛ لأنه عقده على اسم الله تبارك وتعالى، ومنهم من قال لا كفارة فيه؛ لأن أصله محرم، والمحرم لا حرمة له، والراجح القول الأول، احتراما وتعظيما لاسم الله تبارك وتعالى.

كفارة من حَنَثَ في نَذْره فلم يَفِ به:

أما كفارة النذر فهو كفارة يمين، كما في صحيح مسلم عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ r قَالَ:"كَفَّارَةُ النَّذْرِ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكفارة اليمين هي المذكورة في قوله تعالى: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [المائدة:٨٩].

وكما هو نَصُّ هذه الآية، فإن الكفارة على مرتبتين، فالمرتبة الأولى فيها ثلاثة أمور على التخيير، والأخرى على الترتيب، أي: أولا يبدأ العبد باختيار واحدة من ثلاث، إما الإطعام، وإما الكسوة، وإما الإعتاق، فإن عجز عن كل ذلك؛ انتقل إلى صيام ثلاثة أيام، ولا يجوز له أن يبدأ بالصيام مباشرة، وهو قادر على أحد الخيارات الثلاث الأُوَل، وللأسف فإن كثيرا من الناس يعمد إلى الصيام مباشرة، مع استطاعته، وهذا مخالف لظاهر القرآن.فتنبه.

وقد رجح جماعات من أهل العلم، أن يصوم الأيام الثلاثة متتابعة، إن عجز عن الإعتاق أو الإطعام أو الكسوة، واحتجوا بقراءة ابن مسعود، وفيها تقييدها بـ (متتابعات)، ولكنها قراءة غير ثابتة، كما قال الشنقيطي في (أضواء البيان):[وقراءة ابن مسعود: {فصيام ثلاثة أيام متتابعات}لم تثبت؛ لإجماع الصحابة على عدم كتب متتابعات في المصاحف العثمانية]ا.هـ.

واعلم أنه لا يجوز للمكلف أن يعدل عن الوفاء إلى الكفارة، وهو قادر على الوفاء، حتى إذا عجز عن الوفاء أو اضطر إلى الحنث، عمد إلى الكفارة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:{يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً}: أثنى الله جل وعلا على الموفين بالنذر، والمقصود هنا نذر الطاعة؛ وسبب الثناء أنهم يفعلون ذلك محبة لله تعالى وخوفا من لقاء الله جل وعلا، في يوم وصفه الله جل وعلا، بأن شره كان مستطيرا، والمستطير، هو العظيم الكثير الظاهر البَيِّن، فهو يوم على الكافرين عسير. نسأل الله تعالى العافية والسلامة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

* الأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ.

وَهُوَ: الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ، وَهوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ. وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ.

المرتبة الأولى: الإسلام، فَأَرْكَانُ الإِسلامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَن لا اله إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ.

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:{شَهِدَ اللهُ أَنهُ لاَ إِله إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِماً بِالْقِسطِ لاَ اله إِلاَّ هوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[آل عمران:١٨].

وَمَعْنَاهَا: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلا اللهُ، وَحَدُّ النَّفْيِ مِنْ الإِثْبَاتِ (لا إله)، نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ (إِلا اللهُ)، مُثْبِتًا الْعِبادَةَ للهِ وَحدَهُ لا شرِيكَ لَهُ في عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَتَفْسِيرُهَا:الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآء مِّمَّا تَعْبُدُونَ*إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ* وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[الزخرف:٢٦-٢٨].وقَوْلُهُ تَعَالَى:{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٦٤].

الشرح

قال المؤلف رحمه الله:(الأصل الثاني): الأصل: هو ما يبنى عليه غيره، والمراد بـه هنـا ما ينبني عليه دين العبد، من معرفته رَبَّهُ ودينَه ونبيَّه r ، فعلى هذه الثلاث يدور الدين، وبها قوام الملة، وبزوال أحدها يزول دين العبد.

بعد أن فرغ من الأصل الأول، شرع في الأصل الثاني، والأصل الأول لا يعـرف إلا من خلال الأصل الثاني، وهذا هو الترابط الوثيق الذي أشرت إليـه آنفـا، فلـن يعـرف العبد ربه بهواه ولا بخبرته، ولا بموروث الآباء والأجداد، وإنـما يعـرف ربـه بمعرفـة الدين الحق، الذي أرسل الله تعالى به محمـدا r ، فهـذه الأصـول الـثلاث كـما تقـدم لا تنفصم، ولا تقبل التبعيض ولا العِضِين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(معرفة دين الإسلام بالأدلة): تقدم الحديث عن المعرفة، وأنها هي إدراك الشيء، وهي على الراجح مرادفة للعلم، وهو إدراك الشيء على ما هو عليه، إلا أن بعضهم يقول إن المعرفة علم مسبوق بجهل، بخلاف العلم فإنه لا يستلزم ذلك، ولهذا صح وصف الله تعالى بالعلم، ولا يجوز وصفه بالمعرفة، وإدراك الشيء ومعرفته، إما أن يكون عن طريق التجربة، أو عن طريق التلقي، أو عن طريق أصحاب الخبرة.

العقل لا يستقل بمعرفة مراد الله تعالى ورسوله r بلا أدلة تهديه:

واعلم أنه لا يسوغ في معرفة دين الإسلام، لا التجربة، ولا الخبرة، ولا مطلق التلقي، حتى يكون مصدر التلقي هو الكتاب والسنّة على فهم وطريقة الصحابة الكرام **y**، فالدين ليس محلاً للتجارب، والاختبار، بل حقيقته ذل وانقياد، على وقف الكتاب والسنة، وما ضل من ضل من هذه الأمة أو غيرها، إلا عندما ظنوا أن الدين يمكن أخذه من التجارب الخاضعة للعقول، أو عن طريق خبرة الفاعل المعظم في النفوس من المخلوقين، أو عن التلقي عن الآباء والأجداد، وما يمليه ضغط الواقع، والعادات والتقاليد، فالصوفية مثلاً يقولون:(قبر فلان الترياق المُجَرَّب)، فاعتمدوا على تجربتهم الباطلة، فجعلوا دعاء أصحاب القبور والتعلق بهم، دينا لهم بل وجعلوه - زورا وبهتانا وافتراء على الله تعالى- من دين الله جل وعلا، في حين أنه مضاد تماماً لدين الله عز وجل، وكذلك الفلاسفة والملاحدة ومن تأثر بهم من أهل الكلام، كالأشاعرة والجهمية وأشباههم، ظنوا أن الدين يؤخذ من قدماء الأولين، كاليونان وأشباههم، الذين شُهِدَ لهم بالعقل والمنطق، والذكاء والحذق والفطنة؛ فجعلوا العقول- التي هي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في الحقيقة فاسدة وسقيمة - حاكمة على الدين؛ ولهذا قيد المؤلف معرفة هذا الدين بالأدلة من الكتاب والسنة، لا بالرأي ولا بالعقل، ولا بالخبرة ولا بالتجربة، ولا بالتلقي عن الأولين، بل فقط الكتاب والسنة الصحيحة، على فهم الصحابة الكرام **ﷺ**.

وتأمل في هذه النصوص - وغيرها كثير – الدالة على أن العقل إذا ترك وحده انحرف على جادة السبيل، وحاد عن الحق إلى الباطل، قال تعالى: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [الزخرف:١٩-٢٥].

وقال جل من قائل عليما: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ} [المؤمنون:٦٨-٧١].

وفي الصحيحين من طريق أَبِي وَائِلٍ، قال: لَمَّا قَدِمَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ مِنْ صِفِّينَ أَتَيْنَاهُ نَسْتَخْبِرُهُ فَقَالَ:(اتَّهِمُوا الرَّأْيَ فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ عَلَى رَسُولِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله r أَمْرَهُ لَرَدَدْتُ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، وَمَا وَضَعْنَا أَسْيَافَنَا عَلَى عَوَاتِقِنَا لِأَمْرٍ يُفْظِعُنَا إِلَّا أَسْهَلْنَ بِنَا إِلَى أَمْرٍ نَعْرِفُهُ قَبْلَ هَذَا الْأَمْرِ مَا نَسُدُّ مِنْهَا خُصْمًا إِلَّا انْفَجَرَ عَلَيْنَا خُصْمٌ مَا نَدْرِي كَيْفَ نَأْتِي لَهُ).

وجاء في صحيح البخاري:[بَاب الْحَائِضِ تَتْرُكُ الصَّوْمَ وَالصَّلَاةَ، وَقَالَ أَبُو الزِّنَادِ: إِنَّ السُّنَنَ وَوُجُوهَ الْحَقِّ لَتَأْتِي كَثِيرًا عَلَى خِلَافِ الرَّأْيِ فَمَا يَجِدُ الْمُسْلِمُونَ بُدًّا مِنْ اتِّبَاعِهَا مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْحَائِضَ تَقْضِي الصِّيَامَ وَلَا تَقْضِي الصَّلَاةَ]ا.هـ.

وفي الصحيحين من طريق مُعَاذَةَ قَالَتْ سَأَلْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: مَا بَالُ الْحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ وَلاَ تَقْضِي الصَّلاَةَ؟، فَقَالَتْ: أَحَرُورِيَّةٌ أَنْتِ؟، قُلْتُ: لَسْتُ بِحَرُورِيَّةٍ وَلَكِنِّي أَسْأَلُ. قَالَتْ: كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ وَلاَ نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلاَةِ.

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء:[الرِّيْوَنْدِيُّ أَبُو الحَسَنِ أَحْمَدُ بنُ يَحْيَى بنِ إِسْحَاقَ المُلْحِدُ، عَدُوُّ الدِّينِ، أَبُو الحَسَنِ أَحْمَدُ بنُ يَحْيَى بنِ إِسْحَاقَ الرِّيْوَنْدِيُّ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ فِي الحَطِّ عَلَى المِلَّةِ، وَكَانَ يُلاَزِمُ الرَّافِضَةَ وَالمَلاَحِدَةَ، فَإِذَا عُوتِبَ، قَالَ:إِنَّمَا أُرِيْدُ أَنْ أَعْرِفَ أَقوَاهُم. ثُمَّ إِنَّهُ كَاشَفَ، وَنَاظَرَ، وَأَبْرَزَ الشُّبَهَ وَالشُّكُوكَ. قَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ: كُنْتُ أَسْمَعُ عَنْهُ بِالعَظَائِمِ، حَتَّى رَأَيْتُ لَهُ مَا لَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبٍ، وَرَأَيْتُ لَهُ كِتَابَ(نَعْتِ الحِكْمَةِ)، وَكِتَابَ(قَضِيْبِ الذَّهَبِ)، وَكِتَابَ(الزُّمُرُّدَةِ)، وَكِتَابَ(الدَّامِغِ)؛ الَّذِي نَقَضَهُ عَلَيْهِ الجُبَائِيُّ. وَنقَضَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مُحَمَّدٍ الخَيَّاطُ عَلَيْهِ كِتَابَهُ(الزُّمُرُّدَةَ). قَالَ ابْنُ عَقِيْلٍ:عَجَبِي كَيْفَ لَمْ يُقْتَلْ!وَقَدْ صَنَّفَ(الدَّامِغَ)يَدْمَغُ بِهِ القُرْآنَ، وَ(الزُّمُرُّدَةَ)يُزرِي فِيْهِ عَلَى النُّبُوَّاتِ. قَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ:فِيْهِ هَذَيَانٌ بَارِدٌ لاَ يَتَعَلَّقُ بِشُبْهَةٍ!يَقُوْلُ فِيْهِ:إِنَّ كَلاَمَ أَكْثَمَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بنِ صَيْفيٍّ فِيْهِ مَا هُوَ أَحْسَنُ مَنْ سُـوْرَةِ الكَـوْثَرِ!وَإِنَّ الأَنْبِيَـاءَ وَقَعُـوا بِطَلاَسِـمَ. وَأَلَّـفَ لِليَهُوْدِ وَالنَّصَارَى يَحْتَجُّ لَهُم فِي إِبْطَالِ نُبُوَّةِ سَيِّدِ الـبَشَرِ. قَـالَ أَبُـو عَـلِيٍّ الجُبَّـائِيُّ:طَلَـبَ السُّلْطَانُ أَبَا عِيْسَى الوَرَّاقَ وَابْنَ الرِّيْوَنْدِيِّ، فَأَمَّا الوَرَّاقُ فَسُـجِنَ حَتَّـى مَـاتَ، وَاسْـمُهُ مُحَمَّدُ بنُ هَارُوْنَ، مِنْ رُؤُوْسِ المُتَكَلِّمِيْنَ، وَلَهُ تَصَانِيْفُ فِي الرَّدِّ عَلَى النَّصَـارَى وَغَـيْرِهِم. وَاخْتَفَى ابْنُ الرِّيوَنْدِيِّ عِنْدَ ابْنِ لاَوِي اليَهُودِيِّ، فَوَضَعَ لَهُ كِتَابَ(الدَّامِغِ)، ثُـمَّ لَمْ يَلْبَـثْ أَنْ مَرِضَ، وَمَاتَ إِلَى اللَّعْنَةِ، وَعَاشَ نَيِّفاً وَثَمَانِيْنَ سَنَةً.

وَقَدْ سَرَدَ ابْنُ الجَوْزِيِّ مِنْ بَلاَيَاهُ نَحواً مِنْ ثَلاَثَةِ أَوْرَاقٍ. قَالَ ابْنُ النَّجَّارِ:أَبُو الحُسَـيْنِ ابْنُ الرَّاوَنْدِيِّ المُتَكَلِّمُ مِنْ أَهْلِ مَرْوَ الرُّوْذِ، سَكَنَ بَغْدَادَ، وَكَانَ مُعْتَزِلِيّاً، ثُمَّ تَزَنْدَقَ.

وَقِيْلَ:كَانَ أَبُوْهُ يَهُوْدِيّاً، فَأَسْلَمَ هُوَ، فَكَانَ بَعْضُ اليَهُوْدِ يَقُوْلُ لِلْمُسْلِمِينَ:لاَ يُفْسِدُ هَذَا عَلَيْكُم كِتَابَكُم كَمَا أَفْسَدَ أَبُوْهُ عَلَيْنَا التَّوْرَاةَ. قَالَ أَبُو العَبَّاسِ بنُ القَاصِّ الفَقِيْهُ:كَانَ ابْـنُ الرَّاوَنْدِيِّ لاَ يَسْتَقِرُّ عَلَى مَذْهَبٍ وَلاَ نِحْلَةٍ، حَتَّـى صَـنَّفَ لِلْيَهُـوْدِ كِتَـابَ(الـنُّصْرَةِ عَـلَى المُسْلِمِينَ)لِدَرَاهِمَ أُعْطِيَهَا مَنْ يَهُوْدٍ. فَلَمَّا أَخَذَ المَالَ، رَامَ نَقْضَهَا، فَـأَعْطَوهُ مـائَتَيْ دِرْهَـمٍ حَتَّى سَكَتَ. قَالَ البَلْخِيُّ:لَمْ يَكُنْ فِي نُظَرَاءِ ابْنِ الرَّاوَنْدِيِّ مِثْلُـهُ فِي المَعْقُـولِ، وَكَـانَ أَوَّلَ أَمْرِهِ حَسَنَ السِّيْرَةِ، كَثِيْرَ الحَيَاءِ، ثُمَّ انْسَلَخَ مِنْ ذَلِكَ لأَسبَابٍ، وَكَانَ عِلْمُهُ فَـوْقَ عَقْلِـهِ. قَالَ:وَقَدْ حُكِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ أَنَّهُ تَابَ عِنْدَ مَوْتِهِ. قَالَ فِي بَعْـضِ المُعْجِـزَاتِ:يَقُـوْلُ المُـنَجِّمُ كَهَذَا. وَقَالَ:فِي القُرْآنِ لَحْنٌ. وَأَلَّفَ فِي قِدَمِ العَالِمِ، وَنَفَى الصَّانِعَ. وَقَالَ:يَقُوْلُوْنَ:لاَ يَـأْتِي أَحَدٌ بِمثلِ القُرْآنِ، فَهَذَا إِقْلِيْدِسُ لاَ يَأْتِي أَحَدٌ بِمِثْلِهِ، وَكَذَلِكَ بَطْلِيْمُوْسُ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَقِيْلَ:إِنَّهُ اخْتَلَفَ إِلَى الْمُبَرِّدِ، فَبَعْدَ أَيَّامٍ قَالَ الْمُبَرِّدُ:لَوِ اخْتَلَفَ إِلَيَّ سَنَةً، لاَحْتَجْتُ أَنْ أَقُومَ وَأُجْلِسَهُ مَكَانِي.

قَالَ ابْنُ النَّجَّارِ:مَاتَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَتِسْعِيْنَ وَمائَتَيْنِ. وَقِيْلَ:مَا طَالَ عُمُرُهُ، بَلْ عَاشَ سِتّاً وَثَلاَثِيْنَ سَنَةً. **لَعَنَ اللهُ الذَّكَاءَ بِلاَ إِيْمَانٍ، وَرَضِيَ اللهُ عَنِ البَلاَدَةِ مَعَ التَّقْوَى**]ا.هـ.

ونقل الإمام الذهبي في تاريخ الإسلام عن أبي حازم سلمة بن دينار أنه قال:[من أعجب برأيه ضل ومن استغنى بعقله زل]ا.هـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (الفتوى الحموية الكبرى):[النظر إلى أهل الكلام بعين الشرع وبعين القدر: ويعلم العليم أنهم من وجه مستحقون ما قاله الشافعي ـ t ـ حيث قال:«كمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على الكلام».

ومن وجه آخر إذا نظرت إليهم بعين القدر ـ والحيرة مستولية عليهم، والشيطان مستحوذ عليهم ـ رحمتَهم ورفقتَ عليهم، أُوتُوا ذكاءً وما أُوتوا زكاءً، وأُعطوا فُهومًا وما أُعْطُوا علومًا وأُعطوا سمعًا وأبصارًا وأفئدة {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون} [الأحقاف:٢٦]. ومن كان عليمًا بهذه الأمور: تَبَيَّنَ له بذلك حذق السلف وعلمهم وخبرتهم، حيث حذروا [عن الكلام ونهوا عنه، وذمُّوا] أهله وعابوهم، وعلم أن من ابتغى الهدى في غير الكتاب والسنة لم يزدد إلا بعدًا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فنسأل الله العظيم أن يهدينا الصـــراط المستقيم، صراط الـذين أنعـم علـيهم غـير المغضوب عليهم ولا الضالين، آمين]ا.هـ.

وقال ابن القيم في (إعلام الموقعين):[على المفتي أن يكثـر الـدعاء لنفسـه بـالتوفيق، الفائدة الحادية والستون: حقيق بالمفتي أن يكثر الدعاء بالحديث الصـحيح اللهـم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السـموات والارض عـالم الغيـب والشـهادة أنـت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهـدي من تشاء إلى صراط مستقيم وكان شيخنا كثير الدعاء بـذلك وكـان إذا أشـكلت عليـه المسائل يقول يا معلم إبـراهيم علمنـي ويكثـر الاسـتعانة بـذلك .....إلى أن قـال: والمعول في ذلك كله على حسن النية وخلوص القصد وصدق التوجه في الاستمداد من المعلم الأول معلم الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فإنه لا يرد مـن صـدق في التوجه إليه لتبليغ دينه وإرشاد عبيده ونصيحتهم والتخلص من القول عليه بلا علم فإذا صدقت نيته ورغبته في ذلك لم يعدم أجراً إن فاته أجران والله المستعان]ا.هـ.

والحرورية، هم الخوارج، الذين كـانوا يقـدمون فهـومهم وعقـولهم السـقيمة عـلى النصوص الصحيحة الصريحة، ويضربون كتاب الله وسنة رسوله r بعضـها بـالبعض الآخر، اتباعا لرأيهم الفاسد، الذي ظنوه حقا، فخرجوا على الأمة بأسيافهم، عياذا بالله منهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه:(درء تعارض العقـل والنقـل):[وبكـل حـال فالعبد مفتقر إلى الله في أن يهديه ويلهمه رشده وإذا حصل لـه علـم بـدليل عقـلي فهـو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مفتقر إلى الله في أن يحدث في قلبه تصور مقدمات ذلك الدليل ويجمعها في قلبه ثم يحدث العلم الذي حصل بها وقد يكون الرجل من أذكياء الناس وأحدهم نظرا ويعميه عن أظهر الأشياء وقد يكون من أبلد الناس وأضعفهم نظرا ويهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه فلا حول ولا قوة إلا به فمن اتكل على نظره واستدلاله أو عقله ومعرفته خذل]ا.هـ.

قال المؤلف:(بالأدلة): جمع دليل، وهي العلامة على الشيء، التي تميزه عن غيره وتدل عليه، ويطلق ويراد به البرهان، وهي الحقيقة، والحجة المثبتة للشيء، كما قال تعالى: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة:١١١-١١٢]، أي هاتوا الأدلة الحقيقية الصائبة الدالة على صدقكم فيما تقولون، وكقوله: {أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ الله رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنبياء:٢١-٢٤].

فعُلم من هذا أن كل فعل نتعبد الله تعالى به، إذا لم يقم عليه دليل؛ فهو من اتباع الظن، والظن لا يغني من الحق شيئاً؛ ولهذا قلنا لا اعتبار لشيء سوى الكتاب والسنة، وما انبثق عنهما، كعمل الصحابة **y**، والإجماع، والقياس المنضبط، المتضمن للأصل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الذي يقاس عليه، وهذا الأصل المقاس عليه لابد أن يكون له مستند من الكتاب أو السنة الصحيحة، ثم توفر العلة الصحية الجامعة بين الأصل والفرع، مع ملاحظة أن يكون الجامع ظاهرا بينا، لأن البعض يذكر علة، ويكون الفارق أكبر من الجامع، ثم بعد ذلك يأتي الحكم صائبا، هذا هو القياس الصحيح المنضبط، الذي اعتبره الشارع الحكيم، وعمل به الصحابة والسلف، ولم ينازع فيه إلا أصحاب الهوى، ومن اغتر بهم، أو فسد اجتهاده في هذه المسألة، وقد ذكر أهل العلم أن أول من نفى القياس جملة، هو النَّظَام المعتزلي، نسأل الله العافية والسلامة.

الظن خَرْصٌ وضلال لا يغني من الحق شيئا:

واعلم أنه ليس من المعرفة في شيء في دين الله عز وجل، بناء العقائد والأحكام على اتباع الضعيف من القول والشاذ، واتباع الظن بالأحاديث الضعيفة، فإنها من قبيل الظن، والرجم بالغيب، إذ لا يمكن الجزم بخروجه من المشكاة النبوية، وما كان بهذه المثابة فهو ظن لا يجوز اتباعه؛ لأنه خرص ورجم بالغيب، كما قال: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [الأنعام:١١٦]، وقال: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَللهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنعام:١٤٨-١٤٩]، وقال: {أَلَا إِنَّ للهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِلَّا يَخْرُصُونَ} [يونس:٦٦]، وقوله:{إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} [النجم:٢٣]، وقوله:{وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} [النجم:٢٨].

واعلم رحمك الله، أنه لا فرق في ذلك بين أصول الدين وفروعه، ولا بين فرائضه ولا فضائله، إذ الكل دين، وبالكل نحن متعبدون لله تعالى، فمن أراد أن يسير إلى الله على بصيرة؛ فعليه بما صح من الأخبار عن النبي المختار **r**؛ ولأن اتباع الضعيف من الأحاديث، ضياع للعمر القصير، إذ قد يُفْرِغُ العبد جهده ووقته في أمر لا أصل له، أو على الأقل هو مشكوك في ثبوته عن النبي عليه الصلاة والسلام؛ ولهذا كان الحديث الضعيف عند أئمة الحديث، لا يجوز الاعتماد عليه في مسائل الدين كلها، أصوله وفروعه. فتنبه.

لماذا مذهب أبي حنيفة:

أما الإقبال على الرأي مع وجود الدليل؛ فإنه خرص وهلكة، وضلال مبين، فإنما الرأي ليل، والدليل نهار، وقد تقدم بيان حال السلف وبغضهم للرأي المخالف للدليل وأهله، فقد كان الأصل عندهم أنهم كانوا شديدين على أصحاب الرأي، وإنما كان أبو حنيفة مثلا. فلله دَرُّهُم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد أخرج اللالكائي في (اعتقاد أهل السنة) في ذكره لعقيدة علي بن المديني أنه قال:[وإذا رأيت الرجل يحب أبا حنيفة ورأيه والنظر فيه؛ فلا تطمئن إليه وإلى من يذهب مذهبه، ممن يغلو في أمره ويتخذه إماماً].

ومن هنا تعلم عمق نظر السلف الصالح، في معرفتهم وتمييزهم لطلاب الهدى، وإن خالف توجهاتهم وآراءهم، من أصحاب الهوى المعارضين للهدى بآرائهم، ولك أن تفهم الآن لماذا بعض الحكومات، ومنهم حكومتنا، قبلت وتَبَنَّت مذهب أبي حنيفة في بعض الأحكام، لا سيما الأحوال الشخصية!!.

قال اللالكائي في اعتقاد أهل السنة:[وذكر أن فتى من أصحاب الحديث أنشد في مجلس أبي زرعة الرازي رضي الله عنه هذه الأبيات فاستحسنه وكتبت عنه:

دين النبي محمد أخباره ... نعم المطية للفتى آثاره

لا تعدلن عن الحديث وأهله ... فالرأي ليل والحديث نهاره

ولربما غلط الفتى أثر الهدى ... والشمس بازغة له أنواره

أخبرنا محمد بن عبد الرحمن بن العباس أخبرنا عبد الله بن محمد البغوي قال حدثنا محمد بن حميد قال حدثنا ابن المبارك قال أنبأ معمر عن يزيد العقيلي أو غيره عن مطرف بن الشخير قال: لو كانت هذه الأهواء كلها هوى واحدا؛ لقال القائل: الحق فيه، فلما تشعبت واختلفت؛ عرف كل ذي عقل، أن الحق لا يتفرق]ا.هـ.

وأنشد بعض أهل العلم قائلا:

أهل الكلام وأهل الرأي قد جهلوا ... علم الحديث الذي ينجو به الرجل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لو أنهم عـرفوا الآثار ما انحـرفـوا ... عنـهـا إلى غيرهـا لكنـهم جـهـلوا

وأنشدوا أيضا:

أهل الكلام دعونا من تعســفكم ... كم تبتغون لدين الله تبديلا

ما أحدث الناس في أديانهم حدثا ... إلا جعلتم له وجها وتأويلا

ولأبي بكر بن أبي داود السجستاني:

تمسك بحبل الله واتبـع الهـدى ... ولا تَـكُ بِدْعِيـاً لعـلك تُفـلـحُ

ولُذْ بكتـاب الله والسـنن التي ... أتَتْ عن رسول الله تَنْجُو وتَرْبَحُ

ودَعْ عنك آراء الرجال وقَوْلَهم ... فَقَـوْلِ رَسُولِ الله أَزْكَى وأَشْرَحُ

قوله:(دين الإسلام)، هذا يتضمن الأمر والحث على الإعراض عن تعلـم مـا سـواه من الأديان، إذ كلها باطلة، كما قال تعالى:{أَفَغَـيْرَ دِيـنِ اللهِ يَبْغُـونَ وَلَـهُ أَسْـلَمَ مَـنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [آل عمـران:٨٣]، وقولـه:{ أَفَغَـيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [الأنعام:١١٤]، وقوله:{وَلَـهُ مَـا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ} [النحل:٥٢]، واصبا:أي واجبا ملزما، لا يأذن الله تعالى بالمَحِيدِ عنه.

وجاء في تفسير الإمام ابن أبي حاتم قوله :[عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ:{وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا}، قَالَ:{الدِّينُ}: الإخلاص، {وَاصِبًا}: دائماً]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال الشنقيطي في (أضواء البيان):[قوله تعالى:{وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً}، الدين هنا:الطاعة؛ ومنه سميت أوامر الله ونواهيه ديناً؛ كقوله:{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ}، وقوله:{وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً}، وقوله:{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ}.والمراد بالدين في الآيات: طاعة الله بامتثال جميع الأوامر، واجتناب جميع النواهي. ومن الدين بمعنى الطاعة: قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

وأياماً لنا غراً كراما ... عصينا الملك فيها أن ندينا

أي: عصيناه وامتنعنا أن ندين له؛ أي: نطيعه. وقوله:{وَاصِباً}، أي: دائماً؛ أي له جلَّ وعلا: الطاعة والذل والخضوع دائماً؛ لأنه لا يضعف سلطانه، ولا يعزل عن سلطانه، ولا يموت ولا يغلب، ولا يتغير له حال بخلاف ملوك الدنيا؛ فإن الواحد منهم يكون مطاعاً له السلطنة والحكم، والناس يخافونه ويطعمون فيما عنده برهة من الزمن، ثم يعزل أو يموت، أو يذل بعد عز، ويَتَّضِعُ بعد رِفْعَةٍ؛ فيبقى لا طاعة له ولا يعبأ به أحد، فسبحان من لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وكبره تكبيراً.

وهذا المعنى الذي أشار إليه مفهوم الآية بينه جل وعلا في مواضع أُخر؛ كقوله:{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ}، وقوله تعالى:{خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ}؛ لأنها ترفع أقواماً كانت منزلتهم منخفضة في الدنيا، وتخفض أقواماً كانوا ملوكاً في الدنيا، لهم المكانة الرفيعة، وقوله:{لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}، ونظير هذه الآية المذكورة قوله: {وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ}،أي: دائم]ا.هـ.

واعلم بارك الله فيك، أنه هذا الدين هو أهم ما يجب على العبد أن يبدأ به من العلوم، وقد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى العظيم، وبيانه.

والدين مأخوذ من الذل والانقياد، ومنه قوله جل وعلا:{مالك يوم الدين}، أي اليوم الذي يدين فيه العباد لربهم جل وعلا، ويراد به الطريق والمنهج، ومنه قوله جل وعلا:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ} [المائدة:٣] ، وهو المذكور في قوله تعالى:{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [المائدة: ٤٨]، أي بينت لكم منهجكم في الإسلام، والطريقة التي يجب اتباعها؛ ولهذا قال المؤلف:(وهو الاستسلام لله بالتوحيد).

قوله: (وهو الاستسلام لله بالتوحيد)، والاستسلام حقيقته، الانطراح على باب العبودية، يُصَرِّفُك فيها ربك كيف يشاء، فَيَجِدُك حيث أمرك، ولا يَجِدُك حيث نهاك، ولما كان هذا الانطراح يفعله المشركون مع غير الله عز وجل، كفعلهم مع الطواغيت ونحوهم، فَيَأْتَمِرُونَ بأمرهم، وينتهون عن نهيهم، كان الاستسلام لله تعالى هو طاعته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على كل حال في المنشط والمكره، فتأمل الفرق بين الحالين؛ لتعرف الفرق بين الإيمان والكفر.

قوله:(لله بالتوحيد): اللام لام الاختصاص والاستحقاق. ولما كان هناك من يخص الله جل وعلا بذلك ويخص معه غيره، قال المؤلف (بالتوحيد): أي مستصحباً التوحيد في ذلك، والتوحيد ينافي الإشراك، وقد تقدم بيان أنواع التوحيد من قبل، والمعنى إذاً كن لله وحده لا شريك له، ولهذا قال ابن القيم في نونيته:

فَلِوَاحِدٍ كُنْ وَاحِداً فِي وَاحِدٍ .... أعْنِي طَرِيقَ الحَقِّ والإيمان

أي فإذا علمت أنه سبحانه واحد أحد جل في علاه، فأفرده بالعبادة دونما سواه، وكن جامعاً لقلبك عليه، سالكا طريقا واحدا، وهو صراط الله المستقيم، وهو طريق الحق والإيمان.

قال تعالى:{ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر:٢٩].

قال المؤلف رحمه الله:(والانقياد له بالطاعة): هذا من عطف الخاص على العام، فالانقياد من جملة الاستسلام، ولكنه أفرده للأهمية، ولكثرة الخلل فيه، فإن كثيرا من العباد يزعم الاستسلام لله بالتوحيد، ولكن لا تراه منقادا مطيعا لله عز وجل؛ ولهذا ابتلى الله تعالى عباده بقوله:{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَّ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُّ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللهَّ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَّ لَا يُحِبُّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْكَافِرِينَ} [آل عمران:٣١-٣٢]، وذلك لأن البعض يظن أن التوحيد هو فقط ألا تسجد لصنم، ولا تعلق صليبا، ولا تعبد حجرا، أو بشرا، أو قبرا، أو نحو ذلك، ويظن أنه وإن لم يَنْقّد للتعاليم الربانية، وتشريعاته التي أنزلها على نبيه r ، فإن ذلك لا يضره، وهذا حال كثير من العِبَاد اليوم، كالعلمانيين، والديمقراطيين، والشيوعيين – زعموا في الاقتصاد والاجتماع والسياسة –قد يصلي لله ولا يعبد صنما ولا قبرا ولا صليبا، ويظن أنه على شيء، ألا فليعلم كل هؤلاء وغيرهم أن الله تعالى أبَى هذا الإيمان، ورده على أصحابه، حتى يكون الدخول في السلم كافة، قال تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَّ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَّ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:٦٤-٦٥]، وحتى يكون الإذعان والانقياد لشرعه، حكما مطاعا في الدقيق والجليل القليل والكثير، في الداخل والخارج، في الحياة كلها، بل وبعد الممات،كما قال تعالى:{يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر: ١٦].

فهو سبحانه الواحد القهار على كل حال، كما قال تعالى في عُبَّاد الهوى والتشريعات الجاهلية:{يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُّ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُّ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف:٣٩-٤٠]، وقال في عباد الأولياء والصالحين وأصحاب القبور:{وَللهِ يَسْجُدُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}[الرعد:١٥-١٦]، وقال:{أَلَا لله الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى إِنَّ اللهَّ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَّ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللهُّ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُّ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الزمر:٣-٤].

قوله:(بالطاعة): قيد مهم ليخرج من ذلك التقرب بالمعاصي والانقياد بها، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، ولا يرضى أن يتقرب إليه أحد إلا بما شرع.

فإن هناك فئاما من الناس، ضل عن سواء السبيل في هذه المسألة الهامة الخطيرة، حتى صار بعضهم إلى الزندقة والعياذ بالله، وتأمل فيما يفعله بعض الممثلين والفنانين، واللاعبين، حيث يقارفون الآثام والمنكرات أثناء ذلك، ثم يزعمون أنهم يريدون بذلك نصرة الدين، ومعالجة قضايا المجتمع، وأخبث من ذلك، ما يجدونه من الفتاوى الخبيثة، التي يَتَقَيَّؤ بها الْمُتَلَوِّنُون في الدين، الذين اتخذوا دين الله تعالى لعبا ولهوا، لا كثرهم الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} [البقرة:١١-١٦].

وليس ببعيد عنا ما سمعناه من الدعوة الصريحة إلى أَسْلَمَة الفَنْ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فَتْوَى كُفْرِيَّة:

بل وبعضهم أجاز التمثيل، وزعم أنها رسالة تربوية للمجتمعات، مع أن هذا التمثيل يتضمن اختلاط النساء بالرجال، وتَبَرجُ النساء فيه بأصرح وأصرخ ما يكون، ناهيك عن المواقف الشهوانية فيها، بل والألفاظ الخبيثة، بل حتى الألفاظ الكفرية ليست بعيدة.

ولا شك أن هذه الفتوى تُعَدُّ استحلالا لما حرم الله، وهذا تشريع يكفر به العبد، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم. فليتنبه لهذا المقام الخطير، والمزلق الوخيم.

وآخرون يسافرون إلى بلاد الكفر والفجور والإباحية، بدعوى الدراسة، وبعضهم يحتجون بنصرة الدين كذلك، ومثلهم المرأة التي تخرج من بيتها خَرَّاجَة وَلَّاجَة، وهي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السَّلْفَعُ من النساء[١]، وربما قطعت الفيافي والقفار، هي الأخرى كذلك لَقَّنوها أنها على ثغرة، وأنها تخدم دين الله، وما علمت هي والآخرون، أنهم إنما يطبقون أجندة الغرب، ويَتَجَارَوْنَ مع وحي الشيطان وأعوانه. فالله المستعان.

جاء في تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب:[قال المصنف: وقوله{ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها}، قال أبو بكر بن عياش في الآية إن الله بعث محمدا r إلى أهل الأرض وهم في فساد فأصلحهم الله بمحمد r فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد صلى الله عليه و سلم فهو من المفسدين في الأرض، وقال ابن القيم قال أكثر المفسرين لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره ومطاع متبع غير رسول الله r هو أعظم الفساد في الأرض ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود والدعوة له لا لغيره والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول r فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة ومن تدبر أحوال العالم وجد كل

---

١ - أخرج ابن أبي شيبة في وصف عمر t لابنتي شعيب عليه السلام، لما جاءتا إلى موسى عليه السلام، قال عُمَرُ t : فَأَقْبَلَتْ إِلَيْهِ لَيْسَتْ بِسَلْفَعٍ مِنَ النِّسَاءِ لاَ خَرَّاجَةٍ وَلاَأَوَلاَجَةٍ ، وَاضِعَةً ثَوْبُهَا عَلَى وَجْهِهَا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله انتهى وبهذا يتبين وجه مطابقة الآية للترجمة لأن من يدعو إلى التحاكم إلى غير ما أنزل الله والى الرسول فقد أتى بأعظم الفساد.

قال: وقوله:{وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون}، قال أبو العالية في الآية يعني لا تعصوا في الأرض وكان فسادهم ذلك معصية الله لأن من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد في الأرض لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة قلت ومطابقة الآية للترجمة ظاهر لأن من دعا إلى التحاكم إلى غير ما أنزل الله فقد أتى بأعظم الفساد وفي الآية دليل على وجوب اطراح الرأي مع السنة وإن ادعى صاحبه أنه مصلح وأن دعوى الإصلاح ليس بعذر في ترك ما أنزل الله والحذر من العجب بالرأي]ا.هـ.

قال المؤلف:(والبراءة من الشرك وأهله): أي هذه متممة الأمر، فالإسلام الذي هو الإسلام عند الله، لا بموازين البشر، يستلزم البغض للمشركين والبراءة منهم، وهذه هي عقيدة الولاء والبراء التي تحدثنا عنها من قبل، وهذه الجمل هي المسائل الثلاث التي ذكرها المؤلف من قبل، المتضمنة لإفراد الله تعالى بالعبادة، وإفراد النبي r بالاتباع، وتحقيق عقيدة الولاء والبراء، وإنما كرر المؤلف ذلك هنا؛ لأنه كما تقدم معنا مرارا، هو قِوَامُ الدين، ولابد من ترداده، وبيانه والإكثار منه، بأوجه مختلفة، ومناسبات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

متنوعة، إذ لا يخرج الدين عن ذلك، ولا شيء من الدنيا يخرج عن حكم الله تعالى، كما قال تعالى:{مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام:٣٨].

لا إيمان بلا انقياد:

فأراد المؤلف أن يقول: من أسلم ولم ينقاد؛ فليس بداخل في دين الإسلام، ومن أسلم وانقاد، ولم يبرأ من الشرك وأهله، فلم يحقق الانقياد المطلوب شرعا،فليس هو إذا بداخل في دين الإسلام، حتى يجمع الثلاثة معاً،استسلام وانقياد وبراءة.

وهذه البراءة تتضمن فضح الشرك وكشف عوارهم، والسعي في القضاء عليه، ومطاردته، وجهاد أهله، بكل أنواع الجهاد، بالبيان بالدعوة والبرهان، وبإنفاق الأموال في ذلك، ثم إن كان ثمة قدرة وشوكة؛ جاهدناهم بالسِّنَانَ على ذلك، حتى تكون كلمة الله هي العليا، قال تعالى:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالله وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩].

قال المؤلف رحمه الله تعالى:(وهو ثلاث مراتب): هذا تأكيد من المؤلف على أن الدين لا يُسَمَّى دينا، إلا بالقيود والضوابط الشرعية، لا بأهواء وآراء البشر، فالدين له أعمال ظاهرة، وأخرى باطنة، ولا يصح إيمان العبد بدونها، ولن يحافظ عبد على دينه بغيرها، فإذا أطلق الدين أريد به هذه الثلاث:(الإسلام والإيمان والإحسان).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد اختلف العلماء في التفريق بين الإسلام والإيمان، وأظهر الأقوال في ذلك قول من قال بأن الإسلام هو الاسم العام، كما قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ} [آل عمران:١٩] ، فعند الإطلاق يدخل فيه الدين كله،؛ لأن الله تعالى عرف الدين بالإسلام في هذه الآية، فيدخل فيه الإيمان والإحسان، وكذلك على الراجح إذا قلنا الإيمان يدخل فيه الإسلام والإحسان؛ لأنه يكون في هذه الحالة المراد به جملة الدين، كما في الصحيحين من طريق أَبِي جَمْرَةَ قَالَ كُنْتُ أَقْعُدُ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ يُجْلِسُنِي عَلَى سَرِيرِهِ فَقَالَ أَقِمْ عِنْدِي حَتَّى أَجْعَلَ لَكَ سَهْمًا مِنْ مَالِي فَأَقَمْتُ مَعَهُ شَهْرَيْنِ ثُمَّ قَالَ إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ لَمَّا أَتَوْا النَّبِيَّ r قَالَ مَنْ الْقَوْمُ أَوْ مَنْ الْوَفْدُ قَالُوا رَبِيعَةُ قَالَ مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ أَوْ بِالْوَفْدِ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا وَنَدْخُلْ بِهِ الْجَنَّةَ وَسَأَلُوهُ عَنْ الْأَشْرِبَةِ فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ قَالَ أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصِيَامُ رَمَضَانَ وَأَنْ تُعْطُوا مِنْ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ عَنْ الْحَنْتَمِ وَالدُّبَّاءِ وَالنَّقِيرِ وَالْمُزَفَّتِ وَرُبَّمَا قَالَ الْمُقَيَّرِ وَقَالَ احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ"، فسمى هذه الأمور إيمانا وهي متنوعة، والمقصود إقامة الدين والدخول في السلم كافة، بأن يكون العبد مهيئا لقبول ما يأتيه من الإسلام؛ فيقبل وينقاد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما إذا اجتمع الإسلام والإيمان في حديث واحد، أو آية واحدة، فإنه يراد بالإسلام الأعمال الظاهرة، وهي أركان الإسلام الخمسة، وبالإيمان الأعمال الباطنة، وهي أركانه الستة، وأما إذا ورد ذكر الإسلام وحده، أو الإيمان وحده؛ فكل واحد منهما يشمل الآخر، وقد جمع بعض أهل العلم ذلك بقوله:(إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا)، أي إذا اجتمعا في سياق واحد؛ افترقا في المعنى، وإذا افترقا في السياق؛ اجتمعا في المعنى، كقوله تعالى: {فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [الذاريات:٣٥-٣٦]، أي كانت النجاة لمن حقق الإيمان ظاهرا وباطنا، ولما كان من بين أهل البيت زوجة لوط، وكانت تظهر الإسلام ولا تحققه، سمى أهل البيت مسلمين، ولكن النجاة كانت للمحققين منهم فقط. والله أعلم.

ومنه ما في الصحيحين عَنْ سَعْدٍ t أَنَّ رَسُولَ الله r أَعْطَى رَهْطًا وَسَعْدٌ جَالِسٌ فَتَرَكَ رَسُولُ الله r رَجُلًا هُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ فَوَالله إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا فَقَالَ:"أَوْ مُسْلِمًا" فَسَكَتُّ قَلِيلًا ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي فَقُلْتُ مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ فَوَالله إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا فَقَالَ:"أَوْ مُسْلِمًا" ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي وَعَادَ رَسُولُ الله r ثُمَّ قَالَ:"يَا سَعْدُ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ فِي النَّار".

وهذه الجمل والمعاني ستمر علينا لاحقا بإذن الله تعالى، وأما الإحسان فسيأتي بيانه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال المؤلف:(وكل مرتبة لها أركان): هكذا اصطلح أكثر أهل العلم على تسميتها بالأركان، ولم أقف على دليل ينص على هذه التسمية، ولكنها جاءت بموارد مختلفة، كما الصحيحين عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسَةٍ عَلَى أَنْ يُوَحَّدَ اللهُ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَصِيَامِ رَمَضَانَ وَالْحَجِّ »، وفي رواية لمسلم:"بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ عَلَى أَنْ يُعْبَدَ اللهُ وَيُكْفَرَ بِمَا دُونَهُ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَحَجِّ الْبَيْتِ وَصَوْمِ رَمَضَانَ"، وفي لفظ للبخاري:"بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ إِيمَانٍ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالصَّلَاةِ الْخَمْسِ وَصِيَامِ رَمَضَانَ وَأَدَاءِ الزَّكَاةِ وَحَجِّ الْبَيْتِ"، وفي لفظ لمسلم:"بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَحَجِّ الْبَيْتِ وَصَوْمِ رَمَضَانَ".

والركن لغة:قال في القاموس المحيط:[والرُّكْنُ. بالضم:الجانِبُ الاقْوَى والأمْرُ العظيمُ وما يُقَوَّى به من مَلِكٍ وجُنْدٍ وغيرِهِ والعِزُّ والمَنَعَةُ]ا.هـ.

فيمكن تسميتها بـ(ما بني عليها الإسلام)، أو بـ(تعريف الإسلام والإيمان والإحسان).

وهذا التفصيل دال على عظمة الإتقان في هذا الدين، وانضباطه ودقته، كما قال تبارك وتعالى:{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}[النساء:٨٢]، والمؤلف هنا أجمل القول، ثم سيعود لتفصيل كل ذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(المرتبة الأولى:الإسلام: فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَن لا اله إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ).

كأن المؤلف رحمه الله تعالى هنا، أراد أن يفسر هذه المراتب الثلاث، بناء على حديث جبريل الآتي، ولم يرد المعنى العام للإسلام والإيمان والإحسان، وهذا ما يظهر واضحا جليا من خلال، استدلاله على كل مرتبة من المراتب وأبعاضها.

فبدأ بالإسلام على ما جاء في الترتيب في حديث جبريل الآتي، وهنا يكون الإسلام هو المباني الخمس، الواردة في الخبر، على أننا كنا قد بينا بالروايات المتقدمة لحديث ابن عمر، أنه يدخل فيه التوحيد والبراءة من الشرك وأهله، كما في رواية:" بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ عَلَى أَنْ يُعْبَدَ اللهُ وَيُكْفَرَ بِمَا دُونَهُ".

أجمل المؤلف ذكر أركان الإسلام الخمسة هنا، ثم بعد ذلك سيشرع في تفصيل كل ركن بدليله، وهذا أسلوب اللف والنشر المرتب، كما تقدم.

قال المؤلف:(شهادة ألا إله إلا الله): جاء تفسيرها في حديث ابن عمر بأنها تحقيق العبودية بأن يُوَحَّدَ الله، ويُكْفَرَ بما دُونَه، ومن هنا كانت المفارقة والمفاصلة بين النبي r ، وكفار مكة والمشركين في زمانه عموما، حيث علموا مفادها ولوازمها وما تقتضيه، فأبوها ومضوا يحاربونها، ويحاربون من جاء بها - r - .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبعض المسلمين يقولونها، ولا يعرفون لها معنى، إلا ما اعتادوا عليه من الشعائر الظاهرة، أما عقيدة الولاء والبراء، فهذه كثير من المسلمين في غياب عنها، لا سيما في هذا الزمان، وهذا حال كثير ممن ورث الإسلام، ولم يعرف حقائقه. فالله المستعان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (درء التعارض):[ثم ذكر حال من يعبد الله على حرف، وهذه حال المتبع لهواه، الذي إن حصل له ما يهواه من الدنيا عبد الله، وإن أصابه ما يمتحن به في دنياه ارتد عن دينه، فهذه حال من كان مريضا، في إرادته وقصده، وهي حال أهل الشهوات والأهواء]ا.هـ.

وقال أيضا في مجموع الفتاوى:[فَعَامَّةُ النَّاسِ إذَا أَسْلَمُوا بَعْدَ كُفْرٍ أَوْ وُلِدُوا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْتَزَمُوا شَرَائِعَهُ وَكَانُوا مِنْ أَهْلِ الطَّاعَةِ لله وَرَسُولِهِ فَهُمْ مُسْلِمُونَ وَمَعَهُمْ إيمَانٌ مُجْمَلٌ وَلَكِنَّ دُخُولَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ إلَى قُلُوبِهِمْ إنَّمَا يَحْصُلُ شَيْئًا فَشَيْئًا إنْ أَعْطَاهُمْ اللهُ ذَلِكَ وَإِلَّا فَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ لَا يَصِلُونَ لَا إلَى الْيَقِينِ وَلَا إلَى الْجِهَادِ وَلَوْ شُكِّكُوا لَشَكُّوا وَلَوْ أُمِرُوا بِالْجِهَادِ لَمَا جَاهَدُوا وَلَيْسُوا كُفَّارًا وَلَا مُنَافِقِينَ بَلْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمِ الْقَلْبِ وَمَعْرِفَتِهِ وَيَقِينِهِ مَا يَدْرَأُ الرَّيْبَ وَلَا عِنْدَهُمْ مِنْ قُوَّةِ الْحُبِّ لله وَلِرَسُولِهِ مَا يُقَدِّمُونَهُ عَلَى الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَهَؤُلَاءِ إنْ عُوفُوا مِنْ الْمِحْنَةِ وَمَاتُوا دَخَلُوا الْجَنَّةَ. وَإِنْ ابْتُلُوا بِمَنْ يُورِدُ عَلَيْهِمْ شُبُهَاتٍ تُوجِبُ رَيْبَهُمْ فَإِنْ لَمْ يُنْعِمْ اللهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يُزِيلُ الرَّيْبَ وَإِلَّا صَارُوا مُرْتَابِينَ وَانْتَقَلُوا إلَى نَوْعٍ مِنْ النِّفَاقِ. وَكَذَلِكَ إذَا تَعَيَّنَ عَلَيْهِمْ الْجِهَادُ وَلَمْ يُجَاهِدُوا كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْوَعِيدِ وَلِهَذَا لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ r الْمَدِينَةَ أَسْلَمَ عَامَّةُ أَهْلِهَا فَلَمَّا جَاءَتْ الْمِحْنَةُ وَالِابْتِلَاءُ نَافَقَ مَنْ نَافَقَ. فَلَوْ مَاتَ هَؤُلَاءِ قَبْلَ الِامْتِحَانِ لَمَاتُوا عَلَى الْإِسْلَامِ وَدَخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمْ يَكُونُوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنْ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا الَّذِينَ ابْتُلُوا فَظَهَرَ صِدْقُهُمْ. قَالَ تَعَالَى: {الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} وَقَالَ تَعَالَى: {مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}، وَقَالَ: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}، وَلِهَذَا ذَمَّ اللهُ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ دَخَلُوا فِي الْإِيمَانِ ثُمَّ خَرَجُوا مِنْهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ } {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ} - إلَى قَوْلِهِ - {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}]ا.هـ.

وقد وردت للشهادتين ضوابط في الكتاب والسنة:

١ - أن تكون بعلم وعمل؛ لقوله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} [محمد: ١٩]، وقوله: {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [الزخرف:٨٦].وفي صحيح مسلم عَنْ عُثْمَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ".

٢ - أن يتلفظ بها كل مستطيع لذلك، فإن أبي فلن ينفعه الإقرار بصدقها، وشهادته بأنها هي الحق، كما في الصحيحين من طريق سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ r فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ فَقَالَ:"أَيْ عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ"، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ الله r يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدَانِهِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r وَالله لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ فَأَنْزَلَ اللهُ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} وَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ الله r: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}،ونحو ذلك من الأحاديث.

وفي ذلك غاية الاعتبار، فأبو طالب حَاطَ النبي r ونصره، ووقف معه في خندق واحد، ينافح عنه ويدافع، حتى اعتزل معه في مقاطعة أهل مكة له، في الشعب الذي سُمِّيَ بشعب أبي طالب، وقد عَلِمَ أنه على الحق، ومع ذلك لما أَبَى أن يقولها، ويذعن لها؛ مات كافرا بالله جل وعلا، ومما قاله من الشعر في مُنَاصَرتِه للنبي r:

والله لن يَصِلُوا إليك بِجَمْعِهِم ... حتى أُوَسَّدَ في التُّرَابِ دَفِينَا
فاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَليكَ غَضَاضَةٌ ... وأَبْشِرْ بِذَاكَ وَقَرَّ مِنْكَ عُيُونَا
ودَعَوْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّك نَاصِحِي ... فَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ قَبْلُ أَمِينَا
وَعَرَضْتَ دِيناً قَدْ عَرَفْتُ بِأَنَّهُ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِيْنَا
وَلَولَا المَلَامَةُ أو حِذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحاً بِذَاكَ مُبِينَا

٣- أن تكون بيقين وصدق؛ لقوله تعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}[المنافقون:١]، وقوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحجرات:١٥].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤- أن تكون بذل وانقياد؛ لقوله تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:٦٥]، وقوله: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف:٤٠].

٥- أن يَصْحَبَها الإخلاص فيها؛ لما في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ قِيلَ يَا رَسُولَ الله مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ رَسُولُ الله r :"لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ". وفي الصحيحين من حديث مَحْمُودُ بْنُ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيُّ t في قصة عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ t قال النبي r :"فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله".

٦- أن يتواطأ الظاهر فيها مع الباطن؛ لقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال:٢-٤].

٧- عقد الولاء والبراء فيها؛ لقوله تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة:٢٢]،وقوله:{وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} [محمد:٨-٩]، وقوله:{إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ} [محمد:٢٥-٢٦].

٨- موافاة الله تعالى بها، بألا يرتكب نواقضها؛ لقوله تعالى:{لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا} [مريم:٨٧-٨٩]، وقوله:{يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} [طه:١٠٩].

فاعلم رحمك الله، أن الشهادة لا تنفع صاحبها إذا لم تتوفر فيها هذه الأمور، وقد ذكر بعض أهل العلم أن شروط قبول الشهادتين سبعة.

شروط الشهادتين:

١- العلم المنافي للجهل.

٢- اليقين المنافي للشك والريبة والتردد، ودليله قوله تعالى:{ثم لم يرتابوا}، وقوله تعالى:{لا ريب فيه}، وقوله:{وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أُنْـزِلَ عَـلَى الَّـذِينَ آمَنُـوا وَجْـهَ النَّهَـارِ وَاكْفُـرُوا آخِـرَهُ لَعَلَّهُـمْ يَرْجِعُـونَ} [آل عمران:٧٢]، فمن شك أو تردد فليس بِمُسْلِم. نسأل الله العافية والسلامة.

٣- القبول المنافي للإعراض والنفور، ودليله قوله تعالى:{ثم لا يجدوا في أنفسهم حرج مما قضيت ويسلموا تسليماً}.

٤- الانقياد المنافي للاستكبار والتعالي؛ لأن حقيقة الانقياد هو الذل والخضوع والإذعان، ودليله قوله تعالى:{قل أن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله}.

٥- الصدق المنافي للتكذيب والكذب، قال تعالى:{والذي جاء بالصدق وصدق به}.

٦- الإخلاص المنافي للرياء والشرك وحظوظ النفس، قال تعالى:{وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ... الآية}.

٧- المحبة وهي تاجها، المنافية للبغض والكره، قال تعالى:{يحبهم ويحبونه}، وقوله تعالى:{ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم}.

والناس مع الشهادة أصناف وهم:

أ- من يعلمها ويتعلمها ولكنه لا يقين عنده كالمستشرقين وأشباههم من المنافقين، فهم يعلمون معناها، ولكنهم شاكون فيها مترددون في قبولها والانقياد لها، وهؤلاء كفار ولو كثرت صلاتهم وصيامهم وحجهم وعمرتهم، فلا بد من اليقين الجازم بهذه الكلمة الطيبة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومما يشهد لذلك قوله r في صحيح البخاري:"إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ وَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ". متفق عليه من حديث سهل بن سعد الساعدي t ، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة لما ذكر النبي r المنافقين قال في شأنهم:"وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ"، وأصله في الصحيحين.

ب- وبعض الناس يعلمها ويوقن بها، ولكنه لا يقبلها، قال تعالى:{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [النمل:١٤]،كحال المستكبرين والكافرين، والمبدلين لشرع الله تعالى، على مر العصور والأزمان، فهم يعلمون صدق الرسل، ويوقنون بصدق رسالتهم، ولكنهم لا يقبلون ما جاؤوا به، إما لحسد أو كبر، أو استغناء بعرض الدنيا عن الآخرة.

ج- ومن العباد من يعلمها ويوقن بها ويقبلها، ولكنه لا يريد أن ينقاد لها، فلا يعمل بالشرع، ولا يحكِّم كتاب الله جل وعلا، فهذا لا تنفعه الشهادة عند الله جل وعلا، فالانقياد أصل من أصول الاعتقاد، كحال الحاكمين بغير ما أنزل الله بالتشريعات الجاهلية، فهم ينطقون بالشهادتين، ويزعمون العلم بمقتضاها، واليقين بها، والقبول لها، ولكنهم يأبون الانقياد لما تأمر به هذه الكلمة، من إفراد الله جل وعلا بالحكم والتشريع. وكذلك تارك الصلاة لم ينقد لله جل وعلا فلم ينفعه نطقه بالشهادتين، فهؤلاء تولوا عن العمل بما اقتضته هذه الشهادة في هذا المقام، فكانوا بذلك كفارا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

د- ومن العباد من يعلم ويوقن ويقبل وينقاد، لكنه ليس بصادق مع الله فيها، فهو يفعل ما تقدم إما رغبة، أو رهبة،أو تحصيلا لشيء من عرض الدنيا، أما في حقيقة حاله، فهو كاذب مخادع، نسأل الله العافية السلامة، كحال الطواغيت الذين يلجئون إلى تطبيق الشرع؛ خشية من شعوبهم إذا قويت شوكتهم، فيظهرون القبول بها، ولكنهم في باطن الأمر يكذبون بها والعياذ بالله، وهذا هو حقيقة النفاق، وقد فضحهم الله تعالى وعرى أحوالهم في فواتيح سورة البقرة، من قوله تعالى: {ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين} إلى قوله تعالى: {إن الله على كل شيء قدير}.

هـ - ومن العباد من يعلم ويوقن ويقبل وينقاد ويصدق، لكنه يرائي في ذلك، يريد ثناء الناس، وعرض الحياة الدنيا، فهذا مشرك بالله جل وعلا، وعمله حابط، وهو وبال عليه، نسأل الله العافية والسلامة.

و- ومن العباد من يفعل جميع ما تقدم، ولكنه يحب أعداء الله، ويواليهم، فهذا يزعم الإيمان، ولَّما يدخل الإيمان في قلبه، فهو لا يحب الله جل وعلا ولا رسوله r ؛ لأن من لوازم محبة الله ورسوله بغض أعدائهما، إذ لا يتصور محبة الشيء، ومحبة ضده، فالضدان لا يجتمعان، فلا يكون أبدا محبة الله مع محبة أعدائه؛ ولهذا نفى الله الإيمان عمن زعم ذلك، كما قال تعالى: {لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوآدون من حاد الله ورسوله .... الآية}.

وقد جمع الناظم العلامة الشيخ حافظ حكمي رحمه الله المتوفى سنة ١٣٧٧هـ، هذه الشروط السبعة فقال:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبـشـروط سـبـعـة قـد قُيِّدَت ... وفي نصوص الوحي حقاً وَرَدَت
فإنـه لـن يـنـتـفـع قـائـلـهـا ... بالنطـق إلا حيـث يَسْـتَكْمِلُهـا
الـعلـم والـيـقـيـن والقـبـول ... والانقـيـاد فـادري مـا أقـول
والصدق والإخلاص والمحبة ... وفـقـك الله لمـا أحـبـه

فهذه هي شروط لا إله إلا الله محمد رسول الله r ، فإن العبـد إذا علـم معنـى هـذه الشهادة وما دلت عليه ومقتضياتها؛ وجب عليه أن يقبل كل ما جاءت به هذه الشهادة، فإذا قبل ذلك، وجب عليه تحويل هذا القبول وترجمته إلى واقع عملي، وذلـك بالانقيـاد لما أمرت به ونهت عنه، وأن يكون في ذلك صادقاً لا منافقاً، فَـيُرِي الله جـل وعـلا مـن نفسه الصدق في توجهه وعمله، وذلك إنما يكون بالإخلاص قَلْباً وقَالَباً، فإن من أبـرز علامات الصدق الإخلاص لله جل وعلا ما وقر في القلب من التعظـيم والإجـلال لله تبارك وتعالى، مما يتضاءل معه كل شيء سوى الله تعـالى، عنـدها يصـرف العبـد همتـه لإرضاء ربه تبارك وتعالى، ولو سخط النـاس أو ذمـوه أو فاتـه عـرض الـدنيا، والله لا يرضى إلا عن الموحدين المنقادين لشرعه، فإذا فعل ذلك، فعليه أن يعلم أنه لم يَقْـدُر الله حق قدره حتى يحب الله وأولياء الله، ويبغض الشيطان وأولياء الشيطان، وهـذه المحبـة هي تاج هذه الشروط، فمن أحب الله حقاً، فعل جميع ما تقـدم، وأمـا المـدعي للمحبـة فتراه يخالف بعض تلك الشروط، والأمر كما قال الشافعي كما في ديوانه المنسوب إليه:

لو كان حبك صادقاً لأَطَعْتَهُ.... إن المُحِبَّ لمن يُحِبُّ مُطِيعُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال المؤلف رحمه الله:(ودليل الشهادة، قوله تعالى: شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم): أي دليل الشق الأول من الشهادتين، لأنهما لا تنفصلان؛ ولهذا جعلهما النبي r واحدة لما ذكر ما بُنِيَ عليه الإسلام، وهذا إعلام منه r ، أن العبد لن ينتفع بالشهادة لله بالتوحيد، حتى يشهد للنبي r بالرسالة ويحقق معناها ولوازمها ومقتضياتها، وكذلك لن ينتفع العبد بالشهادة للنبي r بالرسالة وبرفع شعار محبته للنبي r ، حتى يأتي بالتوحيد الخالص لله رب العالمين، فإنهما لا يفترقان أبدا، فإن افترقتا؛ صار العَبدُ بالله كَافِرا.

واعلم أن هذه الشهادة هي أعظم ما يتقدم به العبد بين يدي الله جل وعلا، وأنه لا تقوم للدين قائمة إلا بها، وأن الله لا يقبل من الأعمال شيئاً، إلا ممن كان من أصحابها.

قوله:{شهد الله}: أعظم شَاهِدٍ على أعظم مَشْهُودٍ به، فالشاهد الله رب العالمين، والمشهود به التوحيد، الذي هو حق الله على العبيد.

وفي الآية دليل على أن الله جل وعلا لم يزل متكلماً، فقد شهد تبارك وتعالى بهذه الشهادة العظيمة، وأخبر بها جل وعلا، وأعلمنا أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ثم أشهد على ذلك جل وعلا من عباده أَشْرَفَهم، وذلك لأنه لما كانت هذه الشهادة هي أشرف الأمور، وجاءت من أعظم شاهد بها، وتضمنت أعظم مشهود به؛ اصطفى من عباده من ارتضاهم جل وعلا شهداء، ليشهدوا على هذه الشهادة، فاختار تبارك وتعالى الملائكة ومن آتاهم الله العلم، وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون، ففيه شرف الملائكة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وشرف أهل العلم، عند الله تعالى، ولو لم يرد إلا هذه الآية في فضلهم؛ لكانت كافية، كيف وقد ورد ما سوى ذلك، فنسأل الله من فضله العظيم.

ولما كانت هذه الشهادة، هي شهادة القسط، قائمةً بالعدل، دالةً عليه آمرةً به، قال تعالى: {قائما بالقسط}، ثم بين جل وعلا أن هذا القيام لا يشاركه فيه أحد؛ لأنه قيام على العالمين، وهذا لا يملكه ولا يستطيعه سواه، جل الله في علاه، كما قال تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الرعد:٣٣].

فلما كان لا أحد يقوم بهذا كله ويدبر الخلق إلا هو تبارك وتعالى، قال مؤكداً هذا المعنى: {لا إله إلا هو العزيز الحكيم}.

معاني العزيز:

قوله: {العزيز}: أي ذو العزة جل وعلا، ومعناه المنيع الممتنع، الذي لا يرام جنابه، الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه ولا راد لأمره وقضائه، والذي لا يخاف من أحد إذا أراد فعل شيء جل الله في علاه، كما قال تعالى: {فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا} [الشمس:١٤-١٥]، على أحد التفسيرين في عودة الضمير على الله جل وعلا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال العلامة ابن القيم في (القصيدة النونية):

وهو العزيز فلن يُرامَ جَنَابُهُ... أنَّى يُرَامُ جَنَابُ ذِي السُّلطانِ

وهو العزيز القاهر الغَلَّابُ...لم يَغْلِبْـهُ شُـيءٌ هـذه صِفَتَـانِ

وهو العزيز بِقُوة هي وَصْفُهُ...فالعِـزُّ حِينَئِـذٍ ثَـلاثُ مـعـانِ

وهي التي كَمُلَت له سُبحانه..مِن كُل وُجْـهٍ عَـادِمِ النقصانِ

قوله:{الحكيم}: أي ذو الحكمة البالغة العظيمة، فهو المُحْكِمُ لخلقـه، وهـو الحـاكم فيهم، وهو الذي وضع كـل شيء في نصـابه بحكمتـه تبـارك وتعـالى، فهـو العـادل في حكمه، وهو المحكم لخلقه وشرعه، الواضع لكل شيء في نصابه، والـذي أعطـى كـل ذي حق حقه.

وحكمه سبحانه في خلقه، قدري كوني، وقدري شرعي، والكل بِقُدْرَتِه وقَدَرِه جـل الله في علاه، وسيأتي الفرق بين القدر الكوني والشرعي، بإذن الله تعالى، عن الكلام عند القدر.

وختم الله تعالى هذه الآية بهاتين الصفتين؛ ليبين أنه وحده المسـتحق لـذلك، فلـيس شيء من خلقه كذلك، بل هو سبحانه المتفرد بذلك، جل الله في علاه.

قال المؤلف رحمه الله:(وَمَعْنَاهَا:لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلا اللهُ): أي معنى كلمة (التوحيد: لا إله إلا الله) أنه لا معبود (بحق)، وإنما قيدها بقول (بحـق) ليخـرج بـذلك المعبـودات بالباطل، وللتذكير والتنبيه على أن هناك من يعبد في الأرض سوى الله، وعليـه فيكـون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المعنى: المعبودات كُثُرْ، ولكنها كلها باطلة إلا الله الواحد القهار؛ ولهذا قال إبراهيم عليه السلام:{قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء:٧٥-٧٧]، فبين عليه السلام، أن كل ما يعبدونه من دون الله فهو باطل، وأنهم له أعداء إلا الله جل وعلا، ثم أخذ في بيان صفات الإله الحق المستحق للعبادة، وهذه دعوة منه r لهم أن يَدَعُوا عبادة ما سواه، وأن يعبدوا الله وحده لا شريك له، فهو المستحق لذلك، وأما الآلهة الباطلة فهي ضعيفة ذليلة مقهورة مربوبة لله رب العالمين.إذن ليس المعنى إنكار وجود ما يعبد من دون الله عند البشر، ولكن إنكار أن تكون هذه آلهة، أو أن تكون مستحقة للعبادة، أو أن فيها أدنى مقومات ذلك.

ولهذا عندما ينفي الله تعالى المعبودات من دونه، إنما ينفيها بهذا المعنى، فهي حقيقة ليست آلهة، ولا تستحق أن تعبد، وإن زعم فيها أصحابها ذلك، كما قال تعالى:{ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَّ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَّ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج: ٦٢]، وقوله:{إِنَّ اللهَّ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [العنكبوت:٤٢]، وقوله:{ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَّ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَّ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [لقمان:٣٠].

ولهذا الله تعالى يتحدى هؤلاء المشركين في ذلك، كما قال تعالى:{قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللهُّ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سبأ:٢٧]، وقوله:{قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [فاطر:٤٠-٤١]، وقوله:{مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} [الأحقاف:٣- ٥]، ونحو ذلك من الآيات.

تقدير فاسد، دال على قصور صاحبه:

وبعض من لا علم له بمعاني التوحيد وحقائقه، يُقَدِّرُ أن معنى الكلمة الطيبة هو: أي:(لا رب بحق إلا الله) أو (لا خالق ولا رازق بحق إلا الله)، وهذا الكلام وإن كان حقا، إلا أنه قصور واضح في فهم كلمة التوحيد، فإن كلمة التوحيد لم تأت فقط لإثبات ربوبية الله تعالى على خلق وفعله بهم، وإنما جاءت كذلك ليصرف العباد إليه العبادة وحده لا شريك له، فهؤلاء لم يفهموا حقيقة التوحيد، وأنه جاء ليقرر مبدأ تعبيد العباد لله، وتقرير إلهيته عليهم، فإن الذين بُعِثَ فيهم النبي r ، وكذلك من بُعِثَ فيهم الأنبياء من قبله، أغلبهم كان يقر بربوبية الله جل وعلا، ومع هذا كانت الرسل تقول لهم:{اعبدوا الله مالكم من إله غيره}، أي طالما أنكم تقرون بربوبيته؛ فأقروا بألوهيته، فلا تعبدوا أحدا سواه، كما أنكم لا رب لكم سواه، فلو كان المعنى كما قال هؤلاء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجهلاء، فعلى أي شيء يُحارِب الرسل أقوامهم،وعلى أي شيء كانت الخصومة والعداوة إذن؟!، بل ولماذا يدخل المشركون في هذا الحروب، ويُعذبون أنفسهم؟!، فإنه وبهذا التعريف الفاشل لكلمة التوحيد، قد قال هؤلاء عين ما أمرت به كلمة التوحيد، وعين ما جاءت به الرسل؟!!، فعُلم من هذا يقيناً أنه ليس المراد إثبات الربوبية فحسب، فإن هذا أمر لا ينازع فيه إلا الشواذ على مر العصور والأزمان، بل المراد إثبات العبودية لله وحده، وصرف جميع العبادات له سبحانه.

وبعض أهل العلم من المتأخرين يقدر كلمة (موجود)، أي (لا إله حق موجود إلا الله)، وهذه الكلمة لم ترد في كلام السلف، وإنما أراد بها المتأخرون الرد على الوُجُودِيَّين، فإن كان هذا مرادهم؛ فتقال ويبين أن المراد بذلك الرد على الوجوديين، أما ما عدا ذلك فالأولى الاكتفاء بما جاء عن السلف؛ ولأن هذا التقدير يوهم بإنكار أن يكون هناك من يعبد من دون الله في الأرض، وهذا المعنى فاسد كما تقدم تقريره.

وقد سمى الله تبارك وتعالى هذه الكلمة في القرآن، وضرب لها مثلا، في مقابلة كلمة الشرك ومثلها، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم:٢٤-٢٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في :(مجموع الفتاوى):[وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ مَثَّلَ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ أَيْ : كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ بِشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . فَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ لَهَا أَصْلٌ ثَابِتٌ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ وَلَهَا فَرْعٌ عَالٍ وَهِيَ ثَابِتَةٌ فِي قَلْبٍ ثَابِتٍ كَمَا قَالَ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ فَالْمُؤْمِنُ عِنْدَهُ يَقِينٌ وَطُمَأْنِينَةٌ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ ثَابِتٌ مُسْتَقِرٌّ وَهُوَ فِي نَفْسِهِ ثَابِتٌ عَلَى الْإِيمَانِ مُسْتَقَرٌّ لَا يَتَحَوَّلُ عَنْهُ وَالْكَلِمَةُ الْخَبِيثَةُ {كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ} اُسْتُؤْصِلَتْ وَاجْتُثَّتْ كَمَا يُقْطَعُ الشَّيْءُ يُجْتَثُّ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ {مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ} لَا مَكَانَ تَسْتَقِرُّ فِيهِ وَلَا اسْتِقْرَارَ فِي الْمَكَانِ؛ فَإِنَّ الْقَرَارَ يُرَادُ بِهِ مَكَانُ الِاسْتِقْرَارِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَبِئْسَ الْقَرَارُ} وَقَالَ:{جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا}. وَيُقَالُ: فُلَانٌ مَا لَهُ قَرَارٌ أَيْ ثَبَاتٌ وَقَدْ فُسِّرَ الْقَرَارُ فِي الْآيَةِ بِهَذَا وَهَذَا فَالْمُبْطِلُ لَيْسَ قَوْلُهُ ثَابِتًا فِي قَلْبِهِ وَلَا هُوَ ثَابِتٌ فِيهِ وَلَا يَسْتَقِرُّ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْمَثَلِ الْآخَرِ:{فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ} فَإِنَّهُ وَإِنْ اعْتَقَدَهُ مُدَّةً فَإِنَّهُ عِنْدَ الْحَقِيقَةِ يَخُونُهُ كَالَّذِي يُشْرِكُ بِالله فَعِنْدَ الْحَقِيقَةِ يَضِلُّ عَنْهُ مَا كَانَ يَدْعُو مِنْ دُونِ الله. وَكَذَلِكَ الْأَفْعَالُ الْبَاطِلَةُ الَّتِي يَعْتَقِدُهَا الْإِنْسَانُ عِنْدَ الْحَقِيقَةِ تَخُونُهُ وَلَا تَنْفَعُهُ بَلْ هِيَ كَالشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ الَّتِي اُجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ فَمَنْ كَانَ مَعَهُ كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ أَصْلُهَا ثَابِتٌ كَانَ لَهُ فَرْعٌ فِي السَّمَاءِ يُوَصِّلُهُ إلَى الله فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ { إلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ أَصْلٌ ثَابِتٌ فَإِنَّهُ يُحْرَمُ الْوُصُولَ؛ لِأَنَّهُ ضَيَّعَ الْأُصُولَ؛ وَلِهَذَا تَجِدُ أَهْلَ الْبِدَعِ وَالشُّبُهَاتِ لَا يَصِلُونَ إلَى غَايَةٍ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَحْمُودَةٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}.

وَاَللهُ سُبْحَانَهُ بَعَثَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ؛ بِأَنْ يَكُونَ هُوَ الْمَعْبُودَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَإِنَّمَا يُعْبَدُ بِمَا أَمَرَ بِهِ عَلَى أَلْسُنِ رُسُلِهِ. وَأَصْلُ عِبَادَتِهِ مَعْرِفَتُهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ وَمَا وَصَفَهُ بِهِ رُسُلُهُ؛ وَهَذَا كَانَ مَذْهَبُ السَّلَفِ أَنَّهُمْ يَصِفُونَ اللهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَمَا وَصَفَهُ بِهِ رُسُلُهُ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ وَاَلَّذِينَ يُنْكِرُونَ بَعْضَ ذَلِكَ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَمَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ وَلَا وَصَفُوهُ حَقَّ صِفَتِهِ وَلَا عَبَدُوهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ. وَاَللهُ سُبْحَانَهُ قَدْ ذَكَرَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ {مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ} فِي ثَلَاثِ مَوَاضِعَ ؛ لِيُثْبِتَ عَظَمَتَهُ فِي نَفْسِهِ وَمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ الصِّفَاتِ وَلِيُثْبِتَ وَحْدَانِيَّتَهُ وَأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ وَلِيُثْبِتَ مَا أَنْزَلَهُ عَلَى رُسُلِهِ فَقَالَ فِي الزُّمَرِ: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} الْآيَةَ.

وَقَالَ فِي الْحَجِّ: {ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} {مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ} وَقَالَ فِي الْأَنْعَامِ: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ}.

وَفِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ ذَمَّ الَّذِينَ مَا قَدَرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ مِنْ الْكُفَّارِ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْدُرَ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِيَهُ حَقَّ تُقَاتِهِ وَأَنْ يُجَاهِدَ فِيهِ حَقَّ جِهَادِهِ قَالَ تَعَالَى: {وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ} وَقَالَ: {اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(وَحَدُّ النَّفْيِ مِنْ الإِثْبَاتِ، (لا إله)، نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، (إِلا اللهُ) مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ).

الحد هنا المراد به، أي بيان موضع النفي من الإثبات، في كلمة التوحيد، وهذا بيان وتفصيل لمعنى كلمة التوحيد، وأنها جاءت لإخراج كل من سوى الله تعالى، وتقرير إفراده سبحانه بأنه المعبود بحق جل وعلا؛ ولأجل هذه الكلمة وبيانها اصطفى الله جل وعلا أفضل خلقه، وأوحى إليهم بشرعه، وأنزل إليهم كتبه، وأمرهم بجهاد من خالفهم فيها، وهجران من هجرها، والحب فيها والبغض فيها، وبين أن المكرم الناجي من أتى بها، وأن المهان الهالك من تنكب صراطها، فهي ميزان العدل والإنصاف، ومفتاح كل عمل، ولهذا بقدر ما تقوم في قلب العبد وواقعه، بقدر ما يكون له التمكين والنصر.

وبين المؤلف أن لهذه الشهادة جزأين:

١- نفي جميع المعبودات الباطلة نفياً قلبياً؛ يبعث على إزالتها واقعياً، عملا بالجوارح، تلازما بين الظاهر والباطن، مهما استطاع إلى ذلك سبيلا.

٢- إثبات العبادة الحقة لله جل وعلا، فمن نفى فقط كان ملحداً، ومن أثبت فقط أتى بكلام لا معنى له، ولا اعتبار به في الشرع، فلا بد من التلفظ بركني النفي والإثبات؛ ولهذا تكاثرت النصوص في بيان فضل التلفظ بهذه الكلمة الطيبة، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t أَنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ:"مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَشْرِ رِقَابٍ وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنْ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ"، وجاءت في أذكار أدبار الصلوات المكتوبة، وجاءت في ذكر من تَعَارَّ مِن اللَّيل، وجاءت في أذكار الفراغ من الوضوء، وجاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أن النبي r قال:"لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ".

وجاء في صحيح البخاري في (كتاب الجنائز) :بَاب مَا جَاءَ فِي الْجَنَائِزِ وَمَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،وَقِيلَ لِوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَلَيْسَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لَيْسَ مِفْتَاحٌ إِلَّا لَهُ أَسْنَانٌ فَإِنْ جِئْتَ بِمِفْتَاحٍ لَهُ أَسْنَانٌ فُتِحَ لَكَ وَإِلَّا لَمْ يُفْتَحْ لَكَ.

وجاء في الصحيحين عَنْ أَبِي ذَرٍّ t قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي فَأَخْبَرَنِي أَوْ قَالَ بَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ قُلْتُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ قَالَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ".

فائدة:جاء في كتاب (المطلع على أبواب المقنع) لشمس الدين أبي محمد، محمد بن أبي الفتح، بن أبي الفضل البعلي الحنبلي قال:[«أشهد أن لا إله إلا الله» قال الجوهري: الشهادة خبر قاطع، والمشاهدة: المعاينة، فقول الموحد «أشهد أن لا إله إلا الله» بمعنى: أخبر بأني قاطع بالوحدانية، فالقطع من فعل القلب، واللسان مخبر عن ذلك. و«الله» مرفوع على البدل من موضع «لا إله» لأن موضع «لا» مع اسمها رفع بالابتداء ولا يجوز نصبه حملاً على إبداله من اسم «لا» المنصوب، لأن «لا» لا تعمل النصب إلا في نكرة منفية و«الله» معرّف مثبت. وهذه الكلمة وإن كان ابتداؤها نفياً، فالمراد غاية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإثبات، ونهاية التحقيق، فإن قول القائل: لا أَخٌّ لي سواك، ولا معين لي غيرُك آكد من قوله: أنت أخي، وأنت معيني. **ومن خواصها أن حروفها كلها مهملة ليس فيها حرف معجم تنبيهاً على التجرد من كل معبود سوى الله تعالى، ومن خواصها أن جميع حروفها جوفية، ليس فيها شيء من الشفوية]**ا.هـ.

قال المؤلف رحمه الله:(لا شريك له في عبادته، كما أنه لا شريك له في ملكه): هذا من باب قياس الأولى، ومن ترتيب الملزوم على اللازم، فمن علم وأيقن وشهد، بأن الله تعالى هو مالك الملك،فلا مالك لهذا الكون إلا الله؛ لزمه ألا يعبد سواه، إذ كيف يخلق ويملك، ثم يأمر أن يُعبد، فَيُعَبدَ غيره؟!!، ولهذا كان الشرك ظلماً عظيما وضلالا مبيناً.

وهذا المعنى الذي ذكره المؤلف قد أخذه من مواضع من الذكر الحكيم، بل الكتاب كله يقرر هذا الأصل العظيم، ومن أقصر السور في هذا المعنى العظيم، المتضمن ترتيب اللازم على الملزوم، سورة (الناس)، فقد جاءت مرتبة على هذا النسق، كما تقدم تقريره من قبل.

وإليك جملة من الأحاديث الدالة على أن العبد إذا لقي الله تعالى بالشرك؛ فإنه قد لقيه بالذنب الأعظم، الذي لا يغفره الله تعالى؛ ولترى عظيم الظلم الذي يمارسه بعض الدعاة، عندما يُهَمِّشُونَ قضية بيان التوحيد والتحذير من الشرك، ولتعلم عظيم ضلال الذين أَسَّسُوا أحزابهم، ودعوتهم على توحيد الربوبية فحسب، فكل هؤلاء مخادعون للأمة غاشون، لها فويل لهم ويل لهم:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ففي الحديث المخرج في الصحيحين عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود t قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ r أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ الله قَالَ:"أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ" قُلْتُ إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ قُلْتُ ثُمَّ أَيُّ قَال:"وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ" قُلْتُ ثُمَّ أَيُّ قَالَ:"أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ".

وفي صحيح مسلم عَنْ جَابِرٍ قَالَ أَتَى النَّبِيَّ r رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله **مَا الْمُوجِبَتَانِ**، فَقَالَ:"مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ".

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لاَ يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا".

وفي صحيح مسلم في:(باب بَيَانِ أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ فَهُوَ فِي النَّارِ وَلاَ تَنَالُهُ شَفَاعَةٌ وَلاَ تَنْفَعُهُ قَرَابَةُ الْمُقَرَّبِينَ). أخرج مسلم حديث أَنَسٍ أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ الله أَيْنَ أَبِي قَالَ:"فِي النَّارِ". فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ فَقَالَ:"إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ".

وفي صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قُلْتُ يَا رَسُولَ الله ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ قَالَ:"لاَ يَنْفَعُهُ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ". أي لم يعرف حق الله تعالى عليه، فلم يعبده، فتأمل، فإن هذه أعمال جليلة، ومع ذلك لم ينتفع بها هذا المشرك؛ لِنَعْلَمَ جميعا أنه ليس الشأن أن نعمل، وإنما الشأن أن نأتي بأسباب قبول الأعمال، واعلم أن أجلها وأعظمها على الإطلاق هو التوحيد والبراءة من الشرك وأهله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى:[وَقَوْلُهُ:{إذْ نُسَوِّيكُمْ} لَمْ يُرِيدُوا بِهِ أَنَّهُمْ جَعَلُوهُمْ مُسَاوِينَ لله مِنْ كُلِّ وَجْهٍ؛ فَإِنَّ هَذَا لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ وَلَا نُقِلَ عَنْ قَوْمٍ قَطُّ مِنْ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ قَالُوا: إنَّ هَذَا الْعَالَمَ لَهُ خَالِقَانِ مُتَمَاثِلَانِ .....إلى أن قال: وَكَذَلِكَ "مُشْرِكُوا الْعَرَبِ" كَانُوا مُتَّفِقِينَ عَلَى أَنَّ أَرْبَابَهُمْ لَمْ تُشَارِكْ اللهَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ بَلْ كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّ اللهَّ وَحْدَهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا كَمَا أَخْبَرَ اللهُّ عَنْهُمْ بِذَلِكَ فِي غَيْرِ آيَةٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُّ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} {اللهُّ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إنَّ اللهَّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُّ قُلِ الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}. وَقَالَ تَعَالَى:{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}....إلى أن قال: وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ:{آللهُّ خَيْرٌ أَمْ مَا يُشْرِكُونَ} {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ الله بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} {أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ الله}. أَيْ: أَإِلَهٌ مَعَ الله فَعَلَ هَذَا؟ وَهَذَا اسْتِفْهَامُ إنْكَارٍ وَهُمْ مُقِرُّونَ بِأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ هَذَا إلَهٌ آخَرُ مَعَ الله. وَمَنْ قَالَ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ إنَّ الْمُرَادَ:هَلْ مَعَ الله إلَهٌ آخَرُ؟ فَقَدْ غَلِطَ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَجْعَلُونَ مَعَ الله آلِهَةً أُخْرَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى:{أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ الله آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ}. وَقَالَ تَعَالَى:{فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ}. وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}. وَكَانُوا مُعْتَرِفِينَ بِأَنَّ آلِهَتَهُمْ لَمْ تُشَارِكْ اللهَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقِ شَيْءٍ؛ بَلْ كَانُوا يَتَّخِذُونَهُمْ شُفَعَاءَ وَوَسَائِطَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ}.ا.هـ.

قال المؤلف رحمه الله:(وَتَفْسِيرُهَا: الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآء مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ). وقَوْلُهُ تَعَالَى:(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ): ذكر المؤلف هذه الآيات، كتوضيح وبيان لحقيقة التوحيد الكاملة، وأنها لا تتم إلا بتحقيق عقيدة الولاء والبراء، والمعنى أن من لم يأت بهذا الأصل فلم يفهم التوحيد أصلا، فأراد المؤلف رحمه الله، أن بين أن مجرد النطق بكلمة التوحيد ليس بكافٍ، حتى يأتي العبد بما تقتضيه هذه الكلمة، من المعاني العظام والمباني الجِسَام، فهذه الكلمة قامت على الحب والبغض، فمن نطق بها في حين أنه يحب أعداءَهَا ويُوالِيهم، ويُبْغِضُ أَوْلِياءَهَا ويُعَادِيهم؛ فهو من المنافقين الخُلَّص، الذين لا تنفعهم هذه الشهادة يوم القيامة بشيء، بل وسيكونون تحت جميع الكافرين في النار، في دركها الأسفل، عياذا بالله، كما قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لله فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء:١٤٥-١٤٦].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالولاء والبراء هي الركن الركين، والأصل الأصيل، في مقتضى لا إله إلا الله وحقيقتها، قال تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٥٦]، وقد تقدم الكلام على هذه الآية، وأن من لازِمها أن من لم يكفر بالطاغوت؛ فليس بمؤمن، وليس بمستمسك بـ(لا إله إلا الله) ولن تنفعه، ولو كثرت صلاته وصيامه وحجه وزكاته، ولو عمل من طاعة الله جل وعلا ما عمل؛ حتى يأتي بالكفر بالطاغوت، ويحقق ذلك في دنياه، قولا وعملا.

وإنما قُدم الكفر بالطاغوت على الإيمان وأُفْرِدَ - في آية سورة البقرة المتقدمة - مع أنه من جملة الإيمان؛ تأكيداً عل هذه الحقيقة العظمى، التي يجهلها كثير من العباد، فينطقون بكلمة التوحيد، ويصلون ويصومون، وهم في نفس الوقت، يحبون أعداء الله، ويوالونهم، ويناصرونهم، بل وربما ناصروهم حتى على المؤمنين،وهؤلاء ليس في قلوبهم من الإيمان شيء ينتفعون به يوم القيامة، فإن في قولك (لا إله) إثباتا لبغضك لجميع الطواغيت والمعبودات من دون الله جل وعلا، وفي قولك (إلا الله) إثبات للعبادة لله تعالى، وللمحبة لله جل وعلا، ومحبة من يحب الله جل وعلا.

علاقة العبودية بالحب والذل:

والعبودية إنما تقوم على المحبة والذل، فأين المحبة، وتحقيق العبادة، في من يسعى جاهداً في حرب دين الله، وإيذاء عباد الله المؤمنين، وفي نفس الوقت، يُؤَمِّنُ الأعداء، ويقربهم، ويحمي الشرك وأهله، ويلقي عليهم الخُلَع والعطايا، فمعاذ الله أن يكون أمثال هؤلاء، شموا رائحة التوحيد، أو عرفوه، معرفة عمل وذل ومحبة وانقياد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال ابن القيم في نونيته راداً على هؤلاء:

لَـو كان حُبُّهُـمُ لأَجْلِ الله ما ... عَـادَوا أَحِبَّتَه على الإيمـانِ
ولما أحَبُّـوا سُخْطَهُ وتَجَنَّبُـوا ... مَحْبُـوبَـه ومَـوَاقِعَ الرِّضْوانِ
شَـرْطُ المحبـة أن تُـوافِق من... تُحِـبُّ على مَحَبَّتِه بِـلا عِصْيانِ
فإذا ادَّعَيْتَ له المحبة مَعْ خِلَا ... فِكَ مَا يُحِبُّ فَأنت ذُو بُهْتَانِ
أَتُحِـبُّ أعْدَاءَ الحَبِيبِ وتَدَّعِي ...حُـبّاً لَـه مَـا ذَاكَ فِي إمْـكَانِ
وكذا تُعَـادِي جَاهِداً أحْبَابَهُ .... أيْـنَ المَحَـبَّةُ يـا أخَ الشَّيطانِ
ليس العِبَادَةُ غَير تَوْحِيد المَحَبَّة مَعْ خُضُوع القَلْـب والأرْكَانِ
والحُبُّ نَفْسُ وِفَاقِه فيما يُحِبُّ وَيُبْغِـضُ مَـا لا يَـرْتَضِي بِجَنَـانِ
وَوِفَاقُهُ نَفْسُ اتِّبَاعِكَ أمْـرَهُ ..والقَصْد وَجْه الله ذِي الإحسانِ
هذا هو الإحْسَانُ شَرْطٌ في قَبُو.. لِ السَّعْي فَافْهَمْهُ مِن القُرآنِ

لا استغفار للمشركين:

حتى حرم الله تعالى مجرد الاستغفار للمشركين أو الصلاة عليهم، وهذه من شـفاعة الدنيا، وكذلك لا يقبل الله تعالى فيهم شفاعة الآخرة، كما قال تعـالى:{مَـا كَـانَ لِلنَّبِـيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْـدِ مَـا تَبَـيَّنَ لَهُـمْ أَنَّهُـمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [التوبة:١١٣-١١٤]، وقال:{وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُـمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة:٨٤-٨٥].

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي".

وفي صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي فَيَقُولُ أَبُوهُ فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ ثُمَّ يُقَالُ يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ".قلت: قوله r :"بذيخ"، الذيخ: هو ذَكَرُ الضَّبُع.

هكذا أراد المؤلف أن يبين أهم مقتضيات لا إله إلا الله، وأنها لا تقبل بدون الكفر بالطاغوت.

احذر ربوبية البشر:

وفي قوله تعالى:{وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ} تذكير بأن ربوبية البشر بعضهم للبعض الآخر شرك أكبر وذنب لا يغفر، وأن الإسلام بريء من هؤلاء، وهنا يمثل بين يدينا طاغوت عصري، لا يقل تعلق أتباعه به عن تعلق المشركين الأوائل بهبل واللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، ألا وهو طاغوت التشريعات البرلمانية، والديمقراطية المأفونة الكافرة، حيث التأليه للبشر، وفرض ربوبية الأكثرية على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأقلية، فالتصويت حاسم للمسألة، حيث تضفي الديمقراطية، صفة الربوبية التشريعية لأصحاب العدد الأكبر من الناخبين، وعلى الآخرين الإذعان والانقياد التام، لما يمليه هذا الرَّب الجديد لهذه الجموع.

فيتخذ البعضُ البعضَ أربابا من دون الله، عياذا بالله من الردة والكفر الصراح البواح، وللأسف الشديد يظهر بين الجموع أقوام أصحاب لحى فواتن، يزينون العملية الانتخابية ويبررونها، ويجعلونها واجبا ومطلبا شرعيا، للذود عن الدين والقيام بالإسلام –زعموا-، خابوا وخسروا، أما علم هؤلاء أن مجرد الدخول في هذه الصفقة الشيطانية؛ يعني تدشين هذا الرب الجديد للجموع البشرية، إنها عبادة الشيطان بوجه آخر، صارخ كالح أسود، مشين مهين، فنعوذ بالله من الخذلان، ومن غياب المعاني الشرعية، في أخص خصائص العبودية، وأسمى معاني التوحيد الخالص لله رب العالمين، وسيأتي مزيد بيان لذلك في آخر الكتاب إن شاء الله تعالى، عند الحديث عن الطواغيت.

قوله:(وتفسيرها): التفسير هو الإبانة والإيضاح، ومنه قولهم:(فَسَرت المرأة عن وجهها) أي كَشَفته.

قوله:(الذي يوضحها): التوضيح مرادف للتفسير، واعلم أن أفضل وأعظم أنواع التفسير، هو تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة، وهذا ما فعله المؤلف هنا، حيث فسر كلمة التوحيد، بآيات من القرآن الكريم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ضرب المثال بالخليل للاقتداء به:

قوله:{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآء مِّمَّا تَعْبُدُونَ}: {إذ} ظرف لما مضى من الزمان، فالله جل وعلا يقص علينا أمراً قد قُضِيَ؛ لنأخذ منه العبرة والعظة والهدايات؛ ولكي نتخذ إبراهيم r في ذلك قدوة عليه الصلاة والسلام، فقد كان وحيداً بين قوم مشركين، بما فيهم أقرب الناس إليه، وهو أبوه، وعشيرته، وقد تَفَنَّنُوا في أنواع الشرك، فعبدوا الكواكب، وعبدوا الأصنام، وعبدوا الإنسان، فقام عليهم كلهم بكلمة التوحيد، وبذل نفسه وماله ووقته، في تقرير هذا الأصل العظيم، الذي ما خلقت الدنيا والآخرة إلا لأجل إقامته والعمل بمقتضاها، فناظر كل طائفة منهم، مناظرة عقلية فطرية، تلزمهم الحجة، وقَد قَصَّ الله جل وعلا علينا مناظراته الثلاث، لهذه الطوائف الثلاث في كتابه العزيز، فناظرهم في الكواكب، وناظرهم في الأصنام، وناظر النمرود، إلآههم من بني الإنسان. فيا لِعَذابِ هذا القلب المشرك، يعبد كوكبا وحجرا وبشرا .!!؟

قوله:{لأبيه}: دليل على أن أولى الناس بالعمل على نجاته وبذل الدعوة له، هم الأقربون، فهم أولى الناس بالمعروف، ولا معروف أعظم من دعوتهم إلى التوحيد؛ ولهذا بدأ إبراهيم بأبيه، ثم ثَنَّى بقومه، الأقرب فالأقرب، كما صحيح مسلم عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ:{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} دَعَا رَسُولُ الله r قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا، فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ:"يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلاَلِهَا".

قوله:{إنني براء}: تأكيد على ما تقدم تقريره من ضرورة البراءة من الشرك والمشركين، وإن كان أقرب الأقربين، وليس معنى البراءة هنا التبرؤ من انتسابه لأبيه فإن هذا محرم، ولا يجوز لما في الصحيحين عَنْ أَبِي ذَرٍّ **t** أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ **r** يَقُولُ:"لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ وَمَنْ ادَّعَى قَوْمًا لَيْسَ لَهُ فِيهِمْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ"، فالمقصود في كلام المؤلف براءة الدين.

واعلم رحمك الله، أن براءة الدين، هي أعظم أنواع البراءات، فإنها تَحُولُ بين المرء وزوجه، والوالد وولده، والقريب وقريبه، والصديق وحَمِيمِه، فلا سواء بين من انتسب إلى الإسلام، ومن انتسب إلى الطاغوت وعبادته.

واعلم أن البراءة تستلزم أمورا:

١- بغضهم في دينهم.

٢- بغض آلهتهم، وهذا فيه تفصيل، فيفرق بين من رضي ومن لم يرض، ليخرج بذلك الملائكة والرسل والمتقون، ممن عُبِدُوا بغير رضاهم، وكذلك الشمس والقمر والكواكب، أما الأصنام والأوثان التي وضعها المشركون فهذه تُبْغَضُ بأعيانها، سواء الأوثان الحجرية، أو الدساتير والتشريعات الجاهلية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٣- بغضهم في أعيانهم، إلا من استثنى الله تعالى في باب المعاملة في حق الوالدين، والزوجة من أهل الكتاب.

٤- اعتقاد كفرهم وشركهم.

٥- إقصاؤهم وإبعادهم فلا يُتَّخَذُون بطانة، ولا يولون ولاية،كما قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [آل عمران:١١٨-١١٩]، وقوله:{وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [النساء:٨٩]، وقوله:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا} [النساء:١٤٤].

٦- دعوتهم إلى الله جل وعلا.

٧- جهادهم حتى لا يبقى في الأرض سلطان لغير الله عز وجل.

قوله:{إلا الذي فطرني}: دليل على أنهم كانوا يعبدون الله جل وعلا، ولكنهم كانوا يعبدون معه آلهة أخرى، ومع هذا لم ينفعهم ذلك عند الله شيئاً، وفيه الرد على عباد القبور والأولياء والصالحين، الذين اتخذوا أنداداً من دون الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حقيقة هذا الاستثناء:

كما أن قوله: {إلا الذي فطرني}: استثناء منقطع، أي لا يدخل المستثني في المستثنى منه، فإبراهيم الخليل عليه السلام إنما تبرأ من الآلهة الباطلة، فالبراءة وقعت على الباطل، واستثنى الله ربَّ العالمين، إلهَ الحق، إله الأولين والآخرين.

وفي قوله: {فطرني}، دعوة لهم إلى التوحيد، حيث ذكّرهم أن هؤلاء الذين تعبدون من دون الله لم يفطروكم؛ فكيف تعبدونهم من دون الذي فطركم. في الآية تعظيم لشأن الولاء البراء، وشأن الرب تبارك وتعالى، وأن فاطراً هذا شأنه حَرِيٌّ أن تُقَطَّعَ لأجله كل آصرة، وأن يُتَبَرَّأَ من أجله من كل قريب كفر بالله تعالى، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [التوبة:٢٣]، وهذا من بعض شكرك الله الذي فطرك.

ثم بين مرة أخرى عليه الصلاة السلام، أنه إضافة إلى أن الله تعالى هو الفاطر، وأنه هو الذي يهدي، فهو كذلك الذي هدانا لأسباب المعاش، وهو الذي علمنا ما لم نكن نعلم، وهو الذي كسانا بعد عري، وأطعمنا بعد جوع، وأغنانا بعد عَيلة، وقوانا بعد ضعف، وكبّرنا بعد صغر، فهل من خالق غير الله يفعل ذلك؛ فالنتيجة إذن: فكيف تعبدون غيره؟، وهل مَنْ تَعبدُونَهم يفعلون بكم مثل هذا؟.قال تعالى: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه:٥٠].

وفي الآية تذكير بأعلى درجات الهداية، وأنها هي الهداية إلى الصراط المستقيم، ففيه دعوة أخرى إلى توحيد الله جل وعلا، وذكره وشكره.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:{وجعلها كلمة باقية في عقبه}: أي في الآخرين، من نسله أو ممن يأتون بعده، فجعلها {باقية} إلى قيام الساعة، من أنه لا معبود بحق إلا الله.

وقد اخْتُلِفَ في الضمير في هذه الآية، هل هو عائد على الله تعالى، أم على إبراهيم، قولان لأهل العلم، وهذا من شكر الله تعالى لصنيع إبراهيم الخليل وما قام به من الصدع بالتوحيد الخالص.

جاء في تفسير ابن أبي حاتم:[قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ}، عَنْ عِكْرَمَةَ،{وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ}، قَالَ: فِي الْإِسْلامِ أَوْصَى بِهَا وَلَدَهُ]ا.هـ.

وجاء في تفسير ابن كثير:[يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها: أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال:{ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ. وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} أي: هذه الكلمة، وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهي "لا إله إلا الله" أي: جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم، عليه السلام، { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } أي: إليها.

وقال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم في قوله تعالى: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ } يعني:لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها.

ورُوي نحوه عن ابن عباس. وقال ابن زيد: كلمة الإسلام. وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في تفسير البغوي:[{وَجَعَلَهَا} يعني هذه الكلمة، {كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} قال مجاهد وقتادة: يعني كلمة التوحيد، وهي "لا إله إلا الله" كلمة باقية في عقبه في ذريته. قال قتادة: لا يزال في ذريته من يعبد الله ويوحده. وقال القرظي: يعني: وجعل وصية إبراهيم التي أوصى بها بنيه باقية في نسله وذريته،وهو قوله عز وجل:{ووصى بها إبراهيم بنيه}.وقال ابن زيد: يعني قوله:{أسلمت لرب العالمين}، وقرأ:{هو سماكم المسلمين}.{لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} لعل أهل مكة يتبعون هذا الدين ويرجعون عما هم عليه إلى دين إبراهيم. وقال السدي: لعلهم يتوبون ويرجعون إلى طاعة الله عز وجل]ا.هـ.

تَرِكَةُ الأنبياء والمرسلين، وتركة الشياطين:

قوله:{لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}: أي لعل فئاما منهم يَتُوبُون إلى رشدهم، ويرجعون إلى توحيد ربهم، وهذا من رحمة الله تعالى أنه لا يخلي الأرض من قائم لله تعالى بالحق، وقد بين الله تعالى في آيات أخرى، أنه مع أن الله تعالى جعلها باقية، ألا أنه لا ينال عهده الظالمون، وأن منهم من سيقبلها، ومنهم من سيردها، بل الذين سيردونها أكثر، نسأل الله العافية والسلامة؛ ولهذا خاف إبراهيم من ذلك، كما قال تعالى :{وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ}، وقد شكر الله تعالى لخليله إبراهيم r فجعل في ذريته النبوة والكتاب.

قال الشنقيطي في: (أضواء البيان):[قوله تعالى:{وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ}. الضمير المنصوب في {جَعَلَهَا} على التحقيق راجع إلى كلمة الإيمان المشتملة على معنى لا إله إلا الله، المذكورة في قوله:{إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي} لأن لا إله إلا الله نفي وإثبات، فمعنى النفي منها هو البراءة من جميع المعبودات غير الله في جميع أنواع العبادات.وهذا المعنى جاء موضحا في قوله:{إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ}.ومعنى الإثبات منها هو إفراد الله وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله.وهذا المعنى جاء موضحا في قوله: {إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ}.وضمير الفاعل المستتر في قوله:{وَجَعَلَهَا}.قال بعضهم: هو راجع إلى إبراهيم وهو ظاهر السياق.وقال بعضهم: هو راجع إلى الله تعالى.فعلى القول الأول فالمعنى صير إبراهيم تلك الكلمة:{بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} أي ولده وولد ولده.وإنما جعلها إبراهيم باقية فيهم لأنه تسبب لذلك بأمرين:أحدهما: وصيته لأولاده بذلك وصاروا يتوارثون الوصية بذلك عنه، فيوصي به السلف منهم الخلف، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله:{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبراهيم إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَوَصَّى بِهَا إبراهيم بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ}.والأمر الثاني هو سؤاله ربه تعالى لذريته الإيمان والصلاح، كقوله تعالى:{وَإِذِ ابْتَلَى إبراهيم رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}، أي واجعل من ذريتي أيضا أئمة، وقوله تعالى عنه:{رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}، وقوله عنه:{وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ}، وقوله عنه هو وإسماعيل:{رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ}، إلى قوله:{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ}.وقد أجاب الله دعاءه في بعث

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرسول المذكور ببعثه محمدا r .ولذا جاء في الحديث عنه r أنه قال:"أنا دعوة إبراهيم".وقد جعل الله الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته، كما قال تعالى في سورة العنكبوت:{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ}، وقال عنه وعن نوح في سورة الحديد:{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبراهيم وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ}.وعلى القول الثاني، أن الضمير عائد إلى الله تعالى، فلا إشكال.وقد بين تعالى في آية الزخرف هذه، أن الله لم يجب دعوة إبراهيم في جميع ذريته، ولم يجعل الكلمة باقية في جميع عقبه، لأن كفار مكة الذين كذبوا بنبينا r من عقبه بإجماع العلماء، وقد كذبوه r وقالوا إنه ساحر. وكثير منهم مات على ذلك، وذلك في قوله تعالى:{بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ} يعني كفار مكة وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين، هو محمد r :{وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ}.وما دلت عليه آية الزخرف هذه من أن بعض عقب إبراهيم لم يجعل الله الكلمة المذكورة باقية فيهم، دلت عليه آيات أخر من كتاب الله، كقوله تعالى في البقرة:{قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، أي الظالمين من ذرية إبراهيم.وقوله تعالى في الصافات:{وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ}، فالمحسن منهم هو الذي الكلمة باقية فيه، والظالم لنفسه المبين منهم ليس كذلك]ا.هـ.

قلت: وهذا دال على أن للتوحيد ورثة، فهو ميراث وتركة الأنبياء والمرسلين، كما أن للشرك ورثة، وهو ميراث وتركة الشيطان الرجيم.

وِلِكُلَ قَوم وَارِث

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:({قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد ألا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون})، هذه هي الآية الأخرى التي استدل المؤلف رحمه الله بها على تفسير كلمة التوحيد، وأنها تقوم على الحب والبغض في الله، ولو استلزم ذلك مقاطعة الدنيا بأسرها، وقد شرع الله جل وعلا لعباده تذكر هذه الحقيقة في كل يوم، إذا أصبحوا فقد ثبت عن النبي r أنه كان يقرأ في راتبة الصبح في الأولى بـ(الكافرون) وفي الثانية بـ(الإخلاص)، فالأولى يقرأ فيها التذكير بإخلاص العبودية لله جل وعلا، وفي الثانية يقرأ فيها إخلاص التذكير بالولاء البراء في الله جل وعلا،وربما قرأ في الأولى بالآية من البقرة قال تعالى:{قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم .... الآية} وفي الثانية الآية من آل عمران قال تعالى:{فلما أحس عيسى منهم الكفر ... الآية}، والخبران في صحيح مسلم كما تقدم؛ ليتذكر العبد في صبيحة كل يوم هذه الحقيقة العظمى، التي غفل أو تغافل عنها كثير من الناس، أن الدين لا تقوم له قائمة في قلب العبد، ولن ينعكس ذلك إيجاباً على واقعه إلا إذا حقق الولاء والبراء في الله الواحد القهار، وكذلك شرع قراءة سورتي الإخلاص والكافرون في ركعتين الطواف خلف المقام؛ أيضا ليتذكر العبد أن العلاقة مع الناس لا تكون إلا على وفق الولاء والبراء، فشرع قراءة ما يتعلق بالولاء والبراء في صبيحة كل يوم، وفي أعظم مجامع المسلمين في بيت الله الحرام؛ لهذه المعاني العظام، وتأمل تخصيص كون الركعتين مع هذه التلاوة فيهما خلف المقام؛ تذكيرا بما قام به إبراهيم الخليل صاحب هذا المقام، من الإيمان الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والكفر بالطاغوت، وهذا المعنى قد تقدم؛ وإنما كررناه لضرورة التنبيه والإكثار من ذلك.

فتأمل في قوله تعالى: {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد ألا الله ... الآية} كيف أمر الله جل وعلا نبيه r ، والأمر للأمة من بعده، أن يَدْعُوا أهل الكتاب من يهود ونصارى، - ومجوس على قول -، وقيل المراد بهم يهود نجران، الراجح عموم الآية وإنما خص أهل الكتاب بالدعوة هنا؛ لأن سياق الآية في مجادلة أهل الكتاب لا لكونهم مخصوصين بالدعوة دون غيرهم، بل هذه الدعوة عامة لهم ولغيرهم.

أهمية مدارسة الإسلام.

بل إن العبد مأمور بأن يدعو نفسه ومن حوله، ويتدارسون ذلك، ويذكرونه مراراً وتكراراً، فإنما هي العبودية لله جل وعلا وتوحيده سبحانه، كما في صحيح مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ قَالُوا جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَّ.قَالَ آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ قَالُوا وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ. قَالَ أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللهِ r أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ r خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ:"مَا أَجْلَسَكُمْ". قَالُوا جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَّ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلاَمِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا. قَالَ:"آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ". قَالُوا وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ. قَالَ:"أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلاَئِكَةَ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح البخاري معلقا:[وَقَالَ مُعَاذٌ: اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَةً]. وقد وصله ابن أبي شيبة بسند جيد، وفيه بسند حسن عن علقمة أنه كان يقول لأصحابه:امشوا بنا نزدد إيمانا.

وفي مصنف ابن أبي شيبة من طريق عبد الرحمن بن سابط قال:كان عبد الله بن رواحة يأخذ بيد النفر من أصحابه فيقول:تعالوا نؤمن ساعة، تعالوا فلنذكر الله ونزدد إيمانا ، تعالوا نذكره بطاعته لعله يذكرنا بمغفرته. قلت:وسنده جيد لولا ما يحذر من مراسيل ابن سابط.

هكذا قد كان العلماء في زمن السلف ومن بعدهم، بل وفي زمن ليس ببعيد عنا، كان يراسل بعضهم البعض الآخر، يتدارسون لا إله إلا الله؛ ترسيخاً لها، وتذكيراً بعظيم شأنها، ودعوةً إليها وترغيبا في ذلك.

وقد كان الواحد من أئمة الدعوة النجدية، يراسل قرينه الآخر، أن يكتب له شيئا عن لا إله إلا الله، وآخر يسأل عن ضوابطها ولوازمها، وهكذا.

مع أن الواحد منهم باستطاعته أن يكتب الصفحات الطوال حول كلمة التوحيد؛ ولكنهم عَلِمُوا أن مدارسة العلم، تسبيح وترسيخ، فكيف إذا كان هذا العلم هو أصل العلوم كلها، وأشرفها وأعلاها، وكما قيل: من عَرَف ليس كَمَن لم يَعرِف، والقلوب أوعيه، واللسان مغرافها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما قال عبد الله بن سهل قال: سمعت يحيى بن معاذ يقول:[القلوب كالقدور في الصدور تغلي بما فيها ومغارفها ألسنتها، فانتظر الرجل حتى يتكلم، فإن لسانه يغترف لك ما في قلبه، من بين حلو وحامض، وعذب وأجاج، يخبرك عن طعم قلبه، اغتراف لسانه].ا.هـ. من حلية الأولياء.

أسباب مناداتهم بأهل الكتاب مع كفرهم وإشراكهم:

واعلم أن مُنَادَاة أهل الكتاب في هذه الآية بذلك، ليس مخرجا لهم عن دائرة الإشراك والكفر الأكبر، وإنما جاء ذلك لأمور:

١ - لتذكيرهم بأنهم أهل كتاب سماوي، لكنهم حرفوه وبدلوه، فهم أولى الناس بالرجوع إلى الحق لو أرادوه.

٢ - فيه التلطف بالعبارة معهم؛ لعلهم أن يرجعوا عن غيهم:{فقولا له قولا لينا}.

٣- خطابهم بما اشتهروا به بين الناس؛فيكون ذلك أدعى لرجوعهم إلى الحق، بسبيل الإلزام والالتزام.

٤ - لإنزال الناس منازلهم، وإلا فهم من جملة المشركين بالله جل وعلا، كما قال تعالى:{وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة:٣٠-٣١].

والكتاب هنا المراد به الكتاب الذي أنزل على موسى وعيسى عليهما السلام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ليست هي اليوم كتبا سماوية:

تنبيه: يحرم تسمية الكتاب الذي معهم اليوم بالكتاب المقدس، أو الكتاب السماوي، أو الكتاب الإلهي، ونحو ذلك؛ وذلك لأنهم حرفوه وبدلوه؛ فزالت قداسته، لعدم تمايز كلام الله تبارك وتعالى من تحريفهم، فلا تصح نسبته إلى الله جل وعلا ، ولهذا سُمِّيَ القرآن مهيمناً عليها، أي رادّاً للباطل الذي فيها، مصدقاً للحق الذي فيها، وزائداً عليها، وناسخا للشرائع التي تختلف عن شريعة محمد r ،وهذا هو معنى المهيمن.

الإسلام بدعو إلى الوحدة القائمة على التوحيد:

قوله:{تعالوا إلى كلمة سواء}: هذا هو المدعو إليه، أي هَلُمُّوا وأقبلوا إلى كلمة هي غايةٌ في الإنصاف، ومنتهى في العدل، تقضي القضاء الحق، وتفصل النزاعات، وترد الخصومات، ومنه قوله تعالى:{مكاناً سوى} أي عدلاً وسطاً نَصَفاً؛ ليتمكن جميع الناس أن يحضروا.

وفي الآية بيان لعظمة هذه الكلمة وتذكير بأهميتها، وشدة انتفاع المتكلم بها إن قام بحقها.

كما أن في قوله تعالى:{تعالوا إلى كلمة سواء} تذكيراً بأن الإسلام يدعو إلى الوحدة والائتلاف، ولكنه ائتلاف ووحدة من نوع خاص، وبمواصفات ربَّانية معينة محددة، معلومة واضحة المعالم، لا على موازين البشر وأهوائهم، فإنما يدعو الإسلام إلى توحيد الكلمة ولكن على كلمة التوحيد، فليس المقصود مطلق الاجتماع والتَّوَحُّد على أي شيء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كان، أو على أي قاسم مشترك يوجد، فإن هذا ليس من دين الإسلام في شيء، وإنما هي دعوة أصحاب الأهواء والمنكرات والضلالات، بل والكفريات، من دعاة الوطنية والإنسانية والديمقراطية، الذي يجعلون من مطلق الاجتماع هدفا مقدما على غيره، ومعظما أكثر حتى من الإسلام وثوابته ومبادئه، وهؤلاء هم أعداء الإسلام، الذين يَدْعُون إلى نقض عقيدة الولاء والبراء، ونقض تحقيق كلمة التوحيد، وإنكار قياس الناس على المبدء القرآني الخالد العظيم : {إن أكرمكم عند الله أتقاكم}.

فالإسلام يدعو إلى توحيد الكلمة، على كلمة التوحيد، بلوازمها ومُقْتَضَيَاتِها وحقائقها، :{فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}.

قوله:{ألا نعبد إلا الله}: هذه هي كلمة العدل والإنصاف، وهي معنى لا إله إلا الله، وقد تقدم معنا أن الروايات الثابتة سمتها، توحيدا وعبادة لله .

قوله:{ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله}: هذا من لازم كلمة التوحيد، إذ لا تُقْبَلَ هذه الكلمة، وإن قالها العبد الليل والنهار، مع كونه مقيماً على تحكيم غير شرع الله؛ فإنها كلمة الفصل، الدالة على حق الله جل وعلا، فلن تنفع صاحبها حتى تكون لها الهيمنة على حياة العباد مبدأ ومنتهى.

والخطاب جاء على هذا النسق متعلقا بالربوبية؛ لأنهم كانوا يتخذون أحبارهم ورهبانهم مشرعين، يحللون ويحرمون بأهوائهم، فبينت الآية أن من فعل ذلك فهو طاغوت، وأنه نزل نفسه منزلة الرب للعباد، ومن أطاعه في ذلك وانقاد له؛ فهو مشرك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالله العظيم، فالآية دلت على أن أهل الكتاب قد اتخذوا أرباباً من دون الله بهذا الفعل، وكذلك من سلك سبيلهم.

والشرك في الربوبية أغلظ وأعظم من الشرك في الألوهية، عند جماعات من أهل العلم، والكل عظيم وغليظ.

قوله:{فإن تولوا}: أي إن أعرضوا عن العمل بهذه الكلمة، فأبوا إلا أن يعبد بعضهم بعضا بهذه التشريعات الجاهلية، فأعْلِنوا بَرَاءَتَكم منهم، واعتزلوهم، واعتزوا بإسلامكم، واصدعوا بشهادة الحق غير مبالين، ولا مكترثين بكثرة المخالفين، فاسْتَعْلِنُوا بها وافْخَرُوا بأنكم مسلمون، أي مُنْقَادُون لكلمة التوحيد، عاملون بما أمرت به، وَدَلَّتْ عليه واقْتَضَتْهُ، وهذا في غاية الإنصاف، حيث بدأت الآية معهم بدعوتهم إلى الحق، وبينت لهم باطلهم وضلالهم، ومناط كفرهم وشركهم، فإن قَبِلوا ذلك؛ فهم إخواننا لهم مالنا وعليهم ما علينا، وإن أبوا إلا الكفر والشرك، فما ثمة إلا البراءة منهم، وجهادهم، معتزين بإسلامنا، قائمين بالتوحيد الخالص لربنا تبارك وتعالى.

والتولي يطلق على النكول عن العمل، إما تكذيبا، وإما إعراضا، هكذا هو الأصل في إطلاقها في الكتاب العزيز لمن تتبع ذلك،كما قال تعالى:{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [البقرة:٦٣-٦٤]، وقوله:{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ} [البقرة:٨٣]، وقوله: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة:١٣٧]، وقوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ} [البقرة:٢٠٤-٢٠٦]، وقوله: {فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [البقرة:٢٤٦]، وقوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [آل عمران:٢٣]، وقوله: {قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران:٣٢]، وقوله: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [النساء:٨٠]، وقوله: {وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} [المائدة: ٤٣]، إلى غير ذلك من آيات الذكر الحكيم.

وهذا هو حقيقة ما وقع من أهل الكتاب، أنهم أقروا بحكم الله تعالى ولكنهم، تولوا عن العمل به، وبهذا نعلم يقينا أن الأقوال في مثل هذه المقامات؛ لن تُجْدِيَ شيئا عن أصحابها، مع التزامهم التولي عن العمل بها، فكم من قائل لهذه الكلمة، وهو يحاربها،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويحارب أهلها، ويَفْتَئِتُ على حق الله عز وجل، في أن يكون له الأمر حُكْماً وتَشْرِيعاً، كما أن له الخلق، حَقّاً واخْتِصَاصا.

ففي صحيح مسلم عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ مُرَّ عَلَى النَّبِيِّ r بِيَهُودِيٍّ مُحَمَّمًا مَجْلُودًا فَدَعَاهُمْ r فَقَالَ:"هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ".قَالُوا نَعَمْ. فَدَعَا رَجُلاً مِنْ عُلَمَائِهِمْ فَقَالَ:"أَنْشُدُكَ بِالله الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ". قَالَ: لاَ وَلَوْلاَ أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ نَجِدُهُ الرَّجْمَ وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ قُلْنَا تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ عَلَى شَيْءٍ نُقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ. فَقَالَ رَسُولُ الله r :"اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ". فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ} إِلَى قَوْلِهِ:{إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ} يَقُولُ ائْتُوا مُحَمَّدًا r فَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالتَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ فَخُذُوهُ وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ فَاحْذَرُوا. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى:{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}**فِي الْكُفَّارِ كُلُّهَا**.

جاء في تفسير ابن كثير:[{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ الله فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}، هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن جرى مجراهم {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ} والكلمة تطلق على الجملة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المفيدة كما قال هاهنا. ثم وصفها بقوله: {سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} أي:عدل ونصف، نستوي نحن وأنتم فيها. ثم فسرها بقوله: {أَلا نَعْبُدَ إِلا اللهَّ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا} لا وَثَنا، ولا صنما، ولا صليبا ولا طاغوتا، ولا نارًا، ولا شيئًا بل نُفْرِدُ العبادة لله وحده لا شريك له. وهذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ}، وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللهَّ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}، ثم قال: {وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ} وقال ابن جُرَيْج:يعني: يطيع بعضنا بعضا في معصية الله. وقال عكرمة:يعني: يسجد بعضنا لبعض.

{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} أي:فإن تولوا عن هذا النَّصَف وهذه الدعوة فأشْهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم]ا.هـ.

قوله:{فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}، هذه هي المفاصلة على مبدأ الحق والباطل، فلا مجاملات ولا قرابات، ولا عشائر ولا قبائل، ولا مواطنة ولا غير ذلك، فإن الحق لا يجتمع مع الباطل إلا عند المنافق المداهن، أما المؤمن فيعتز بإسلامه، ويشهد على غيره بالكفر والشرك والضلال، فإن شَهَادَتَنَا لأنفسنا بالإسلام، شَهَادَةٌ عليهم بأنهم ليسوا كذلك، والمعنى أنتم كفار بالله تعالى، مشركون برب العالمين، وإن رَغِمَت أنوف، رضي من رضي وسخط من سخط، فإن هذا هو الموقف الذي يرضى به الله تبارك وتعالى عنا، وكما قيل:

إذا صَحَّ منك الوُد فالكل هَيِّنٌ... وكُل الذي فوق التُّراب تُرابُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما اليوم فالمداهنات والوطنيات، والتلاعب بالدين، جعل من اليهود والنصارى، بل وعموم الكفار، كالمسلمين عند هؤلاء المنافقين، يَتَساوَوْنَ في الحقوق والواجبات، إلى غير ذلك من الترهات والهرطقات التي يَتَفَوَّهُ بها هؤلاء، ولكن يبقى الحق هو الحق، وله الكلمة الأخيرة، والورقة الرابحة، والنصر والعاقبة والتمكين، فالحق واحد لا يتعدد، فإن شهدنا لهم بإيمان شهدنا على أنفسنا بالكفر، وإن شهدنا لأنفسنا بالإسلام شهدنا عليه بالكفر، فهما ضدان لا يجتمعان، الإيمان والكفر، وهذه الحقيقة لا تبدلها عوامل السياسة، ولا ضغط الواقع، إلا عند من اجتالتهم الشياطين عن الإسلام بالكلية، عياذا بالله من الردة عن الإسلام.

جاء في تفسير ابن كثير:[{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلا بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

يقول تعالى مقررًا تفرُّدَه بالخلق والرزق، وانفراده بالإلهية أيضا، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء والأرض -أي: بما ينزل من المطر وينبت من الزرع-إلا الله، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره.

وقوله:{وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ}:هذا من باب اللف والنشر، أي: واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله؛ ولهذا قال: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ}.قال قتادة: قد قال ذلك أصحاب محمد r للمشركين:والله ما نحن وإياكم على أمر واحد، إن أحد الفريقين لمهتد.وقال عِكْرِمة وزياد بن أبي مريم: معناه:إنا نحن لعلى هدى، وإنكم لفي ضلال مبين.

وقوله: {قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ}:معناه التبري منهم، أي:لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيده وإفراد العبادة له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن برآء منكم وأنتم بُرآء منا، كما قال تعالى: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ}، وقال: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}.

وقوله: {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا} أي: يوم القيامة، يجمع بين الخلائق في صعيد واحد، ثم يفتح بيننا بالحق، أي: يحكم بيننا بالعدل، فيجزي كل عامل بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية، كما قال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ}؛ ولهذا قال تعالى: {وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} أي: الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ} أي: أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أندادا وصيَّرتموها له عدْلا. {كَلا} أي: ليس له نظير ولا نَديد، ولا شريك ولا عديل، ولهذا قال: {بَلْ هُوَ اللهُ} :أي: الواحد الأحد الذي لا شريك له {الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} أي: ذو العزة التي قد قهر بها كل شيء، وَغَلَبت كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس]ا.هـ.

عُبَودية اللِّسَان:

وفي قوله تعالى: {فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}، تذكير بعبودية اللسان، وأن التوحيد كما يكون بالأعمال، فكذلك يكون بالأقوال، حتى يصير العبد موحدا لله تعالى، ظاهرا وباطنا، بقلبه ولسانه وجوارحه؛ ولهذا جاء الآيات والأحاديث واضحة المعالم في تأديب المؤمنين في مقالهم، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [البقرة:١٠٤] ، وقوله: {قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَّ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام:١٥٠]، وقوله: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُّ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا} [النساء:١٧١]، وقوله: {قُلْ هُوَ اللهُّ أَحَدٌ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(١) اللهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص:١-٤]، ونحو ذلك من الآيات.

ومن السنة، ما جاء من النهي عن الحلف بغير الله تعالى، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى فَلْيَقُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ تَعَالَ أُقَامِرْكَ فَلْيَتَصَدَّقْ"، وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ الله بن عمر t أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:" أَلاَ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِالله أَوْ لِيَصْمُتْ"، وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"لاَ تَحْلِفُوا بِالطَّوَاغِي وَلاَ بِآبَائِكُمْ"، وفي الصحيحين عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ r :"إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ وَوَأْدَ الْبَنَاتِ وَمَنَعَ وَهَاتِ وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ"، وجاء النهي عن التلفظ بالأقوال الموبقة، كما في الصحيحين عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى لَنَا رَسُولُ الله r صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنْ اللَّيْلَةِ فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ:"هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ"، وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ"، وفي صحيح مسلم عَنْ جُنْدَبٍ أَنَّ رَسُولَ الله r حَدَّثَ:"أَنَّ رَجُلاً قَالَ: وَالله لاَ يَغْفِرُ اللهُ لِفُلاَنٍ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلاَنٍ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلاَنٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ". أَوْ كَمَا قَالَ، بل حتى على مستوى الأسماء لحظ النبي r مَلْمَحَ التوحيد، كما في الصحيحين وهذه رواية مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ الله رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاَكِ، لاَ مَالِكَ إِلاَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ". قَالَ سُفْيَانُ مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ سَأَلْتُ أَبَا عَمْرٍو عَنْ أَخْنَعَ فَقَالَ أَوْضَعَ.

وفي حديث يَزِيدَ بْنِ الْمِقْدَامِ بْنِ شُرَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ شُرَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ هَانِئٍ أَنَّهُ لَمَّا وَفَدَ إِلَى رَسُولِ الله r مَعَ قَوْمِهِ سَمِعَهُمْ يَكْنُونَهُ بِأَبِي الْحَكَمِ فَدَعَاهُ رَسُولُ الله r فَقَالَ:"إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ فَلِمَ تُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ".فَقَالَ إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِيَ كِلاَ الْفَرِيقَيْنِ. فَقَالَ رَسُولُ الله r :"مَا أَحْسَنَ هَذَا فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ". قَالَ لِي شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ الله، قَالَ:"فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ". قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ:"فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ"، أخرجه أبو داود والنسائي والبخاري في الأدب المفرد بسند جيد من حديث شريح بن هانئ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

وَدِليلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}[التوبة: ١٢٨].وَمَعْنَى شَهَادَة أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، واجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ وأَلا يُعْبَدَ اللهُ إلا بِمَا شَرَعَ.وَدَلِيلُ الصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}[البينة: ٥].ودَلِيلُ الصِّيَامِ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[البقرة:١٨٣].ودَلِيلُ الْحَجِّ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران:٩٧].

الشرح

قال المؤلف:(ودليل شهادة أن محمدا رسول الله): أي دليل وجوب التلفظ بها، وفرضية ذلك، وأنه لا يدخل العبد في الإسلام، إلا بالتلفظ بها، فلو أن يهودياً أو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نصرانياً ترك عبادة الطواغيت كلهم، وترك عبادة الأنبياء والأولياء والقبور، وقال لا إله إلا الله، ولكنه أبى أن يقول محمدا رسول الله؛ فهو بعد فعله هذا وقبله سواء بسواء؛لأن الكفر بالنبي r ، وعدم الشهادة له بأن رسول الله، كفر بالله العلي، جل وعلا، على ما سيأتي تفصيله في شرح أركان الإيمان، وقد تقدم الحديث عن شروط الشهادتين.

قوله (محمداً): هو نبي الله r ، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، حامل لواء الحمد، صاحب المقام المحمود، واللواء المَعْقُود، والحوض المورود r .

وقد اختلف أهل العلم، هذا الاسم، أهو اسم له r أم صفة له r ، على قولين: فمنهم من قال إن اسمه محمدٌ، وباقي الأسماء هي صفات له. ومنهم من قال بل هي كلها صفات.

والقول الأول: أقوى لأنه سمي بذلك في الكتاب والسنة،ومعنى مُحَمَّد، أي كثير الخصال التي يُحمد عليها، ومنه (أحمد) أي كثير الحمد لربه جل وعلا، فهو أَحْمَدُ الناس لربه، وهو أحمد خلق الله عند الله جل وعلا، وهو أحمد الناس في خصاله r .

قوله:(رسول الله): هذا من إضافة التشريف والإنعام والإكرام، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، وقوله: {وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَظِيمًا} [النساء:١١٣]، وقوله:{إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا} [الإسراء:٨٧]، وقوله:{وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} [الضحى:٧]، أي هداك إلى الرسالة وأنت في غفلة عنها، أن يُرَادَ بك ذلك، وقوله:{وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} [الشرح:٤]، إلى غير ذلك من النصوص الدالة على عظيم إكرام الله تعالى لنبيه r ، وتفضيله واصطفائه واجتبائه r ، رزقنا الله وإياكم صدق محبته، وشكر نعمة الله به، والعمل على اتباع شريعته، والانتصار لها وله r .

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله r فَقَالَ يَا رَسُولَ الله مَتَى السَّاعَةُ قَالَ:"وَمَا أَعْدَدْتَ لِلسَّاعَةِ". قَالَ حُبَّ الله وَرَسُولِهِ قَالَ:"فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ". قَالَ أَنَسٌ فَمَا فَرِحْنَا بَعْدَ الإِسْلاَمِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ r :"فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ". قَالَ أَنَسٌ فَأَنَا أُحِبُّ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ.

ونحن كذلك رَبَّنَا؛ فألحقنا بهم، وهَبْنَا للمحسنين منهم، يا ولي نِعْمَتِنَا، يا أرحم الراحمين ويا أكرم الأكرمين.

وفي كونه رسولاً دلالة على صدقه، وعظيم أمانته، إذ قد استأمنه الذي في السماء على وحيه ورسالته، كما في الصحيحين عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ يَقُولُ بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ t إِلَى رَسُولِ الله r مِنْ الْيَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا قَالَ فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ وَأَقْرَعَ بْنِ حابِسٍ وَزَيْدِ الْخَيْلِ وَالرَّابِعُ إِمَّا عَلْقَمَةُ وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ قَالَ فَبَلَغَ ذَلِكَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النَّبِيَّ r فَقَالَ:"أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً" قَالَ فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ نَاشِزُ الْجَبْهَةِ كَثُّ اللِّحْيَةِ مَحْلُوقُ الرَّأْسِ مُشَمَّرُ الْإِزَارِ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله اتَّقِ اللهَّ قَالَ:"وَيْلَكَ أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَّ" قَالَ ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ يَا رَسُولَ الله أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ قَالَ:"لَا لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي" فَقَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ قَالَ رَسُولُ الله r :"إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلَا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ" قَالَ ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُقَفٍّ فَقَالَ:"إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ الله رَطْبًا لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ وَأَظُنُّهُ قَالَ لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ" وفي لفظ:"فَأَقْبَلَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ نَاتِئُ الْجَبِينِ كَثُّ اللِّحْيَةِ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ مَحْلُوقُ الرَّأْسِ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ اتَّقِ اللهَّ فَقَالَ النَّبِيُّ r فَمَنْ يُطِيعُ اللهَّ إِذَا عَصَيْتُهُ فَيَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا تَأْمَنُونِي". ومعنى ضِئْضِئِ: أي من نَسْلِهِ.

قوله:({لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم}): استدل المؤلف على الشِّقِّ الثاني من الشهادتين اللتين هما كما تقدم بمنزلة المبنى الواحد أو الركن الواحد، استدل بهذه الآية، وقد جاءت آيات أخرى، هي أصرح من هذه الآية، كقوله تعالى:{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِالله وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف:١٥٨]، وقوله:{مَا كَانَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [الأحزاب:٤٠].

وقوله: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح:٢٩]، وقوله: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} [الحجرات:٧]، وقوله: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الصف:٦].

وغير ذلك من الآيات، ولكن المؤلف لعله اختار هذه الآيات؛ لتضمنها دلالات الامتنان والإكرام والإنعام، ونعت الرسول عليه الصلاة والسلام.

فهذه الآية أخص من جهة تعلقها بحال النبي عليه الصلاة والسلام مع أمته، إشفاقا وحرصا ورحمة كما سيأتي، وهذا أخص مناسبة بهذا المقام.

قوله: {لقد}: حرف تحقيق وتأكيد، يدل على ثبوت الأمر ووقوعه وتحققه، بحيث لا يداخله شك ولا ريبة ولا تردد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:{جاءكم رسول}:فيه دلالات:

الدلالة الأولى: فيه الامتنان ببعثة النبي r .

الدلالة الثانية: فيه التحذير من معصيته ومخالفته فإنه رسول الله r .

الدلالة الثالثة: التذكير بشهادته على أتباعه يوم القيامة، فإيَّانَا والتبديل، كما قال تعالى:{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَّ حَدِيثًا} [النساء:٤١- ٤٢]

الدلالة الرابعة: فيه شرف المُرْسَل حيث أن السياق يعنى: لقد جاءكم من قِبل الله رسول.

الدلالة الخامسة:فيه عظيم صدق الرسول r ، وعظيم أمانته.

الدلالة السادسة: فيه عناية الله جل وعلا بهذه الأمة المرحومة.

الدلالة السابعة: فيه إثبات علوية التشريع، وذلك مأخوذ من علوية من أرسله، وهو الله رب العالمين.

الدلالة الثامنة: فيه أن الشرع من تحليل الحلال وتحريم الحرام لا يكون إلا من قِبل الله جل وعلا، وأن الرسول مبلغ عن ربه، كما قال تعالى:{وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم:٣-٤].

الدلالة التاسعة: أن الرسول لا تصرف له في الوحي بل يأتيه الوحي من السماء فيؤديه كما أوحي إليه، فهذه هي مهمة الرسول، البلاغ عن رب العالمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدلالة العاشرة: الامتنان علينا أن جعلنا من أمته ﷺ .

حقيقة الشكر وعلاقته بالتوحيد:

فلابد من شكر هذه النعمة العظيمة الجليلة، الشكر الحقيقي المتضمن لشكر اللسان والجنان والأركان، وهو المعروف بالشكر العملي، فإن شكرا مجردا عن العمل لا ينفع؛ ولهذا قال تعالى: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ:١٣]، وقال في الشكر بالعمل كذلك: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ } [الكوثر:١-٢]، وقال عن نوح عليه السلام: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} [الإسراء:٣]، وقال عن سليمان عليه السلام: {فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} [النمل:٤٠].

واعلم رحمك الله، أن الشكر يأتي بمعنى التوحيد[١]، كما قال تعالى: {ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف:١٧]، وقوله: {مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} [النساء: ١٤٧]، ويأتي في مقابلة الكفر، كما في قوله تعالى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان:٣].

---

١ - لمزيد من البيان في مسالة: أن الشكر يأتي مرادفا للتوحيد، راجع كتابي:(الاستنباطات البهية) في الاستنباط الرابع والخمسون.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح البخاري من طريق عَمْرٌو عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: {الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ الله كُفْرًا} قَالَ هُمْ وَالله كُفَّارُ قُرَيْشٍ، قَالَ عَمْرٌو: هُمْ قُرَيْشٌ، وَمُحَمَّدٌ r نِعْمَةُ الله: {وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} قَالَ النَّارَ: يَوْمَ بَدْرٍ.ا.هـ.

وجاء في تفسير ابن أبي حاتم:[حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا ابن نُفَيْل، قَالَ: قرأت عَلَى معقل، عَنِ ابْنِ أَبِي حُسَيْنٍ، قَالَ: قام عَلِيٌّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ t ، فقال"ألا أحد يسألني عَنِ القرآن، فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم مني به، وإن كَانَ مِنْ وراء البحار لأتيته، فقام عبد الله بن الكَوَّاء، فقال:مَن{الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ الله كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ}؟، فقال:مشركوا قريش، أتتهم نعمة الله: الإيمَان، فبدلوا نعمة الله كفراً، وأحلوا قومهم دار البوار]ا.هـ.

ولم يذكر في الآية من الذي جاء من قِبَلِه - وهو الله تعالى-؛ لأنه واضح من السياق.

واعلم أرشدك الله تعالى، أن من أعظم أنواع الشكر العملي، شكر الله تعالى بتحقيق عقيدة الولاء والبراء، والقيام بسنة الاعتزال للباطل وأهله، كما قال تعالى:{قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ} [القصص:١٧]، وقوله تعالى في خواتيم نفس هذه السورة:{وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ} [القصص:٨٦].

قوله:{رسول}: أي ليس ببدع من الأمر، فهو رسول مبعوث، كما بعث الأنبياء والمرسلون من قَبْلِه، فما من أمة إلا وقد خلا فيها نذير، كما قال تعالى:{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} [فاطر:٢٤-٢٦]، فإرساله ليس بالشيء الغريب المبتدع المحدث، بل ها أنتم تنتسبون إلى إبراهيم عليه السلام وهو رسول، وهاهم أهل الكتاب ينتسبون إلى موسى وعيسى عليهما السلام وهما رسولان، فأي غرابة وعجب في أن يجيئكم رسول من عند الله؛ وقد ذكر الله تعالى هذا العجب الواقع من المشركين إذا أرسل الله إليهم رسولا، كما في قوله تعالى عن نوح عليه السلام:{أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف:٦٣]، وقوله عن هود عليه السلام:{أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأعراف:٦٩].

ولهذا أكد الله الأمر هنا وبينه، وأخبر في آيات أخرى، أنه لا يجحد ذلك إلا كل ختار كفور، كما قال تعالى:{وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ} [العنكبوت:٤٧]، وقال:{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [النمل:١٤]، أي إنهم إنما جحدوا رسالته مع استيقان أنفسهم بها، تكذيبا، ورَدّا للحق، وامتناعا عن الانقياد له، وحسدا من عند أنفسهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله: {مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}، بعد أن نوه الله جل وعلا بذكر نبيه، وشرف رسالته، وعظمة من أرسله، شرع يُبَيِّنُ جل وعلا خصائص هذا الرسول عليه الصلاة والسلام؛ ليعرف العباد قدره، وعظمته؛ فيعزروه أي ينصروه، ويوقروه أي يحترموه، ويقوموا بحقه، أكمل قيام، من اتخاذه قدوة، ومتبوعاً، وإماماً، وقائداً، ولأن لا يرتضوا لهذه المنزلة من البشر أحدا سواه r ، كائنا من كان؛ لأنه رسول الله، فالذي أرسله وزكَّاه هو الله رب العالمين، فهو أفضل خلق الله، وأطهر خلق الله، وأعلم خلق الله، وأكرم خلق الله على الله، وهو أتقى عباد الله، وهو سيد ولد آدم، وحامل لواء الحمد يوم القيامة،وهو الشافع المشفع في المحشر، وهو أول من يدخل الجنة ويستفتحها، وهو صاحب الحوض المورود، وهو خليل الرحمن جل وعلا، إلى غير ذلك من خصاله الجميلة، وفضائله الجليلة r ، فأي مخلوق من هذه الأمة له من هذه الصفات رُبعها؟!، ولو كان له لما ساغ أن يُتْرَك النبي r ويُتَّبَعَ غيره، فكيف بمن يَتَّبِعُ أفراخ اليهود والنصارى، والمجوس والذين أشركوا، ويتخذ منهم قدوات، ويرتضيهم مشرّعين من دون رب العالمين، ورسوله الأمين؟!، بل وكيف بمن يُقَلِّدُ الفُسَّاقَ والفجار، ويحذو حذوهم ويعجب بطريقة حياتهم، سواء من فساق المسلمين، أو من الصم البكم الكافرين.

وقد ابتلينا في هذا الزمان بهذا نسأل الله العافية والسلامة، فما أكثر المتشبهين، بالفجار والفساق، في لباسهم، والافتتان بحضارتهم، وطريقة حياتهم، والله المستعان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن هؤلاء ما عرفوا حقيقة عظمة هذا النبي r ، وما وَقَرَ في قلوبهم التعظيم المطلوب منهم تجاهه r . وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى بأدلته.

عندما يُعَادي المسلم دينه:

بل والبعض أصبح يعادي هدي النبي r ، بل ويُعَيِّرُ القائمين بها بذلك، عياذا بالله من النفاق، في حين أنهم ينتسبون إلى هذا النبي وأمته ومِلَّتِه، فصرنا نرى ونسمع من يرمي من يدعو إلى التوحيد الخالص بالعظائم، فتارة يُرمى بأنه داعية فتنة وفرقة وشقاق، وتارة يقال عنه خَامِسِي، أي صاحب مذهب ودين جديد، وتارة يقال عنه وهابي، وكأن هؤلاء ما قرؤوا القرآن، ولا عرفوا دعوة الرسل، وأنهم ما بعثوا إلا بالدعوة إلى تحقيق التوحيد الخالص لله رب العالمين، لا شريك له، لا في ربوبيته ولا في ألوهيته ولا في أسمائه وصفاته.

وآخرون يَرْمُون، من يدعو إلى أن يكون الحكم والتشريع لله وحده لا شريك له، يرمونهم بإرادة سفك الدماء، ونشر الفوضى، والخروج على السلاطين، وزعزعة الأمن، إلى غير ذلك مما تَفَوَّهَ به هؤلاء، ولا أقول من العوام، بل ومن بعض المنتسبين إلى العلم والدعوة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وكأنهم ما قرؤوا الكتاب والسنة، بنصوصهما الصريحة الواضحة في ذلك، وأن هذا حق محض لله رب العالمين.

وآخرون يرمون من يدعو إلى تحقيق عقيدة الولاء والبراء، وجعل ذلك هو المعيار في علاقات المجتمع الواحد، لا المواطنة، وفي العلاقات الدولية، حتى تكون كلمة الله هي العليا، يرمونه بالتخلف والرجعية، وعدم فقه الواقع، وتعريض الأمة للتفكك، أو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التغرير بالأمة في مقابلة عدو لا قِبَلَ لهم به، ونحو ذلك من التَّدْجِين، والضَّلال المبين، وكأن هؤلاء ما علموا معنى العروة الوثقى، ولا وقفوا على الآيات المتكاثرة، والأحاديث المتظافرة، الدالة على أن المتحكم في تقييم العباد، وعلاقات البلاد، والأفراد، هي عقيدة الولاء والبراء.

وكذلك فيما يتعلق بالجهاد، بِنَوْعَيه، طلبا ودفعا، والطلب أشد عليهم، وقل مثل هذا في الدعوة إلى تطبيق الهدي النبوي في الصلاة وإن غضب الناس، وكذلك في إعفاء اللحى وإحْفَاء الشوارب، ومحاربة تصوير ذوات الأرواح، والتحذير من التبرج والسفور، ومنع النساء الكاسيات العاريات من الإفساد في البلاد، والدعوة إلى الحجاب وتغطية المرأة لوجهها، ومنع الاختلاط بين الرجال والنساء الأجنبيات، والمنع من مس النساء الأجنبيات ومصافحتهن، ونحو ذلك، وكأن هذه المسائل لا ذكر لها في الأدلة الشرعية، وكأن المطالب بذلك قد أتى بدين من عنده وهواه، فسبحان الله!!.

فأصبح المسلم، يُعَيِّرُ المستمسك بالدين، بنفس الدين الذي هو ينتسب إليه!!.

ولكنها نتيجة بعدنا عن هدي نبينا r ، وتأثرنا بالغرب الكافر، وافتتاننا بالفجار والفساق، والفساد الذي قدمته الحضارة المعاصرة.

قوله:{من أنفسكم}، أي من بني آدم، بل ومن أنْفَسِكُمْ حَسَباً ونَسَبا، وهو خيركم سمتا وهديا وخلقا r .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإيمان الاختياري والاضطراري:

وفي ذلك دليل على أن الله تعالى يريد من عباده الإيمان الاختياري، أي الذي يقع فيه الإيمان من العبد اختيارا لا اضطرارا؛ لوجود ما يُكْرِهُهُ ويُجْبِره على ذلك، فإن الله تعالى لا يَعْبَأُ بالمنافقين، والمرتابين، والمتخذين دينهم لهوا ولعبا؛ ولهذا قال تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨)وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأنعام:٩-١٠]، وقوله: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} [الإسراء:٩٤-٩٦]، وهدد الله تبارك وتعالى بقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان:٢١-٢٣].

فهو من أنفسكم أي هو منكم، خرج فيكم ونشأ بينكم وترعرع، فأنتم من أعرف الناس به وبصدقه، وأمانته وكريم أخلاقه وخصاله، التي تدل على إكرام الله جل وعلا له، وأن مثله لا يمكن أن يكذب على الله، أو أن يقول عليه بغير علم، وعبد كهذا لا يخزيه الله جلا وعلا، ويشهد لهذا المعنى ما جاء في الصحيحين من حديث عائشة رضي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله عنها:(قالت خديجة كلا والله لا يخزيك الله إنك لتحمل الكل وتصل الرحم وتعين ذا الحاجة ... الحديث].

وفي قراءة:{مِن أَنْفَسِكم} بفتح الفاء وكسر السين، أي من أحسنكم حسباً ونسباً وهذه القراءة من القراءات الشاذة ، وليس معناها أنها ضعيفة أو باطلة ، فالشذوذ في القراءات ليس كالشذوذ في الحديث ، فالشاذ في الحديث ضعيف لا يحتج به ولا يعتد به، وأما الشاذ في القرآن فإنها ليست كذلك، بل بعض القراءات الشاذة ثابتة عن النبي r ، ولكن درءا لمفسدة الاختلاف في القرآن تركت القراءة بها، والقراءة الشاذة هي التي اختل فيها أحد هذه الشروط:

١ - تواتر الإسناد.-٢- اشتهار الرواية بها.-٣- موافقة الخط العثماني.-٤-موافقتها للغة ولو بوجه ضعيف. -٥- صحة الإسناد.

وقال السيوطي في (إتمام الدراية لقراء النقاية):[وأخرج من طريق عبد الله بن طاووس، عن أبيه، عن ابن عباس، أن النبي r أَقْرَأَهُ:{لقد جاءكم رسول من أَنْفَسِكُم}بفتح الفاء يعني من أعظمكم قدرا]ا.هـ.

وجاء في (إعراب القرآن لابن سيده):[وقرأ ابن عباس، وأبو العالية، والضحاك، وابن محيصن، ومحبوب، عن أبي عمرو وعبد الله بن قسيط المكي، ويعقوب من بعض طرقه: من أنفسكم بفتح الفاء. ورويت هذه القراءة عن رسول الله ، وعن فاطمة، وعائشة رضي الله عنهما، والمعنى: من أشرفكم وأعزكم، وذلك من النفاسة، وهو راجع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لمعنى النفس، فإنها أعز الأشياء. والظاهر أنّ ما مصدرية في موضع الفاعل بعزيز أي: يعز عليه مشقتكم]ا.هـ.

وفي تفسير القرطبي:[قوله تعالى:{من أنفسكم} يقتضى مدحا لنسب النبي r وأنه من صميم العرب وخالصها. وفي صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله r يقول:"إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم"]ا.هـ.

وقال أيضا:[وقرأ عبد الله بن قسيط المكي من :{أنفسكم} بفتح الفاء من النفاسة، ورويت عن النبي r وعن فاطمة رضي الله عنها أي جاءكم رسول من أشرفكم وأفضلكم من قولك:شيء نفيس إذا كان مرغوبا فيه، وقيل: من أنفسكم أي أكثر كم طاعة].ا.هـ.

ففي قوله:{من أنفسكم} إذاً، تَهْيِيجٌ واستعطاف، واستنطاق لعقلائهم، أي:فَخَلُّوا بينه وبين الناس، فإن ظَهَرَ فَلَهُ وَلَكُم، وإلا كَفَاكُمُوه النَّاس، وَفَوْقَ ذَلك لَنْ يَدَعَ الله تعالى مَنْ يَكْذِبُ عَليه بِلا عُقُوبَةٍ وفَضْحِ حَال، كما قال تعالى:{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الشورى:٢٤]، وبمثل هذا احتج مؤمن آل فرعون على قومه، ودافع عن موسى عليه السلام، كما قال تعالى:{وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كَذَّابٌ}[غافر:٢٨]. وهذا ما تكلم به عقلاء قريش، فكانوا يقولون لقومهم:خلوا بينه وبين الناس فإن اتبعوه، فإن عزه عزكم وشرفه شرف لكم، أي لأنه من أنفسكم، وإلا فقد كفيتموه بغيركم.

قوله:{عزيز}:العزيز يراد به معان:

١- الامتناع المستلزم للعلوية والقوة والأمن.

٢- المشقة وهو المراد في هذه الآية.

٣- الندرة، فيقال:(هذا شيء عزيز) أي نادر الوجود، كما يقال:(هذا عزيز ممتنع لصفات قامت فيه)، منه ما جاء في الصحيحين عن عَبْدُ اللهِ بْنِ زَمْعَةَ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ r يَخْطُبُ وَذَكَرَ النَّاقَةَ وَالَّذِي عَقَرَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ r :"{إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا} انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ...الحديث"، ويقال:(عزيز عليه كذا) أي شاق عليه كذا، وهو المراد في الآية، بدليل قوله:(عزيز عليه) فقد عدي بـ(على) .

قوله:{ما عنتم}: ما إما أن تكون مصدرية؛ فيكون المعنى، أي: يَشُقُّ عليه عَنَتُكُم، وإما أن تكون موصولة بمعنى الذي؛ فيكون المعنى، أي: يشق عليه الذي يُعْنِتُكُم أو الذي فيه عَنَتُكُم، والمعنيان متقاربان.

ولهذا كان عليه الصلاة والسلام لا يخير بين أمرين إلا اختار الأيسر والأرفق منهما بشرط ألا يكون ثَمَّةَ إثم، كما في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ r بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ r لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ فَيَنْتَقِمَ للهِ بِهَا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومنه قوله تعالى:{ونيسرك لليسرى} أي نحبب إليك التيسير، ونعطيك الشريعة اليسرى، والخير العظيم والنفع العميم، كما في تفسير ابن أبي حاتم:[عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ:{وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى}، قَالَ: لِلْخَيْرِ]ا.هـ.

وجاء في تفسير الطبري:[يقول تعالى ذكره:ونسهلك يا محمد لعمل الخير وهو اليُسرَى، واليُسرَى: هو الفُعلى من اليسر]ا.هـ.

وجاء في تفسير ابن كثير:[وقوله تعالى:{وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى} أي:نسهل عليك أفعال الخير وأقواله، ونشرع لك شرعا سهلا سمحا مستقيما عدلا لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر]ا.هـ.

اليسر في الدين فلا تطلبه من غيره:

ففيه دلالة على لطف الله جل وعلا بنبيه r ، وبهذه الأمة المرحومة، فمن آثار رحمة الله بنا أن أرسل إلينا رسولا من أنفسنا، وجعله مُحِبّاً للتيسير، كارهاً للتعسير، يَشْعُرُ بِنَا، ويَسْعَى في نَفْعِنَا عليه الصلاة والسلام، فلله وحده الحمد والفضل والمنة.

وفي الصحيحين من طريق سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ النَّبِيَّ r بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى الْيَمَنِ قَالَ:"يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا".

وفي هذا تذكير بأمر مهم وعظيم، غفل عنه كثير من الناس، ألا وهو أن الله تعالى ما قَبَضَ نَبِيَّهُ إليه، إلا وقد اختار لأمته الأيسر والأرفق بهم، فما بقي علينا إلا الاتباع، فلا تَرَدُّدَ ولا اعتراض، ولا بَحَثَ عن تَيْسِير فوق هذا التَّيْسِير، فإن الأمر قد فُرِغَ منه،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولْنَعْلَمْ أن أي تَيْسِيرٍ يَتَوَهَّمُهُ الناس وراء اختيار النبي r وتَيْسِيرِه، فإنما هو التَّلاعُبُ بالدين، وتَرْقِيقُ المسائل الشرعية.

بَادِر ولا تَتَعَنَّت:

واعلم وَصَلَكَ الله بِعَفْوِه وعَافِيته، أن التَّعَنُّتَ في الاستجابة لله ورسوله؛ مُوجِبٌ لحصول العَنَت، الذي حرص النبي r على دفعه عنا، ولنا في بني إسرائيل العظة والاعتبار، ونحن أشبه الأمم بهم، فتأمل كيف قص علينا القرآن، تَعَنُّتَهُم وعنادهم لرسلهم، وما جَرَّ عليهم ذلك من قسوة القلوب، وفساد الأحوال، وضنك المعايش، حتى صاروا إلى الكفر بالله تعالى؛ ولهذا جاءت النصوص المتكاثرة، آمِرَةً وحَاثَّةً على ضرورة الاستمساك بالشرع، وسرعة الاستجابة لله والرسول - r -.

كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال:٢٤-٢٥].

وقال: {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} [الزخرف:٤٣-٤٤]، وقوله: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران:١٣٣]، وقوله: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهَّ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهَّ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُّ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد:٢١].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأمل كيف وقعت القسوة والجفاء من بني إسرائيل عن شرع الله تعالى، قال تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الحديد:١٦-١٧]، وقوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام:٤٢-٤٥].

صورة من تنعت بني إسرائيل وعواقبه:

وقص الله تبارك علينا قصة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، في قصة القَتِيل، الذي اختلفوا في قَاتِله، فأمرهم موسى عليه السلام أن يذبحوا بقرة، وتأمل كيف أنهم لما تَعَنَّتُوا وقَدَحُوا وشَدَّدُوا؛ شَدَّدَ الله عليهم، ثم صاروا إلى قسوة القلب التي أورثتهم الكفر، ثم جهنم وبئس المهاد، ولو أنهم عَمَدُوا إلى أقرب بقرة فذبحوها؛ لحصل المطلوب، وانْجَلَت المسألة، وانْحَلَّت المشكلة، في بيان واضح من الله تعالى، أن العبد كلما كان أكثر مسارعة واستجابة للشرع، صار إلى اليسر والفرج، وحسن الحال والمآل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإليك سياق الآيات التي وردت فيها هذه القصة العظيمة، التي سُمِّيَت السورة بها، قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَّ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُّ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَّ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ} [البقرة:٦٣-٨٣].

أخذ الله عليهم العهد والميثاق، على أن يأخذوا الدين بِجِدٍّ، وحرص، وعمل وإخلاص، ورفع فوقهم جبل الطور، إمعانا في ذلك، وحَمْلاً لهم عليه، ومع ذلك عادوا إلى التعنت والاستكبار، وأمْعَنُوا في الاعتداء؛ حتى حصلت قصة السَّبت التي عُرِفُوا بها، مما أورثهم أن مَسَخَهم الله تعالى قردة خاسئين، ثم جاءت قصة القتيل، فسألوا موسى عن ذلك، فأمرهم أن يذبحوا أي بقرة، فتعجبوا وقَدَحُوا، إذ - في نظرهم القاصر وعقلهم السقيم - أيُّ شأن للبقرة فيما نسألك عنه يا موسى؟!، فلما رأوا أن الأمر جِدٌّ؛ تعنتوا، ولم يبادروا إلى الاستجابة، فطلبوا وصفا زائدا على مطلق مسمى البقرة، فشددوا؛ فشدد الله عليهم، فقال: {لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تُؤْمَرُونَ}، فبعد أن كانوا في سعة من أمرهم؛ صاروا إلى شيء من التضييق، فَقُيِّدَت البقرة بأن تكون لا صغيرة ولا كبيرة، ثم أمرهم بسرعة الاستجابة، والمبادرة إلى ذلك، ولكن طبعهم صار بسبب اعتيادهم التعنت؛ أن قادهم إلى مزيد من التنطع، فقال لهم: {إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ}، فاشتد الأمر زيادة على ما تقدم، فَقُيِّدَت بِلَوْنٍ مُعَيَّن، وقُيِّدَ اللون بمواصفات أخرى، أن يكون فَاقعا، ثم جاء الأشد مِن وصف لونها، أن تَسُر الناظرين، فأنظار الناس متفاوتة، واستحسان كذا والإعجاب به، يتفاوت فيه الناس تفاوتا عظيما، وعندها قالوا: {ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ}، ثم عادوا فقست قلوبهم، فهي كالحجارة أو أشد، بل بعض الحجارة يُنتَفَعُ بها، ومن هؤلاء من لا خير فيه، ولا نفع منه، حتى صاروا إلى التلاعب بشرع الله تعالى، وبغض المؤمنين، والاستهزاء بهم والاحتيال عليهم والاستخفاف، فكانت عاقبة أمرهم إلى الكفر والزندقة، عياذا بالله من التَّمادِي في الباطل، والاسترسال فيه، فإنه مهلكة أي مهلكة.

فعلينا أن نعتبر بهذه القصة؛ فنسارع ونُبَادِر إلى امتثال كل أمر، واجتناب كل نهي، دون تَعَنُّتٍ ولا تَنَطُّع، فإنا صائرون إلى اليسر والسعة، والله لا يخلف الميعاد.

كما قال تعالى في شأن أهل الكتاب، وهو لنا كذلك: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ} [المائدة:٦٥-٦٦].

وقال في حَقِّنَا: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيمًا} [النساء:٦٦-٧٠].

خطورة دعاة الوسطية المعاصرة:

واعلم أرشدك الله، أنه يوجد في عالم اليوم أقوامٌ رَاقَ لهم أن يُطْلِقُوا على أنفسهم، وأن يُسَمِّيَهُم الناس بذلك **(دعاة الوسطية)**، وإنما هم دعاة الفتنة والانحلال، والتلون في الدين، وجعل الدين شيئا هلاميا لا يمكن الاستمساك به، فكل شيء ممكن، وكل أمر وارد، وكل رأي محترم، ولكل حال فقهها، فحلال اليوم حرام الغد، والعكس، وسنة اليوم بدعة الغد، والعكس، والسياسة هي فقه الواقع، والماعون في الإسلام واسع – أعني إسلام هؤلاء – والجلباب واسع الأرْدَان، فكن ما شئت فإن الإسلام يَسْتَوْعِبُك، ولا وألف لا للنظرة الإقصائية، ولا وألف لا لتحجير العقول على ما جاء في المنقول، أو على ما يقول الصحابة والرسول، فإن الاجتهاد واسع، والعقول لها مجالها ومحلها من النظر، وما يصلح اليوم قد لا يصلح بالأمس، وما كان دينا بالأمس قد لا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يصلح أن يكون دينا اليوم، فلابد من التَّجَدُّد والمواكبة، وإلا عِشْنَا العزلة داخليا وعالميا، فلا يصلح مخاطبة قرن التَّحَضُّرِ والمدنية، بعَقْلِيَّةٍ أكَلَ عليها الزَّمَان وشرب، فقد تُرِكَ ما هُنَالِك، نعوذ بالله من النفاق والخذلان والشقاق، والزيغ والضلال.

وقد كان سلفنا الصالح يقولون: دع كذا وكذا أو لا تفعل كذا وكذا؛ خروجا من الخلاف –أي تَوَرُّعاً وصِيَانَةً للدين- ، وهؤلاء المفتونون يقولون: اعمل بما شئت مما وقع فيه الخلاف، أو ربما قالوا: هذا جائز لأن فيه خلافا، فَتَبًّا لهم.

فهؤلاء يستوعبون كل سبيل وطريقة وحزب،

إلا طريق الإسلام الجَاد، وسبيل الجِهَاد.

والله تعالى يقول في كتابه العزيز: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا}[الأحزاب:٣٦]، وقال: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الحشر:٧].

وقال في نعت أمثال هؤلاء المتشبهين بالمنافقين، إن لم يكونوا منهم، الذين يقدمون أهواءهم وآراءهم على الشرع، ثم يقولون ما أردنا إلا خيرا: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} [النساء:٦١-٦٢] ، وقال: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [النور:٤٧-٥٠]، ثم ذكر نعت المؤمنين الصادقين بعدها مباشرة فقال: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [النور:٥١-٥٣].

وَرَدَّ الله تعالى عليهم بقوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ} [البقرة:١١-١٢]، وفضحهم أنهم ينتقدون إيمان الناس، أي الصحابة ومن تبعهم بإحسان لا بإساءة، أنهم يرونهم سفهاء، والله تعالى حكم بأنهم هم السفهاء، وليس الصحابة ومن اتبعهم بإحسان، فقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ} [البقرة:١٣].

قال الله تعالى: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [فاطر: ٨]

ولقد أحسن من قال:

يُقْضَى على المرء في أيام مِحْنَتِهِ ... حَتى يَرَى حَسَناً مَا لَيس بِالحَسَنِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فتنبه فإن المقام خطير، والشُّبْهَة مُزَيَّنة، وأصحابها مُلَمَّعُون، وقد سَرَتْ بهم الفضائيات والإعلام والرُّكْبَان، فكن على حذر، أن يضلوك أو يفتنوك، فإنهم فتنة لكل مفتون، عافانا الله وإياكم منهم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

قوله:{حريص عليكم}:أي إن من نعت هذا النبي الكريم r أنه يفرغ وسعه، ويجهد نفسه في الأخذ بأيدينا عن التهلكة، وتحذيرنا من كل شر وسوء، ولقد بلّغ بأبي هو وأمي البلاغ المبين، وشهد له بذلك أطهر خلق الله في هذه الأمة، بعد نبينا r وهم الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، كما جاء في خطبة الوداع في الصحيحين كما في حديث أبي بكرة، ورواه مسلم من حديث جابر وفيه قال r :"وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ:. قَالُوا نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ. فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ:"اللَّهُمَّ اشْهَدِ اللَّهُمَّ اشْهَدْ". ثَلاَثَ مَرَّاتٍ".

وما من نبي بعثه الله جل وعلا إلا كان حق عليه أن يأمر أمته بخير ما يعلمه لهم وينهاهم من شر ما يعلمه لهم وإمامهم ومقدمهم في ذلك محمد r .

وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَشَفَ رَسُولُ اللهِ r السِّتْرَ وَرَأْسُهُ مَعْصُوبٌ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ فَقَالَ:"اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ". ثَلاَثَ مَرَّاتٍ "إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلاَّ الرُّؤْيَا يَرَاهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ".

وبين عظيم حرصه علينا عليه الصلاة السلام بما جاء في الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ y أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ r يَقُولُ:"إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنْ النَّارِ وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا" وفي رواية:" أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ هَلُمَّ عَنِ النَّارِ هَلُمَّ عَنِ النَّارِ فَتَغْلِبُونِي تَقَحَّمُونَ فِيهَا"، وفي رواية:"وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي".

وفي قوله:{حريص عليكم} دلالات منها:

أ- دلالة على سعة صبره. ب- دلالة على سعة حلمه.

ج- دلالة على عظيم رحمته. د- دلالة على تواضعه.

هـ- دلالة على عظيم همته في تبليغ دعوته r .

و- دلالة على عظيم عدله وعدم تمييزه في دعوته، فالكل محل لذلك، ومخاطب به.

فهو r يركب كل سبيل مما شرعه الله له لهدايتنا، ولو كان ذلك على حساب نفسه وراحته، وأنسه مع أهله في بيته r ؛ ولهذا تحمل المَشَاق إشفاقا على أمته، حتى أُدْمِيت قدماه، واستهزأ به الصبيان، ونزل إليه ملك الجبال ليطبق عليهم الأخشبين، فقال بل أَسْتَأْنِ الله بهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله،وفيه دلالة على علو همته وسعة أفقه وتطلعه فهو يطمع في أجيال وأجيال توحد الله تبارك وتعالى،فهل فوق هذا الحرص من حرص r .

وتأمل في هذا الخبر المخرج في الصحيحين من طريق قَيْسُ بْنُ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: قَالَ لِي جَرِيرٌ قَالَ لِي رَسُولُ الله e :"أَلاَ تُرِيحُنِي مِنْ ذِي الْخَلَصَةِ"، وَكَانَ بَيْتًا فِي خَثْعَمَ يُسَمَّى كَعْبَةَ الْيَمَانِيَةَ قَالَ فَانْطَلَقْتُ فِي خَمْسِينَ وَمِئَةِ فَارِسٍ مِنْ أَحْمَسَ وَكَانُوا أَصْحَابَ خَيْلٍ قَالَ:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَكُنْتُ لاَ أَثْبُتُ عَلَى الْخَيْلِ فَضَرَبَ فِي صَدْرِي حَتَّى رَأَيْتُ أَثَرَ أَصَابِعِهِ فِي صَدْرِي، وَقَالَ:"اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا"، فَانْطَلَقَ إِلَيْهَا فَكَسَرَهَا وَحَرَّقَهَا ثُمَّ بَعَثَ إِلَى رَسُولِ الله e يُخْبِرُهُ، فَقَالَ رَسُولُ جَرِيرٍ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا جِئْتُكَ حَتَّى تَرَكْتُهَا كَأَنَّهَا جَمَلٌ أَجْوَفُ ، أَوْ أَجْرَبُ قَالَ فَبَارَكَ فِي خَيْلِ أَحْمَسَ وَرِجَالِهَا خَمْسَ مَرَّاتٍ.

تأمل كيف جعل تحطيم هذا الطاغوت راحة لهم، وإزالة لِهَمِّه؛ لتعرف عظيم همته r ، فراحته وأنسه r في إقامة التوحيد ونشره، وتَدْمِيرِ الشرك والقضاء عليه.

والمخاطب في قوله:{عليكم} أي أمة الدعوة، أي حريص على الأمة كلها، من المؤمنين والكافرين، أما المؤمنون، فهو حريص على جلب مزيد من الهداية لهم، وأما الكافرون فبدعوتهم إلى التوحيد، فإن أبوا أخذنا منهم الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، ويبقون بيننا؛ لعلهم أن يتأثروا بنا؛ فيؤمنون بالله العظيم، فإن أبوا الجزية قاتلناهم، وقتلهم خيرٌ لهم، فإن الكافر كلما بقي تمادى في الكفر، وكلما فعل ذلك ازداد في الإثم؛ وقيل بل بتأخير العذاب عنهم، كما قال تعالى:{وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال:٣٣]، وهذا من معاني قوله تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:١٠٧].

قال الشنقيطي في (أضواء البيان):[قوله تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه ما أرسل هذا النَّبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه إلى الخلائق إلا رحمة لهم. لأنه جاءهم بما يسعدهم وينالون به كل خير من خير الدنيا والآخرة إن اتبعوه. ومن خالف ولم يتبع فهو الذي ضيع على نفسه نصيبه من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تلك الرحمة العظمى. وضرب بعض أهل العلم لهذا مثلاً قال: لو فجر الله عيناً للخلق غزيرة الماء، سهلة التنازل. فسقى الناس زروعهم ومواشيهم بمائها. فتتابعت عليهم النعم بذلك، وبقي أناس مفرطون كسالى عن العمل. فضيعوا نصيبهم من تلك العين، فالعين المفجرة في نفسها رحمة من الله، ونعمة للفريقين. ولكن الكسلان محنة على نفسه حيث حرمها ما ينفعها. ويوضح ذلك قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ}. وقيل: كونه رحمة للكفار من حيث إن عقوبتهم أخرت بسببه، وأمنوا به عذاب الاستئصال. والأول أظهر]ا.هـ.

صفتان في المصطفى r :

وقوله:{بالمؤمنين رؤوف رحيم}، اجتماع هاتين الصفتين، دليل على عظيم الرحمة والإشفاق، والحرص على الإحسان والنجاة، كما أنهما دالتان على تأكيد مقام الولاء والبراء، فهو **r** كذلك مع المؤمنين، أما مع الكافرين فقد قال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} في موضعين من الذكر الحكيم، في التوبة والتحريم.

وقال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح:٢٩].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال ابن كثير في تفسيره على هذه الآية:[يخبر تعالى عن محمد صلوات الله عليه، أنه رسوله حقا بلا شك ولا ريب، فقال:{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ}، وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنى بالثناء على أصحابه فقال:{وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}، كما قال تعالى:{فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}، وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا عنيفًا على الكفار، رحيما برًا بالأخيار، غضوبًا عبوسًا في وجه الكافر، ضحوكا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً}، وقال النبي r :"مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمَّى والسَّهر"، وقال: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" وشبك بين أصابعه كلا الحديثين في الصحيح]ا.هـ.

قوله:{رؤوف رحيم}: هذا كما تقدم من الأسماء المشتركة بين الخالق والمخلوق، وللخالق منها الكمال المطلق، وللمخلوق منها ما يليق به من أنه مخلوق لا خالق، على ما تقدم ذكره من قبل.

قال المؤلف رحمه الله:(وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ:طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، واجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ وأَلا يُعْبَدَ اللهُ إلا بِمَا شَرَعَ): بعد أن بين المؤلف بالدليل شرف النبي r وصدقه، وأنه رسول رب العالمين، شرع يبين النتيجة اللازمة لهذه المعرفة، فإن المعرفة المجردة عن لوازمها لا تغني عن صاحبها شيئاً، فأخذ يبين أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا الإقرار والتصديق بالرسول r والشهادة له بالرسالة، له دعامات لابد من وجودها حتى تقوم هذه الشهادة بحق في قلب الإنسان، وواقعه، وإلا كان ممن يَهْرِفُ بما لا يعرف، ويقول ما لا يعلم، فيشهد ولا يَعِي للشهادة معنى، ولا يقيم لها في واقعه وزنا، ومثل هذا لا تنفعه الشهادة، وكان النطق بها وبالاً عليه، لا إكراماً له.

قال المؤلف:(طاعته فيما أمر): الطاعة هي الامتثال والاستسلام، يقال:(رجل مِطْوَاع) أي مستسلم منقاد، ومنه (طَوَّعَ الحَدِيد)، وهذا القدر من الكلام يشمل الدين كله، الذي يتضمن طلب فعل المأمور وطلب ترك المحذور، أي الأمر والنهي، وتكون الجمل بعدها من باب عطف الخاص على العام، وتبيين المجمل بالمفصل، إذ أنه r أمر بتصديقه فيما أخبر، وأمر باجتناب ما نهي عنه وزجر، وأمر ألا يعبد الله إلا بما شرع.

واعلم أن الطاعة لا تكون إلا في المعروف، لهذا قال الله تبارك وتعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَّ إِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهَّ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ} [الممتحنة:١٢-١٣]، والشاهد من هذه الآية قوله تعالى:{ولا يعصينك في معروف}، والمعنى أنه لو أمر أَحَدٌ بغير المعروف فلا طاعة له، وإنما أريد في هذه الآية بيان أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولو كان ملكاً مقربا أو نبيا مرسلا، فهذا لبيان غاية الامتناع، وإلا فحاشاه r أن يقع منه ذلك، وهذا كقوله تعالى:{قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَأَنَـا أَوَّلُ الْعَابِـدِينَ (٨١) سُـبْحَانَ رَبِّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَـرْشِ عَـمَّا يَصِفُونَ}[الزخرف:٨١-٨٢].

ولهذا حَصَرَ النبي r الطاعة في المعروف كما في الصحيحين عَنْ عَـلِيٍّ t قَـالَ بَعَـثَ النَّبِيُّ r سَرِيَّةً وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ وَقَـالَ أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ r أَنْ تُطِيعُونِي قَالُوا بَلَى قَـالَ قَـدْ عَزَمْـتُ عَلَـيْكُمْ لَمَـا جَمَعْـتُمْ حَطَبًـا وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا فَجَمَعُوا حَطَبًا فَأَوْقَدُوا نَارًا فَلَمَّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ فَقَـامَ يَنْظُـرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ r فِرَارًا مِـنْ النَّـارِ أَفَنَـدْخُلُهَا فَبَيْـنَمَا هُـمْ كَذَلِكَ إِذْ خَمَدَتْ النَّارُ وَسَكَنَ غَضَبُهُ فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ r فَقَالَ:"لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُـوا مِنْهَـا أَبَدًا إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ".

واليوم نسمع من يقول **(أنا عبد المأمور)** نعوذ بالله من الشرك بالله تعـالى، بـل نحـن عباد لله تعالى، ولا طاعة لمخلوق مهما كان في معصية الخالق تبارك وتعالى.

جاء في تعليقات الشيخ ابن عثيمين رحمه الله على الأربعون النووية:[ومنها: الوصية بالسمع والطاعة لولاة الأمور وقد أمر الله بذلك في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُـوا أَطِيعُـوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ...}[النساء:٥٩]،... وهذا الأمر مشروط بـأن لا يؤمر بمعصية الله ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة في معصـية الله لقـول النبـي r :"إنما الطاعة في المعروف" ومن هنا نتبين الفائدة في قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُـوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ...[النساء٥٩]،... حيث لم يعد الفعـل عند ذكر طاعة أولياء الأمور بل جعلها تابعة لطاعة الله ورسوله]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأمره r إما أن يكون أمر إيجاب أو أمر استحباب، ويدخل في ذلك، إقراره للشيء يسمع به أو يبلغه أو يُفْعَلُ بين يديه ويسكت عنه r ، فإن هذا داخل في جملة سنته r ، كما قال الناظم:

وإن أَقَرَّ قول غيره جُعِل ... كقوله كذاك فعل قد فعل

وما جرى في عصره ثم اطلع ... عليه إن أَقَرَّه فَلْيُتَّبَع

وتعريف الأمر: هو استدعاء طلب الفعل، على وجه اللزوم، وهو الواجب، وهو الأصل في جميع المأمورات، فإذا نزل عن هذه المرتبة لصارف ما، كان تعريفه هو استدعاء طلب الفعل على وجه الندب، أو الاستحباب، وهذا هو المستحب.

مفهوم السنة وما مرت به من أطوار:

تنبيه:وقع خلط كبير عند أكثر الناس في معرفة معنى السُّنَّة، في المفهوم الشرعي، فاختلط التعريف الحادث، بأصل معنى السُّنَّة في الصدر الأول، ولنعلم أن هذه الكلمة، قد مرت بمراحل:

١ - كانت في أول الأمر تعنى الطريقة والهدي، وبهذا يدخل فيها كل الإسلام، ولهذا قال ابن مسعود كما في صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ الله قَالَ مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهَّ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلاَءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ فَإِنَّ اللهَّ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ r سُنَنَ الْهُدَى وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّى هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً وَيَرْفَعُهُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِهَا دَرَجَةً وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلاَّ مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ.

فقوله:(لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ)، تبين منه أن ترك السنة هنا ضلال، والمعنى إذا الهدي والطريق، المقابلة للإحداث في الدين، ومنها قوله r في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح عن أبي نجيح العرباض بن سارية t قال:وعظنا رسول الله r موعظة بليغة وجِلَت منها القلوب وذرفت منها العيون.فقلنا:يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا. قال:"أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي،وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة"، فمعنى قوله r :"فعليكم بسنتي"أي بهديي وطريقتي.

٢- وكانت تطلق أيضا في الصدر الأول على من لا يطعم إلا حلالا، فهو يَعْرِفُ ما يدخل في بَطْنِه، وكانوا يصفونه بأنه (صاحب سنة).

٣- ثم لما ظهرت البدع، كبدعة الخوارج والمرجئة والجهمية، وأهل الكلام أَلَّفَ أهل العلم كتباً أسموها كتب السنة؛ لكي تكون في مقابلة البدع، فهنا حصل تَخْصِيص لكلمة السُّنة، عما كانت عليه في الأصل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤- ثم اصطلح المتأخرون، عندما قسموا الأحكام، على خلاف بينهم في عددها، (المحرم، المكروه، الفرض، الواجب، المستحب، المندوب، المباح)، فقالوا السنة: ما يثاب فاعلها، ولا يعاقب تاركها، فَخُصِّصَتْ أكثر مما كانت عليه من قبل.

ولا مشاحة في الاصطلاح، ولكن لا بد من تنبيه العوام على هذا المعنى الخطير، ولهذا لما وقع الخلط بين هذه المعاني أصبحت تسمع من يقول:إن حلق اللحية مكروه،وإن رفع الثوب عن الكعبين سنة، وإن الحجاب سنة، وعلى هذا فقس، ولخطورة هذه المسألة جرى التنبيه عليها. والله الموفق.

قال المؤلف:(وتصديقه فيما أخبر): التصديق ضده التكذيب، فمن شهد ولم يصدق بالرسول، ولا بما أخبر به؛ كان كافراً زنديقاً منافقاً، وعليه فلابد أن يكون التصديق جازما لا تردد معه.

ووجوب تصديقه لسببين:

١- لأنه رسول رب العالمين،وفي تكذيبه تنقيص لمن أرسله، وقدح في حكمته وقدرته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

٢- أن مقتضى كونه رسولاً، أنه لا يأتي بشيء من عند نفسه؛ فهو مبلغ عن الله، فإن كذبت رسوله، فلا سبيل إلى تحقيق عبادته تبارك وتعالى، وإلا ستكون متبعا للهوى لا للهدى، وهذا هو الكفر والزندقة والضلال المبين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم أن الخبر لا يدخله النسخ؛ لأن مقتضى النسخ تكذيب للخبر، وهذا محال في كلام الشرع، فأخبارهم تقع مطابقة للواقع، كالقصص في القرآن والسنة، وكأخبار الصفات والأسماء، وكأخبار ما يقع في البرزخ ويوم القيامة من الجنة والنار، وسائر الأخبار التي جاءت في الكتاب والسنة، فيجب تصديقها تصديقاً جازماً، لا يداخله شك ولا تردد، فإن شك أو تردد أو توقف؛ فليس بمسلم؛ لأن مقتضى أحد هذه الأمور تكذيب الرسول، ويتبعها اللوازم المتقدمة.

الشرع حاكم لا محكوم، والعقل محكوم لا حاكم:

واعلم أرشدك الله ، أن موجب تصديق الشهادة، اعتقاد مطابقة وتصديق الأخبار بعضها للبعض الآخر، فالأخبار يصدق بعضها بعضا؛ لأنها من مشكاة واحدة، فلا تعارض بينها، فإن توهمنا تعارضا فهو فيما ظهر لنا، وإلا ففي حقيقة الأمر ليس هناك تعارض في الأخبار البتة.

وهذا الذي ظهر لنا يزول بالنظر في الأخبار التي ظاهرها التعارض عندنا، من جهة صحة الخبر، وسلامة الاستدلال به، وصحة الاستنباط منه.

فقد يكون هناك حديث أصح من حديث، أو مقارنة بين صحيح وضعيف، أو أن يكون العقل الذي حكم بالتعارض عقل فاسد، فإما أن يكون الخلل في الإسناد، أو أن يكون في حالة العقل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإليك جميل ما قاله ابن القيم في هذا المقام في (متن القصيدة النونية):

فـإذا تـعـارض نـص لـفـظ وراد .... والعقـل حتى ليس يلتقيان
فالـعقـل إمـا فاسـد ويظنه الرائي .... صـحيحـا وهـو ذو بطلان
أو أن ذاك النـص ليـس بـثـابـت .... مـا قـاله المـعصوم بالبرهان
ونصوصه ليست تعارض بعضها ....بعضا فسل عنها عليم زمان
وإذا ظننت تعـارضـا فيـهـا فـذا .... مـن آفـة الأفهام والأذهـان
أو أن يكون البعـض ليس بثابت .... مـا قـاله المبعـوث بالقـرآن

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في :(درء تعارض العقل والنقل):[وقد يكـون الرجـل من أذكياء الناس وأحدهم نظرا ويعميه عن أظهر الأشياء وقد يكون مـن أبلـد النـاس وأضعفهم نظرا ويهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه فلا حول ولا قوة إلا به، فمن اتكل على نظره واستدلاله أو عقله ومعرفته خذل]ا.هـ.

الأصل في النواهي التحريم:

قال المؤلف:(ما نهى عنه)، النهي لغة: المنع. وشرعاً: الأمر إلزاما بالترك ويقتضـي، التحريم، فكل ما ورد بصيغة النهي، فمقتضاه التحـريم، فـإن صرفـه صـارف معتـبر شرعا صار النهي نهي تنزيه، أي صار مكروها، والنهي من أفعال التروك؛ ولهذا أوجب الشارع ترك جميع المنهيات، إذ لا تعلق لها بالاستطاعة والمشقة، إلا مجاهد النفس الأمارة بالسوء، فالترك الكل يستطيع أن يفعله؛ ولهذا قال r :"وما نهيتكم عنه فاجتنبوه" متفق عليه وقد تقدم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الـذكر الحكـيم قـال تعـالى: {وَمَـا آتَـاكُمُ الرَّسُـولُ فَخُـذُوهُ وَمَـا نَهَـاكُمْ عَنْـهُ فَانْتَهُوا} [الحشر:٧]، وقال الله تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَـيَّنَ لَـهُ الْهُـدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء:١١٥].

واعلم أن المكروه في كلام الشارع ربما جاء مرادفا للحرام، كما قال تعالى بعد أن ذكر جملة من المحرمات المتفق عليها: {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْـدَ رَبِّـكَ مَكْرُوهًـا} [الإسراء: ٣٨]، فالمكروه هنا يُرادُ به التحريم قطعا.

ولهذا استعمل بعض الأئمة في القرون المفضلة المكروه، وأرادوا به التحريم، كما هـو مقرر في موضعه. فتنبه لذلك رعاك الله.

تنبيه: وكذلك وقع خلط بين معنى المكروه -على المعنى الحادث- والتحريم، قريباً مما وقع في معنى السنة، ولهذا تجد اليوم من يشرب الحرام، كالدخان ونحوه، ويقول هو مكروه، ويسبل الإزار ويقول هو مكـروه، ويخـتلط بالنسـاء الأجنبيـات ويصـافحهن ويخلو بهن، ويقول هو مكروه، ويسمع المعازف والغناء الفاحش، ويقول هو مكروه.

وهنا لعلنا أن نعيد التذكير بالحديث الذي تقدم تخريجه عن أبي هريرة t قـال:قـال رسول الله r :"كلكم يدخل الجنة إلا من أبى قالوا ومن يأبى يا رسـول الله؟ قـال مـن أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبـى" فهـذا الحـديث يقـرر فرضـية طاعـة النبـي r وأنه لا سبيل إلى دخول الجنة إلا بذلك، وأن أعظم أسباب دخول النار معصية النبي r ؛ ولهذا حق لنا أن نقول تجب طاعة النبي r الطاعة العمياء، فقد أيقنت أنفسنا أنه لا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، فَعَلامَ التردد إذاً؟!. وفي الحديث المتقدم قريبا شَبَّهَ النبي r المُتَفَلِّتِينَ عن طاعته بالفَرَاشِ يَأْبَى إلا أن يَقَعَ في النار؛ وفي هذا تذكير بأننا كنا قبل بعثته، وبزوغ نور دعوته، كنّا كالفراش، نهيم على وجوهنا، لا نلوي على شيء، فقد اجتالت الشياطين أكثر العباد، لا نعلم إلى أي وجهة نتوجه، فلا عِلْمَ ولا حِلْم، فلما جاء عليه الصلاة والسلام بالنور المبين، والهدى القويم؛ أبصرنا الطريق، ولكن بعض العباد أَبَوْا إلا حالة الفراش، الذي يأوي إلى النار، ولهذا قال الله تعالى: {فأمه هاوية} أي أمه جهنم فهو يأوي إليها، عياذا بالله من النار، والتَّفَلُّتُ المذكور في الحديث هنا، هو مخالفته عليه الصلاة والسلام وعصيانه.

الفرق بين النهي والزجر.

قوله:(وزجر): الزجر أشد من النهي، فإنه الكلام المتضمن للردع والتعنيف، والتشديد على الفعل والفاعل، بلفظ فيه زيادة على مجرد النهي، ولهذا غاير بينهما المؤلف، وذلك كقوله r :"لعنة الله" أو :"لعنه الله" أو :"ليس منا" فهذا هو الزجر وأما النهي فكما تقدم، فالزجر نهي وزيادة.

وعليه فالواجب اجتناب جميع المحرمات الكبائر منها والصغائر واللَّمم، فلنجاهد أنفسنا على ذلك، فإنما الخير إلينا راجع أصالة، وإلا فإن الأمر كما جاء في الحديث القدسي الطويل في صحيح مسلم من حديث أبي ذر t فيما يرويه النبي r عن ربه تبارك وتعالى وفيه قال تعالى:"يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا"...الحديث.

وعلينا أن نعلم، أن الله تعالى أرحم بنا من أمهاتنا، كما في الصحيحين عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ t قَالَ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ r سَبْيٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ r :"أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ قُلْنَا لَا وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ فَقَالَ للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا".

فإذا نهانا الله تعالى عن شيء فلنمتثل، وكذلك إذا أمرنا تبارك وتعالى، وقد ضرب بعض الحكماء لذلك مثلا، فقالوا: أرأيتم لو أن طريقا كان فيه جملة من الأخطار، من منعطفات، وحفر، ومزالق، فأخذ السلطان يضع للناس علامات وتحذيرات من سلوك هذه الطريق، ولافتات للحذر من كذا وكذا، فهل سنعد ذلك من التضييق والتحجير علينا، أم سنعد ذلك من الرحمة والإرفاق بنا، ولله تعالى المثل الأعلى.

وما أجمل ما قيل:

جهلت عيون الناس ما في داخلي ... فوجدت ربي بالفؤاد بصيرا
يا أيها الحزن المسافر في دمي ... دعني فقلبي لن يكون أسيرا
ربي معي فمن الذي أخشى إذن ... ما دام ربي يحسن التدبيرا
وهو الذي قد قال في قرآنه ... {وكفى بربك هاديا ونصيرا}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال المؤلف:(وألا يعبد الله إلا بما شرع): هذا كقوله تعالى:{وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} [النحل:١١٦]، وقوله:{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [الأعراف:٣٣-٣٤]، فحرم الله تعالى الافتئات على حقه بالتشريعات الجاهلية، وأن يتقول العبد على الله تعالى ما لم يأذن به.

كما قال تعالى:{ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ} [الجاثية ١٨-١٩].

ولهذا حرّم الله على عباده أن يقولوا هذا واجب أو مستحب بدون علم؛ لأنه تشريع، وكذلك أن يقول هذا محرم بدون علم.

قوله:(إلا بما شرع): أي إلا بما حكم الله وقضى، ووصى به وأمر، في شريعة محمد **r**، فلا سبيل للإيمان إلا بتحقيق عبادة الله تعالى على هدي الرسول **r**، فمن أراد عبادة الله تعالى بشريعة غير شريعة النبي **r** فإن الله تعالى رَادٌ عليه ذلك، ومُحْبِطٌ عمله، وإن كانت أعماله كأمثال الجبال، وهو من حطب جهنم وحَصَبِها، كما في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ **r** أَنَّهُ قَالَ:"وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ".

والله تعالى يقول في محكم تنزيله: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:٦٥]، وسيأتي مزيد بيان لهذه الجمل بإذن الله تعالى عند الكلام على طاغوت التشريعات الجاهلية، والديمقراطية.

مقولة فيها نظر:

تنبيه: هناك مقولة نجدها في بعض الكتب تقول:(**فقد سَدَّ الله جل وعلا جميع الطرق الموصلة إليه إلا طريق النبي r**)، وهذه المقولة الذي يظهر لي أن فيها نظرا، إذ أن مفادها أن هناك طرقا أخرى، توصل إلى الله تعالى، ولكن الله تعالى سَدَّهَا، ولم يبق إلا طريق المصطفى **r**، وهذا الكلام ليس بصحيح، فإن الله أرأف بنا من أنفسنا، بل ومن أمهاتنا اللآتي وَلَدْنَنَا، كما جاء بذلك الخبر، في الصحيحين عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ **t** عَنْهُ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ **r** سَبْيٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ :"أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ" قُلْنَا لَا وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ فَقَالَ:"للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا"

وقال تعالى: {وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء:٢٧-٢٨]،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهو سبحانه وتعالى يريد أن يرحمنا، وأن يتوب علينا، فكيف يَسُدُّ الطرق دونه،مع كونها طرقا صحيحة، وبهذا نعلم يقيناً أنه ليس هناك طريق أصلاً، يوصل إلى الله إلا طريق النبي r ، وأنه ليس ثَمَّةَ طُرُقٌ صحيحة مسدودة.

والله تعالى يقول: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [القصص:٦٨]، فقد اختار تبارك وتعالى هذا الرسول r لهذه الأمة، فلا سبيل لها إلى عبادة الله إلا بِشَرْعِه وهديه عليه الصلاة والسلام.

والمقصود أن الله تبارك وتعالى لا يقبل عملا ألا أن يكون خالصا صوابا، والخالص هو ما ابتغي به وجه الله تعالى، والصواب هو ما كان على شرع النبي r ، وعليه فالشرك مردود على صاحبه، وكذلك البدعة، وقد كنا أفردنا كلاما مطولا عن الشرك وأحواله، فيما تقدم، وسيأتي مزيد بإذن الله تعالى، والآن فلنفرد للبدعة حظا من ذلك كذلك، لخطورتها، وسرعة انتشارها، واستهواء الشيطان العباد بها؛ ولأنها غالبا ما تُنْسَبُ إلى الدين زورا وبهتانا عياذا بالله؛ فينهدم حظ من السنة، ويرق أمر البدعة، وتروق لكثير من العامة، بل وبعض الخاصة، نسأل الله العافية والسلامة.

فصل في بيان شؤم البدعة: اعلم أن البدعة تكون سبباً لرد العمل الذي تلبست به، وربما كانت سبباً في نقص الأجر لا غير دون حبوط العمل، بحسب نوع البدعة وخطرها، وتعلقها بالعمل، وعلى كل فهي شؤم محض، القليل منها والكثير، عافانا الله وإياكم منها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمبتدع مصيبته، أنه غالباً ما يتعبد الله بتلك البدعة، فهو يَعُدُّها قربة من القربات إلى الله جل وعلا،ولهذا لا يَكَاد يَنْزِع عن بدعته وضلالته؛ لأنه يعتبرها ديناً يتعبد الله به،حتى إذا ما أقلع عنها وقع في أشد منها،ولهذا قيل لأحد السلف:(فلان أقلع عن بدعته)، فقال انظروا إلى حاله فإن صاحِب البدعة لا يقلع عنها إلا إلى أكبر منها، قال فنظرنا فإذا به قد وقع في بدعة القدرية الذين هم (مجوس هذه الأمة) والعياذ بالله.

وقد ذكر ابن وضاح في كتابه (البدع) بسند جيد عن أبي عمرو السيباني قال:[يَأْبَى الله لصاحب بدعة بتوبة، وما انتقل صاحب بدعة إلا إلى شر منها]ا.هـ.

ولهذا كانت البدعة عند بعض أهل العلم أكبر من الكبائر مما هي دون الكفر والشرك، حتى قال بعضهم: لأن أرى ابني على خَمَّارَةٍ أَحَبُّ إلي من أن أراه صاحب بدعة، وذلك لأن صاحب الخمر يعلم أنه على منكر، برجاء أن يَنْزِعَ عنها ويَتُوب، وأما صاحب البدعة فيرى أنه على حَق، فَمَتَى يُقْلِعُ عنها ويتوب؟، وقال أيوب السختياني:[ما ازداد صاحب بدعة اجتهادا؛ إلا ازداد من الله بعدا]، قال الشاطبي في الاعتصام تعليقا على قول أيوب السختياني:[ويصحح هذا النقل ما أشار إليه الحديث الصحيح في قوله عليه الصلاة والسلام في الخوارج:"يخرج من ضئضئ هذا قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم: إلى أن قال:"يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية"، فَبَيَّنَ أولا اجتهادهم، ثم بَيَّنَ آخرا بُعْدَهُم من الله تعالى]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في كتاب (الاعتصام) للشاطبي:[وخرج ابن وهب عن أبي إدريس الخولاني أنه قال: لأن أرى في المسجد نارا لا أستطيع إطفاءها أحب إلي من أن أرى فيه بدعة لا أستطيع تغييرها]ا.هـ. وقد نُقِلَ عن السلف من الصحابة والتابعين والأئمة المهديين نقولات متكاثرة في ذم البدعة وأهلها، والتحذير منها ومن أهلها، والسعي في الخلاص منها، بِنَشْرِ السُّنة، وهَجْرِ أصحاب البدع المُعَانِدين، والمُتَوَلِّينَ كِبْرَها، وقد ذكر الشاطبي في كتابه الاعتصام حظا وافرا من ذلك. فليراجع فإنه نفيس في بابه.

تعريف البدعة: هي طريقة في الدين محدثة، تقع بها مضاهاة الشرع، قال الشاطبي في الاعتصام :[فالبدعة إذن عبارة عن طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه وهذا على رأي من لا يدخل العادات في معنى البدعة وإنما يخصها بالعبادات وأما على رأي من أدخل الأعمال العادية في معنى البدعة فيقول البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية]ا.هـ.

والبدعة من جهة إطلاقها العام تنقسم إلى قسمين:

١ - **بدعة دينية**: وهي ما ينسبها صاحبها إلى الدين.

٢ - **بدعة دنيوية**: وهي ما يحدثه الناس لِتَيْسِيرِ وتَسْيِيرِ أسباب معاشهم، وهي بهذا الاعتبار سميت بدعة بالمعنى اللغوي، وهو الشيء المحدث، وبما أن الدين جاء لِيَسُوسَ الدنيا؛ فلابد من النظر في أحوال الدنيا بمنظور شرعي، كما قال تعالى:{قل إن صلاتي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين}؛ وعلى هذا فإنها تنقسم إلى قسمين:

٣- ما سكت عنه الشرع، فالأصل فيها الحل والإباحة، كأنواع المراكب والمساكن المستحدثة ونحو ذلك، ما لم تتضمن محرما، وإن كانت ثَمَّة أدلة كلية دالة عليها.

أ- ما انتقده الشرع وحذر منه، فهذا الأصل فيه الحظر والمنع، وتتوقف درجته على نوع البدعة ودرجتها، فمنها المكفر، ومنها ما هو دون ذلك على ما سيأتي، ومن المكفر منها ما استحدثه الناس من القوانين الوضعية والتشريعات الجاهلية، ومما هو دون ذلك ما استحدثه الناس من أنواع الملابس المتضمنة للمحرم، ولم تكن موجودة بأعيانها زمن التشريع، كالتشبه بالكفار، والرجال بالنساء والعكس.

والبدعة الدينية، من جهة نوعها تقسم إلى قسمين:

١- **بدعة حقيقية**: وهي ما ليس لها أصل في الشرع، وهي التي لا مستند لها من الشرع، لا كُلِّي، ولا تفصيلي.

٢- **بدعة إضافية**: وهي ما كان لها أصل في الشرع، فزاد عليه المبتدع أو حرفه.

فبدعة البناء على القبور، والغلو في المقبور، واتخاذ المشاهد، والأضرحة، والطواف بها، هي بدع حقيقية، لا برهان عليها، بل جاء الشرع بنقضها وبيانها، والتحذير منها، وأنها بين ذرائع إلى الشرك، وبين شرك حقيقي أكبر، عياذا بالله.

وأما بدعة التَّطْرِيبِ في الآذان مثلا، فإنها بدعة إضافية؛ لأن الشرع دل على الأذان، ولكن الناس أضافوا إليه أحوالا وطرقا في الأداء ليست منه. وعلى هذا فَقِسْ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالعلم تحاصر البدع وتنحسر:

والبدع تكثر عند قلة العلم وثبوت الجهل، ولهذا قال ابن مسعود t ، فيما أخرجه الدارمي في سننه أخبرنا يعلى ثنا الأعمش عن شقيق قال قال عبد الله:(كيف أنتم إذا لَبِسَتْكُم فِتنَةٌ، يَهْرَمُ فيها الكبير، ويَرْبُو فيها الصغير، ويتخذها الناس سُنَّةً، فإذا غُيِّرَت؛ قالوا غُيِّرَتْ السُّنَّةُ، قالوا: ومتى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟، قال: إذا كَثُرَتْ قُرَّاؤُكُم، وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُم، وكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكُم، وَقَلَّتْ أُمَنَاؤُكُم، والْتُمِسَتْ الدنيا بِعَمل الآخرة). قلت:سنده جيد، وأخرجه ابن أبي شيبة كذلك في مصنفه.

فنسأل الله العافية والسلامة، وإلى هذا أشار النبي r فيما أخرجه أحمد والثلاثة وصححه الترمذي عن العرباض بن سارية t قال r :"فإنه من يعش منكم يرى اختلافا كثيرا وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ". قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث صحيح[1].

---

١ - هناك من المتأخرين، لا سيما بعض المعاصرين من تكلم في إسناد هذا الخبر وطعن فيه، ولا أعلم لهؤلاء سلفا، بل أنت كما ترى قد نص الإمام الترمذي على تصحيحه، ولا يعلم له مخالف من السلف؛ فلا تلتفت إلى من خالف السلف بلا سلف له من السلف، ولا يهولنك شهرة الأسماء التي طعنت في هذا الخبر، فإن الإمام الترمذي أعلم منهم وأقعد، وهو من السلف والأئمة الكبار في هذا الشأن. فتنبه ولا تُخْدَع عن اتباع السلف إلى مجازفات الخلف، واجتهاداتهم المزعومة في مقابلة ما قاله السلف.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخطر القادم المحدق بالأمة:

فبين النبي r الخطر المُحْدِق القادم، وبين المخرج منه، بالرجوع إلى الكتاب والسنة الصحيحة، على فهم سلف الأمة الأخيار الأطهار الأبرار رضي الله عنهم وأرضاهم، فلا بد أن يَسَعَنَا ما وَسِعَ السَّلف، في العبادات والاعتقادات والمعاملات، وأن لا نُعارض الكتاب والسنة بقول أحد كائنا من كان.

وقد ورد عن الصحابة الإنكار، والتشديد على من أحدث في الإسلام، كما في معجم الطبراني في الكبير قال: حدثنا أبو مسلم الكشي ثنا أبو عمر الضرير أنا حماد بن سلمة أن عطاء بن السائب أخبرهم عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : كان عمرو بن عتبة بن فرقد السلمي ومعضد في أناس من أصحابهما اتخذوا مسجدا يسبحون فيه بين المغرب والعشاء كذا ويهللون كذا ويحمدون كذا فأخبر بذلك عبد الله بن مسعود فقال للذي أخبره: إذا جلسوا فآذني فلما جلسوا آذنه فجاء عبد الله عليه برنس حتى دخل عليهم فكشف البرنس عن رأسه ثم قال: أنا ابن أم عبد والله لقد جئتم ببدعة ظلماء أو قد فضلتم أصحاب محمد r علما فقال معضد وكان رجلا مفوها: والله ما جئنا ببدعة ظلماء ولا فضلنا أصحاب محمد r فقال عبد الله :"لئن اتبعتم القوم لقد سبقوكم سبقا مبينا ولئن جرتم يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا"١.

---

١ - قلت: وهذا إسناد جيد، فأما أبو مسلم فقد ذكره ابن حبان في الثقات، ووثقه الذهبي في تذكرة الحفاظ، وأما أبو عمر الضرير فصدوق، قال عنه أبو حاتم:صدوق، صالح الحديث، عامة حديثه يحفظه، وقال ابن حبان:كان من العلماء بالفرائض، والحساب، والشعر، وأيام الناس،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأخرج الحاكم والدارمي بسند لا بأس به: أن أبا موسى الأشعري جاء إلى عبد الله بن مسعود فقال:"يا أبا عبد الرحمن، إن رأيت في المسجد آنفا شيئا أنكرته ولم أر والحمد لله إلا خيرا، قال:فما هو؟ قال: إن عشت فستراه، قال:رأيت في المسجد قوما حلقا حلقا جلوسا ينتظرون الصلاة؛ في كل حلقة رجل وفي أيديهم حصى فيقول لهم: كبروا مائة؛ فيكبرون مائة.فيقول: هللوا مائة؛ فيهللون مائة. ويقول:سبحوا مائة؛ فيسبحون مائة. قال: فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئا؛ انتظار رأيك وانتظار أمرك. قال أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم ألا يضيع من حسناتهم. ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلق؛ فوقف عليهم فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح. قال: فعدوا سيئاتكم وأنا ضامن لكم ألا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد! ما أسرع هلكتكم. أو مفتتحي باب ضلالة! قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن، ما أردنا إلا الخير. فقال: وكم من مريد للخير لن يصيبه". والله أعلم.

والفقه، ولد وهو أعمى. وقال في موضع آخر:كان من علماء أهل البصرة مات سنة عشرين ومئتين، وقال العقيلي:حدثنا محمد بن عبد الحميد حدثنا أحمد بن محمد الحضرمي قال:سألت يحيى بن معين عن ابن عمر الضرير، فقال:لا يرضى. وقال الساجي:من أهل الصدق مظلوم، قال الساجي: وكان يحفظ الحديث، وكان سليمان الشاذكوني يمدحه ويطريه وينسبه إلى الحفظ، و ذكروا أن حماد بن سلمة كان يستذكره الأحاديث وهو حدث، وكان غاية في السنة، وله موضع بالبصرة من العلم. وأما حماد بن سلمة فصدوق وروايته عن عطاء قبل الاختلاط على الراجح ويشهد لاستقامة مروية الحديث الذي يليه، كما في الأصل. والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البدع في الشرع كلها ضلالها، ليس فيها حسن:

فانظر إلى عظم فقه الصحابة كيف حصروا الإحداث في أحد أمرين:

١ - إما ضلالة المُحدث. ٢ - وإما تنقُّصه واتهامُه للشرع، وهذا أشد لأنه كفر.

ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله:(من قال أن في الدين بدعة حسنة؛ فقد اتهم النبي r بالخيانة، ثم تلا قوله تعالى:{اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا}، في بيان واضح من هذا الإمام الجليل إمام دار الهجرة، أن ما كان عند الصحابة y ديناً فهو عند الله الدين، وما لم يكن عندهم دين؛ فليس عند الله بدين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٧٥):[وَقَدْ سُئِلَ مَالِكٌ عَنْ رَجُلٍ أَحْرَمَ قَبْلَ الْمِيقَاتِ؟، فَقَالَ: أَخَافُ عَلَيْهِ مِنْ الْفِتْنَةِ، فَقَالَ: قَالَ تَعَالَى:{فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ}، فَقَالَ السَّائِلُ: وَأَيُّ فِتْنَةٍ فِي ذَلِكَ؟، وَإِنَّمَا هِيَ زِيَادَةُ امْتِثَالٍ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى، قَالَ: وَأَيُّ فِتْنَةٍ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تَظُنَّ أَنَّك خُصِصْتَ بِفِعْلٍ لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ r ؟، أَوْ كَمَا قَالَ. وَكَانَ يَقُولُ: لَنْ يُصْلِحَ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ إلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا، أَوَ كُلَّمَا جَاءَنَا رَجُلٌ أَجْدَلُ مِنْ رَجُلٍ تَرَكْنَا مَا جَاءَ بِهِ جِبْرِيلُ إلَى مُحَمَّدٍ بِجَدَلِ هَذَا؟]ا.هـ.

وقد أجمع الصحابة على عدم جواز الإحداث في الدين، وأنه ليس في الإسلام بدعة حسنة، إلا بتعريفها اللغوي المتقدم، أو بمعنى تجديد ما انْدَرَسَ من معالم الشرع، وذلك بأن تُتْرَكَ سُنَّةٌ مثلا، فَيَنْتَدب إليها من يُحْيِيها في واقع الناس، ويحملهم عليها، ويكون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قدوة في ذلك، هذا معنى أنها بدعة حسنة، وهذا معنى تجديدها، فإن البدعة لغة هي الشيء المبتكر الجديد المحدث، وهذا قد يكون لخلو ذهن الناس منه في وقتها، أو لأنه لم يكون موجودا أصلا.

وعليه يحمل ما ورد من الآثار في ذلك، كقوله r في الحديث الذي في صحيح مسلم عن جَرِيرٍ بن عبد الله قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله r فِي صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ الله r لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلاَلاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ:"{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} إِلَى آخِرِ الآيَةِ {إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} وَالآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ {اتَّقُوا اللهَّ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَّ} تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ - حَتَّى قَالَ - وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ". قَالَ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ - قَالَ - ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ الله r يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ فَقَالَ رَسُولُ الله r :"مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ"، والشاهد قوله r :"من سن في الإسلام سنة حسنة"، فإن المراد بذلك من دَلَّ على هذه السُّنة الحَسَنَةِ المتقررة شرعا، - فإنما نالت الحُسْنَ لكونها من الشرع، وإلا كانت سيئة مذمومة، وبدعة ضلالة -، ودعا إليها، لا سيما عند إعراض

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الناس عنها، وهجرانهم إياها، وسياق الحديث يدل على ذلك، فإن النبي r لما حث على الصدقة، فأبطؤوا كما في الرواية الأخرى:"فَحَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ فَأَبْطَئُوا عَنْهُ حَتَّى رُئِيَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ"، فجاء هذا الرجل بهذه الصُّرَّةِ العظيمة من المال، التي عجزت عنها يده أو كادت، فوضعها بين يدي النبي r ، فلما رأى الناسُ ذلك نشطوا وتسارعوا إلى الإنفاق؛ فقال النبي r :"من سن في الإسلام سنة حسنة"، فالرجل لم يأت بشيء جديد مُبْتَكر من عند نفسه، وإنما أحْيَا وشَجَّعَ على أمْرٍ تَأَخَّرَ النَّاس عنه.

وأما قول عمر t :(نعمت البدعة هذه)، وذلك فيما أخرجه مالك في الموطأ بسند صحيح عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ الْقَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي رَمَضَانَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ يُصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ وَيُصَلِّي الرَّجُلُ فَيُصَلِّي بِصَلَاتِهِ الرَّهْطُ فَقَالَ عُمَرُ:(وَاللهِ إِنِّي لَأَرَانِي لَوْ جَمَعْتُ هَؤُلَاءِ عَلَى قَارِئٍ وَاحِدٍ لَكَانَ أَمْثَلَ)؛ فَجَمَعَهُمْ عَلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُ لَيْلَةً أُخْرَى وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلَاةِ قَارِئِهِمْ فَقَالَ عُمَرُ:(نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ وَالَّتِي تَنَامُونَ عَنْهَا أَفْضَلُ مِنْ الَّتِي تَقُومُونَ)، يَعْنِي آخِرَ اللَّيْلِ، وَكَانَ النَّاسُ يَقُومُونَ أَوَّلَهُ.ا.هـ.

فالمعنى: نِعْمَ العَمَلُ إحْيَاء مَا قَد تُرِكَ، فقد كان هذا الاجتماع على الإمام في رمضان، في زمنه يُعْتَبَرُ أمراً جديداً على الناس؛ ولهذا سماها بدعة، أي بالمعنى اللغوي، لا الشرعي، فعمر t لم يأت بهذا من عنده، وإنما كان أول ذلك ومنشؤه في زمان النبي r ، فأصل التواطىء على قيام الليل جماعة في رمضان مشروع على وجه التخصيص،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يشرع التواطؤ في غيره، كما أن السنة الصحيحة، دلت على أن النبي r كان يقوم من الليل، فيقوم معه بعض أصحابه، لا عن تواطىء واتفاق مُسْبَق، فأصل الأمر كان محفوظا، فعمر t إنما أحياها وجددها في الناس، لا أنه أنشأها وأحدثها تعبداً جديدا.

ففي الصحيحين عن عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ الله r خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ فَصَلَّى فِي الْمَسْجِدِ فَصَلَّى رِجَالٌ بِصَلَاتِهِ فَأَصْبَحَ النَّاسُ فَتَحَدَّثُوا فَاجْتَمَعَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ فَصَلَّوْا مَعَهُ فَأَصْبَحَ النَّاسُ فَتَحَدَّثُوا فَكَثُرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ مِنْ اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ فَخَرَجَ رَسُولُ الله r فَصَلَّوْا بِصَلَاتِهِ فَلَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ عَجَزَ الْمَسْجِدُ عَنْ أَهْلِهِ حَتَّى خَرَجَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ فَلَمَّا قَضَى الْفَجْرَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ:"أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ مَكَانُكُمْ لَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ فَتَعْجِزُوا عَنْهَا".

وجاء عند أحمد وعبد الرزاق والطيالسي وأبو داود والنسائي والترمذي وقال: حسن صحيح، ورواه غيرهم كلهم من حديث أَبِي ذَرٍّ قَالَ صُمْنَا مَعَ رَسُولِ الله r رَمَضَانَ فَلَمْ يَقُمْ بِنَا شَيْئًا مِنَ الشَّهْرِ حَتَّى بَقِيَ سَبْعٌ فَقَامَ بِنَا حَتَّى ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ فَلَمَّا كَانَتِ السَّادِسَةُ لَمْ يَقُمْ بِنَا فَلَمَّا كَانَتِ الْخَامِسَةُ قَامَ بِنَا حَتَّى ذَهَبَ شَطْرُ اللَّيْلِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله لَوْ نَفَّلْتَنَا قِيَامَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ. قَالَ فَقَالَ:"إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا صَلَّى مَعَ الإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ حُسِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ". قَالَ فَلَمَّا كَانَتِ الرَّابِعَةُ لَمْ يَقُمْ فَلَمَّا كَانَتِ الثَّالِثَةُ جَمَعَ أَهْلَهُ وَنِسَاءَهُ وَالنَّاسَ فَقَامَ بِنَا حَتَّى خَشِينَا أَنْ يَفُوتَنَا الْفَلاَحُ. قَالَ قُلْتُ مَا الْفَلاَحُ قَالَ السُّحُورُ ثُمَّ لَمْ يَقُمْ بِنَا بَقِيَّةَ الشَّهْرِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكلام على المصالح المرسلة:

ولأجل هذا أنكر من أنكر من السلف قاعدة ومسألة المصالح المرسلة، وبينوا أنه ما من أمر مثل به القائلون بقاعدة بالمصالح المرسلة، إلا ولها أصل معتبر شرعا، فلم يأت صاحبه بجديد في الدين، إذ لا جديد في الإسلام؛ لأن الله تعالى قال:{ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ} [المائدة:٣].

فأما السجن فقد حبس النبي r ثمامة t في المسجد، وأما جمع المصحف فقد كان للنبي r كتاب للوحي، وكان القرآن مجموعا في صحف، وأما الدواوين فقد كان النبي يكتتب الصحابة في الغزوات، وكان يقول: "أَحْصُوا لِي كَمْ يَلْفِظُ الإِسْلاَمَ"، وكانت معرفة الغزاة وقسمة الغنائم عليهم فرعا عن ذلك، وهكذا.

واعلم رعاك الله، أنه وكما تقدم معنا، ليس الشأن أن تستدل على فِعْلِك، وإنما الشأن أن يكون الدليل صحيحا على فهم الصحابة والسلف، فإذا أردت عملا ما، فَسَلْ نفسك، ما هو الدليل عليه؟، فإن اسْتَدْلَلْتَ؛ فَسَلْ نفسك، هل فهم الصحابة من هذا الدليل ما فهمت؟، وهل عملوا بما عملت؟، أم أنك سبقت إلى عبادة لم يعرفوها؟!، وإلى تقى وورع لم يكونوا عليه؟!، أم أن حقيقة الأمر أنك وقفت على دين لم يقفوا عليه؟!.

وعلينا أن نتذكر دائما وأبدا، أن الصحابة y، هم الذين نقلوا لنا، أدلة الكتاب والسنة، فكيف نتوهم أن ينقلوا دليلا يتضمن عبادة لله تعالى، لم يعرفوها ولم يعملوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بها؟!، هذا باطل قطعا، عقلا وشرعا، أما عقلا؛ فلأنهم y، كانوا أَبَرَّ قلوبا، وأَبْعَدَ عن التَّكَلُّف، وأَكْمَلَ عقلا وفَهْما وحِرْصا، وأما شرعا؛ فلتزكية الله تعالى ورسوله r لهم؛ وسبقهم في هذا الدين، فلا كان ولا يكون مثلهم، كما قال ابن تيمية رحمه الله تعالى.

فهم الصحابة حجة، وأقوالهم حجة تفسير للسبيل:

واعلم رحمك الله، أن قول الصحابة حجة قاطعة في فهم الدين، إذ أن القول الذي يجتمعون عليه y، أو يتكلم به بعضهم y، ولا يختلف عليهم الآخرون y؛ يُمَثِّلُ سبيل المؤمنين، والفهم الصائب لهذا الدين العظيم، فقد بين الله تعالى أن للمؤمنين سبيلا وأمرنا باتباعها، والتسليم لهم في ذلك، وهذه السبيل هي في مقابلة سبيل المجرمين.

واعلم أرشد الله لطاعته، أن الأمر المقطوع به في القرون المفضلة أن قول الصحابي حجة في فهم الدين، بالضابط المتقدم ذكره، وأن القول بعدم حجية أقوال الصحابة y، ما هو إلا لَوْثَةٌ كلامية، اعتزالية، وما يروى عن الشافعي في ذلك، غلط عليه، فقد صرح في مواضع من كتبه بحجية قول الصحابي الذي لم يختلف عليه فيه.

السؤال الكبير الذي يفرض نفسه، في مثل هذه المقامات الكبار:

أنخاف على الأمة من الزيغ والضلال، إن حَمَلْنَاهُم على أقوال الصحابة رضي الله عنهم، في فهم الدين والعمل به، وفهم الأدلة وتنزيلها؟!!.

خِبْنَا والله إذَن وخَسِرْنَا، خِبْنَا والله إذَن وخَسِرْنَا!!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شهداء الله في أرضه:

فَلْنَرْفُق بأنفسنا، فلن نَسْبِقَ القوم إلى فضيلة، ولن نَبُزَّهم في فهم هذا الدين والعمل به، فما بقي إلا أن نعمل بما أوصانا به ربنا تبارك وتعالى، حيث قال:{ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: ١٣٧]، وقوله:{وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء:١١٥]، فالصحابة هم أصول الشهداء في أرض الله تعالى من هذه الأمة، كما في الصحيحين من حديث أنس t قال النبي r لأصحابه:"مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا، وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، **أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ**".

وفي صحيح مسلم من طريق سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللهِ r ثُمَّ قُلْنَا لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ - قَالَ - فَجَلَسْنَا فَخَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ:"مَا زِلْتُمْ هَا هُنَا". قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ ثُمَّ قُلْنَا نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ قَالَ:"أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ". قَالَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ:"النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ وَأَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ".

وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود t عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ". وسيأتي مزيد بيان لذلك؛ لخطورة المسألة، ودخولها في جميع الدين.

واعلم غفر الله لي ولك، أن أهل البدع لم يُعْوِزْهُم الاستدلال على غالب بِدَعِهم، فأنت تراهم يتكلمون بأدلة من الكتاب والسنة، ولكنهم أرادوا فهما على أهوائهم، وهنا يستبين لنا أهمية سبيل المؤمنين.

فالإسلام هو الدين الذي كان عليه النبي r وأصحابه y، وهو ما تلقاه الأئمة عن الصحابة.

فالإسلام الشرائع، والسبيل هو بيان كيفية فهمها وكيفية العمل بها وتنزيلها، وهنا يَنْخَزِمُ الهوى ويظهر الهدى، ويتميز الحق من الباطل في الأقوال والآراء والاجتهادات.

فلا يَنْفَكَّانِ أبدا؛ وإلا كانت المشاقة والضلالة، عياذا بالله منها، قال تعالى:{وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء:١١٥]، فالآية ذكرت الهدى ثم عطفت ببيان السبيل المتبعة فيه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإلا فإن لغة العرب واسعة، والمعاني متكاثرة لا تكاد تنحصر، وبعضها أضداد، وهنا يظهر سبيل المؤمنين؛ ليرد الناس إلى جادة الطريق، وسواء السبيل.

والمُشَاقَّةُ لهم تكون بفهم الدين على غير فهمهم، والتعامل معه ومع أدلته بغير طريقتهم، وهو هدي النبي r الذي ربى عليه أصحابه، وشهد لهم بالخيرية ثم لقرنين.

وأمرنا باتباعهم بإحسان، كما قال تعالى:{وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[التوبة:١٠٠].

المطلوب اتباع الصحابة بإحسان لا بإساءة:

واتباعهم بإحسان، أيضا هو في عدم مشاقة سبيلهم، لا في طرح فهمهم للأدلة، ومقارعة عقولنا لعقولهم، واجتهاداتنا لاجتهاداتهم، إذ ذاك هو الاتباع بإساءة لا بإحسان، والمعنى أنه انتساب صوري إلى سبيلهم، مع الإمعان في مشاقتهم في فهم الدين وتنزيله.

فما قبض الله نبيه حتى أنزل سبحانه:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة:٣]، فما كان عندهم دين فهو الدين وإلا فإنما هو اتباع الهوى وترك الهدى الذي كانوا عليه حتى قال تعالى عنهم في مواضع:{رضي الله عنهم}.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالذي يريد أن يجعل فهم النصوص، كل بحسب ما أدَّاهُ إليه اجتهاده؛ هو مُشَاقٌّ لسبيل المؤمنين، بل وهذا من أعظم أسباب فساد الدين؛ بل والوقوع في الزندقة، وفتح بابها؛ ولهذا تجد أئمة هذا الدين في زمان السلف يردون إلى فهم الصحابة.

الأدلة على وجوب الاعتداد بفهم الصحابة وعلومهم:

وتأمل ما كان عليه المسلمون في فهم الدين، وتَبَيّن حقيقة ما ترمي به الأهواء على أفواه وقلوب البعض.

ففي صحيح مسلم من طريق يحيى بن يعمر، قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين - أو معتمرين - فقلنا: لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله r ، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله،.....الحديث.

هكذا علموا أن الدين ليس ليلا يَخْطِبُ فيه كل حاطب، بل هو نهار نستبين فيه سبيل المؤمنين.

وكم من الأذكياء والحفاظ خانهم ذكاؤهم وحفظهم لما أرادوا أن يفهموا النصوص على سبيل أنفسهم لا على سبيل المؤمنين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سبب ضلال الفرق بسبب التَّنكُّر لفهم الصحابة y :

فهؤلاء القدرية لم ينقصهم النص، حتى نقول إن الاحتجاج كان بمجرد ذكر أدلة القدر لهم في خبر ابن عمر المتقدم، ولكن كان ينقصهم كيفية الإيمان بالقدر، فإن لفظة القدر، مجملة ولها معان، وهذا ما أراده يحي وصاحبه.

فليس المشكلة عند أهل البدع أنه ليس عندهم لفظ الدليل، ولكن مشكلتهم في فهم الدليل.

ولاحظ بارك الله فيك، كيف أن يحيى بن يعمر، وحميد بن عبد الرحمن الحميري، لم يفرقا بين أصحاب محمد r ، بل علموا أنهم مهما وجدوا أحدا منهم؛ فقد حصلوا على المطلوب، فكلهم عدول، وكلهم عامل بما كان عليه النبي r وما رَبَّاهم عليه؛ ولهذا قالا:[لو لقينا **أحدا من أصحاب رسول الله r** ، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر].

هكذا كان السلف يعلمون علم اليقين، أن للمؤمنين سبيلا وطريقة في فهم هذا الدين العظيم، وأن هذه السبيل هي ما كان عليه النبي r وأصحابه y .

وهنا خبر آخر جليل القدر فتأمله، وانظر كيف أن أبا سعيد الخدري t ، بَيَّنَ بل وجَزَمَ، أن الصحابة y هم الأحق بفهم الدين، وأنه لم يقل للسائل: عليك أن تفهم على اجتهادك، فنحن رجال وأنتم رجال.

ففي صحيح مسلم من طريق أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري t قال: اعتكف رسول الله r العشر الأوسط من رمضان، يلتمس ليلة القدر قبل أن تبان له، فلما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

انقضين أمر بالبناء فقوض، ثم أبينت له أنها في العشر الأواخر، فأمر بالبناء فأعيد، ثم خرج على الناس، فقال:"يا أيها الناس، إنها كانت أبينت لي ليلة القدر، وإني خرجت لأخبركم بها، فجاء رجلان يَحْتَقَّان معهما الشيطان، فنسيتها، فالتمسوها في العشر الأواخر من رمضان، التمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة"، قال قلت: يا أبا سعيد، إنكم أعلم بالعدد منا، قال:**[أَجَلْ نحن أَحَقُّ بذلك منكم]**، قال قلت: ما التاسعة والسابعة والخامسة؟ قال:[إذا مضت واحدة وعشرون، فالتي تليها ثنتين وعشرين وهي التاسعة، فإذا مضت ثلاث وعشرون، فالتي تليها السابعة، فإذا مضى خمس وعشرون فالتي تليها الخامسة].

فتبين أنه لابد للعبد لفهم هذا الدين، من أن يرجع إلى فهم الصحابة، وهذا متكاثر جدا من عمل التابعين والسلف وأقوالهم، وإلا وقعنا في الضلال والانحراف.

وهذا ما جرى مع جميع طوائف الضلال، حيث لم يحذروا من اتباع الأهواء والآراء، ولم يلتفتوا إلى سبيل المؤمنين، ومن هؤلاء الخوارج، الذين حذر النبي **r** منهم، وتأمل هذا الخبر:"يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية". وما ضل من ضل إلا من جهة عدم فهم الدليل على طريقة الصحابة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فما من عالم إلا وقد رضي عن عقله وفهمه، ولكن الشأن أن يعلم العالم أن فهم الصحابة فوقه، وهو المقصود، لا فهم نفسه، وإلا كان الكبر المبطن، أو الإزراء المبطن، فمن هذا الذي ارتضينا فهمه وطرحنا معه فهم الصحابة؟!!.

المرجعية عند الاختلاف في فهم الأدلة:

فقبل الخوض في أي مسألة من مسائل الشرع، أو الدخول في نقاش، أو مناظرة مع مخالف لك، لابد ابتداء أن تَتَحَدَّدَ المرجعية لفهم الأدلة، فإن لم تكن هذه المرجعية هي الصحابة ومن تبعهم بإحسان، وإلا كان ضياعا للوقت، وإزراء بالسلف الخوض مع المخالف لك في هذا الأصل، بل هو طريق الزندقة والضلال عياذا بالله.

ولنحذر من سبيل المنافقين الذين قال الله تعالى في شأنهم:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ} [البقرة:١٣]، فما كان من المنافقين إلا أن احتقروا إيمان المؤمنين، وأنِفُوا عن سبيلهم، فلنكن على حذر شديد من التشبه بأعداء الله تعالى.

بيان معنيان هامان

واعلم أرشدك الله، أن قوله **r** :"من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"، يدل على أمرين هامين:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أحدهما: أنه لا أحد من العباد أكبر من الحق الذي جاء النبي r ، فمهما عَظُمَ العبد علما وتقى وورعا، قولا وعملا، فالواجب علينا أن نَرُدَّ خَطَأه إذا أخطأ، ولا نتعاظم ذلك أبدا.

والثاني: أن أمرهم المذكور هنا، المقصود به سبيل المؤمنين، وهو ما كان عليه النبي r وأصحابه y، والمعنى أن السبيل أصبحت واضحة المعالم، مَنْشُورَة الأعلام، قد أحيطت بِسِياجٍ مَنِيع، لا يُقْبَل فيه تخليط ولا تلبيس، وليس فيه شيء من ذلك البتة.

تنبيه هام

وإذا أردت أن تقف على طرف من خطورة هذه السبيل، وأهميتها في نفي الضلال، واستبانة الصراط المستقيم، فعليك أن تعلم أنه ما من سبيل إلى رد كلام أصحاب الأهواء، من الأشاعرة والجهمية والمرجئة والمعتزلة وأشباههم، إلا بمحاكمتهم إلى ما كان عليه الصحابة t ، من فهم هذه النصوص التي يحتجون بها، إذ لغة العرب كما تقدم واسعة، وكل يدعي الفهم والإدراك، فما من سبيل للرد عليهم إلا بالرجوع إلى عمل الصحابة وتعاملهم مع هذه المسائل الشرعية، وتلك الاستدلالات التي يتلاعب بها هؤلاء المبطلون.

مَكَرَ الشيطان بالمبتدع فتراه لا يكاد يتوب:

فائدة: اعلم أن الله تعالى تفضل على عباده بقبول توبتهم، وأمرهم باستغفاره ووعدهم المغفرة، وهذا من أشد ما يكون على الشيطان، فإنه يسعى في إهلاك العباد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالذنوب، فإن قابل العباد ذنوبهم بالاستغفار، والتوبة النصوح، كان ذلك مما يُضْنِي الشيطان ويهلكه؛ ولهذا فهو يسعى في تزيين القبائح والمعاصي، والبدع والضلالات، لأصحابها؛حتى لا يستشعروا معصيتهم وضلالهم عندها؛ فلا يستغفرون الله، ولا يتوبون منها، وإذا ما دُعُوا إلى ذلك لَوَّوْا رؤوسهم، كحال المنافقين والعياذ بالله؛ عندها يَظْفَرُ الشيطان منهم بِمُرَادِه، ويَنَالُهُم في مَقْتَل. نسأل الله العافية والسلامة.

واعلم أن المبتدع له حظ وافر من هذا التزيين الشيطاني؛ ولهذا لا يكاد يقلع، ولا يتوب، ولا يستغفر، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

واعلم رحمك الله أن البدعة، مفسدة محضة وأذى على صاحبها ومن يَحُومُ حَوْلَها، وأن أصحابها يزخرفونها للآخرين؛ بغية إيقاعهم فيها، فهم لسان إبليس الناطق في هذا الباب، والعياذ بالله، وتأمل فيما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[وَمِنْ هَذَا الْبَابِ سَمَاعُ كَلَامِ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالنَّظَرُ فِي كُتُبِهِمْ لِمَنْ يَضُرُّهُ ذَلِكَ وَيَدْعُوهُ إلَى سَبِيلِهِمْ وَإِلَى مَعْصِيَةِ الله فَهَذَا الْبَابُ تَجْتَمِعُ فِيهِ الشُّبُهَاتُ وَالشَّهَوَاتُ وَاَللَّهُ تَعَالَى ذَمَّ هَؤُلَاءِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ:{يُوحِي بَعْضُهُمْ إلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} وَفِي مِثْلِ قَوْلِهِ:{وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} وَمِثْلُ قَوْلِهِ:{هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ} الْآيَةُ وَمَا بَعْدَهَا وَمِثْلُ قَوْلِهِ:{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا} وَقَوْلِهِ:{مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ} وَمِثْلُ قَوْلِهِ:{وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا} وَمِثْلُ قَوْلِهِ:{وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ الله} الْآيَةُ. وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ فَأَهْلُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْمَعَاصِي كَثِيرُونَ فِي الْعَالَمِ؛ بَلْ هُمْ أَكْثَرُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ الله} الْآيَةُ. وَفِي النُّفُوسِ مِنْ الشُّبُهَاتِ الْمَذْمُومَةِ وَالشَّهَوَاتِ قَوْلًا وَعَمَلًا مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللهُ وَأَهْلُهَا يَدْعُونَ النَّاسَ إلَيْهَا وَيَقْهَرُونَ مَنْ يَعْصِيهِمْ وَيُزَيِّنُونَهَا لِمَنْ يُطِيعُهُمْ. فَهُمْ أَعْدَاءُ الرُّسُلِ وَأَنْدَادُهُمْ فَرُسُلُ الله يَدْعُونَ النَّاسَ إلَى طَاعَةِ الله وَيَأْمُرُونَهُمْ بِهَا بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ وَيُجَاهِدُونَ عَلَيْهَا وَيَنْهَوْنَهُمْ عَنْ مَعَاصِي الله وَيُحَذِّرُونَهُمْ مِنْهَا بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ وَيُجَاهِدُونَ مَنْ يَفْعَلُهَا. وَهَؤُلَاءِ يَدْعُونَ النَّاسَ إلَى مَعْصِيَةِ الله وَيَأْمُرُونَهُمْ بِهَا بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ قَوْلًا وَفِعْلًا وَيُجَاهِدُونَ عَلَى ذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} ثُمَّ قَالَ: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ} وَقَالَ تَعَالَى: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ}.

وَمِثْلُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ وَاَللهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَمَرَنَا بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ وَالْأَمْرُ بِالشَّيْءِ مَسْبُوقٌ بِمَعْرِفَتِهِ فَمَنْ لَا يَعْلَمُ الْمَعْرُوفَ لَا يُمْكِنُهُ الْأَمْرُ بِهِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ مَسْبُوقٌ بِمَعْرِفَتِهِ فَمَنْ لَا يَعْلَمُهُ لَا يُمْكِنُهُ النَّهْيُ عَنْهُ وَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْنَا فِعْلَ الْمَعْرُوفِ وَتَرْكَ الْمُنْكَرِ فَإِنَّ حُبَّ الشَّيْءِ وَفِعْلَهُ وَبُغْضَ ذَلِكَ وَتَرْكَهُ لَا يَكُونُ إلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِمَا حَتَّى يَصِحَّ الْقَصْدُ إلَى فِعْلِ الْمَعْرُوفِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرِ فَإِنَّ ذَلِكَ مَسْبُوقٌ بِعِلْمِهِ فَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ الشَّيْءَ لَمْ يُتَصَوَّرْ مِنْهُ حُبٌّ لَهُ وَلَا بُغْضٌ وَلَا فِعْلٌ وَلَا تَرْكٌ ؛ لَكِنَّ فِعْلَ الشَّيْءِ وَالْأَمْرَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِهِ يَقْتَضِي أَنْ يُعْلَمَ عِلْمًا مُفَصَّلًا يُمْكِنُ مَعَهُ فِعْلُهُ وَالْأَمْرُ بِهِ إذَا أُمِرَ بِهِ مُفَصَّلًا. وَلِهَذَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَةَ مَا أَمَرَ بِهِ مِنْ الْوَاجِبَاتِ : مِثْلَ صِفَةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ إذَا أَمَرَ بِأَوْصَافِ فَلَا بُدَّ مِنْ الْعِلْمِ بِثُبُوتِهَا فَكَمَا أَنَّا لَا نَكُونُ مُطِيعِينَ إذَا عَلِمْنَا عَدَمَ الطَّاعَةِ فَلَا نَكُونُ مُطِيعِينَ إلَّا إذَا لَمْ نَعْلَمْ وُجُودَهَا ؛ بَلْ الْجَهْلُ بِوُجُودِهَا كَالْعِلْمِ بِعَدَمِهَا وَكَوْنُ كُلٍّ مِنْهُمَا مَعْصِيَةً فَإِنَّ الْجَهْلَ بِالتَّسَاوِي كَالْعِلْمِ بِالتَّفَاضُلِ فِي بَيْعِ الْأَمْوَالِ الرِّبَوِيَّةِ بَعْضِهَا بِجِنْسِهِ؛ فَإِنْ لَمْ نَعْلَمْ الْمُمَاثَلَةَ كَانَ كَمَا لَوْ عَلِمْنَا الْمُفَاضَلَةَ .

وَأَمَّا مَعْرِفَةُ مَا يَتْرُكُهُ وَيَنْهَى عَنْهُ فَقَدْ يُكْتَفَى بِمَعْرِفَتِهِ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ مُجْمَلًا فَالْإِنْسَانُ يَحْتَاجُ إلَى مَعْرِفَةِ الْمُنْكَرِ وَإِنْكَارِهِ وَقَدْ يَحْتَاجُ إلَى الْحُجَجِ الْمُبَيِّنَةِ لِذَلِكَ وَإِلَى الْجَوَابِ عَمَّا يُعَارِضُ بِهِ أَصْحَابَهَا مِنْ الْحُجَجِ وَإِلَى دَفْعِ أَهْوَائِهِمْ وَإِرَادَاتِهِمْ وَذَلِكَ يَحْتَاجُ إلَى إرَادَةٍ جَازِمَةٍ وَقُدْرَةٍ عَلَى ذَلِكَ وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إلَّا بِالصَّبْرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَالْعَصْرِ * إنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}.

وَأَوَّلُ ذَلِكَ أَنْ نَذْكُرَ الْأَقْوَالَ وَالْأَفْعَالَ عَلَى وَجْهِ الذَّمِّ لَهَا وَالنَّهْيِ عَنْهَا وَبَيَانِ مَا فِيهَا مِنْ الْفَسَادِ فَإِنَّ الْإِنْكَارَ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ قَبْلَ الْإِنْكَارِ بِالْيَدِ وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ فِيمَا يَذْكُرُهُ تَعَالَى عَنْ الْكُفَّارِ وَالْفُسَّاقِ وَالْعُصَاةِ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ؛ يَذْكُرُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الذَّمِّ وَالْبُغْضِ لَهَا وَلِأَهْلِهَا وَبَيَانِ فَسَادِهَا وَضِدِّهَا وَالتَّحْذِيرِ مِنْهَا كَمَا أَنَّ فِيمَا يَذْكُرُهُ عَنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ عَلَى وَجْهِ الْمَدْحِ وَالْحُبِّ وَبَيَانِ صَلَاحِهِ وَمَنْفَعَتِهِ وَالتَّرْغِيبِ فِيهِ وَذَلِكَ]ا.هـ.

كما أن البدعة من جهة حكمها أيضا تنقسم إلى قسمين:

١ - **بدعة مكفرة:** وهي ما دلت الأدلة من الشرع على أنها من الكفر والشرك الأكبر، كالتشريع العام، وبدعة القدرية، والجهمية، والرافضة، والاعتقاد في الأولياء والصالحين وأصحاب القبور، وكالطواف بالقبور والسجود لها، ونحو ذلك.

٢ - **بدعة غير مكفرة:** وهي ما دون ذلك، فهي تشترك مع المُكَفِّرة في الذَّم وإن كان الذَّمُ درجات أيضا في ذلك، ولكن تفترق عنها في الحكم، كبدعة المولد، وزخرفة المساجد، والدعاء جماعة أدبار الصلوات[١]، وعقب الدروس والمحاضرات وعقب حِلَقِ القرآن والتزام ذلك[٢]، وقد جاء في كتاب العلم لأبي خيثمة بسند صحيح حدثنا

---

١ - واعلم رحمك الله أن الأئمة نصوا على بدعية ذلك، ومنهم المالكية كما ف يالمدزنة، وقد ألف الشاطبي كتابه (الاعتصام) انتصارا لمذهب أهل السنة في بدعية ذلك، وأما الحديث الذي أخرجه النسائي في الكبرى والترمذي في السنن وغيرهم من طريق عبد الرحمن بن سابط عن أبي أمامة قال:قيل لرسول الله r أي الدعاء أسمع؟، قال:"جوف الليل الآخر ودبر الصلوات المكتوبات". فإنه خبر لا تقوم به حجة، إذ أنه خبر مرسل، فإن الأئمة نصوا على أن عبد الرحمن بن سابط لم يسمع من أبي أمامة t شيئا؛ فالحديث ضعيف. والله أعلم.

٢ - أما الحديث الذي في سنن النسائي الكبرى من طريق عبيد الله بن زحر عن خالد بن أبي عمران عن نافع قال كان بن عمر إذا جلس مجلسا لم يقم حتى يدعو لجلسائه بهذه الكلمات وزعم: أن رسول

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جرير عن منصور عن إبراهيم قال:"كانوا يجلسون ويتذاكرون العلم والخير، ثم يتفرقون لا يستغفر بعضهم لبعض، ولا يقول: يا فلان ادعُ لي".

ومن هذه البدع كذلك المصافحة أدبار الصلوات، والتسبيح بالمِسْبَحَة–واعلم أنه لم يصح حديث لا مرفوع عن النبي r ، ولا موقوف عن الصحابة y في التسبيح بغير

الله r كان يدعو بهن لجلسائه:"اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون علينا مصائب الدنيا اللهم أمتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكثر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا"، قلت: فهذا خبر منكر تفرد به عبيد الله بن زحر وقد ضعفه كبار الأئمة، الإمام أحمد وابن معين وابن المديني والدارقطني، وقد جاء الخبر في سنن الترمذي أيضا من طريق عبيد الله بن زحر عن خالد بن أبي عمران أن ابن عمر قال:قلما كان رسول الله r يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه:"اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا" قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وقد روى بعضهم هذا الحديث عن خالد بن أبي عمران عن نافع عن ابن عمر.ا.هـ. قلت:فهذا الترمذي استغربه وبين وقوع الاختلاف في وصله وإرساله، وقد روى الخبر البزار بإسناد فيه ابن لهيعة، وقد عزاه السيوطي في جامع الأحاديث إلى ابن المبارك والحاكم وابن السني، وعليه فهذا الخبر لا تقوم به حجة، ويبقى التزام ختم المجالس العلمية والمحاضرات بالدعاء من الأمور المحدثة التي لا دليل صحيح عليها. والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأنامل-، ومنها اتخاذ المحاريب في المساجد، وتسمى بمذابح النصارى، ومنها تعليق القرآن والأذكار في المساجد، وفي قبلة المصلين، وتعليق القرآن في جدران البيوت والمكاتب، وإنَارَة المقابر وتَشْجِيرِها، والبناء على القبور وتَجْصِيصِها، ونحو ذلك.

التشريع من أخطر البدع الكفرية:

واعلم أرشدك الله، أن من أخطر البدع المكفرة بدعة التشريع من دون الله تعالى، والديمقراطية، وهي كما تقدم من البدع الحقيقية، وقد لَبَّسَ بعض الناس على هذا الأصل العظيم، بالاشتراك اللفظي بين البدعة المكفرة وغيرها؛ بُغْيَةِ إخراج التشريع العام، عن أن يكون شركا أكبر بالله رب العالمين، ومُحَادَّةً ومُنَازَعَةً لله تعالى في أخص خصائص الربوبية: {ألا له الخلق والأمر}، وزعموا أنه لا فرق بينهما، فإن لم نحكم بالكفر على من دعا أدبار الصلوات جماعة؛ فلا نحكم كذلك على التشريع العام بذلك، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، من طمس البصائر، والخذلان المبين.

فنقول إن صاحب البدعة غير المكفرة، يعتقد أنها من الدين، ولو علم أنه قد شرع لنفسه، واتبع هواه؛ لكان مضاهئاً لله في شرعه، ومن ضاهى الله في شرعه كفر، إلا أن عامة أصحاب البدع لا يعتقدون التشريع، ولا يريدونه، وإنما يظنون أن ذلك من دين الله عز وجل، إما بتضليل أئمة مضللين، أو لشبهة وقعت في دليل عام لم يَرُدُّوها إلى الدليل الخاص؛ ليزول الإشكال، والالتباس، أو نحو ذلك، إلا أن البدع كلها ضلالة وكلها في النار، ومنها ما يوجب الخلود فيها، ومنها ما لا يوجب ذلك، ولكن صاحبها معرض للوعيد، وليست العبرة في البدع وتحديدها بعلم وعلو صاحبها، بل إنما تعرف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتحدد وفق الكتاب السنة، على فهم سلف الأمة، فلو جاءت البدعة على يد أو لسان كائن من كان ممن ليس بمعصوم، فإننا يحرم علينا اتباعه فيها، أو إقراره عليها، فالقاعدة تقول:(نَعْرِفُ الرجالَ بالحق، ولا نَعْرِفُ الحق بالرجال).

أما التشريع العام، فهو استصدار أحكام للمكلفين من حلال وحرام، وتحديد ما يجوز وما لا يجوز، وما هو من حقهم وما ليس من حقهم، ونحو ذلك من الأحكام التكليفية، ويدخل في ذلك جميع أنواع العبادات والمعاملات، بما في ذلك السياسة وعلاقات الدول والاقتصاد وغير ذلك، وهذا المقام هو حق محض لله رب العالمين، فمن نازعه فيه؛ كفر بالله وأشرك، الكفر والشرك الأكبر.

موجز المسألة:

وإليك أخي المسلم هذا التأصيل والتفصيل الموجز المفيد، في التفريق بين البدعة غير المكفرة، وبدعة التشريع العام التي تخرج صاحبها من الملة عياذا بالله:

فأقول:إن هذه المسألة من المسائل الأساسية التي كثر طرقها في الآونة الأخيرة، لا سيما مع ظهور من يدافع عن الحكام المبدلين والمشرعين للعباد التشريعات الجاهلية، في البرلمانات والمجالس التشريعية وغيرها، زاعمين أنه لا فرق بين البدعة والتشريع العام، حتى جعلوا ذلك، حائلا دون القول بكفر المشرع من دون الله رب العالمين، مقلدين في ذلك المرجئة، نسأل الله العافية والسلامة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأنا سأكرر القول هنا بشيء من التفصيل والتأصيل المختصر؛ حرصا على عدم الإطالة في هذا المقام، وأحيل القارئ الكريم على كتابي الموضوع في ذلك (فتنة العصر التشريع)، فقد بسطت فيه المسألة بأدلتها، مع الحظ الوافر الكثير جدا من المنقولات، عن السلف والخلف، وتقرير الإجماعات، على كفر أصحاب التشريع العام من دون الله تعالى.

فمنها، ما قاله ابن حزم رحمه الله:[واتفقوا أنه مُذْ مات النبي e ؛ فقد انقطع الوحي، وكَمُلَ الدِّين واستقر، وأنه لا يحل لأحد أن يزيد شيئا من رأيه بغير استدلال منه، ولا أن ينقص منه شيئا، ولا أن يبدل شيئا مكان شيء، ولا أن يُحْدِث شَرِيعة، وأن من فعل ذلك كافر]ا.هـ.(مراتب الإجماع لابن حزم ص:١٣٠).

وقال أيضا:[وأما من أجاز أن يكون صاحِبٌ فمَن دُونَه، ينسخ أمراً أمَرَ به رسول الله e، أو يُحْدِث شَرِيعَة، فهذا كافر مشرك حلال الدم والمال، بمنزلة اليهود والنصارى، وعليه لعنة الله، ولعنة اللاعنين، والملائكة، والناس أجمعين، ونحن برآء منه، وهو بريء منا]ا.هـ. (الأحكام لابن حزم:٥/ ٧٠٥).

وجاء في كتاب الإحكام لابن حزم:[قال أبو محمد: وهذا لا حجة لهم فيه لا خلاف بين اثنين من المسلمين أن هذا منسوخ، وأن من حكم بحكم الإنجيل، مما لم يأت بالنص عليه وحي في شريعة الإسلام؛ فإنه كافر مشـرك خارج عن الإسلام]. ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى:(٢٨/ ٥٢٤) قال:[وَمَعْلُومٌ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ وَبِاتِّفَاقِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ مَنْ سَوَّغَ اتِّبَاعَ غَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ أَوْ اتِّبَاعَ شَرِيعَةٍ غَيْرِ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ e فَهُوَ كَافِرٌ وَهُوَ كَكُفْرِ مَنْ آمَنَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَكَفَرَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا} {أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}]ا.هـ. وهناك نقولات أخرى كثيرة في الكتاب تقرر هذا الإجماع فليراجع، فإنه مهم ونفيس.

بحث مهم ومفيد:

وسأقتصر على ذكر بحث مختصر ونفيس مع التعليق عليه، كتبه أحد الباحثين، بعنوان:(بحث نفيس ومختصر في الفرق بين البدعة والتشريع المطلق):

فصل في التفريق بين البدعة والتشريع المطلق: قد أورد العنبري كلاماً يذكر فيه أن المشرع للقانون الوضعي مماثل للمبتدع من جهة أنه مستدرك على الشارع، وأنه يزيد بِبِدَعِهِ على الشريعة أو ينقص، إلى غير ذلك ولذا يجب أن يأخذ حكمه! فلا يكفر إلا إذا أنكر معلوماً من الدين بالضرورة! وبنى كلامه على أن كل ما قاله العلماء في المبتدع يصح أن يقال في المشرع الوضعي فيجب أن نسوي بين المتماثلين على حد زعمه والرد على هذا الكلام من وجوه:

أولها: التفريق بين البدعة والتشريع المطلق:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيقال إن التشريع هو الرأي المجرد الغير مسند إلى دليل من الكتاب والسنة وهو مع ذلك فيه خصائص العموم والإلزام فليس لدى المشرع الوضعي أصل المرجعية إلى الكتاب والسنة في سن القوانين وإنما هو آراء وأهواء رجال.

والبدعة ليست رأياً مجرداً لكنها رأي مستند إلى الشرع مع مما زجه الهوى وتقديم المتشابه على المحكم، فهو كما يقول الشاطبي رحمه الله:(فصاحب البدعة لما غلب الهوى مع الجهل بطريق السنة توهم أن ما ظهر له بعقله هو الطريق القويم، فالمبتدع من هذه الأمة إنما ضل في أدلتها حيث أخذها مأخذ الهوى والشهوة لا مأخذ الانقياد تحت أحكام الله وهذا الفرق بين المبتدع وغيره لأن المبتدع جعل الهوى أول مطالبه وأخذ الأدلة بالتبع..)

ثم يقرر رحمه الله أن سبيل المبتدع في ذلك إنما هو تأويل النصوص فيقول:[والدليل على ذلك أنك لا تجد مبتدعاً ممن ينسب إلى الملة إلا هو يستشهد على بدعته بدليل شرعي فينزله على ما وافق عقله وشهوته وهو أمر ثابت في الحكمة الأزلية التي لا مفر منها] ج٤ـ/ ٩٩.

وبهذا يظهر جلياً أن المشرع الموضعي والمبتدع ليسوا سواء في أصل مرجعية كل منهما''' فالمشرع شرع رأيا مجرداً متبعاً فيه الهوى، والمبتدع تأول النصوص وأخطأ في الدليل مع ممازجة الهوى فشارك أهل الهوى في الدخول في نحلتهم وشارك أهل الحق في اتباع الدليل على الجملة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثانياً: وهو أهمها: أن المشرع الوضعي قصد إلى التشريع قصداً أولياً متعمداً إليه منظماً الدوائر الخاصة به، فقول العلماء عنه أنه مضاهي للشريعة وأنه مستدرك على الشارع بالزيادة أو النقص وأنه جعل نفسه رباً وأنه ....إلخ، كل هذا يدل عليه بدلالة المطابقة، بمعنى أن نفس عمله وهو التشريع يعني هذا كله لأنه يفعله قاصداً إليه متعمداً له! وهذا بخلاف المبتدع فإنه كما يقول الشاطبي رحمه الله(٤/ ٣٢):[إن البدع لم يقصد بها صاحبها منازعة الشارع ولا التهاون بالشرع، وإنما قصد الجري على مقتضاه، لكن بتأويل زاده ورجحه على غيره]. ويقول رحمه الله أيضاً (٤/ ٣١٧) تعليقاً على قول الإمام مالك رحمه الله عندما قال:[من أحدث في هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن محمداً خان الرسالة]، وقوله لمن أراد أن يحرم من المسجد :[أي فتنة أعظم من أن تظن أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله e]، إلى آخر الحكاية، يقول الشاطبي رحمه الله تعليقا على ذلك:[إنها إلزام للخصم على عادة أهل النظر كأنه يقول يلزمك في هذا القول كذا لا أنه يقول قصدت إليه قصداً؛ لأنه لا يقصد إلى ذلك مسلم ولازم المذهب هل هو مذهب أم لا ....)) (٤/ ٢١٧)، فهذا يوضح أن المبتدع لم يقصد ما قاله العلماء عنه قصداً أولياً وإنما هو لازم له بخلاف المشرع فإن حقيقة فعله يدل عليه ولذا لزم التفريق، ويقول الإمام الشاطبي رحمه الله أيضاً (٤/ ٤٩٠):[وهذا إن كان مقصوداً للمبتدع فهو كفر بالشريعة والشارع، وإن كان غير مقصود فهو ضلال مبين].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا في الحقيقة من أهم الفوارق بين المبتدع والمشرع فإنه لا يشك مسلم أن المعاند للشريعة والمشاق لله ولرسوله والمتهم الرسول e بالخيانة أنه كافر إن قال ذلك متعمداً ولكن لما كان المبتدع غير قاصد لهذه الأقوال بل هي على سبيل الإلزام فقط وجدنا أن العلماء لم يحكموا عليه بالكفر إلا بالقيود المعروفة.

أما المشرع الوضعي فهو بخلاف ذلك كما سبق فهو كافر لأنه قاصد لهذا كله، قاصداً تغيير الشريعة بشريعة أخرى من رأيه وهواه.

ثالثاً: البدعة يدخل فيها التفاوت بحسبها فقد تكون معصية صغيرة، وقد تكون فسقا، وتكون مكفرة، بحسب ما كانت جزئية أو كلية أو غير ذلك، أما التشريع فلا تفاوت فيه لأنه حق لله سبحانه وتعالى فمن شرع فقد أله نفسه لقوله سبحانه وتعالى:{ولا يشرك في حكمه أحداً}. والشرك الأكبر لا تفاوت فيه فكله كفر، فالذي يدعو قبر ولي، كالذي يعبد هبل من دون الله، لا فرق، وكله شرك وكفر مخرج من الملة.

ولكن هنا نكته،، وهي أن البدعة تدور بين طرفين وهي المعصية والتشريع المطلق، فالمعصية إن وضعت موضع الاستنان صارت بدعة لأنها ضاهت الشريعة في فعلها على سبيل التعبد، والبدعة هو ما وضع على مضاهاة التشريع ولكن على مقتضى الدليل مع الانتساب للشريعة ولكن مع ممازجة الهوى وتقديم المتشابه على المحكم، فالبدعة دخل فيها شوب التشريع من حيث أنها زيادة في الدين محدثة أو نقصان منه على سبيل التعبد، أما التشريع فهو الرأي المجرد المحض كما سبق في كلام الشاطبي رحمه الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالمعصية هي المخالفة لا يدخلها شوب التشريع بحيث لم توضع موضع الاستنان بها فتضاهي الشريعة.

والبدعة هي ما دخلها شوب التشريع ووضعت على مضاهاته لكن مع الانتساب للشريعة والعمل على مقتضى الدليل مع ممازجة الهوى وتقديم المتشابه على المحكم وهي تتفاوت بحسبها.

والتشريع هو الرأي المجرد المحض الذي لا ينسب إلى الشريعة مع وضعه على مضاهاة الشريعة من حيث الإلزام به والتكليف به. وهذا لا تفاوت فيه ولو كان في جزئية واحدة، فحكمه كما قال الشاطبي كفر صراح.

يقول الإمام الشاطبي (٢/ ٦١٠) في الاعتصام:[والثاني أن كل بدعة تشريع زائد أو تغيير للأصل الصحيح وكل ذلك قد يكون على الانفراد وقد يكون ملحقاً بما هو مشروع فيكون قادحاً في المشروع ولو فعل أحد مثل هذا في نفس الشريعة عامداً لكفر إذ الزيادة أو النقصان فيها أو التغيير قل أو كثر كفر فلا فرق بين ما قل منه أو كثر]ا.هـ.

يقول الشاطبي رحمه الله في قوله سبحانه:{ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام}:[فهم شرعوا شرعة وابتدعوا بدعة في ملة إبراهيم عليه السلام هذه البدعة توهماً أن ذلك يقربهم من الله كما يقرب من الله ما جاء به إبراهيم عليه السلام، وقال سبحانه{وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً} الآية فهذا تشريع كما هو المذكور قبل هذا..... ثم قال:{وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم} وهو تشريع أيضاً بالرأي مثل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأول..... ثم قال:{وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم} إلى آخرها، فحاصل الأمر أنهم قتلوا أولادهم بغير علم وحرموا ما أعطاهم الله من الرزق بالرأي على جهة التشريع، فلذلك قال تعالى:{قد ضلوا وما كانوا مهتدين}] (١/١٠١٤).

ويقول عند قوله تعالى:{يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم}:

[المسألة الأولى: أن تحريم الحلال وما أشبه ذلك يتصور منه أوجه: الأول: التحريم الحقيقي وهو الواقع من الكفار كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، ومجمع ما ذكر الله تعالى تحريمه عند الكفار بالرأي المحض، ومنه قوله تعالى:{ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب} وما أشبه ذلك من التحريم الواقع في الإسلام رأياً مجرداً] (١/٢٣٨).

وقرر رحمه الله مراتب البدع فيقول:[فمنها ما هو كفر صراح كبدع الجاهلية التي نبه عليها القرآن كقوله تعالى:{وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا} الآية.

وقوله:{وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذ كورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء} وكذلك بدعة المنافقين حيث اتخذوا الدين ذريعة لحفظ المال والنفوس وما أشبه ذلك مما لا يشك أنه كفر صراح]ا.هـ.

فكلام الإمام الشاطبي واضح في أن بدعة التشريع كفر صراح ومع ذلك فالعنبري لا يفقه ما ينقل أو يستغفل القارئ فينقل عن الشاطبي رحمه الله مما هو دليل عليه لا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

له!!!؛ ولذا تراه في ص ٩٥من كتابه (الماتع)ينقل عن الشاطبي قوله:[وهذا إن كان مقصود للمبتدع فهو كفر بالشريعة والشارع وإن كان غير مقصود فهو ضلال مبين] (١/٤٩)!!! ، فأي صراحة وأي وضوح بعد هذا أيها العنبري؟!.

وبهذا يظهر جلياً الفرق بين البدعة والتشريع المطلق. والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم].ا.هـ.

مثال تتضح به المسألة:

قلت: وإني سأضرب مثلا لهذه المسألة، فمن عقل هذا المثال اتضحت له المسألة، وإليك المثال: نحن نعلم يقينا أن البدعة محرمة شرعا، وأن مرتكبها قد فعل محرما، كما أننا نعلم أن أصحاب هذه البدع يجوزونها ويرونها حقا، بل ويأمرون بها ويدعون إليها، وعليه فالذين يجوزون هذه البدعة قد جوزوا ما حرمه الله، وهذا تحليل لما حرم الله، ومع ذلك لا نحكم بكفرهم، لماذا؟؛ لأنهم فعلوا ذلك مُتَأَوِّلِين بِمَنْزَعٍ شَرْعِي من أدِلَّة كُلِّيَّةٍ، لم يفهموها على وجهها، كبدعة الدعاء الجماعي أدبار الصلوات مثلا.

فهل الذي يعمد إلى تبديل الشرع بالرأي المحض، وهو يعلم أنه فاعل لمحرم، وليس له أدنى منزع من الشرع، هل هذا وصاحب هذه البدعة سواء؟!.

بمعنى هل من جَوَّزَ الدعاء الجماعي، كمن جوز شرب الخمر؟.

وهل بدعة الدعاء الجماعي، كبدعة الطواف بالقبور والحج إليها؟.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولهذا إذا صارت بدعة المبتدع رأيا مجردا؛ صارت تشريعا شركيا، كبدعة القول بخلق القرآن، وبدعة صلاة الفاتح، وبدعة الرفض، وبدعة القرامطة وهكذا.

ثم اعلم رحمك الله تعالى، أن للمشرع صفات لابد أن نتعرف عليها؛ لنعلم من الذي له حقٌ أن يشرع للعباد، فأقول: صفات المشرع هي:

صفات من له حق التشريع:

١ - أن يكون عالماً، كامل العلم، محيطا بحقائق الأمور، ظاهرا وباطنا، فإن الجاهل يفسد ولا يصلح، وناقص العلم والإحاطة، يصلح فيما يعلم ويفسد فيما لا يعلم، وبما أن التشريع قوام للعباد والبلاد؛ فلابد أن يأتي من قِبل العالم المحيط، صاحب العلم المطلق، الذي هو بكل شيء عليم، ووسع كل شيء علما.

٢ - أن يكون حكيماً تام الحكمة، فإن السفيه يضع الأمور في غير مواضعها، ويستعمل الأشياء في غير ما أريد بها، وناقص الحكمة يُصْلِحُ فيما بلغته حكمته، ويَتَسَافَه في ما عدا ذلك، فلابد أن يكون المشرع ذو حكمة تامة، لا يعتريها ذهول ولا نسيان، ولا عيب ، ولا نقص، ولا خلل؛ ليضع كل شيء في نصابه.

٣- أن لا يتعارض أجزاء هذا التشريع بعضه مع بعض، وأن يسلم من المعارض والقادح، فإن التناقض دليل على قلة العلم والحكمة.

٤ - أن يكون المشرع مالكاً متصرفاً، فإن الذي يملك الملك المطلق، هو الذي يستحق له أن يتصرف ويشرع كما يشاء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٥- أن يكون التشريع صالحاً، لكل زمان ومكان، وأن يكون متضمنا للعدل التام العام، مساوياً بين العباد في الأحكام، فلا فرق بين الغني والفقير، وأن يكون هذا مطرداً في جميع الأحوال والأزمان، وأن يكون متوافقا مع فطرة الإنسان السوية، وهذا لا يتأتي إلا للذي يعلم السر وأخفى، ألا وهو الله رب العالمين.

فليس هناك أحدٌ تتوفر فيه هذه الصفات التشريعية إلا الله رب العالمين؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام:"إن الله هو الحَكَمُ وإليه الحُكْم" أخرجه البخاري في الأدب المفرد وعبد الرزاق وأبو داود والنسائي والحاكم وابن حبان عن هانئ بن يزيد t ، وليس هناك أحد تنطبق عليه هذه الصفات إلا الله الواحد القهار؛ ولهذا كان التشريع مع الله، أو من دون الله، شركا وكفرا أكبر؛ لأنه محادة لله جل وعلا، وتصرف في خلقه بما لم يأذن به الله جلا وعلا؛ وفوق ذلك لأن الحكم والتشريع عبودية من أجل العبوديات، فمن صرف منه شيئا لغير الله؛ كان مشركا كافرا، فإن الإجماع منعقد على أنه لا يجوز صرف شيء من العبادة لغير الله جل وعلا، فطالما أنه قد ثبت أن ذلك الشيء عبادة لله جل وعلا، فمن صرفه لغير لله فهو مشرك كافر.

وقد ثبت أن الحكم عبادة، بنص القرآن والسنة والإجماع، قال تعالى:{إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه} فسمى الحكم عبادة، وهذه الاستنباط بهذه الطريقة، تقدمت الإشارة إليه عن الكلام عن الدعاء، في قوله جل وعلا:{وقال ربكم أدعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين}، فلا فرق، فكما أنه سمى الدعاء عبادة هنا، فقد سمى الحكم عبادة هناك، وقال تعالى:{ألم تر إلى الذين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت}، فسمى الله جل وعلا التحاكم إلى غيره طاغوتا، وهو كل ما عُبد من دون الله جل وعلا، وهو اسم لما ينتقض به إسلام العبد، كما سيأتي؛ ولهذا قال بعدها: {وقد أمروا أن يكفروا به}، أي: لا أن يتحاكموا إليه، والكفر بالطاغوت يستلزم بغضه والبراءة منه، ومعاداة أهله، ودعوتهم، وجهادهم؛ فمن لم يفعل كان منافقاً، قال تعالى: {وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا}، وسيأتي مزيد كلام على هذه المسألة في آخر الكتاب إن شاء الله تعالى.

والحكم بغير ما أنزل الله والتشريع العام كفر من ثلاثة وجوه:

١ - ترك الشرع المنزل والإعراض عنه، مع العلم به، فما وافق أهواءهم أخذوا وإلا نبذوه واستعاضوا عنه، قال تبارك وتعالى: {والذين كفروا عما أنذروا معرضون}، وقوله: {فنبذوه وراء ظهورهم}، وقوله تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة:٤١].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢- تبديل الشرع المنزل، بالشرع المبدل، وهذه الاستعاضة كفر بالله جل وعلا، كما قال تعالى: {أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله}، وقوله تعالى: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [التوبة:٣٧]، وقوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} [البقرة:٨٤-٨٦].

٣- تنزيل الشرع المبدل في الواقع وتطبيقه والعمل به، وهذا كفر ثالث، قال تعالى: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}.

قال ابن القيم في نونيته:

والله ما خوف الذنوب فإنها .... لعلى سبيل العفو والغفرانِ

لكنما أخشى انسلاخ القلب .... عن تحكيم هذا الوحي والقرآنِ

ورضاً بآراء الرجال وخَرْصِهَا ....لا كان ذاك بِمِنَّةِ المَنَّانِ

فالكفرُ ليس سِوى العِنَادِ وَرَدِّ... ما جاء الرسول به لِقَوْلِ فُلانِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال في (طريق الهجرتين وباب السعادتين):[ومن حاكم خصمه إلى غير الله ورسوله؛ فقد حاكم إلى الطاغوت، وقد أُمِرَ أن يكفر به، ولا يكفر العبد بالطاغوت؛ حتى يجعل الحكم لله وحده، كما هو كذلك في نفس الأمر]ا.هـ.

والكفر بالتشريع كفر بالربوبية، وهو كما تقدم أغلظ من الكفر بالألوهية، وإن كان هو يدخل في شرك الألوهية والأسماء والصفات كذلك، إلا أنه أخص بالربوبية، قال تعالى:{اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً}، وتفسير هذه الآية، التي لا أشكال فيها بين المفسرين، بل إجماعهم معقود على ذلك، أنها تعني طاعة الأمراء والعلماء وغيرهم، في تحليل الحرام وتحريم الحلال، إذا لا خلاف بين المفسرين وأهل العلم أن معنى هذه الآية هو ما جاء في حديث عدي t الذي أخرجه الطبراني في المعجم الكبير عَنْ عَدِيِّ بن حَاتِمٍ، قَالَ:أَتَيْتُ النَّبِيَّ r وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ:"يَا عَدِيُّ اطْرَحْ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ"، فَطَرَحْتُهُ، فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةٌ، فَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ:{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ الله}، حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا، فَقُلْتُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، فَقَالَ:"أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ؛ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ، فَتَسْتَحِلُّونَهُ" قُلْتُ: بَلَى، قَالَ:"فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ"١. ورواه الترمذي، وقال:[حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب و غطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث].ا.هـ.

---

١ - ولكن فيه ضعف، وله شاهد عند ابن جرير، وهو ضعيف أيضا،والآية حجة قاطعة هنا، ومعناها متفق عليه، على أنه هو ما جاء في حديث عدي t .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تنبيه متكرر لأهميته: لا فرق في التشريع العام بين المسألة والمسألتين، ولا القليل ولا الكثير، فالمسألة ليست مسألة نِسَبٍ، وعَدَد، بل التشريع كله، أيّا كان قدره وعدده ونسبته، فإنه كفر بالله جل وعلا؛ لأنه كما تقدم منازعة لله جل وعلا في أخص صفاته.

ولهذا كان من لوازم شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، إثبات هذا الحق لله تعالى وحده لا شريك له، والقيام له به، فمن شك أو تردد، أو تخلف عن العمل بذلك في مملكته أو حكومته، أو رئاسته القبلية أو العشائرية، أو الطرق والأحزاب، فقد وقع في الكفر بالله تعالى، وأن صلى وصام وزعم أنه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى وهو يتكلم عمن تولى جِنْكِيزْ خَانْ وسماه مَلِكَ الْمُشْرِكِينَ:[وَكُلُّ مَنْ قَفَزَ إلَيْهِمْ مِنْ أُمَرَاءَ فَحُكْمُهُ حُكْمُهُمْ وَفِيهِمْ مِنْ الرِّدَّةِ عَنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، بِقَدْرِ مَا ارْتَدَّ عَنْهُ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ. وَإِذَا كَانَ السَّلَفُ قَدْ سَمَّوْا مَانِعِي الزَّكَاةِ مُرْتَدِّينَ مَعَ كَوْنِهِمْ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ، وَلَمْ يَكُونُوا يُقَاتِلُونَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ، فَكَيْفَ بِمَنْ صَارَ مَعَ أَعْدَاءِ الله وَرَسُولِهِ قَاتِلًا لِلْمُسْلِمِينَ مَعَ أَنَّهُ وَالْعِيَاذُ بِاَللهِ لَوْ اسْتَوْلَى هَؤُلَاءِ الْمُحَارِبُونَ لله وَرَسُولِهِ الْمُحَادُّونَ لله وَرَسُولِهِ الْمُعَادُونَ لله وَرَسُولِهِ، عَلَى أَرْضِ الشَّامِ وَمِصْرَ. فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ لَأَفْضَى ذَلِكَ إلَى زَوَالِ دِينِ الْإِسْلَامِ وَدُرُوسِ شَرَائِعِه]ا.هـ.

وبهذا يكون المؤلف قد بين لوازم شهادة أن محمدا رسول الله، كما بين من قبل لوازم شهادة ألا إله إلا الله، وأن لهذه الشهادة العظيمة، شروطاً ومقتضيات، فلا يكفي النطق فيها باللسان المجرد عن الإتيان باللوازم والعمل بمقتضاها، إذ لو كانت القضية هي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مجرد نطق باللسان؛ لما تردد الكفار في قولها، ولما احتاجوا إلى إراقة دمائهم، وضياع أموالهم، وافتراق جمعهم، وذهاب عزهم، ولجَادُوا بها لأول وهلة، بَيْدَ أنهم علموا يقيناً أن لهذه الكلمة لوازم ومقتضيات، وعلموا أنهم إن تكلموا بها لزمهم العمل بذلك، وإلا فليسوا على شيء وسيحاربهم النبي r على ذلك، ولهذا كانوا أعقل من أن ينطقوا بها ظاهرا، دون التزام لها، فأبوا أن يتلفظوا بها، بل كانوا يمنعون الناس من ذلك كما قال تعالى: {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [الأنعام:٢٦]، أي ينأون بأنفسهم عن التوحيد والإيمان، وينهون غيرهم عن ذلك.

ومن عجائب هذا الزمان أنك ترى العبد يتلفظ بالشهادتين صباحاً ومساءً، وينقضها في اليوم عشرات المرات، بنواقض شَتَّى، فهذا يطوف حول القبور، وهذا يتحاكم إلى الطاغوت، وهذا يحكم بالطاغوت، وآخر تعلق قلبه بالأولياء والصالحين رغبة ورهبة ورجاء، يرجوا نفعهم ويخاف ضرهم، وقد أَضْفَوا عليهم عامة صفات الله جل وعلا، فهم يعتقدون فيهم أنهم يعلمون الغيب الذي لا تعلمه الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون، وأن لهم قسطاً من تصريف الأمور مع الله جل وعلا؛ فيدعونهم بالأغواث والأقطاب، إلى غير ذلك من أهل الإشراك بالله تعالى، كالشيوعيين والعلمانيين واللبراليين ودعاة الدولة المدنية والديمقراطيين.

قال المؤلف: (ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد، قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَّ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}:

أي ودليل كون الصلاة والزكاة عبادة لا يجوز صرفها لغير الله جل وعلا، قوله تعالى:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وما أمروا إلا ليعبدوا الله}، والحصر بعد النفي يفيد التخصيص، والمعنى، أي لم يؤمروا بشيء سوى أن يحققوا العبودية لله الواحد القهار، فبين الله جل وعلا في هذه الآية أن كل أمْرٍ أمَرَ الله به إنما يصب في مصب واحد، ألا وهو قوله تعالى:{وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}، وهذا الأمر عام في جميع أنواع العبادات، وبما أن العبادة ذل وانقياد ومحبة، دلت هذه الآية، على أن النفوس لابد أن تكون مهيأة، لقبول هذه الأوامر وتلقيها، دون اعتراض ولا تردد، وهم في ذلك ذَلِيلُون مُحِبُّون للذي أمر بها، ولألا يظن البعض أن مجرد الانقياد والذل في الظاهر، كافيان في تحقيق العبودية، قال بعدها:{مخلصين}؛ لأن البعض قد ينقاد ظاهرا خوفاً كالمنافقين، ولهذا قال:{مخلصين}، أي حالة كونهم مخلصين في عباداتهم، ذليلين منقادين لربهم.

ولئلا يظن للبعض أن مجرد الانقياد والإخلاص كافيان، في تحقيق العبودية والاستقامة على أمر الله، قال:{له الدين} فلا دين إلا دين الله، ولا شرع إلا شرعه، فلابد من انقياد وذل وإخلاص على وِفْقِ دين الله جل وعلا، لا بحسب الأهواء والعادات والتقاليد، وفعل الأكثر من الناس وضغط الواقع.

فالعبودية منهج متكامل للحياة، من المهد إلى اللحد، فلا ينفك العبد قدر أُنملة عن عبوديِّةٍ لله تعالى.

قوله:{حنفاء}، دليل على أن كل ذلك لا ينتفع به العبد حتى يضيف إلى ذلك عقيدة الولاء والبراء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرد على المرجئة:

قوله:**{ويقيموا والصلاة ويؤتوا الزكاة}**، دليل على أن أعمال القلوب وحدها من ذل وإخلاص وانقياد وحب وبغض في الله، لا تكفي في تحقيق ما تكون به النجاة، حتى يضيف إلى ذلك عمل الجوارح، ومثل لها هنا بالصلاة والزكاة، فالعبادات كما تقدم إنما تتكون من مالية أو بدنية أو منهما معا، وفي هذا الرد على المرجئة الذي أخرجوا العمل من مسمى الإيمان.

فبمجموع ذلك تكون النجاة، إذ هذا هو الدين القائم عند الله تعالى، الذي لا يرتضي سواه، وتأمل أن هذه الآية جاءت في سياق سورة (البينة)، مما يؤكد أنها تتكلم عن ما إذا أتي به العبد؛ سلم ونجا، وإلا كفر وضل وغوى.

قال أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المروزي في كتابه (تعظيم قدر الصلاة): [قال أبو عبد الله: وقال الله عز و جل:{وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين}، وقال:{إن الدين عند الله الإسلام}، فسمى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة دينا قيما، وسمى الدين إسلاما، فمن لم يؤد الزكاة فقد ترك من الدين القيم الذي أخبر الله أنه عنده الدين وهو الإسلام بعضا، وقد جامعتنا هذه الطائفة التي فرقت بين الإيمان والإسلام على أن الإيمان قول وعمل وأن الصلاة والزكاة من الإيمان، وقد سماهما الله دينا، وأخبر أن الدين عند الله الإسلام، فقد سمى الله الإسلام بما سمى به الإيمان، وسمى الإيمان بما سمى به الإسلام، وبمثل ذلك جاءت الأخبار عن النبي r **فمن زعم أن الإسلام هو**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإقرار وأن العمل ليس منه فقد خالف الكتاب والسنة ولا فرق بينه وبين المرجئة إذ زعمت أن الإيمان إقرار]ا.هـ.

وقال القرطبي في تفسير:[قوله تعالى:{وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس، كما ثبت في البخاري من حديث البراء بن عازب، على ما تقدم. وخرج الترمذي عن ابن عباس قال : لما وجه النبي r إلى الكعبة قالوا: يا رسول الله، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى:{وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} الآية، قال: هذا حديث حسن صحيح. **فسمى الصلاة إيمانا لاشتمالها على نية وقول وعمل. وقال مالك: إني لأذكر بهذه الآية قول المرجئة : إن الصلاة ليست من الإيمان]**.ا.هـ.

وقال الإمام ابن القيم في كتابه :(زاد المعاد في هدي خير العباد):[إقْرَارُ الْكَاهِنِ الْكِتَابِيِّ لَهُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِأَنّهُ نَبِيّ لَا يُدْخِلُهُ فِي الْإِسْلَامِ مَا لَمْ يَلْتَزِمْ طَاعَتَهُ وَاخْتِلَافُ النّاسِ فِي ذَلِكَ.

وَفِيهَا: **أَنّ إقْرَارَ الْكَاهِنِ الْكِتَابِيّ لِرَسُولِ اللهِ r بِأَنّهُ نَبِيّ لَا يُدْخِلُهُ فِي الْإِسْلَامِ مَا لَمْ يَلْتَزِمْ طَاعَتَهُ وَمُتَابَعَتَهُ** فَإِذَا تَمَسّكَ بِدِينِهِ بَعْدَ هَذَا الْإِقْرَارِ لَا يَكُونُ رِدّةً مِنْهُ وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُ الْحَبْرَيْنِ لَهُ وَقَدْ سَأَلَاهُ عَنْ ثَلَاثِ مَسَائِلَ فَلَمّا أَجَابَهُمَا قَالَا : نَشْهَدُ أَنّك نَبِيّ قَالَ فَمَا يَمْنَعُكُمَا مِنْ اتّبَاعِي؟، قَالَا : نَخَافُ أَنْ تَقْتُلَنَا الْيَهُودُ وَلَمْ يُلْزِمْهُمَا بِذَلِكَ الْإِسْلَامَ. وَنَظِيرُ ذَلِكَ شَهَادَةُ عَمّهِ أَبِي طَالِبٍ لَهُ بِأَنّهُ صَادِقٌ وَأَنّ دِينَهُ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيّةِ دِينًا وَلَمْ تُدْخِلْهُ هَذِهِ الشّهَادَةُ فِي الْإِسْلَامِ . **وَمَنْ تَأَمّلَ مَا فِي السّيَرِ وَالْأَخْبَارِ الثّابِتَةِ مِنْ شَهَادَةِ كَثِيرٍ مِنْ**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ لَهُ r بِالرِّسَالَةِ وَأَنَّهُ صَادِقٌ فَلَمْ تُدْخِلْهُمْ هَذِهِ الشَّهَادَةُ فِي الْإِسْلَامِ عَلِمَ أَنَّ الْإِسْلَامَ أَمْرٌ وَرَاءَ ذَلِكَ وَأَنَّهُ لَيْسَ هُوَ الْمَعْرِفَةَ فَقَطْ وَلَا الْمَعْرِفَةُ وَالْإِقْرَارُ فَقَطْ بَلْ الْمَعْرِفَةُ وَالْإِقْرَارُ وَالِانْقِيَادُ وَالْتِزَامُ طَاعَتِهِ وَدِينِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا. وَقَدْ اخْتَلَفَ أَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ فِي الْكَافِرِ إذَا قَالَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَلَمْ يَزِدْ هَلْ يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ بِذَلِكَ ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ وَهِيَ ثَلَاثُ رِوَايَاتٍ عَنْ الْإِمَامِ أَحْمَدَ إحْدَاهَا : يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ بِذَلِكَ . وَالثَّانِيَةُ لَا يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ حَتَّى يَأْتِيَ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ . وَالثَّالِثَةُ أَنَّهُ إذَا كَانَ مُقِرًّا بِالتَّوْحِيدِ حُكِمَ بِإِسْلَامِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُقِرًّا لَمْ يُحْكَمْ بِإِسْلَامِهِ حَتَّى يَأْتِيَ بِهِ وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ اسْتِيفَاءِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَإِنَّمَا أَشَرْنَا إلَيْهِ إشَارَةً وَأَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ نَبِيًّا يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَهُ وَلَا يَشُكُّ عُلَمَاؤُهُمْ فِي أَنَّهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَإِنَّمَا يَمْنَعُهُمْ مِنْ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ رِئَاسَتُهُمْ عَلَى قَوْمِهِمْ وَخُضُوعُهُمْ لَهُمْ وَمَا يَنَالُونَهُ مِنْهُمْ مِنْ الْمَالِ وَالْجَاهِ]ا.هـ.

وفي قوله:**{ويقيموا الصلاة}**، إشارة إلى وجوب القيام بها وبشروطها وواجباتها، من الطهارة لها وإقامتها في ميقاتها الزَّمَانِي والمَكَانِي، تأمل أن هناك فرقا بين أن يقول:(وصلوا)، وبين {وأقيموا الصلاة}، فليس المراد إذا مطلق الأداء، وإنما إقامتها على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه، وهذا لا يتأتى إلا بتطبيق قوله r ، كما في صحيح البخاري من حديث مالك بن الحويرث:"وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلابد من الخشوع والإتيان بها على وجهها، فإن فعلنا تحقق فينا قول الله تعالى:{اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت:٤٥].

فإذا رأيت أن المنكرات قد تفَشَّت في الأمة مع أنها تصلي، فاعلم أن في صلاتها خللا، وأنها حرصت على الأداء، ولم تحرص على إقامتها على هدي رسول الله r .

ولنتذكر حديث المسيء صلاته المخرج في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t أَنَّ رَسُولَ الله r دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ r فَرَدَّ وَقَالَ: "ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ" فَرَجَعَ يُصَلِّي كَمَا صَلَّى ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ r فَقَالَ:"ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ" ثَلَاثًا فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أُحْسِنُ غَيْرَهُ فَعَلِّمْنِي فَقَالَ:"إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنْ الْقُرْآنِ ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا".

وفي صحيح البخاري:بَاب إِذَا لَمْ يُتِمَّ السُّجُودَ: عَنْ حُذَيْفَةَ رَأَى رَجُلًا لَا يُتِمُّ رُكُوعَهُ وَلَا سُجُودَهُ فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ قَالَ لَهُ حُذَيْفَةُ: مَا صَلَّيْتَ، قَالَ وَأَحْسِبُهُ قَالَ: لَوْ مُتَّ مُتَّ عَلَى غَيْرِ سُنَّةِ مُحَمَّدٍ r .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخشوع واجب مع الاستطاعة في الصلاة:

وكما تقدم فإن الخشوع يكون في الظاهر والباطن، وهذا القدر من الخشوع واجب[١] على العباد في صلواتهم، ويأثمون بالتفريط فيه عمدا، وأما ما يقع عن غفلة ونسيان، فقد تجاوز الله تعالى عن عباده في ذلك، وشرع لعباده سجود السهو على لسان نبيه r .

وكما تقدم لما حصل الخلل والتلاعب في الصلاة، حتى صارت قريبة من نقر الغراب - عند الأكثرين إلا من رحم الله -، وصار الناس يتنافسون في أيهم يُنْهِيهَا قبل المسجد الآخر.

بل وصار البعض يعتبرونها عبئا عليهم، فيريدون الاستراحة منها لا الراحة بها؛ صار حالنا إلى ما ترى، وأصبحت الصلاة لا تعمل عملها إلا قليلا، فلا تكاد تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ لأنها تُؤَدَّى ولا تُقَام.

والله تعالى يقول: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت:٤٥].

---

١ - وأما ما نقل من الإجماع على أنه مستحب، وكذلك ما عُزي للجمهور فإنما المقصود به أن الصلاة لا تبطل بتركه، وإن كان في هذا الإجماع نظر من جهة ثبوته من جهة سلامته من المعارض، فإن النبي r قال للمسيء صلاته :"ارجع فصل فإنك لم تصل"، وهذا دال على أن الصلاة غير مجزئة ولا تبرؤ بها الذمة. وهناك بحث نفيس في تحقيق هذه المسألة، تجده في كتابي (موسوعة الجامع الثمين في أخطاء المصلين والأئمة والمؤذنين).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفرق كبير بين من يقول عن الصلاة:

أَرِحْنَا بِها،

ومن يقول: أرِحْنَا مِنْها.

وكذلك لم يقل(وزَكُّوا)، وإنما أمر بإيتاء الزكاة، مما يدل على اطمئنان النفس حين إخراجها، فَتُخْرجها طيبة بها النفس، فرحاً بأدائها عبادة لربه جل وعلا، مما يستشعر معه العبد منة الله تعالى عليه بالمال، ويتذكر ما للفقير من حق واجب عليه، لا منة له فيه عليه.

فائدة: فإن قال قائل فأين ذكر الرسول r في الآية، مع أنها حصرت الأوامر التي أمر الله بها العباد؟.

فالجواب: لقد تضمنت الآية الأمر باتباع الرسول في غير ما موضع:

الموضع الأول: في قوله: {وما أمروا}: فإن البناء لما لم يسم فاعله، دال على إرسال الرسول، فمن الذي أمر؟، إنه الله جل وعلا، ولكن كيف أمر؟، هل كلم عباده بأوامره كفاحاً دون ترجمان؟، ومباشرة دون واسطة؟، الجواب: كلا بل أمرهم وخاطبهم بواسطة رسله، فكان هذا دالاً على إرسال الرسول، دالاً على وجوب تصديقه والانقياد له؛ لأنه مُبَلِغ عن الله جل وعلا، فمن رد أمره أو خالف هديه، كان راداً لأمر الله جل وعلا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الموضع الثاني: في قوله: {ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء} هذا أمر مجمل، فمن أين للمأمورين أن يعرفوا تفاصيله؟، فكان ذلك دالاً على ضرورة وجود رسول يبين للعباد مراد الله تعالى وحدوده، فهم الذين اصطفاهم الله جل وعلا لبيان هذه المهمة العظيمة، ألا وهي كيف تعبد الله جل وعلا، كما يحب ربنا ويرضى،وهو دال على وجوب متابعة الرسول والأخذ بأوامره.

الموضع الثالث: في قوله: {ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة} فإنه لو أمر بمطلق الصلاة ومطلق الزكاة؛ لكان للعباد أن يصلوا كما شاءوا، ويزكوا بأي قدر شاءوا من أموالهم، لكنه عندما أمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ دل ذلك على أن هناك صفة مخصوصة لهما، لا يقبل الله جل وعلا الصلاة والزكاة بدونها، فمن سيبين هذه الصفة؟، إنهم الأنبياء والمرسلون، فكان ذلك دالاً على إرسال الرسول، ووجوب اتباع الرسول وتعزيره وتوقيره ومحبته.

وعليه فإن هذه الآية، قد اشتملت على ما أمر الله به عباده، وما أراده منهم من تحقيق العبودية قولاً وعملاً ، ولهذا قال الله جل وعلا: {وذلك دين القيمة} أي هذا هو الدين المستقيم، والصراط القويم، الذي لا يقبل الله جل وعلا غيره،كما قال تعالى: {ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه}، وفي قوله تعالى: {دين القيمة} دلالة على عدالة هذا الدين، وأفضليته، وأنه جاء ليُقَوم حياة العباد والبلاد، وأنه لا قوام للعباد ولا البلاد إلا بهذا الدين المستقيم، القائم بكل ما يحتاجه العباد، من تعاليم وأوامر ونواهي تهديهم إلى الصراط المستقيم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله:{القيمة}، إشارة إلى عظمة هذا الدين وعلو منزلته، فهو دين قيم عظيم، فقد جاء وسطاً بين طرفين وعدلاً بين ظلمين، لا إفراط ولا تفريط، وهذه هي الحنيفية السمحة التي أمر الله جل وعلا بها عباده وزكاها، بقوله تعالى:{ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين}.

كما أن في قوله:{وما أمروا...الآية}، امتنانا وإنعاما من الله تعالى علينا، والمعنى: أي ما أمرناهم بشيء فيه منقصة عليهم، وإنما أمرناهم بما فيه شرفهم وعزهم وعافيتهم، وهذا كقوله تعالى:{لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأنبياء:١٠].

قال المؤلف رحمه الله:(ودليل الصيام، قوله تعالى:{يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون}): أي دليل فرض الصيام في الإسلام، وأنه من أركانه ومبانيه العظام، وأنه عبادة لله جل وعلا. قوله تعالى:{يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون}.

الصيام لغة: الحبس والمنع، ومنه قوله تعالى:{إني نذرت للرحمن صوماً}. واختلف أهل العلم في حكم تارك الصيام عمداً، فذهب جمهور أهل العلم إلى عدم كفره؛ لعدم وجود دليل خاص بكفره، بينما ذهب ابن عباس وغير واحد من السلف إلى كفر تارك أي ركن من أركان الإسلام عمداً؛ لأن الركن هو ما لا يمكن الاستغناء عنه، وإنما يطلق الإسلام على مجموع هذه الأركان، فمن لم يأت بها؛ لم يكن مسلماً، قال تعالى:{ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين}، وعلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كلٍ فالأمر عظيم، فإذا كان من أفطر يوماً متعمداً من رمضان بـلا عذر؛فقـد أتي جرمـا عظيما،وإثما كبيرا، فكيف بمن يترك الصيام كله متعمداً بلا عذر، فهذا لا شك أن دينـه على خطر عظيم، وسوف يلقى الله بأربعة أركان، بإسـلام نـاقص، فنسـأل الله العافيـة والسلامة.

والصيام شرعاً: هو التعبد لله وحده بالإمساك عـن أشـياء مخصوصـة مـن شـخص مخصوص إلى زمن مخصوص، وقيل هو الإمساك عن المُفَطِّرَات مـن وقـت تبـين ضـوء الصبح واستطارته إلى غروب الشمس، والمفروض من ذلك هو صيام شهر رمضان.

وفي الصيام فوائد كثيرة منها:

١ - استشعار الفقر والفاقة، والذل والحاجة، إلى الله جل وعلا، حيث يعلم الصائم قيمة نعمة الله عليه بالطعام والشراب وعظيم قدرته جل وعلا فوقـه، إذ كيـف لـو أنـه حرمنا من هذا الطعام والشراب طوال العام، فكيف ستكون أحوالنا من جوع ومسغبة وضعف وفاقة؟، فالحمد لله الذي أغنانا بفضله عمن سواه.

٢ - تذكير الصائم بأحوال إخوانه الجياع في مشارق الأرض ومغاربها، فيحصل من جراء ذلك التكافل والتعاون والتناصر.

٣- بيان أهمية التقليل من الطعام والشراب، مما يكون عونـاً لـك عـلى مزيـد مـن الطاعات، بتضييق مجاري الشيطان أعاذنا الله وإياكم منه، فتنطلـق الـروح بعيـدة عـن معوقاتها ومثبطاتها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤- التذكير بأن غذاء الأرواح آكد من غذاء الأبدان، فالقلوب تجد من الانشراح وراحة البال في رمضان، ما لا تجده في سائر العام، مع الجوع والعطش.

٥- التذكير بأعداء الإنسان، فإذا علمنا أن مردة الشياطين مسلسلة، ومع ذلك بقيت هناك معاصي، علمنا أن هناك أعداء آخرين، نحن بحاجة إلى أن نتقي الله معهم، لتكون النجاة، وهم النفس الأمارة بالسوء، والهوى الذميم، ورفقاء السوء، والدنيا الغرورة إن لم نحسن التعامل معها

قال أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه:(المدهش):[إخواني: الدُّنيا غَرَّارَة غَدَّارَة خَدَّاعَة مَكَّارَة، تُظَنُّ مُقِيْمَةً وهِي سَيَّارَة، ومُصَالِحَةً وقَد شَنَّت الغَارّة].

٦- تربية المسلم على الخلق الرفيع، فلا همة له في مجادلة الناس، ولا مُسَابَّتِهم، ولا مُشَاتَمَتِهم، بل هو معرض عن السيء من القول، فلا يشهد الزور ولا يتكلم به، وإن مَرَّ بِه، مَرَّ مُرُورَ الكرام، كما قال تعالى:{والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً}.

٧- استشعار العبودية لله، وأنه هو وحده المشرع لعباده، وأن من نازعه في ذلك كان كافرا بالله تعالى، حيث أنه منعنا حتى من ما أحل لنا، فالخلق خلقه والأمر أمره، وما لنا إلا أن نقول سمعنا وأطعنا، ونحن محبون لذلك، مذعنون له موقنون أنه لا يأمرنا إلا بما فيه مصلحتنا، ولم ينهنا إلا عما فيه فسادنا، كيف لا وهو أرحم الراحمين.

هذه بعض فوائد الصيام والأمر أعظم من ذلك بكثير، فما كان الله ليجعله ركناً من أركان الدين، إلا وقد تضمن حكما، وآلاء لا يطيق البشر الإحاطة بها، فهناك من فوائد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصيام البدنية (كإراحة البدن، وإراحة الجهاز الهضمي)، والطبية (كالحمية) والأخلاقية والدينية على ما تقدم، والاجتماعية والاقتصادية والدين كله خير[١].

قوله تعالى:{يا أيها الذين أمنوا}: نداء وخطاب للمؤمنين خاصة، ففيه إكرامهم وتقديمهم على من سواهم، حيث خصهم الرب تبارك وتعالى بذلك النداء العلوي المقدس، إعلاماً منه تبارك وتعالى، أن الله لا يقبل عملاً بدون إيمان، مهما كثر وعظم، وأنه لا كرامة عند الله تعالى لغير المؤمنين، وأن العمل اليسير مع الإيمان يقبله الرحمن ويربيه، كما يربي أحدُنا فَلُوه، حتى تصل الحسنة الواحدة إلى أمثال الجبال، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ" (فلوه): أي المُهْر، نفيس الفرس.

قوله:{كتب عليكم}: أي فرض، وقد يراد به أيضاً، أي (قُدِّرَ عليكم)، فالكتابة تدل على سبق التقدير، وأن هذا الأمر قد فرغ منه من قبل أن يخلقنا الله جل وعلا بخمسين ألف سنة، كما سوف يأتي معناه في الكلام عن القدر بإذن الله. ومنه قوله r :كما في الصحيحين عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ r :"إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنْ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ".

---

١ - لمعرفة مزيد من ذلك، راجع رسالتي (رسائل رمضان إلى أمة القرآن).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله:{عليكم}، تكليف وتشريف، وبيان لعنايته جل وعلا بهذه الأمة المرحومة، حيث أنه جل وعلا ارتضى لها أكمل الشرائع وأسمحها، وأيسرها، وهذا كقوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} [الأعلى:١٨-١٩]، فأعطاها من الفضائل والخصائص، ما لم يعط غيرها من الأمم، لشرف نبيه وكتابه الذي أنزل إليه فلله الحمد والمنة.

قوله:{الصيام}:ليس المراد بذلك الحصر، بل المراد بذلك البيان، فإنه قد فرضت أمور كثيرة، قبل الصيام، كالتوحيد والصلاة والزكاة، ولكن سياق الآية يتكلم عن الصيام خاصة، ولهذا خصّه بالذكر هنا.

قوله:{كما كتب على الذين من قبلكم}: في ذلك بيان من الله جل وعلا أنه قد كمّل ديننا وضمنه سائر فضائل الأديان من قبلنا، كما قال جل وعلا:{اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا}، كما أن في ذلك تخفيفا للأمر على المؤمنين، وتعزية لهم؛ لأن الصيام فيه مشقة على النفوس، فإذا علم العبد أنه أسوة غيره، وأنهم كانوا يصومون كذلك؛ خف عليه الأمر، وسهل وقعه على النفس، واستشعر ضرورة التنافس والقيام بذلك،فلن يسبقنا إلى الله أحد من الأمم الماضية، والمعنى سنصبر كما صبروا وأعظم، ونصوم كما صاموا وأكمل، وهذا من عظيم رحمة الله جل وعلا بنا، والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم بيّن الله جل وعلا الحكمة والغاية التي لأجلها شرع هذا الصيام؛ وأنه لتحقيق عبوديته، وتحصيل تقواه جل وعلا، وفي هذا بيان لكمال غناه جل وعلا عنا، وشدة احتياجنا إليه جل وعلا، فهو سبحانه ليس بحاجة إلى تجويعنا وتعطيشنا، وذلك لا يزيد في ملكه شيئا جل وعلا، فهو ذو الغنى الكامل التام المطلق، وإنما شرع ذلك لمصلحتنا، ولتزكية نفوسنا، ولرفعة درجاتنا، فالنفع إلينا راجع، والله عنا وعن أعمالنا غني واسع، جل الله في علاه، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وما ربك بظلام للعبيد. وما أحسن ما قال الناظم:

من كل شيء إذا ضيعته عِوَضٌ ... وما مِنَ اللهِ إن ضَيَّعْتَهُ عِوَضُ

قوله:{لعلكم}: تفيد التحقيق، وتيقن حصول الأمر، وهذا مطّرد في الكتاب والسنة، فحيثما ورد أفاد وقوع الأمر وتحققه، إذا اكتملت شروطه وانتفت موانعه.

قوله:{تتقون}: التقوى هي فعل المأمور وترك المحظور، على علم وبصيرة، فلا سبيل إلى حصول التقوى، إلا بطلب العلم الشرعي، الذي به يعرف العبد المأمور فيمتثله، والمحظور فينتهي عنه ويدعه.

وقد اختلف أهل العلم في صيام من قبلنا، أكان مثل صيامنا؟، أم أن هذه الكيفية خاصة بنا،على قولين:

١ - أنهم كانوا يصومون، ولكن ليس كصيامنا فالأمر واحد، ولكن الشرائع مختلفة، وهؤلاء يحتجون بصيام اليهود والنصارى الموجود بين يدي الناس، وأنه يخالف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

طريقة صيامنا، ولكن يُعَكِّرُ عليه، أنهم قوم بُهْت يحرفون الكلم عن مواضعه، فما يُؤَمِّنُنَا أن يكونوا قد حرفوا الصيام عن حقيقته التي شرعها الله جل وعلا لهم.

٢- أن صيام من قبلنا كصيامنا بدليل، قوله تعالى: {كما كتب}، فالكاف تفيد التشبيه والمماثلة، وهذا أظهر، وعلى كل فالخلاف في هذا يسير، لا يؤثر.

أجر الصيام تدخله المُقَاصَصّة:

فائدة: ذهب بعض العلماء الفضلاء، إلى أن الصيام لا يدخل في المقاصة بين العباد يوم القيامة، وإنما تقع المقاصة في سائر الأعمال عدا الصيام، أخذا من قول الله تعالى في الحديث القدسي المتفق على صحته من حديث أبي هريرة t فيما يرويه النبي r عن ربه تبارك وتعالى قال:"كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ".

ولكن هذا القول فيه نظر ولا دليل عليه، بل دل الخبر الصحيح على أن المقاصة تقع في الصيام كذلك، كما في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:"أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ". قَالُوا:الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ:"إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ".

فدل هذا الخبر الصحيح الصريح على أن الصيام تقع فيه المُقَاصَصَة، وأن الحسنات قد تَفْنَى حتى مع الصيام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا تعارض بين الخبرين، فبعد أن يجزي الله تعالى عبده على صيامه؛ تقع المُقَاصَصَة، إذ من المعلوم أن الحسنات توضع في الميزان، فيكون الله تعالى قد وفاه حسابه، فوضعت في الميزان، ولكن غُرَمَاءَه كُثُر؛ فذهبوا بها عياذا بالله من الإفلاس.

وثَمَرَةُ هذه الفائدة أن البعض، ظَنَّ أن حسنات الصيام لا تُمَسُّ أبدا؛ فيكثر من الصيام، مع إكثاره من ظلم الناس، زاعما أن ديوان حسنات الصيام سيكفيه ما وقع فيه من ظلم للعباد، ولكن هيهات هيهات. فانتبه وكن على حذر من الظلم، فإنما هو ظلمات يوم القيامة، ولا يخدعنك الشيطان.

هذا وقد حث الشارع على هذه العبادة والإكثار منها، كما في الصحيحين عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ t قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ :"إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يَدْخُلُ مَعَهُمْ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ يُقَالُ أَيْنَ الصَّائِمُونَ فَيَدْخُلُونَ مِنْهُ فَإِذَا دَخَلَ آخِرُهُمْ أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ".

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ t قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:"مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ الله إِلاَّ بَاعَدَ اللهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا". قلت: وفي الباب غير ذلك من الأخبار.

قال المؤلف:(ودليل الحج): الحج لغة: القصد، ويطلق ويراد به الحول والسَّنة،ومنه قوله تعالى: {عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ} [القصص: ٢٧]، أي أعوام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وشرعاً: هو التعبد لله تعالى بأعمال وأقوال مخصوصة في زمن مخصوص من شخص مخصوص، وهو الركن الخامس من أركان الإسلام، ولقد اختلف السلف رحمهم الله في حكم تاركه عمداً مع القدرة والاستطاعة، فذهب ابن عباس وجماعة إلى كفر فاعل ذلك، الكفر الأكبر، واحتجوا بقوله تعالى: {ومن كفر فإن الله غني عن العالمين}، واحتجوا أيضاً بحديث ابن عمر في الصحيحين: "بني الإسلام على خمس" وما بني عليه الشيء لا يقوم البناء إلا به، وعليه فلا يقوم إسلام المرء إلا بما بني الإسلام عليه.

بينما ذهب عامة أهل العلم، إلى أن الكفر هنا هو الكفر الأصغر، قالوا لأنه لم يأت دليل صحيح في تكفير تارك الحج عمداً مع القدرة والاستطاعة،ولكن لاشك أن هذا الفعل من أكبر الكبائر، وفيه نوع استخفاف بالشرائع، وعدم تعظيم لحرمات الله وشعائره، مما يدل على ضعف بيّن في التقوى واليقين والإيمان.

والحج من أعظم شعائر الإسلام، التي جمع الله جل وعلا فيها، أنواعا من العبادات القولية والقلبية، والمالية والبدنية، وشعاره الأعظم الإهلال بالتوحيد: (لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك).

واستدل المؤلف رحمه الله بقوله تعالى: {ولله على الناس}: أي لله حق واجب على الناس، فرضه الله جل وعلا، أن يقصدوا البيت الحرام حاجين.

واحتج بعض أهل العلم بهذه الآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة وأصولها؛ لأن الله جل و علا عمم القول هنا، فقال: {على الناس}، أي كلهم، فيشمل المؤمن والكافر، وهذه المسألة قد اختلف فيها الأصوليون، فمنهم من قال هم مخاطبون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالأصول دون الفروع، ومنهم من قال هم مخاطبون بالتوحيد ابتداءً فقط، فإن دخلوا في الإسلام، خوطبوا بباقي الشرائع، ويحتجون بحديث ابن عباس t في قصة معاذ t ، كما في الصحيحين عندما بعثه النبي r إلى اليمن وبحديث سهل في الصحيحين في بعث على بن أبي طالب إلى خيبر، وفيهما تقديم التوحيد في الخطاب الشرعي، ويمكن أن يقال: هم مخاطبون به سؤالا وعذابا، وغير مخاطبين به حالا وعملا؛ لأنهم ليسوا محلا لذلك، مع ثبوتهم على الكفر والشرك، ولعل هذا أقرب الأقوال عندي، والله أعلم.

وفي سياق الآية تذكير بأن الله تعالى، ما خلق الخلق عبثا، ولا تركهم سدى، بل خلقهم للأمر والنهي، وهي عبادة الله تعالى، ثم يبعثهم للحساب والجزاء على ذلك.

قوله:{ومن كفر}، الكفر لغة السَّتْرُ والتَّغْطِية، ومنه سُمِّيَ المُزَارِعُ كَافِرا؛ لأنه يَكْفُرُ الحَبَّةَ في الأرض، أي يُوارِيها ويَسْتُرها ويُغَطِّيهَا بالتراب.

جاء في (تاج العروس من جواهر القاموس):[(حتَّى إذا أَلْقَتْ يَداً في كافِرٍ ... وأَجَنَّ عَوراتِ الثُّغورِ ظَلامُها)، قال: ومن ذلك سُمِّيَ الكافِرُ كافراً لأنَّه سَتَرَ نِعَمَ الله.

الكافِرُ: الوادي العظيمُ. قيل الكافر: النَّهر الكبير.....الكافِر: السَّحاب المُظلِمُ لأنَّه يستُرُ ما تحتَه. الكافِر: الزَّارع لسَترِه البَذر بالتُّرابِ. والكُفَّارُ: الزَّرّاع وتقول العرب للزَّارع كافِرٌ لأنَّه يكْفُرُ البَذرَ المَبذور بتُرابِ الأَرضِ المُثارَة إذا أَمَرَّ عليها مالَقَهُ، ومنه قولُه تعالى: {كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّار نباتُه} أي أَعجبَ الزُّرَّاعَ نَباتُه.....]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمراد بالكفر هنا على الخلاف السابق إما أن يكون أكبر، أو أن يكون أصغر، والأصغر أكبر من كل الكبائر فيما دون الشرك والكفر؛ لأن الشارع سماه كفرا، وهذا مطرد فيما سُمِّيَ بذلك.

قوله تعالى:{فإن الله غني عن العالمين}: أي لا تنفعه طاعة الطائعين ولو كثرت، ولا تضره معصية العاصين ولو كثرت، فالنفع إلينا راجع والله عنّا وعن أعمالنا غني واسع جل الله في علاه، وهذه الآية دليل عظيم على التوحيد، بما تضمنته من معاني العبودية لله جل وعلا، فقد بينت أن الله هو المعبود الحق، وهو الذي يملك التصرف في عباده، فهو الذي يأمر ويفرض، وهو الذي ينهي ويحرم، وهو المطلع على عباده؛ فيعذر الصادقين ويعذب المنافقين، كما تضمنت غناه جل وعلا عن كل أحد وشيء، وتضمنت شدة احتياج عباده إليه، وفقرهم إليه تبارك وتعالى؛ وليعلم العباد أنهم إنما يفعلون ذلك لينفعوا أنفسهم ويُنجوها من العذاب والهلاك والعطب.

نفع العبادات إلينا عائد، والله غني حميد:

واعلم رحمك الله، أننا عندما نقوم بهذه العبادات، إنما نقوم بها إخلاصا وعبادة لله جل وعلا، وأما نفعها فإنما ننفع أنفسنا بها، فالعبادة لله والنفع لنا.

كما قال تعالى: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا} [الإسراء:٧]، وقال: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [فصلت:٤٦]، وقال: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تُرْجَعُونَ} [الجاثية:١٥]، وقوله:{مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [الروم:٤٤-٤٥].

وكما في الحديث الذي في صحيح مسلم من طريق أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:"يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ". قَالَ سَعِيدٌ كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا وقد حث الشارع الحكيم على هذه العبادة الجليلة، كما في قوله تعالى: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} [الحج:٢٧-٣٠].

وفي الصحيحين عن أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:"مَنْ حَجَّ لله فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ".

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ:"الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلاَّ الْجَنَّةُ".

وأخرج أحمد والنسائي والترمذي عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله r:"تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ، وَالذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ المَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلاَّ الجَنَّةُ". قال الترمذي: حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ. قلت: وفي الباب غير ذلك من الأخبار.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ:الإِيمَانُ: وَهُوَ:بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلاهَا قَوْلُ لا إله إِلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ.

وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ:كما في الحديث:"أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ".وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:{لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} [البقرة:١٧٧].ودليل القدر: قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر:٤٩].

الشرح

قال المؤلف:(المرتبة الثانية:الإيمان): أي من مراتب الأصل الثاني، وهو معرفة دين الله جل وعلا بالأدلة.

الإيمان لغة: يطلق ويراد به عدة معان، ومنها التصديق، ومنه قوله تعالى:{وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين}. والإيمان من الألفاظ المنقولة، فإن الله تبارك وتعالى، قد نقل بعض الألفاظ من معانيها العرفية المتداولة بين العرب إلى المعاني الشرعية، فمن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك الصلاة، فإنها في اللغة تطلق على معان ومن أظهرها الدعاء، فنقلت إلى الصلاة ذات الخضوع والخشوع، المتضمنة لجملة من الأقوال والأعمال والاعتقادات، مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم.

الألفاظ التي نقلها الشرع، والألفاظ المُتَقَوَّلَةُ على الشرع:

وإذا نقل الشارع معنى لغوياً عرفياً إلى معنى شرعي آخر؛ وجب حمل اللفظ على المعنى الشرعي، حيث ورد في الكتاب أو السنة، حتى تأتي قرينة تدل على أن المراد هو المعنى اللغوي العرفي، لا المعنى الشرعي الاصطلاحي، ومن ذلك الإيمان.

ولما غلط أقوام في معرفة هذا الأصل العظيم، فيما يتعلق بالألفاظ المنقولة في الشرع؛ ضل أقوام في معرفة الحقائق الشرعية الاصطلاحية لهذه الألفاظ المنقولة؛ ولهذا وُجَدَ من يقول إن الأيمان هو مجرد التصديق فقط، فمن صدق بقلبه كان مؤمناً، ولو لم يعمل عملاً قط؛ وهؤلاء قد وقعوا في ضلال مبين؛ لأنهم لم يعرفوا من الإيمان إلا المعنى اللغوي، وعلى هذا فكفار مكة مؤمنون، بل وإبليس كذلك، وفرعون، وغيرهم من صناديد الكفر والإجرام؛ لأن إبليس كان مصدقا، وكان يعلم علم اليقين أنه لا إله إلا الله.

وكذلك المشركون فإن غالبهم يعلم صدق الرسل، وقد ذكر الله تعالى ذلك عنهم، كما في قوله: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً} نسأل الله العافية والسلامة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله تعالى: {واستيقنتها}، أوسع من قولك:(وأيقنتها)، وكما قيل: إن زيادة المَبْنَى تُفِيدُ زيادة في المعنى، ومع ذلك بَقُوا كُفَّارا، وهم حَطَبُ النار. نسأل الله العافية والسلامة.

ولا شك أن هذه الفرقة القائلة، بأن الإيمان هو التصديق فقط، وإن لم يعمل قط شيئا، **بالمعنى المتقدم**، أنها من أقبح الفرق ضلالا، وأخبثهم مقالا، وما هم من الفرق الناجية، بل هي فرقة مارقة عن الإسلام؛ لأن من شهد بالإيمان لمن حكم الله عليه بالكفر، وشهد عليه بذلك، هو مكذب لله جل وعلا، وهو رادٌ لشرع الله تعالى، ومحادٌ لدينه ورسله، وهذا كفر أكبر بإجماع المسلمين.

وممن ضل في باب الإيمان وقال بهذا القول الخبيث، الجهمية وغلاة المرجئة أيضاً: القائلون إن تارك جنس العمل لا يكفر، مهما عمل، فلو ارتكب جميع النواقض العملية، فهو مؤمن كامل الإيمان، بل هو كإيمان جبريل وميكائيل عليهما السلام، فعند هؤلاء من لم يركع لله ركعة، ولم يسجد لله سجدة، ولم يقم بأي عمل من شعائر الإسلام الظاهرة، فهو مؤمن كامل الإيمان؛ لأنهم يعتقدون أن الإيمان هو التصديق،وقالوا إن التصديق كتلة واحدة وجملة لا تقبل التجزئة، ولا الزيادة ولا النقصان، فما هو إلا أن تصدق أو تكذب، وهذا مذهب الجهمية الذين كفرهم السلف.

وجاء في كتاب (السنة) للخلال:[أخبرني عبيد الله بن حنبل قال حدثني أبي حنبل بن إسحاق ابن حنبل قال قال الحميدي وأخبرت أن قوما يقولون إن من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج ولم يفعل من ذلك شيئا حتى يموت أو يصلي مسند ظهره

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مستدبر القبلة حتى يموت فهو مؤمن ما لم يكن جاحدا إذا علم أن تركه ذلك في إيمانه إذا كان يقر الفروض واستقبال القبلة، فقلت: **هذا الكفر بالله الصراح، وخلاف كتاب الله وسنة رسوله وفعل المسلمين، قال الله جل وعز:{حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة}، قال حنبل: قال أبو عبد الله أو سمعته يقول: من قال هذا فقد كفر بالله، وَرَدَّ على الله أمره وعلى الرسول ما جاء به]**.ا.هـ.

قال ابن رجب رحمه الله تعالى في كتابه (فتح الباري):[وكثير من علماء أهل الحديث يرى تكفير تارك الصلاة. وحكاه إسحاق بن راهويه إجماعا منهم، حتى إنه جعل قول من قال: لا يكفر بترك هذه الأركان مع الإقرار بها من أقوال المرجئة. وكذلك قال سفيان بن عيينه: المرجئة سموا ترك الفرائض ذنبا بمنزلة ركوب المحارم، وليسا سواء؛ لأن ركوب المحارم متعمدا من غير استحلال: معصية، وترك الفرائض من غير جهل ولا عذر: هو كفر. وبيان ذلك في أمر آدم وإبليس، وعلماء اليهود، الذين أقروا ببعث النبي r ولم يعملوا بشرائعه. وروي عن عطاء ونافع مولى ابن عمر أنهما سئلا عمن قال: الصلاة فريضة ولا أصلي، فقالا: هو كافر. وكذا قال الإمام أحمد.

ونقل حرب عن إسحاق قال: غلت المرجئة حتى صار من قولهم: إن قوما يقولون: من ترك الصلوات المكتوبات وصوم رمضان والزكاة والحج وعامة الفرائض من غير جحود لها لا نكفره، **يرجى أمره إلى الله بعد، إذ هو مقر**، فهؤلاء الذين لا شك فيهم - يعني في أنهم مرجئة. وظاهر هذا: أنه يكفر بترك هذه الفرائض]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في كتاب:(الشريعة) للآجري:[باب القول بأن الإيمان تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح، لا يكون مؤمنا، إلا أن تجتمع فيه هذه الخصال الثلاث قال محمد بن الحسين: اعملوا رحمنا الله وإياكم أن الذي عليه علماء المسلمين أن الإيمان واجب على جميع الخلق، وهو تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح، ثم اعلموا أنه لا تجزئ المعرفة بالقلب والتصديق إلا أن يكون معه الإيمان باللسان نطقا، ولا تجزيء معرفة بالقلب، ونطق باللسان، حتى يكون عمل بالجوارح، فإذا كملت فيه هذه الثلاث الخصال: كان مؤمنا دل على ذلك القرآن، والسنة، وقول علماء المسلمين]ا.هـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[فَصْلٌ: الْوَجْهُ الثَّانِي مِنْ غَلَطِ الْمُرْجِئَةِ: ظَنُّهُمْ أَنَّ مَا فِي الْقَلْبِ مِنْ الْإِيمَانِ لَيْسَ إلَّا التَّصْدِيقَ فَقَطْ دُونَ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ؛ كَمَا تَقَدَّمَ عَنْ جهمية الْمُرْجِئَةِ . الثَّالِثُ ظَنُّهُمْ أَنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي فِي الْقَلْبِ يَكُونُ تَامًّا بِدُونِ شَيْءٍ مِنْ الْأَعْمَالِ وَلِهَذَا يَجْعَلُونَ الْأَعْمَالَ ثَمَرَةَ الْإِيمَانِ وَمُقْتَضَاهُ بِمَنْزِلَةِ السَّبَبِ مَعَ الْمُسَبِّبِ وَلَا يَجْعَلُونَهَا لَازِمَةً لَهُ؛ وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ إيمَانَ الْقَلْبِ التَّامِّ يَسْتَلْزِمُ الْعَمَلَ الظَّاهِرَ بِحَسَبِهِ لَا مَحَالَةَ وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَقُومَ بِالْقَلْبِ إيمَانٌ تَامٌّ بِدُونِ عَمَلٍ ظَاهِرٍ ؛ وَلِهَذَا صَارُوا يُقَدِّرُونَ مَسَائِلَ يَمْتَنِعُ وُقُوعُهَا لِعَدَمِ تَحَقُّقِ الِارْتِبَاطِ الَّذِي بَيْنَ الْبَدَنِ وَالْقَلْبِ مِثْلَ أَنْ يَقُولُوا: رَجُلٌ فِي قَلْبِهِ مِنْ الْإِيمَانِ مِثْلَ مَا فِي قَلْبِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَهُوَ لَا يَسْجُدُ للهِ سَجْدَةً وَلَا يَصُومُ رَمَضَانَ وَيَزْنِي بِأُمِّهِ وَأُخْتِهِ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ نَهَارَ رَمَضَانَ ؛ يَقُولُونَ : هَذَا مُؤْمِنٌ تَامُّ الْإِيمَانِ فَيَبْقَى سَائِرُ الْمُؤْمِنِينَ يُنْكِرُونَ ذَلِكَ غَايَةَ الْإِنْكَارِ . قَالَ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ : حَدَّثَنَا خَلَفُ بْنُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حَيَّانَ حَدَّثَنَا مَعْقِلُ بْنُ عُبَيْدِ الله الْعَبْسِيُّ قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا سَالِمٌ الْأَفْطَسُ بِالْإِرْجَاءِ فَنَفَرَ مِنْهُ أَصْحَابُنَا نُفُورًا شَدِيدًا مِنْهُمْ مَيْمُونُ بْنُ مهران وَعَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ مَالِكٍ فَإِنَّهُ عَاهَدَ اللهَ أَنْ لَا يُؤْوِيَهُ وَإِيَّاهُ سَقْفُ بَيْتٍ إِلَّا الْمَسْجِدُ]ا.هـ.

وقال أيضا في مجموع الفتاوى:[سُئِلَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ الله التستري عَنْ الْإِيمَانِ مَا هُوَ ؟ فَقَالَ : قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ وَسُنَّةٌ لِأَنَّ الْإِيمَانَ إذَا كَانَ قَوْلًا بِلَا عَمَلٍ فَهُوَ كُفْرٌ وَإِذَا كَانَ قَوْلًا وَعَمَلًا بِلَا نِيَّةٍ فَهُوَ نِفَاقٌ وَإِذَا كَانَ قَوْلًا وَعَمَلًا وَنِيَّةً بِلَا سُنَّةٍ فَهُوَ بِدْعَةٌ].

وقال أيضا في مجموع الفتاوى:[وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي كِتَابِ "الْأُمِّ" فِي (بَابِ النِّيَّةِ فِي الصَّلَاةِ : يُحْتَجُّ بِأَنْ لَا تُجْزِئَ صَلَاةٌ إلَّا بِنِيَّةٍ بِحَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ r "إنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ" ثُمَّ قَالَ: وَكَانَ الْإِجْمَاعُ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَنْ أَدْرَكْنَاهُمْ يَقُولُونَ: الْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ لَا يُجْزِئُ وَاحِدٌ مِنْ الثَّلَاثِ إلَّا بِالْآخَرِ]ا.هـ.

وقال أيضا في مجموع الفتاوى:[فَإِذَا كَانَ اللهُ قَدْ كَرَّهَ إلَى الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعَ الْمَعَاصِي وَهُوَ قَدْ حَبَّبَ إلَيْهِمْ الْإِيمَانَ الَّذِي يَقْتَضِي جَمِيعَ الطَّاعَاتِ إذَا لَمْ يُعَارِضْهُ ضِدٌّ بِاتِّفَاقِ النَّاسِ ؛ فَإِنَّ الْمُرْجِئَةَ لَا تُنَازِعُ فِي أَنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي فِي الْقَلْبِ يَدْعُو إلَى فِعْلِ الطَّاعَةِ وَيَقْتَضِي ذَلِكَ وَالطَّاعَةُ مِنْ ثَمَرَاتِهِ وَنَتَائِجِهِ لَكِنَّهَا تُنَازِعُ هَلْ يَسْتَلْزِمُ الطَّاعَةَ]ا.هـ.

وقال ابن القيم في نونيته عن الجهمية وكفرهم:

ولقد تقلد كفرهم خمسون ... في عَشْرٍ من العلماء في البلدان

واللالكائي الإمام حكاه عنـــــهم بل حكاه قبله الطبراني

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أي هذا العدد قد كفروا الجهمية، وسبب ظهور الإرجاء، هو التفريط في معرفة حقيقة الإيمان، في مقابلة الإفراط الذي جنح إليه الخوارج، لا كثرهم الله، فالخوارج فهموا الدين فهما قاصرا ناقصا؛ لأنهم لم يعملوا على جمع النصوص، بغية استخلاص الحق وإصابته، بل عملوا على اتباع الهوى، وهذا حال كل من اعتقد، ثم ذهب يبحث في الأدلة، ما يؤيد به فهمه، ويعرض عما سواه، والعياذ بالله، فالخوارج لما عبدوا الله بالخوف فقط؛ غلب على أحكامهم الغلظة وتضييق رحمة الله عز وجل، حتى صار الواحد منهم لا يتصور أن تسع رحمة الله تعالى عصاة المسلمين؛ فحكموا عليهم بالكفر الأكبر، بذنوب لا تبلغ حد الشرك أو الكفر الأكبر؛ فخرجوا على الناس بأسيافهم، كما وصفهم النبي r :"يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، وبين أن سيماهم التحليق، أي إنهم يكثر فيهم ذلك، وأبوهم هو ذو الخويصرة، الذي ظن أن النبي r لم يعدل في قسمته، وأنه حَابَى أقواما، هكذا كان أبوهم ناقص العقل قاصر النظرة؛ فورثوا عنه ذلك، والخبر مخرج في الصحيحين عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ t قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ الله r وَهُوَ يَقْسِمُ قِسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله اعْدِلْ فَقَالَ:"وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ" فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ الله ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ:"دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَمَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ وَهُوَ قِدْحُهُ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ" قَالَ أَبُو سَعِيدٍ فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ الله r وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ فَالْتُمِسَ فَأُتِيَ بِهِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ النَّبِيِّ r الَّذِي نَعَتَهُ.

دم المؤمن عند الله عظيم، أعظم من حرمة الكعبة:

وحكم الخوارج على أصحاب الكبائر بالكفر في الدنيا والخلود في النار يوم القيامة، وتبعهم المعتزلة في أحكام الآخرة، وخالفوهم في أحكام الدنيا، فقالوا هم في الدنيا في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، وهكذا أهل البدع أعاذنا الله وإياكم منهم، ومن خَطَلِهم، يأتون بكلام أشبه ما يكون بالهذيان.

وكان نتيجة هذا الهوى، والافتئات على سبيل المؤمنين؛ أن كفروا الصحابة، وخرجوا يقاتلون الناس بأسيافهم، فسفكوا الدم الحرام.

واعلم رحمك الله أن دم المسلم عند الله عظيم، كما قال تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: ٩٣]، وقوله: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ} [المائدة:٣٢].

ولهذا قال النبي r ، - في إشارة واضحة لخطورة التكفير بغير وجه حق، والتحذير من التكفير على غير سبيل المؤمنين، وما يؤول إليه مَنْ هذه حَالُه مِنْ سَفْكٍ للدماء المعصومة بغير حق -، ما جاء في الصحيحين عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ ، عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"مَنْ حَلَفَ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الإِسْلاَمِ كَاذِبًا فَهْوَ كَمَا قَالَ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَلَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ، **وَمَنْ رَمَى مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهْوَ كَقَتْلِهِ**".

وفي صحيح البخاري عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله r :"لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا".

وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ r :"أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ"

وفي صحيح البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى الله ثَلاَثَةٌ مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ".

وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود، t ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله r :"لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ".

وفي مصنف عبد الرزاق عن بن جريج قال أخبرني عبد الله بن عثمان أن سعيد بن ميناء أخبره، قال: إني لأطوف بالبيت مع عبد الله بن عمرو، بعد حريق البيت، إذ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال:(أي سعيد أعظمتم ما صنع البيت)، قال قلت: وما أعظم منه؟، قال:(**دم المسلم يسفك بغير حقه**). قلت وسنده لا بأس به، والأحاديث في هذا الباب كثيرة غفيرة.

وجاء في تفسير القرطبي:[وقال مطرف بن عبدالله: وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشيطان، وتلا هذه الآية. وقال يحيى بن معاذ الرازي لأصحابه في هذه الآية: افهموها فما في العالم جنة أرجى منها؛ إن ملكا واحدا لو سأل الله أن يغفر لجميع المؤمنين لغفر لهم، كيف وجميع الملائكة وحملة العرش يستغفرون للمؤمنين. وقال خلف بن هشام البزار القارئ: كنت أقرأ على سليم بن عيسى فلما بلغت:{وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا} بكى ثم قال: **يا خلف ما أكرم المؤمن على الله نائما على فراشه والملائكة يستغفرون له.**

كيف ضل القوم:

ولتعلم عظيم الورطة تأمل في هذه النصوص التي أغفلتها كل من هاتين الطائفتين (المعتزلة والخوارج)، قال تعالى:{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات:٩-١٠]، وقوله:{فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة:٢٤٩]، وقوله: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا}[الإنسان:٢٤]، فَفَرَّقَ بين الآثم والكفور.

ومن السنة: عَنْ أَبِي ذَرٍّ t قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي فَأَخْبَرَنِي أَوْ قَالَ بَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ قُلْتُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ قَالَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ". وفي صحيح مسلم عن جابر أَنَّ الطُّفَيْلَ بْنَ عَمْرٍو الدَّوْسِيَّ أَتَى النَّبِيَّ r فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ لَكَ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ وَمَنَعَةٍ - قَالَ حِصْنٌ كَانَ لِدَوْسٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ - فَأَبَى ذَلِكَ النَّبِيُّ r لِلَّذِي ذَخَرَ اللهُ لِلأَنْصَارِ فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ r إِلَى الْمَدِينَةِ هَاجَرَ إِلَيْهِ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَهَاجَرَ مَعَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ فَاجْتَوَوُا الْمَدِينَةَ فَمَرِضَ فَجَزِعَ فَأَخَذَ مَشَاقِصَ لَهُ فَقَطَعَ بِهَا بَرَاجِمَهُ فَشَخَبَتْ يَدَاهُ حَتَّى مَاتَ فَرَآهُ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فِي مَنَامِهِ فَرَآهُ وَهَيْئَتُهُ حَسَنَةٌ وَرَآهُ مُغَطِّيًا يَدَيْهِ فَقَالَ لَهُ مَا صَنَعَ بِكَ رَبُّكَ فَقَالَ غَفَرَ لِي بِهِجْرَتِي إِلَى نَبِيِّهِ r فَقَالَ مَا لِي أَرَاكَ مُغَطِّيًا يَدَيْكَ قَالَ قِيلَ لِي لَنْ نُصْلِحَ مِنْكَ مَا أَفْسَدْتَ.فَقَصَّهَا الطُّفَيْلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ r . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ r :"اللَّهُمَّ وَلِيَدَيْهِ فَاغْفِرْ".

وكذلك أحاديث الشفاعة في أصحاب المعاصي، وهناك آيات وأحاديث أخرى غير ذلك، دالة على هذا المعنى، وهذا أمر مجمع عليه عند أهل السنة والجماعة، ولكن الخوارج والمعتزلة لما ضاق عطنهم، وسئموا أن يفهموا الدين على فهم الصحابة y، وظنوا بأنفسهم غَيْرَةً أعلى، وطريقة أهدى وأعدل، مما كان عليه الصحابة y؛ ضلوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأضلوا، وأخذوا يجادلون بآيات وأحاديث، ويهملون النصوص الأخرى المقيدة والمبينة والمفصلة، وكأن الصحابة y ما علموا هذه الأدلة التي يحتجون بها، ولكن البدعة إذا أشربت في القلوب؛ تفعل أعظم من ذلك والعياذ بالله، أما علم هؤلاء أن الصحابة هم الذين نقلوا لهم هذه الأخبار؟!، فيا سبحان الله!!.

ولئن كان زنادقة الصوفية يقول الواحد منهم: **حدثني قلبي عن ربي**، تعاليا على الشريعة وسبيل المؤمنين، فإن هناك أقواما اعْتَدُّوا بعقولهم وفُهُومِهِم، طارحين فهم الصحابة والسلف، وربما انتسبوا إلى الحديث والأثر، أوشك أحدهم أن يقول:

حدثني فهمي عن عقلي.

ومما احتجوا به أيضا ما جاء في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ قَالَ النَّبِيُّ r :"لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ"، ولم يجمعوا بينه وبين حديث أبي ذر t المتقدم؛ ليعلموا ما هو الإيمان المنفي هنا، وأن المراد نفي الكمال الواجب، لا نفي أصل الإيمان؛ لأن الفعل ليس مكفرا، إذ لم يسمه الله تعالى ولا رسوله r كفرا ولا شركا.

ومنها ما في الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ"، وتركوا العمل بالآية المتقدمة، ليعلموا أن الكفر هنا هو الأصغر وليس

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأكبر، وعلى هذا المنوال انطلقوا يؤسسون هذه العقيدة الفاسدة الخربة، وهكذا يكون حال كل من تَنَكَّبَ سبيل الصحابة وشَاقَّهُم، عياذا بالله من الضلال والخذلان.

وفي مقابلة هذا الجفاء والغلظة من الخوارج والمعتزلة، شذت المرجئة في الطرف الآخر، كردة فعل لمعتقد الخوارج والمعتزلة، فجاءوا بمعتقد أخبث منهم، فأخرجوا الأعمال من مسمى الإيمان، فالخوارج أخرجوا من الإسلام من هم منه،والمرجئة أبقوا في الإسلام من ليس منه، وكلا قصدي طرف الأمور ذميم.

وتكررت نفس مصيبة الخوارج والمعتزلة، مع المرجئة وأذنابهم، فضربوا الأخبار بعضها ببعض؛ فاعتقدوا ثم استدلوا،فردوا ما يخالف هواهم، وقبلوا ما يؤيد بدعتهم وضلالهم، وكان الواجب عليهم أن يجمعوا بين الأخبار، لا أن يعارضوا ببعضها ببعض، فالكل قد خرج من مشكاة واحدة، وإنما هو الحق الذي لا تعارض فيه أبدا، وهو الحكم العدل الذي لا هوى معه، كما قال تعالى:{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء:٨٢]، وقال سبحانه وتعالى:{إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ} [الطارق:١٣-١٤].

فاحتجت المرجئة بالآيات التي فيها عطف العمل على الإيمان، وقالوا: العطف يقتضي المغايرة، فأخرجوا العمل من مسمى الإيمان، كما في قوله تعالى:{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة:٨٢]، وقوله:{وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [المائدة:٩]، وقوله:{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [الأعراف:٤٢]، وقوله:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} [مريم:٩٦]، ومن هذه الآيات أيضا قوله تعالى:{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} [المائدة:٥٥]، وقوله:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال:٢-٤]، وقوله:{طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [النمل:١ - ٣]، وقوله:{مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [الروم:٣١-٣٢]، وقوله:{فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا} [مريم:٥٩-٦٠]، وقوله:{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [فصلت:٦-٨]، وقوله:{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ} [المدثر:٣٨-٤٧].

ومثل هذا كثير جدا في القرآن، في أكثر من خمسين موضعا، يعطف الله تعالى العمل الصالح على الإيمان، فلم يلتفت المرجئة إلى أن الواو أيضا من أخص معانيها المعية والاشتراك، ولكن لغلبة الهوى أخذوا ببعض الدلالات وتركوا أكثرها، وكان الواجب عليهم أن يجمعوا النصوص؛ ليفهموا ما هو معنى الواو العاطفة في مثل هذه الآيات، وإليك جملة من النصوص التي تؤكد أن العمل داخل في مسمى الإيمان، بل هو لازم من لوازمه، فلا يتصور وجود الإيمان بلا عمل، كما أنه لا يتصور وجود شجرة بلا جُذُور، وهذه المعاني التي تضمنتها النصوص وأجمع عليها أهل السنة، أهملها المرجئة إمعانا في الهوى، واتباعا للشيطان، وانتصارا للرأي الفاسد، والعياذ بالله.

وقد عرف النبي r الإيمان بأعمال الجوارح، كما في الصحيحين من طريق أَبِي جَمْرَةَ قَالَ كُنْتُ أُتَرْجِمُ بَيْنَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَبَيْنَ النَّاسِ فَقَالَ إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ أَتَوْا النَّبِيَّ r فَقَالَ:"مَنْ الْوَفْدُ" أَوْ "مَنْ الْقَوْمُ" قَالُوا رَبِيعَةُ، فَقَالَ:"مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ أَوْ بِالْوَفْدِ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى"، قَالُوا إِنَّا نَأْتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ بَعِيدَةٍ وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلَّا فِي شَهْرٍ حَرَامٍ فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نُخْبِرُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا نَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ قَالَ:"**هَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رَسُولُ اللهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصَوْمُ رَمَضَانَ وَتُعْطُوا الْخُمُسَ مِنْ الْمَغْنَمِ وَنَهَاهُمْ عَنْ الدُّبَّاءِ وَالْحَنْتَمِ وَالْمُزَفَّتِ".

وفي صحيح مسلم عن جَابِر **t** قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ **r** يَقُولُ:"إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ".

وفي مسند أحمد وسنن النسائي والترمذي وابن ماجة من طريق عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله **r** :"العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر" قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

وفي مسند أحمد وعبد بن حميد وسنن الدارمي بسند صحيح عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ **r** أَنَّهُ ذَكَرَ الصَّلَاةَ يَوْمًا فَقَالَ:"مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ".

فهذه الأدلة وغيرها دالة على أن العمل لازم من لوازم الإيمان، لا ينفك عنه أبدا، إلا أن يصبح العبد كافرا بالله تعالى.

وانقسمت المرجئة إلى أقسام:

النوع الأول: من جعل الأعمال مجرد ثمرة الإيمان، إن وجدت فحسن، وإن لم توجد فلا أثر لها على حقيقة الإيمان، وشبهوا ذلك بالشجرة المثمرة وغير المثمرة، فقالوا إذا انعدم ثمرها فما زالت هي الشجرة، وإن وجد ثمرها فما زالت هي الشجرة، فلم ينتفِ اسم الشجرة عنها لانعدام ثمرها، وإنما ازدانت به وحسنت، ولم تتغير حقيقة كونها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شجرة، وهكذا الإيمان عندهم لا يتأثر من جهة أصله، وجودا وعدما بالأعمال، فلا كفر بعمل إلا إن اعتقد أو استحل، ومؤدى قولهم، ولازمه، أن يكون ذلك تصريحاً بلسانه، فليس عندهم شيء اسمه الاستحلال العملي، وهؤلاء من أخبث الطوائف، الموجودة اليوم،وهم الأكثر تلبيساً في الأمة لا كثرهم الله.

وقريب من هؤلاء وأخطر **النوع الثاني**، الذين يلبسون لباس السلف، ويتحذلقون؛ ليوجدوا سبيلا بين المرجئة وأهل السنة، فيقولون: الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص، ولكنهم يجعلون العمل في الإيمان شرط كمال واجب، أو مستحب، لا شرط صحة، ويزداد المصاب عندما ينسبون ذلك إلى السلف زورا وبهتانا، وهؤلاء حَقِيقَةُ قولهم، أنه لا كفر بالأعمال أصلا، بل بالقلب فقط، أو كما تقدم الاستحلال الصريح باللسان، ونحو ذلك، ولاشك أنهم بهذا القول هم من غلاة الجهمية والمرجئة.

المرجئة أخبث من الخوارج:

واعلم أن أهل السنة يرون أن المرجئة، أخبث وأضل سبيلا، وأشد ضررا على الأمة من الخوارج– ومن أسمائهم الأزارقة، والحرورية- والمعتزلة، وإليك ما قاله ابن تيمية فيما نقله عن السلف في ذلك، كما في مجموع الفتاوى:[فلهذا عظم القول في ذم الإرجاء، حتى قال إبراهيم النخعي:لفتنتهم ـ يعنى المرجئة ـ أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة. وقال الزهري: ما ابتدعت في الإسلام بدعة أضر على أهله من الإرجاء. وقال الأوزاعي: كان يحيي بن أبي كثير وقتادة يقولان: ليس شيء من الأهواء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء. وقال شريك القاضي وذكر المرجئة فقال:هم أخبث قوم،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حَسْبُك بالرافضة خُبثا، ولكن المرجئة يَكْذِبُونَ على الله. وقال سفيان الثوري: تَرَكَت المرجئة الإسلام أَرَقَّ مِن ثَوب سَابري. وقال قتادة: إنما حدث الإرجاء بعد فتنة فرقة ابن الأشعث].ا.هـ.

وانتبه ولا تغتر فإن في هذه الفرقة الضالة المنحرفة، شيوخا وعلماء، والأمر كما قال الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء:[قلت:غلاة المعتزلة، وغلاة الشيعة، وغلاة الحنابلة، وغلاة الأشاعرة، وغلاة المرجئة، وغلاة الجهمية، وغلاة الكرامية، قد ماجت بهم الدنيا، وكثروا، وفيهم **أذكياء، وعباد، وعلماء**]ا.هـ.

وهنا تعظم الورطة، وتشتد المصيبة، ويتأكد علينا التحقق، بمذهب السلف، والاستمساك به؛ لتكون النجاة بإذن الله تعالى.

كلام أمتعني حروفه ومعانيه:

وقد أمتعني كلام لأحد الباحثين، أنقل منه جملا بحروفها:[فالمتأمل في كتابات المعاصرين من الإسلاميين يحسب أن فرق الضلالة التي حذر منها المصطفى r قد اختفت من الساحة ولم يبقى منها إلا فرقة الخوارج، فهذه الفرقة تمثل الشغل الشاغل للجماعات الإسلامية على اختلاف مشاربها، وكأن الأرض عندهم قد طُهّرت من الكفر والردة والزندقة العلمانية ولم يبق فيها إلا ضلال الخوارج! وكأن خوارج اليوم ألوف مُؤَلَّفَة، وجنود مجندة، تستعد للانقضاض على الخلافة الراشدة التي ينعم تحت ظلها أهل الإسلام !.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخوارج في زماننا، لمن عرفهم، شرذمة متفرقة محدودة التأثير بالمقارنة مع بقية الفرق الضالة، يرون أن الأصل في الناس اليوم هو الكفر ويتوقفون أو يكفرون من يُظهر الإسلام ولا يَظهر عليه ناقض من نواقضه، مع فظاظة وغلظة في الطبع وكبر يذكر بسلفهم من أهل النهروان، فكم عدد هؤلاء على الساحة الإسلامية اليوم وكم نسبة ضحاياهم مقابل ضحايا العلمانيين وأنصار الصليبيين الذين لا يكادون يذكرون بسوء؟.

أمّا تهمة الخارجية، فهي تهمة قديمة تلاحق أهل السنة و التوحيد في كل زمان ومكان و لم يسلم منها الإمام أحمد ولا ابن تيمية و لا ابن عبد الوهاب ولا كل من سار على منهجهم واتبع طريقتهم واقتدى بإبراهيم عليه السلام ومن معه في البراءة من الشرك والمشركين. وأهل الباطل من كفرة مرتدين ورهبان ضالين يجدون في أحاديث الرسول r عن الخوارج مطية لصد الناس عن كل دعوة إصلاحية بتهمة الحرورية، جاهلين أو متجاهلين أن سبب تعدد ذكرهم في الأحاديث الصحيحة ليس لأن خطرهم بهذه الدرجة التي يصورها المبطلون، إنما هو لأنها أول فرقة ظهرت في من ينتسب للإسلام، فسن بها r سنة التعامل مع غيرها من فرق الضلالة. وقد زامنها وجاء من بعدها من الفرق ما يفوق ضلالها أضعافا مضاعفة بل ويخرجها من الملة بالكلية، ورغم ذلك لم يأت فيها أي حديث صحيح. فهذه السبئية قد زامنت ظهور الخوارج وفرخت الرفض والباطنية اللذان يجران على المسلمين إلى اليوم أشد الويلات بسبب دولهم التي رعت هذا الإلحاد على امتداد العصور المتأخرة. وقل مثل ذلك عن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بدعة القدر التي أدركها صغار الصحابة وكفروا مبتدعيها، وبدعة التجهم التي صارت تعصف بالأمة في الإيمان والتوحيد ولم يسلم منها إلا من رحم الله، بلوغا إلى بدعة التصوف التي أفرزت بدع الطرقية و شركيات القبورية. فهل الخوارج أضل من هؤلاء؟.....إلى أن قال:

أما المرجئة المعاصرون، أدعياء السلفية، فهم من شر طوائف البدع المنتسبة إلى الإسلام، وخطرهم أشد من خطر غيرهم؛ لأنهم ينسبون بدعتهم إلى السلف الصالح، ويزعمون اتباع الأثر والحديث، ويشتغلون بنشر تصانيف السلف النافعة، فيدسون فيها سمهم الزعاف، ويصدون عن مذهب السلف بأقوال السلف أنفسهم في التحذير من أهل البدع من أمثالهم، فتلبس حالهم على الكثير من الناس، والله المستعان.

يقولون بقول السلف في تسمية الإيمان، و يشرحونه بتعريف مرجئة الفقهاء، ويتخبطون في مسألة الكفر على أقوال: فمنهم من لا يرى الكفر بالقول و العمل إطلاقا، وينكر التكفير بالمكفرات المجمع على التكفير بها، ومنهم من يرى أنها دليل على الكفر، ومنهم من ينتقي من المكفرات، فيرى أن بعضها مخرج من الملة والبعض الآخر غير مخرج، مجاراة لهوى الطواغيت المشرعين مع الله سبحانه! فالتشريع واستحلال المحرمات القطعية والتحاكم إلى طواغيت الشرق والغرب والمظاهرة الصريحة للكفار في قتال المسلمين عندهم كفر دون كفر، وهم في المقابل يتشددون في شركيات العوام، وبعضهم لا يعذرهم بعذر إطلاقا، بل ويعتبرهم كفارا أصليين!، وقد أضافوا إلى هذا شناعات أخرى مثل تكفير الدعاة بمحض التوحيد والجهاد، واستحلال دمائهم،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتحريض الطواغيت عليهم، وتأثيم نواياهم، والحكم على خواتيمهم عند الله سبحانه، رغم أنهم لا يعتدّون بالحكم على الظواهر في تكفير المرتدين، و يحرمون دماء المشركين من غير ذمة ولا عهد صحيح!.

وأحمق من رأيت منهم دَعِيٌّ عِلْمٍ زَنِيم، يعتبر جملة من أعيان مشايخ التوحيد المعاصرين طواغيتا؛ لأنهم يحكمون بغير ما أنزل الله - على حد زعمه - ، ويقصد بذلك الخلافات العلمية، بينما يرى أن تشريع وتحكيم القوانين الوضعية الطاغوتية كفر دون كفر! فأيّ ضلال فوق هذا الضلال؟.

وقد أحدث هؤلاء الجهمية، ضوابطا وشروطا للتكفير، لا يقوم عليها دليل، ولم يسبقهم إليها عالم معتبر، كاشتراط قصد الكفر لتكفير من جاء بالكفر مختارا، والامتناع من تكفير الأعيان، والاقتصار على تجريم الفعل والتكفير العام دون الفاعل، أو تعليق حكم التكفير على شيخ أو شيخين دون غيرهم من علماء الأمة، فعطلوا بذلك حكم الردة وتوابعه، من أحكام فقهية، وولاء وبراء، وهجرة وجهاد، وفتحوا الأبواب للزنادقة للتحكم في رقاب المسلمين، فكانت بذلك الفتنة والفساد الكبير الذي توعد الله به من ترك معاداة أهل الكفر ومناصرة أهل الإسلام]ا.هـ.

بيان بعض مخاطر الإرجاء على أمة الإسلام لاسيما في واقعنا المعاصر:

١- التصور الخاطىء لحقائق الإيمان، وهذا من أخطر ما يكون إذ به تكون النجاة، فكيف بعبد يقدم على الله تعالى يوم القيامة، بإيمان لا يعرفه رسول الله r .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢- التلاعب بعقيدة الولاء والبراء، وإحلال المجاملات عوضا عنها، إذ المعاصي لا تؤثر على الإيمان؛ وبالتالي فهي لن تؤثر على الحب والبغض.

٣- تسهيل وتبرير مولاة الطواغيت، إذ الردة عند المرجئة متعذرة، والطاعة للسلاطين واجبة، مهما كان، ومهما فعل، طالما أنه ينطق بالشهادتين، بل بعضهم يرى أن الطاعة واجبة للكافر الأصلي إذا تغلب.

٤- انتشار الفواحش والمنكرات، بسبب زعمهم عدم مضرتها بالإيمان، فيجترئ العباد عليها أكثر وأكثر.

٥- التزهيد في عمل الطاعات؛ إذ إيمان أعبد الناس كإيمان أفسق الناس، فعلام التعب إذن!!.

٦- التزهيد في التوبة والاستغفار، إذ كلمة التوحيد كافية، وإن أذنب ولم يستغفر، وإن فعل ما فعل.

٧- تعظيم الدنيا وتهميش الآخرة، إذ لا شيء سيضرك في دينك؛ وتبعا لذلك في آخرتك، فأنت على خير على كل حال، فمهما أتيت من المعاصي والآثام، فإنك ناج، فإنما الإيمان في القلب.

٨- تدجين الأمة لأعدائها بتهميش فريضة الجهاد في سبيل الله، بل ومعادة أهلها.

٩- إضعاف الغير على دين الله تعالى، وعلى الإحساس بالمنكرات.

ثم أقول: بينما ذهب أهل السنة والجماعة، إلى أن الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، يزيد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حتى يبلغ ذروته، وينقص حتى يذهب ويتلاشى، ونقصانه بحسب نوع المعصية، فإن كانت مكفرة ذهبت به بالكلية، وإلا ذهب بكماله الواجب.

عقيدة السلف في مرتكب الكبيرة من أهل القبلة:

وأهل السنة والجماعة يقولون: إن مرتكب الكبيرة مما هي دون الشرك أو الكفر، تحت المشيئة الإلهية، فهو معرض للوعيد، ولكن لو شاء الله غفر له، وإنه إن مات على التوحيد، إن قدر عليه العذاب، فإنه يعذب ما شاء الله له، ثم مآله ولابد إلى الجنة، فينفعه التوحيد يوماً من الدهر،وهو يقطعون كذلك بأن هناك من المسلمين من سيدخل النار قطعا، ثم يخرجون منها، على ما دلت عليه النصوص، خلافا للمرجئة الواقفة، ويقولون أيضاً بالعذر بالجهل والتأويل المعتبر،، كما تقدم، ويحكمون على النوع بالكفر أو الشرك فيما حكم الله جل وعلا أو رسوله r عليه بذلك، ولا ينزلون الحكم على الأعيان حتى تنتفي الموانع وتتوفر الشروط، فهم يشترطون إقامة الحجة وبلوغ المَحَجَّة وفهم الحجة أيضاً، اعتماداً على ما جاء في الكتاب والسنة، على فهم سلف الأمة، فمنها قوله تعالى: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً}، فهذه جملة شرطية و لا يتحقق جواب الشرط إلا بتحقيق فعل الشرط والعكس كذلك، وجملة:{من بعد ما تبين لهم الهدى} جملة اعتراضية واقعة بين فعل الشرط وجوابه، تدل على عدم حصول فعل الشرط إلا بهذا القيد، فلا ينفذ الوعيد إلا بعد أن يتبين له الهدى، فالذين يُكَفرون المسلمين دون إقامة الحجة عليهم، ويكتفون بالعهد السابق الذي ذكره الله في سورة الأعراف في قوله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى: {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم .... الآية}، بل وبعضهم يكتفي بمجرد وجود القرآن، وإن لم يكن المسلم قارئاً له، وإن لم يكن فاهماً لمراد الله جل وعلا فيه، وهذا كله مخالفة محضة لما كان عليه الصحابة والسلف، ولي بحث لعله أن يخرج قريبا إن شاء الله تعالى في كتاب، فيه الأدلة والإجماعات المتقررة في هذا الأصل العظيم.

والحاصل أن السلف ما كانوا ينزلون الحكم على أعيان المسلمين، الذين تلبسوا بمكفر، حتى تقوم عليهم حجة الله عز وجل، فمن أصر وعاند بعد بيان الحق؛ فقد كفر بعينه، فأهل السنة لا يمنعون من تكفير المعين، كما يظن البعض ظلماً منهم وعدواناً على أهل السنة الجماعة، بل أهل السنة والجماعة يحكمون بالكفر على النوع، وينزلون هذا الكفر على العين، ولكن بشرط إقامة الحجة، وبيان الحق بدليله، بما تنتفي معه الشبه، والتأويل والجهل المعتبر، خلافاً لما عليه البعض.

وإن الواقع اليوم لينبئ أن هناك خللا واضحا جليا في عامة الشعوب والمجتمعات الإسلامية، في فهم حقائق هذا الدين، إلى حد وصل فيه العبد أن يصلي ويصوم، وفي نفس الوقت يطوف حول الأضرحة، ويحكم بالطاغوت، وينذر ويذبح لغير الله، والمخرج الحقيقي هو في تعليمهم ورفع الجهل عنهم؛ لكي تستبين سبيل المؤمنين من سبيل المجرمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإرجاء الفقهي وخطورته:

النوع الثالث من المرجئة: هم الذين اتفقوا مع أهل السنة والجماعة في إدخال الأعمال في مسمى الإيمان، وأن العبد إذا ترك جنس العمل، وارتكب ما ينقض إسلامه، أنه يكفر بذلك، ولكنهم قالوا: لم يكفر لذات العمل، وإنما لأن هذا العمل صار قرينة على ما قام في قلب صاحبه من الجحود وعدم اليقين أو الاستحلال ونحو ذلك، فجعلوا الأعمال مجرد قرائن، تدل على ما في القلوب.

بينما قال أهل السنة والجماعة، بل العمل المكفر في ذاته يَكْفُر به صاحبه، سواء استحل أو لم يستحل، وسواء أيقن أو جحد؛ لأن الاستحلال والتكذيب والشك والجحود كل واحدة من هذه الأمور كفر مستقل.

وهذا النوع من الإرجاء، سماه العلماء **(الإرجاء الفقهي)**، **وسُمِّيَ أهْلُه بـ(مرجئة الفقهاء)**، وهو قول حماد بن أبي سليمان وأبي حنيفة النعمان، و قد ذهب بعض أهل العلم، إلى إن الخلاف بينهم وبين أهل السنة والجماعة خلاف لفظي؛ لأنهم يُكَفرون بترك العمل وفعل النواقض، ولكنهم اختلفوا مع أهل السنة والجماعة، في هل هذا العمل هو سبب الكفر، أم أنه قرينة على ما قام في القلب من الكفر، وفي هذا القول نظر فإن الخلاف حقيقي لا لفظي، فإن مرجئة الفقهاء بهذا الاعتبار يُكَفِّرُون بالمعتقد فقط، ويجعلون العمل قرينة عليه، بينما أهل السنة والجماعة يُكَفرون بالعمل المجرد، بغض النظر عن المعتقد، فكيف يكون الخلاف لفظيا؟!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التكفير حكم شرعي لا يجوز التنكر له

واعلم رحمك الله، أن التكفير حكم شرعي كغيره من الأحكام الشرعية، لا يجوز بحال من الأحوال التنكر له ولا السعي في التلبيس على الناس فيه، ولا تهميشه، فضلا عن إلغائه، ولو بدعوى ما وقع من بعض الطوائف من الانحراف في مسألة التكفير، خاصة في التنزيل على الأعيان، فلا يجوز أبدا التعامل بردود الأفعال، بل لا بد من العدل والإنصاف، فنثبت التكفير الصحيح المنضبط، ونرد التكفير الجائر المنحرف، وإلى هذا المعنى أشار النبي r ، كما في الصحيحين عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"إِذَا كَفَّرَ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا"، وفي لفظ:"أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ يَا كَافِرُ. فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ".

وتأمل في قوله r :"إذا كَفَّرَ الرَّجُلُ أخاه"، وفي قوله:"إن كان كما قال"؛ لتفهم أن النبي r أثبت أصل التكفير، وأن المقصود به هنا، تكفير من الأصل فيه الإسلام، فالأصل أنه أخ لنا، ثم بين r أن من كفر بغير مكفر، أو من لم يستحق التكفير، فإنها ترجع عليه، وهذا زجر ووعيد شديد عن التكفير غير المنضبط بضوابط الكتاب والسنة على فهم السلف، وفي نفس الوقت هو دال على أنه إن كان كما نقول؛ فإن هذا من الدين، أي تكفير من كفره الله ورسوله من الدين، ولا نتنكر لذلك أبدا، ولكن بعد توفر الشروط وانتفاء الموانع، فيما يتعلق بتنزيل ذلك على الأعيان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولقد كفر السلف أقوالا وأعمالا، حتى عقد العلماء بابا خاصا في كتب العقائد، وهو الباب الذي يتكلم عن نواقض الإسلام، وعقدوا بابا خاصا في كتب الفقه، فيما يتعلق بأحكام المرتدين عن الإسلام. فتنبه وتأمل، حتى لا تقع في قول المرجئة، ولا تجنح إلى قول الخوارج.

أسباب وُقُوع فتنة الإرجاء:

واعلم رحمك الله، أن أصل الإرجاء كان بسبب أربعة أمور هامة، عليها مداره وأُسُّهُ وأَسَاسُه، ألا وهي:

أولا: معارضة لقول الخوارج، وكما تقدم كان ذلك، كردة فعل لقول الخوارج الخبيث.

ثانيا: الفرار من فتنة السلطان، وبطشه، وقهره.

ثالثا: الطمع في عطايا السلاطين وتسهيلاتهم، وطلب جاههم، وتولي الأعمال لهم.

رابعا: الخوف من سفك الدماء وضياع الأموال وزعزعة الأمن.

ثم إنهم أتوا بها، عمياء بكماء صماء، فتكلموا في هذه الأمور الثلاثة على سبيل التعميم والإطلاق، حتى إنهم لا يكادون يرون أن أحدا يكفر بعد النطق بالشهادتين، وحتى جَرَّمُوا وحَرَّمُوا الخروج على الحاكم وإن أتى كفرا بواحا عندنا فيه من الله برهان، وكانت هناك شوكة ضاربة، بل ورأوا وجوب الطاعة له ولو كان كافرا أصليا إذا تغلب، بل وبعضهم يكاد يقولها بلسان مقاله بعد أن دل عليها لسان حاله، أن مِنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

موانع التكفير أن تكون حاكما، فعندهم الحاكم لا يكفر أبدا!!، وحتى إنهم قدموا المحافظة على الدماء والأموال والأمن على المحافظة على توحيد الله تعالى ودينه وشرعه، والله تعالى يقول:{وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة:١٩١]، ويقول:{وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة: ٢١٧]، والفتنة هنا هي الشرك بالله تعالى.

احذر من مشابهة الخوارج:

واعلم رحمك الله، أن العبد قد يقع في مشابهة الخوارج من حيث لا يشعر، وإن كان قد خالف الخوارج في كونه يكفر بمكفر شرعي، وذلك من ثلاثة أوجه:

١- تكفير من لا يستحق التكفير.

٢- عدم فهم الدين على فهم النبي r وأصحابه.

٣- الاعتقاد ثم الاستدلال.

فإن هذه المسائل الثلاث كانت السبب الأساسي والرئيس في جنوح الخوارج، إلى الوقوع في هذا القول الفاسد في شرع الله تعالى، والتعصب لذلك؛ حتى خرجوا على المسلمين بأسيافهم.

مثال ذلك، الذين لا يفرقون بين النوع والعين في مسألة إنفاذ الوعيد، أو ما يعرف بتكفير المعين من المسلمين، الذين تلبسوا ببعض النواقض - واحد أو أكثر – فإنك ترى بعض العاملين في الساحة الدعوية، وربما يكون من بعض العلماء، أو من بعض طلبة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العلم، يقع في مثل هذا المأزق الخطير، الذي يؤول إلى تكفير من لا يستحق التكفير من المسلمين.

بل ويزداد الأمر خطورة عندما يجنح هؤلاء، إلى التعصب لرأيهم الفاسد، ويرمون المخالفين لهم بالتجهم والإرجاء، بل لربما عمد بعضهم إلى تكفير من يخالفه في قوله الفاسد.

مسألة العذر بالجهل والتأويل المعتبر في الأصول والفروع لأهل القبلة

واعلم أن هذا الأمر، لا يقل خطورة على المسلمين، عن غيرهم من أصحاب الأهواء؛ وذلك لصدوره في بعض الأحيان، ممن ترفع إليهم الأبصار، ويَحْسُنُ الظَّنُّ بهم، وقد يكونون أهلا لذلك، ولكنها زَلَّةُ العَالِم، التي قَدْ تكون زَلَّة لِعَالَم.

وليس بخاف، ما أحدثته هذا المسألة من الشرخ الكبير، والفتنة في صفوف العاملين في الساحة الدعوية، فكانت وبالا ورِزْءً على الإسلام وأهله، بل تعدى الأمر ذلك، واستفحل، عندما ظهرت آثار ذلك على الساحة الجهادية، عندما يختلف المجاهدون في سبيل الله؛ فيقع التنازع؛ ويحصل الفشل؛ وتذهب الريح، والله تعالى يقول: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال:٤٦].

وليس معنى ذلك، إغلاق باب التكفير، حتى يصبح الدين ألعوبة في أيدي الزنادقة، وأهل التلون في الدين، المتلاعبين بشرع رب العالمين، ولكن علينا أن نثبت ما أثبته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشارع، وأن ننفي ما نفاه ، ونقيد ما قيده، لنصيب الحق والعدل والإنصاف، الذي ابتلينا بإصابته والقول به والعمل، فالعواطف، والتصورات الخاصة، والاعتقادات المسبقة، والفُهُوم المغلوطة للمسائل الشرعية، لا محل لها عند القيام لله تعالى، للتفكر؛ بغية إصابة الحق؛ للعمل به.

أسباب الانحراف في هذه المسألة الكبيرة الخطيرة

ويمكن تلخيص أسباب الانحراف في هذه المسألة في نقاط:

١ - عدم النظر في المسألة من أصولها من كلام السلف ابتداء، وذلك أن البعض يكتفي ببعض كتابات المعاصرين، أو أقوال بعض الخلف، ممن عَظُمُوا في نفسه؛ فقلدهم، وظن الحق في قولهم، فتعصب، واستمسك بهذا القول، وليس هذا اتهاما لمن أخذ عنهم هذه المسألة، ولكن العبد إذا وجد من أهل العلم، الذين لا يُتَّهَمُونَ في دينهم ببدعة، ولا مداهنة للسلاطين، ولا دخول عليهم، وليست له هِمَّةٌ سوى إصابة الحق، والدعوة إلى منهج السلف، فهم شركاء أصليون له، في أصل وأسِّ دعوته، أقول: إذا وجد العبد من يخالفه من أمثال هؤلاء، تعين عليه، أن يرد المسألة إلى أصولها الكبار، وأن يحاول جاهدا، أن يصيب قول الصحابة **y** ، والسلف في هذه المسألة؛ ليخلص إلى الحق الصافي، والقول الفصل في هذه المسألة أو تلك، فإن الله تعالى أمرنا أن نرد إلى أصحاب النبي **r** ، في أعظم القضايا، ألا وهي قضية الإيمان، وفي مقابلة الإيمان الكفر، فالصحابة إذاً، علموا ما هو الإيمان، وما هو الكفر، وتعاملوا مع المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، والمرتدين، ولهم في ذلك سبيل واضحة، أحال الله تعالى عليها في كتابه،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلابد من البحث عنها؛ لسلوكها، واتباعها، غير عابئين بآرائنا، ولا بما كنا نعتقده من قبل، ولا بما قال به بعض من نعظمهم، دعوة وعلما وجهادا.

قال تعالى في إيمان الصحابة: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ} [البقرة:١٣٧-١٣٩]، وقال في سبيلهم: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}[النساء:١١٥]، ثم قال في ضرورة اتباعهم بإحسان: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة:١٠٠].

٢- عدم جمع الأدلة والتوفيق بينها والتأليف، على هدي وطريقة السلف، في هذه المسألة، فإن الحق لا يتعارض ولا يختلف، ولهذا كان قول السلف واحدا في هذه المسألة، وغيرها من المسائل كذلك، لأن الطريقة المتبعة في ذلك واحدة.

٣- الأخذ بأقوال بعض العلماء، وترك أقوال علماء آخرين، ربما كانوا من السلف، بل وأقعد وأعلم، كنقلهم عن القرافي إجماعا متوهما مزعوما زعمه، في حين أن القرافي رحمه الله تعالى، قد تكلم العلماء في عقيدته، وكذلك ينقلون عن السيوطي، وهو كذلك، ويتركون كلام السلف الصريح الواضح البين في ذلك، فتنبه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤- الاعتداد بإجماعات بعض أئمة الدعوة النجدية، ولا يلتفتون إلى أن الخلاف في ذلك محفوظ، وواقع بين نفس هؤلاء الأئمة، فضلا عن غيرهم، وفي نفس الوقت يُعْرِضُون عن الإجماعات المنقولة، في العذر بالأعذار الشرعية المعتبرة عن السلف الصالح.

٥- حصرهم الشرك في توحيد الألوهية، وهذا جهل وتخبط، فإن الله تعالى أثبت وقوع الشرك في جميع أنواع التوحيد، فالتفريق بين المتماثلات ضرب من الجهل واتباع الهوى، وإذا عذرنا في نوع فلابد أن نعذر في غيره، طالما أنه عذر معتبر شرعا.

٦- النقل عن أحد الأئمة، والاحتجاج بقوله، في حين أن نفس الإمام الذي يُنقل عنه، يفرق بين النوع والعين، ويعذر بالأعذار المعتبرة شرعا، كالجهل والتأويل المعتبر، وخذ على ذلك أربعة أمثلة، ابن جرير، ابن تيمية، وابن القيم، ومحمد بن عبد الوهاب، فإننا نعلم يقينا، - إلا عند من ضعف جَمْعُهُ واضمحل علمه في ذلك – أن لكل واحد من هؤلاء الأئمة، أقوالا محفوظة واضحة، في التفريق بين النوع والعين، واعتبار الأعذار المقررة شرعا، وقد جمعتها في كتابي (العذر بالجهل في ميزان السلف وكشف الشبهات) الذي ستأتي الإشارة إليه بعد قيل، وإن من أعجب ما سمعت وقرأت في هذا الباب، ما ينقلونه عن ابن القيم، في كتاب طريق الهجرتين، من الإجماع على أنه لا عذر بالجهل، ثم يغفلون كلام ابن القيم الصريح، في كتبه الأخرى، حيث يصرح، وبكل جلاء ووضوح، أن هناك عذرا بالجهل في التوحيد، فأين ذهبت العقول؟!، ولكنهم قد ضاق عطنهم، عن أن يفهموا، أن ابن القيم في طريق الهجرتين، إنما يتكلم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عن الكفار الأصليين، وفي كتبه الأخرى يتكلم، عمن وقع في مكفر من المسلمين، وقد تقدمت النقولات في ذلك، وأما ابن تيمية فأقواله أكثر من أن تذكر، وأشهر من أن تنكر، وقد تقدم نقل بعضها، وأما محمد بن عبد والوهاب، فعنه، وعن بعض أئمة الدعوة النجدية، بل حتى عن ولد الشيخ (عبد الله)، أقوال محفوظة في العذر بالجهل في التوحيد.

٧- عدم التفريق، بين الكافر الأصلي، والمنافق، والمتحقق بالردة، وبين المسلم الذي وقع في مكفر، ومعه مانع معتبر شرعا من إلحاق حكم الكفر به، من حيث اعتبار المكفرات، فإن المتأمل في الأحاديث، وكتب السلف؛ يعلم يقينا ويقطع، بأن السلف لا يعتبرون الواقع في الكفر من المسلمين كافرا أصليا، ولا مرتدا، حتى تتوفر في حقه الشروط، وتنتفي الموانع، وإلا فما معنى: أبواب الردة في كتب الفقه؟!، وما معنى الاستتابة؟!، وما معنى إقامة الحجة؟!، وهل نقول مثل هذا القول مع الكفار الأصليين؟!!، فمثلا هل نقول: بأن اليهودي أو النصراني، لا يكفر حتى يُسْتَتَاب، أو حتى تُقَام عليه الحجة، لا شك أن هذا القول كفر بالله تعالى، إذ لا خلاف بل هو إجماع حقيقي، أن اليهود والنصارى كفار، وأن من شك في كفرهم، أو تردد؛ فهو كافر كذلك؛ وعليه فتنزيل آيات الكفر الأكبر على المسلم الذي أتى مكفرا بدون اعتبار للتفريق بين النوع والعين، ولا اعتبار للموانع الشرعية، وحصر الموانع في الخطأ والإكراه، كل هذا مخالفة صريحة لما كان عليه السلف الصالح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٨- اختلاق أقوال، ثم نسبتها إلى السلف، وعلينا أن نعلم، أننا إذا أردنا، أن نحقق النسبة الصحيحة إلى السلف؛ فعلينا أن نقول قولا، لا يعترض علينا فيه السلف، فكيف بقول انعقد الإجماع على خلافه عند السلف، فالسلف قاطبة في القرون الثلاثة المفضلة، يفرقون بين النوع والعين، ويشترطون إقامة الحجة وفهمها، في حالة المسلم الواقع في المكفر.

٩- اختلاق أصول مخالفة لأصول السلف، ومن ذلك تفريقهم بين الكفر والشرك، من جهة إمكانية العذر في الكفر، وعدم إمكانيته في الشرك، مع أن الكفر والشرك، لا فرق بينهما البتة، من جهة أحكام الدنيا والآخرة، والنصوص واضحة في ذلك، وعلى هذا كان تعامل السلف، كما تقدم تقريره من قبل، ومن الأصول الفاسدة كذلك، دعواهم التفريق بين الأصول والفروع، في إمكانية العذر بالجهل، وقد تقدم رد ابن تيمية عليهم في ذلك ونسبة عدم التفريق إلى السلف، وكذلك جعل مسائل جلية، وأخرى خفية، وينقلون هذا عن ابن تيمية، مع أن ابن تيمية، عذر في جميع ذلك، فعذر عباد القبور بالجهل، وعذر الجهمية بالتأويل، بل حتى بعض الحلولية كذلك، مما يدل على أن المقصود بالجلي والخفي، جلاء العلم أو خفائه، فالمسألة تدور على العلم وجودا وعدما، مع استصحاب الشبه، وحال العبد.

١٠- قول بعضهم بما يشابه قول المعتزلة بـ(المنزلة بين المنزلتين) وذلك أنهم يقولون لا نسمي الواقع من أهل القبلة في الكفر ابتداء كافرا، ولا نسميه مسلما، ثم هم يعاملونه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معاملة الكافر، ويفوضون أمره إلى الله تعالى، ويجعلون سبب إقامة الحجة عليه؛ إما ليدخل في الإسلام، أو ليثبت عليه مسمى الكفر، وما يتبعه من العقوبة والحد.

١١ - مُكَابَرَات عِلْمِية، حيث تجد الواحد منهم، لا يقر بالحقائق التي هي من المسلمات، ويَتَحَذْلَق بالتَّعَنُت والجمود على فهم معين أو لفظ معين، مع أن المعاني واحدة، ويظنون أنهم على شيء، وأن ذلك يغني عنهم شيئا، كالذين لا يريدون أن يسلموا بأن الخطأ والتأويل، حَقِيقَتُهُ حُصُولِ جَهْلٍ بمراد الله تعالى ورسوله r ، فإنه وإن سميناه خطأ أو تأويلا فاسدا، فإنه جهل بالحق، وعدم علم به، **وإن أَبَى مَن أَبَي**.

١٢ - إطلاقهم القول بقاعدة :**(من لم يكفر الكافر فهو كافر)**، وهذا إطلاق باطل وقول ليس في محله أصلا، وقد وقع فيها إفراط وتفريط، فمن قائل لا يكفر من لم يكفر اليهود والنصارى والكفار الأصليين؛ وهذا إفراط، بل هو ملحق بهم، ومن قائل يكفر كل من توقف في تكفير بعض أهل القبلة ممن تلبس بالكفر من جهة النوع، وإن لم يثبت له كفره تعينا، من جهة توفر الشروط وانتفاء الموانع وهذا تفريط، وغلو في تكفير المعين من أهل القبلة، فقد اختلف السلف بعد الصحابة في كفر تارك الصلاة، فهل نقول بهذه القاعدة في حقهم؟!!، معاذ الله، وكذلك اختلف السلف في كفر الحجاج مثلا، فقد كان عامة علماء الحجاز يكفرونه، ومع ذلك قال طاووس وغيره، عجبا لإخواننا من أهل العراق كيف يتوقفون في كفر الحجاج، فسماهم إخوانا.

فهذه القاعدة إذا إنما تُنزل على الكفار الأصليين نوعا وعينا، وعلى نوع العمل المُكَفِّر في أهل القبلة، وعينا إذا توفرت الشروط وانتفت الموانع، أي إذا قامت الحجة،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والخلاصة أن هذه القاعدة صحيحة في الكفار الأصليين، وفي نوع المكفرات التي يقع فيها أهل القبلة، بمعنى أن من قال بأن قول القدرية مثلا في القدر، أو الجهمية في الأسماء والصفات مثلا، ليس كفرا فهو كافر، وأما من جهة الأعيان من أهل القبلة، فمن ثبت له كفرهم بمكفر شرعي صحيح، وظهر له أن الحجة قد قامت على هذا المعين فكفرهم؛ فهذا تكفير منضبط، وليس له أن يلزم به غيره، ولا يقال فيه من لم يكفر الكافر فهو كافر، فإن تنزيل الأحكام على أهل القبلة مسألة اجتهادية، لأنها متوقفة على قيام والحجة، وهذه مسألة تتفاوت من شخص إلى آخر.

فقد كفر الشافعي حفص الفرد ولم يلزم غيره بذلك، ولم يقل من لم يكفر الكافر فهو كافر، وكذلك فعل الإمام أحمد في إحدى الروايتين عنه في تكفيره لابن أبي دؤاد، ومثل هذه الأمثلة قد وقع منها قدر معتبر في زمان السلف والخلف، حيث كفر بعض أهل العلم أقواما من أهل القبلة، ولكن لم يلزموا الآخرين أن يقولوا بقولهم، ولا قالوا:(**من لم يكفر الكافر فهو كافر**)؛ لعلمهم أن هذه القاعدة ليس هذا محلها، فتنبه بارك الله فيك.

حتى تجارى هذا الداء بأقوام فقالوا: إن من يعذر بالجهل في مسائل الشرك الأكبر فهو كافر، ومن لم يكفره فهو كافر.

ولاشك أن هذا القائل قد بلغ شأوا غليظا من الغلو والتنطع والتشدد، بل هو مسلك من مسالك الخوارج، لا كثرهم الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويلزم هؤلاء أن يقولوا بكفر جماعات غفيرة من أهل العلم، ممن يقولون بالعذر بالجهل في الأصول والفروع، ويلزمهم تكفير جميع العلماء من الخلف والسلف الذين لم يكفروا، بعض الأعيان الذين كفرهم بعض أهل العلم بمكفر ما، فما أقبح الجهل، وما وأفظع الغلو والتطرف.

الفرق بين متعلق القتال ومتعلق التكفير:

فائدة: ولنعلم أن متعلق القتال هو الامتناع عن شعائر الإسلام الظاهرة أو ظهور الكفر البواح، بينما متعلق تكفير المعين من أهل القبلة، هو إقامة الحجة من توفر الشروط وانتفاء الموانع.

فالولاء والبراء والجهاد ماض قائم، وإن اختلف الناس في كفر فلان أو فلان من المنافقين، فالاتفاق حاصل على قتاله والخروج عليه إن امتنع عن التزام الشرع وكانت ثمة شوكة ظاهرة. والله أعلم.

١٣ - دعواهم أن مقتضى القول بالعذر بالجهل في المكفرات، يعني أن يجتمع إيمان وكفر في العبد وهذا محال، وما عَلِمَ هؤلاء أن السلف عندما فَرَّقُوا، قالوا الذي لا يجتمع هو كُفْرٌ يَعْلَمُه العبد مع الإيمان والإسلام؛ وذلك لأن المسلم المتلبس بالكفر ومعه عذر معتبر شرعا لا يسمى كافرا أصلا، حتى نقول كيف اجتمع فيه كفر وإسلام؟!، ثم انظر واعتبر، فهؤلاء المنافقون في زمان النبي r ، كان يعلم النبي r بعض أعيانهم، ومع هذا كان يعاملهم بما يظهرون من حالهم على الإسلام، فتأمل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٤- تفريقهم بين الأصول والفروع في إمكانية وقوع الجهل المعتبر فيها، فيعذرون في الفروع ولا يعذرون في الأصول، وهذا تفريق حادث، بل نقل ابن تيمية عن الصحابة والسلف **y** عدم تفريقهم بين الأصول والفروع في هذه المسألة، فالكل يمكن أن يقع فيه هذا الجهل المعتبر شرعا.

١٥- دعواهم أن في القول بالعذر بالجهل تكذيبا لله تعالى، حيث أن الشرع سمى هذا العبد الواقع في الكفر كافرا أو مشركا، فكيف نسميه مسلما، وهذا القول قد جنحوا به من عند أنفسهم، بعيدا عن تعامل النبي **r** وأصحابه **y**، وهو فرع عن عدم تفريقهم بين تنزيل الأحكام على المعينين من أهل القبلة والكفار الأصليين، فالنبي **r** وأصحابه **y** والسلف الصالح، لم يتوقفوا أبدا في تسمية الكفار الأصليين بالكفر أو الشرك، وهذا محل إجماع منهم، ولكنهم في نفس الوقت لم يسموا أعيان المتلبسين بالكفر أو الشرك من أهل القبلة بذلك، حتى تقوم عليهم الحجة، التي من خالفها إعراضا أو عنادا واستكبارا؛ كان كافرا، وهو المعبر عنه بتوفر الشروط وانتفاء الموانع.

لا يلزم من الفعل تسمية الفاعل به بإطلاق:

وإليك مثالا دالان على التفريق بين مسمى الفعل وتسمية الفاعل به وإطلاق الحكم عليه، فهاهم أقوام في زمان عام الرَّمَادَة سرقوا، ولم يُقَم الحد عليهم، لوجود شبهة تمنع من ذلك، فأنت ترى أن الفعل سرقة، ولكن الفاعل ليس سارقا ولا يستحق الحكم عليه بذلك ولا حَدَّ عليه، وكذلك الذي يَطَؤُ في شبهة، فصورة الفعل زنا، ولكنه لا يسمى زانيا، ولا حد عليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٦ - دعواهم أن من قال بالعذر بالجهل في أصول الدين؛ فقد قال بقول الجهمية، بل بعضهم يصرح بأن هذا القائل جهمي جلد، ولا شك أن هذا ضلال مبين، وفساد في تصور المسائل الشرعية والحقائق الإيمانية، ولكي تتصور المزلق الذي وقعوا فيه، أقص عليك طريقة استنباطهم لهذا الحكم الفاسد الجائر، حيث قالوا بأن الجهمية لا يكفرون بالأعمال الظاهرة وإنما بالقلب فقط، والذين يعذرون بالجهل لا يكفرون العامل بالشرك، وبالتالي فهو جهمي؛ لأنه اجتمع مع الجهمية في كون العمل الشركي لم يَصِر مخرجا للعبد عن الملة، فالنتيجة واحدة، ولا شك أن هذا انحراف واضح في تصور هذه المسألة، وطريقة الاستدلال، فإن أهل السنة والجماعة عندما قالوا بالعذر بالجهل - والذي هو مقتضى النصوص وتعامل السلف -، لم يقولوا بأن العمل الذي وقع فيه هذا العبد من أهل القبلة ليس كفرا، ولم يقولوا ليس مكفرا، بل أثبتوا أن العمل كفر بذاته، مجردا عما قام بالقلب من المعاني، ولكنهم درؤوا تنزيل هذا الحكم على أهل القبلة؛ باعتبار وجود مانع شرعي منع من ذلك، فأهل السنة يقولون بأن من الأعمال الجَوارِحِيَّة ما يكون كفرا بذاته، ويطلقون عليها مسمى الكفر من جهة نوعها، بغض النظر على القلب، بينما الجهمية لا يرون أن هناك عملا في الظاهر يكون كفرا بذاته، وإنما الكفر عندهم بالقلب فقط، فأين هذا من هذا؟!!.

١٧ - دعواهم أن العذر في أصول الدين يعني عدم تحقيق الكفر بالطاغوت، وهذا منكر من القول وزور، فإن العذر في الكفر كالعذر في الشرك، ولا فرق أبدا كما تقدم، وقد جاءت الأدلة وتعامل الصحابة والسلف دالة على اعتبار العذر المعتبر مانعا من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التكفير في كل ذلك، بلا تفريق، فإن قالوا أنتم تحكمون بإسلام المشرك، فقل لهم وأنتم تحكمون بإسلام الكافر. إذ أنهم كما تقدم يعذرون من وقع في بعض المكفرات بجهل منه، مع أن أحكام الكفر والشرك واحدة في الدنيا والآخرة كما تقدم. فتأمل.

١٨ - دعواهم أن العذر بالجهل يعني هدم عقيدة الولاء والبراء، وهذا من الجهل العظيم منهم بمنهج السلف وتعاملهم، بل وبشيء من أصول المعتقد، فإن من عقائد أهل السنة والجماعة الواضحة الراسخة، أن العبد من أهل القبلة يجتمع فيه حب وبغض وولاء وبراء، بحسب ما معه من طاعة أو معصية، وإليك بعض النقولات التي توضح لك أن السلف كانوا يباشرون ذلك عمليا، حتى إنهم يحترزون ويحتاطون لصلواتهم، فلا يصلون خلف الفاجر والمبدع لا سيما الداعية، وأصحاب البدع الكفرية، وإن لم يحكموا على أعيانهم بالكفر، ففي طبقات الحنابلة:[قال:المروذي سئل أحمد أمر في الطريق فأسمع الإقامة ترى أن أصلي فقال: قد كنت أسهل فأما إذ كثرت البدع فلا تصل إلا خلف من تعرف]، وقال اللالكائي في (اعتقاد أهل السنة) وهو ينقل عقيدة سفيان:[يا شعيب لا ينفعك ما كتبت حتى ترى الصلاة خلف كل بر وفاجر والجهاد ماض إلى يوم القيامة والصبر تحت لواء السلطان جار أم عدل قال شعيب فقلت لسفيان يا أبا عبد الله الصلاة كلها قال لا ولكن صلاة الجمعة والعيدين صل خلف من أدركت وأما سائر ذلك فأنت مخير لا تصل إلا خلف من تثق به وتعلم أنه من أهل السنة والجماعة يا شعيب بن حرب إذا وقفت بين يدي الله عز و جل فسألك عن هذا الحديث فقل يا رب حدثني بهذا الحديث سفيان بن سعيد الثوري ثم خل بيني وبين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ربي عز و جل]ا.هـ. فليس من لوازم العذر بالجهل المعتبر انتفاء الولاء والبراء، بل هذه أوهام في رؤوس هؤلاء، هدانا الله تعالى وإياهم سواء السبيل، فمنهج السلف واضح المعالم، في التحذير والهجر والتنفير عن أهل الضلال والزندقة، والبدع المكفرة وغير المكفرة، فكانوا يوالون ويعادون، وفي نفس الوقت يعذرون بالأعذار المعتبرة شرعا، ويفرقون بين النوع والعين في إطلاق الأحكام على الأعيان من أهل القبلة وتنزيلها عليهم. **فافهم رعاك الله**، واسْعَ في التَّحَقُّق بمنهج السلف، ودَعْكَ من مُخالفات واختلاف الخلف، وغُلُوِّ بعضهم.

١٩ - الاعتماد على طريقة مبتدعة، اعتزالية، في رد الأدلة الدالة على العذر بالجهل لأهل القبلة إذا وقع أحدهم في المكفر، وذلك بقولهم:هذه قضايا أعيان لا عموم لها، فلا يلحق بها ما في معناها مع المسائل، ولا نأخذ منها أحكاما عامة، وهذه قاعدة باطلة، بل لا أصل لها، بل هي من طرق المعتزلة الضلال.

وهذه الطريقة يستعملها بعضهم للحيدة والتخلص من الأدلة الصريحة الدالة على إثبات العذر بالجهل والتأويل المعتبر، في مكفرات مجمع عليها، وقع فيها بعض أهل القبلة، وعَذَرَهُم السلف فيها، سواء في زمان النبي r ، أو بعد وفاته r في زمان أصحابه y .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٩ / ٢٥٣):[وَالْعَجَبُ مِنْ قَوْمٍ أَرَادُوا بِزَعْمِهِمْ نَصْرَ الشَّرْعِ بِعُقُولِهِمْ النَّاقِصَةِ وَأَقْيِسَتِهِمْ الْفَاسِدَةِ. فَكَانَ مَا فَعَلُوهُ مِمَّا جَرَّأَ الْمُلْحِدِينَ أَعْدَاءَ الدِّينِ عَلَيْهِ فَلَا الْإِسْلَامَ نَصَرُوا وَلَا الْأَعْدَاءَ كَسَرُوا . ثُمَّ مِنْ الْعَجَائِبِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَنَّهُمْ يَتْرُكُونَ أَتْبَاعَ الرُّسُلِ الْمَعْصُومِينَ الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ إِلَّا الْحَقَّ وَيُعْرِضُونَ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ وَيُقَلِّدُونَ وَيُسَاكِنُونَ مُخَالِفَ مَا جَاءُوا بِهِ مَنْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَعْصُومِ وَأَنَّهُ يُخْطِئُ تَارَةً وَيُصِيبُ أُخْرَى وَاَللَّهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ].ا.هـ.

٢٠- الاستدلال بأدلة، من الكتاب والسنة، ثم فهمها على غير فهم السلف لها، فيذكر أحدهم آية من القرآن، ثم يقول: الآية لم تعذر، مع أنها أثبتت العلم لهم، كقوله تعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ} [التوبة:٦]، وكأن هذه الآية أُوحِيَ بها إليهم ابتداء؟!، ولم ينقلها إلينا الصحابة الكرام y عن نبي الهدى r ؟!!، والسؤال الذي يطرح نفسه، أليست هذه الآية قد علمها الصحابة والسلف من بعدهم؟!، ونحن والمخالف نقطع بأنهم علموها ونقلوها إلينا، فنقول هل فهموها بفهمكم، فلم يعذروا أحدا من المسلمين، وقع في مكفر قط، وهل أطلقوا الحكم مباشرة، وسموا هذا المسلم بالكفر والشرك، دون اعتبار لحاله، من توفر الشروط وانتفاء الموانع؟!، الجواب قطعا وبكل يقين (لا)، ولابد أن ننتبه لأمر مهم وخطير، أننا لا نتكلم عن أن السلف ما كانوا يكفرون، بل نتكلم عن أنهم كانوا يكفرون بضوابط شرعية، بمعنى أنهم كانوا يعذرون من يستحق العذر، ممن لم تتوفر في حقهم الشروط ولم تنتف الموانع، وإنما قلت هذا حتى لا يأتينا أحد بنقل عن أحد السلف، ثم يقول ها هم السلف يكفرون، فنقول حيث كَفَّرُوا، فهم قطعا استصحبوا الضوابط الشرعية، بدليل أنهم لم يكفروا آخرين، ممن وقع في الكفر، فدل على أنه ليس كل من وقع في الكفر من أهل القبلة؛ كفر ابتداء، وألحقنا به

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاسم ثم ننظر في حاله، وإلا فما فائدة إقامة الحجة إذا، إلا إدخاله في الإسلام، والمعنى أننا لم نعذر أصلا، وهذا باطل قطعا.

حجة عليهم لا لهم:

ومن عجائب القوم التي لم يفطنوا أنها حجة للقول الحق، باعتبار الجهل المعتبر عذرا في أصول الدين وفروعه، أنهم يقررون أن العبد لا يعذب حتى يبعث الله إليه رسولا، ويحتجون بقول الله تعالى:{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [الإسراء:١٥].

فإذا سألتهم لماذا لن يعذب الله حتى يبعث رسولا؟، لم يجدوا جوابا إلا أن يقولوا؛ لأن الحجة لم تبلغهم ولم تقم عليهم، والمعنى أنهم كانوا جاهلين جهلا هو عند الله معتبر، فعذرهم الله تعالى به، فيقال لهم: كيف تتصورون أن الله تعالى سيعذر أقواما بالجهل وهم من الكفار الأصليين؛ لأن الرسالة لم تبلغهم، وحجة الله لم تقم عليهم، وسيقبل منهم قولهم:{ما جاءنا من بشير ولا نذير}، وذلك في العرصات بعد انكشاف الأمور، والتحول من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، فكيف لا يكون نفس هذا الجهل عذرا في أحكام الحياة الدنيا؛ لأقوام انتسبوا إلى الإسلام وكانوا يسألون عن دينهم؛ فخفيت عليهم بعض مسائل العقيدة فوقعوا في الشرك، أليس هؤلاء أولى بالعذر من الكافر الأصلي، الذي صرح بعبادة غير الله، وأشرك به بأنواع من الشرك والكفر، ومع هذا سيعذره الله تعالى إن أدلى على الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى بهذه الحجة :{ما جاءنا من بشير ولا نذير}، فكيف بعبد نطق بالتوحيد وعمل بما علم منه، وهو باحث عن الحق محب له، لا بمعرض ولا معاند ولا مستكبر، بل مسترشد سائل، ثم وقع في خلل في التوحيد، سواء في أصوله أو فروعه، أفلا يقبل الله تعالى منه أن يقول:{ما جاءنا من بشير ولا نذير}، أي لم يبلغني شيء فيما يتعلق بهذه المسألة، لأعمل به. فتأمل.

مثال حاسم وقوي

وإليك هذا المثال لتتضح لك المسألة:

إننا نعلم يقينا أن كفر أهل الكتاب كان من جراء تعاطي جملة من المكفرات القولية والعملية، فمن اتخاذ للأحبار والرهبان أربابا من دون الله، إلى عقيدة التثليث، إلى استحلال أموال الناس بالباطل، إلى انتقاد الشارع والاستدراك عليه، والقول على الله تعالى بالعظائم، إلى الكذب والافتراء على الله تعالى ورسله.

فإذا أردت دعوة نصراني ما إلى الإسلام، فلا شك أنك ستبدأ معه بالقضية الأكبر والأعظم في حاله، وهي قضية التثليث؛ باعتبار أنها باب لهدم ما عداها من الكفر والضلال، فتأخذ في الجدال بالتي هي أحسن معه، حتى إذا انتصف الليل؛ اقتنع هذا النصراني بالإسلام، ونطق بالشهادتين، ثم أخلد إلى النوم، على أمل المواصلة في الغد، فاخْتَرَمَتْهُ المَنِيَّةُ من ليلته تلك، وهو لَمَّا يحقق بَعْدُ الكفر الكامل بكل الطاغوت، فهل هذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الآن نسميه مسلما أم كافرا؟، لا شك أنه مسلم، قد دخل في الإسلام، بالنطق بالشهادتين، وهو على استعداد تام لقبول ما يأتيه من العلم المتعلق بهذه الشهادة العظيمة، فتأمل في هذا المثال جيدا، رعاك الله.

ودليل أن العبد تقبل منه كلمة التوحيد، ابتداء، ويدخل في الإسلام بذلك، ويسمى مسلما، وإن لم يتعلم جميع نواقضها ومقتضياتها، وإن لم يحقق الكفر بجميع الطاغوت إذ هو يجهله، ويكون معذورا حتى نعلمه إياها، ما رواه البخاري ومسلم عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ بَعَثَنَا رَسُولُ الله r فِي سَرِيَّةٍ فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ فَأَدْرَكْتُ رَجُلاً فَقَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ. فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ r فَقَالَ رَسُولُ الله r :"أَقَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَقَتَلْتَهُ". قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ الله إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلاَحِ. قَالَ:"أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لاَ". فَمَازَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ.

ولهذا لم يتردد السلف أبدا في إثبات العذر في أصول الدين وفروعه، بالتأويل والجهل المعتبر، وهو للعبد غير المعرض ولا المعاند ولا المستكبر.

هذه أبرز المسائل، وسأفيض في ذلك بإذن الله تعالى في كتاب، لعله أن يخرج قريبا، بإذن الله تعالى، في بيان مسألة العذر بالجهل والتأويل، (العذر بالجهل في ميزان السلف)، وهو الآن في أشرطة على موقعنا (الحكمة والأثر)، وهي كذلك مبثوثة، في ثنايا الشبكة العنكبوتية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا للإرهاب الفكري المضلل:

واعلم هدانا الله وإياك: أن استعمال ما يعرف بالإرهاب الفكري في الجدال العلمي المنطلق من الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، هو نوع من الإفلاس العلمي، فإن المُخَالِف إذا ضَعُفَت حجته، أو عجز عن أن يجيب على الأسئلة العلمية المُحْرِجة، التي يُوَاجَهُ بها؛ يَعْمَد إلى هذا الأسلوب، إما لإسكات المخالف، أو لتثبيت الأتباع، برفع سياط التكفير والتبديع والتضليل لكل من يقول بقول المخالف، في حين أنه أضعف وأقل جرأة من أن يَطْرُدَ هذه الأحكام الارتجالية -التي يطلقها جزافا-؛ فيطلقها على أئمة أعلام، احتج عليه المخالف له بهم، نقلا بحروف أقوالهم، من أنهم يقررون العذر بالجهل في أصول الدين وفروعه، وكذلك إذا ذكرت له بعضا من أهل العلم الذين وقعوا في أقوال كفرية.

فأقول: إن هذا المفلس إذا قوبل بهذا أخذ يَرُوغُ ويَخُور، وكما تقدم فإن هذا القَدْرَ من الإرهاب الفكري؛ دال على الإفلاس، وهو لا يغني عن صاحبه شيئا، إذ أن جَارِفَ المعلومة الصحيحة سَيَكْتَسِحُه بأمواجه المتلاطمة، ولن يبقى معه إلا الإمَّعَات، أصحاب التقليد الأعمى، الذين لو قلت لأحدهم هذه هي الشمس؛ قال مباهتا، الشمس لم تطلع إلى ذا الآن.

فاحذر من هذا الإرهاب الفكري، وامض على بركة الله ، فإنك على الحق، والهدى المستقيم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مسألة: ما هو مناط التكفير في أفعال التروك أو ترك الأعمال؟.

الجواب: لابد أن نعلم أن مناط الكفر فيها هو ذات العمل المتروك، أي مجرد الترك كفر؛ لأن الشارع إنما حكم بالكفر بسبب الترك، فمن ترك فقد كفر، وأما أصحاب الأهواء فقد تكلفوا ما ليس لهم به علم.

ولنضرب مثلا لتتضح المسألة، بمسألة ترك الصلاة مثلاً، فمن قال بأن ترك الصلاة ليس بكفر؛ لأن الصلاة عمل، والأعمال لا تدخل في مسمى الأيمان، وتارك جنسها ليس بكافر؛ فهذا من غلاة المرجئة والجهمية. ومن قال إن ترك الصلاة كفر؛ لأنه وقع في ذنب من الكبائر، فمناط الكفر عنده مقارفة الكبائر أياً كانت درجتها؛ فهذا من الخوارج، ومن قال إن ترك الصلاة ليس كفرا، ولكن لا لأنه عمل، بل لأن الأدلة لم تظهر لي في كفره، ولو صحت دلالتها عندي؛ لقلت بكفره، فهذا مجتهد، معذور، يدور بين الأجر والأجرين، ولكنه مخطئ في اجتهاده؛ لأن الأدلة والإجماع دَلَّا على كفر تارك الصلاة، وأما من قال إن ترك الصلاة كفر، ولكن لا بعمله، وإنما لأن هذا الترك قرينة على ما في القلب من الكفر؛ فهذا من المرجئة، وهم مَنْ سُمُّوا بمرجئة الفقهاء.

والحق أن يقال: إن كل فعل أو قول أو اعتقاد، دل الكتاب أو السنة على أن فعله كفر أو تركه كفر أكبر أو شرك أكبر؛ فإن هذا العمل يكون كذلك، وكل ذنب دون الشرك أو الكفر هو تحت المشيئة، إن شاء الله عذبه، وإن شاء غفر له، والكلام على هذه المسألة يستلزم النشر والإكثار في هذا الزمان، الذي اختلط فيه الحابل بالنابل، وذهبت فيه معالم السنة، لاسيما في باب الإيمان، فكان لزاما على أهل السنة تجليتها، والكلام

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عنها، وهذا هو هدي السلف، فقد كانوا يركزون على القضايا التي يظهر خطرها، ويستفحل شرها، ويتطاير شررها في المجتمعات ، فلكل زمان رجال ولكل مقام مقال.

فائدة واستنباط هام

في بيان أن من عَلِمَ الحَرَام فَرَكِبَهُ؛ لَحِقَهُ حُكْمُه وَحَدُّه وإن جَهِلَ دَرَجَتَهُ

وذلك من حديث أبي هريرة t الذي رواه عن النبي r قال:"إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالا، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالا، يهوي بها في جهنم". وفي رواية :"إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين فيها، يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق".

هذا الحديث الجليل القدر يبين لنا أن العبد إذا تكلم بالكلمة من الحق، وإن لم يتبين درجتها الحكمية، من استحباب أو وجوب؛ يرفعه الله تعالى إلى منزلتها، بل وربما زاده الله تعالى من فضله، والعكس كذلك إن تكلم العبد بالحرام والمعصية، فإنه ينزل منزلتها، إن كانت كبيرة، أو كفرا، وإن جهل هذه المنزلة طالما أنه عالم بالتحريم، ومن هنا نعلم لماذا كفر المستهزئون في غزوة تبوك، مع أن البعض ربما ما كان يعلم أنه أتى كفرا، ولكنه كان يعلم أنها معصية واستهزاء؛ فصاروا إلى حكمها مباشرة، فَحَكَم الله عليهم بأنهم كفروا بعد إيمانهم، وكونهم لم يتبينوا في معصيتهم؛ دل ذلك على الإعراض، وتأمل أنهم ما اعتذروا بعدم العلم، ولكنهم اعتذروا بقولهم :{إنما كنا نخوض ونلعب}.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكذلك الحال مع العقوبة في حال الزنا مثلا، فمن علم التحريم وكان محصنا ثم قال أنا لا أعلم أن الحكم هو الرجم، ولكني أعلم أنها معصية، فنقول ارجموه، لا يغني عنه ذلك الجهل بالعقوبة شيئا؛ ولذا قال العلماء الجهل بالعقوبة لا يسقطها. والله أعلم.

أما من جهل الحكم أصلا ولم يكن عن إعراض أو عناد واستكبار؛ فإنه يعذر، كما مصنف عبد الرزاق عن ابن جريج قال أخبرني هشام بن عروة عن أبيه أن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب حدثه قال توفي عبد الرحمن بن حاطب وأعتق من صلى من رقيقه وصام وكانت له نوبية قد صلت وصامت وهي أعجمية لم تفقه فلم يرع إلا حبلها وكانت ثيبا فذهب إلى عمر فَزِعاً فحدثه فقال له عمر لأنت الرجل لا يأتي بخير فأفزعه ذلك فأرسل إليها فسألها فقال: حَبِلْتِ؟، قالت: نعم من مرغوش بدرهمين، وإذا هي تَسْتَهِلُّ بذلك لا تَكْتُمُهُ، فَصَادَفَ عنده عَلِياً وعُثْمان وعبد الرحمن بن عوف، فقال: أشِيرُوا عَلَيَّ، وكان عثمان جالسا فاضطجع، فقال عَلِيٌّ وعبدُ الرحمن قد وَقَعَ عليها الحَدُّ، فقال أَشِرْ عَلَيَّ يا عثمان، فقال: قد أَشَارَ عليك أخواك، قال أشر عَلَيَّ أنت، قال عثمان: **أراها تَسْتَهِلُّ به كأنها لا تعلمه وليس الحد إلا على من علمه**؛ فأمر بها فجلدت مئة، ثم غَرَّبَها، ثم قال: صَدَقْتَ والذي نفسي بيده ما الحَدُّ إلا على من عَلِم.

قال المؤلف رحمه الله:(وهو:بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلاهَا قَوْلُ لا اله إلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ): قول المؤلف هنا مقتبس من حديث مخرج في الصحيحين، وهذه رواية مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَدْنَاهَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ"، وفي لفظ له:"الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ"، ولفظ البخاري هو:"الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ".

وهذا من التوفيق إلى استعمال المعاني الشرعية بالألفاظ الشرعية أو المقاربة لها، وهذا متقرر في كلام الصحابة والسلف، وإنما أورده المؤلف هنا، ليبين تعريف الأيمان، وأنه جملة من الأقوال والأعمال والاعتقادات، فبين أن العمل داخل في مسمى الإيمان، وأنه لا يتصور هذا الإيمان بدون أعمال مطلقاً.

قال المؤلف:(بضع وسبعون شعبة): جاء في القاموس المحيط:[البِضْعُ:ما بينَ العَقْدَيْنِ من واحِدٍ إلى عَشَرَةٍ ومِنْ أحَدَ عَشَرَ إلى عِشْرينَ. ومع المُذَكَّرِ بهاءٍ ومعَهَا بغيرِ هاءٍ:بِضْعَةٌ وعِشْرُونَ رجُلاً وبِضْعٌ وعِشْرونَ امرأةً ولا يُعْكَسُ أو البِضْعُ : غيرُ مَعْدودٍ لأَنَّهُ بمعنَى القِطْعَةِ]ا.هـ.

واختار المؤلف رواية:"بضع وسبعون" إما لأنه رأى أنها الأصح، وإما - وهذا أظهر عندي -؛ لأنها تضمنت زيادة فضل بزيادة عدد، فيكون ذلك توسعة من الله تعالى على عباده.

قوله:(شعبة)، جاء في النهاية في غريب الأثر:[الشُّعبةُ: الطائفةُ من كُلِّ شيء والقِطعة منه]ا.هـ، والمراد بها هنا شعاب الدين، التي يتقرب بها العباد إلى الله جل وعلا، وقد جعل النبي r أعلاها قول: لا إله إلا الله؛ لأنها هي مفتاح الدخول في الإسلام، وهي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عمل اللسان، فمن لم يتلفظ بها لم يقبل الله منه عدلاً ولا صرفاً، ومن تلفظ بها دخل في جملة المسلمين، إلا أن ينقضها ناقض، ولازمها قول محمد رسول الله فلا يقبل من العبد قول لا إله إلا الله، دون أن يقول وأشهد أن محمداً رسول الله، ويلتزم لوازم ذلك، فإن بعض أهل الكتاب في زماننا يزعم التوحيد ويتلفظ بلا إله إلا الله،ولكنه يأبى أن يشهد للرسول r بالرسالة، أو قد يشهد له ولكنه يقول ليست رِسالَتُهُ ولا شَرِيعَتُه ملزمة لي، بل سآخذ بشريعة كذا وكذا؛ فهذا لم يخرج عن الكفر قيد أنملة، فإن الكفر بالرسل كفر بمن أرسلهم ولا بد، وقد تقدم بيانه.

قوله:(وأدناها): دليل لأهل السنة والجماعة، على أن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأعمال تتفاوت في قدرها ومنزلتها، ولكن لا يُقْبَلُ أيُّ عمل بدون تحقيق التوحيد، وفي ذلك رد على الذين يَدْعُونَ إلى فضائل الأعمال، قبل دَعْوَةِ الناس إلى تحقيق التوحيد، فيعمدون إلى ذكر الأدنى ويعرضون عن تقرير الأعلى، زعماً منهم أن الابتداء بذلك أجدى، وأن التوحيد يفرق بين الناس، وهذا ضلال عظيم وخطأ محض، فإن الرسل قاطبة إنما بُعثوا لتقرير التوحيد ابتداءً، ولم يبعثوا لتقرير فضائل الأعمال ابتداءً، ولكن تذكر تبعا، وإنما كانت الدعوة في أصلها إلى نبذ الشرك وإقامة التوحيد، فها هي دعوة النبي r ، وها هي دعوة الأنبياء من قبله، شاهدة على ذلك، وأن المقدم في دعوة الرسل بيان قضية الإيمان وترسيخ التوحيد وبيان حقائقه، وبعد ذلك يأت الخطاب بفضائل الأعمال التي تزيد هذا الإيمان وترفع رصيده في القلب، أما قَلْبُ هرم التوحيد وتقويض صرحه، بالبداءة بالأدنى وترك الأعلى، فهذه مخالفة صريحة للمنقول والمعقول،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومكابرةٌ صريحة، وحَيْدَةٌ واضحة عن طريق الرسل، ومنهجهم في الدعوة إلى الله عز وجل. وقد تقدم بسط ذلك من قبل.

قوله :(وإماطة الأذى عن الطريق): هذا من باب ذكر الأدنى ليدخل الأعلى، والأذى المذكور هنا، هو كل أذى حسي ومعنوي، ويدل على ذلك ما جاء في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ t أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ بِالطُّرُقَاتِ"، فَقَالُوا يَا رَسُولَ الله مَا لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدٌّ نَتَحَدَّثُ فِيهَا، فَقَالَ:"إِذْ أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ"، قَالُوا وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ الله، قَالَ:"غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ". فأين أصحاب الطرقات من هذا اليوم؟!، بل العكس هو الحاصل إلا مَنْ رحم الله، وقليل ما هم، والله المستعان.

وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ".

قوله:(عن الطريق): يدخل فيه الطريق الحسي، والمعنوي، فإن إزالة أشواك الضلال، ودفن حفر الباطل، وهدم جسور الشرك، ومنع الذي يصدون عن سبيل الله، بقطع الطريق الذي يوصلهم إلى الله جل وعلا، هو من أعظم الأذى، الذي يجب أن يُمَاطَ عن طريق الناس، وقد ورد في ذلك آيات وأخبار:

ففي التحذير من الأذى المعنوي في الطريق إلى الله تعالى، قوله تعالى: {وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [الأعراف:٨٦]، وقوله: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [آل عمران:٩٩]، وقوله: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ} [الأعراف:٤٤-٤٥]، وقوله: {وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الأنفال:٣٤]، وقوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} [هود:١٨-١٩].

ومن أعظم ذلك وأشده، ويدخل بعضه في الأذى الحسي، قوله تبارك وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا} [الأحزاب:٥٧-٥٨].

وأما الأذى الحسي، فمنه قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [لقمان:٦-٧]، وقوله: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الحج: ٧٢]، وقوله:{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [البقرة:٦١]، وقوله:{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [آل عمران:٢١-٢٢].

وفي الحديث الذي في صحيح البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ **t** أَنَّ النَّبِيَّ **r** قَالَ:"أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللهِ ثَلَاثَةٌ، مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ".

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ **r** :"صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا". ونحو ذلك من الأدلة.

وتأمل في هذا الخبر؛ لتعلم عظيم أجر من سعى في إزالة الأذى عن المسلمين، ففي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ:"بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَه".

فلله در العلماء والدعاة والمصلحين، وبخ بخ لهم، كم أزالوا من الأذى، عن صراط الله المستقيم، فنسأل الله من فضله العظيم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإزالة الأذى عن الطريق من عظيم العمل عند الله جل وعلا، فهذا رجل غُفِر له بِعُودٍ أماطه عن طريق المسلمين، والعبد لا يدري أي عمله المقبول، فإنما يتقبل الله من المتقين، فعلينا أن نحرص على إماطة الأذى عن طريق المسلمين، سواء كان حسياً أو معنوياً.

قوله:(والحياء شعبة من الإيمان): الحياء المراد هنا هو الحياء المحمود، وهو خلق يبعث على مكارم الأخلاق، وأما إذا كان يمنع منها، أو يدعو إلى ضدها؛ فهو حياء مذموم.

وقد وردت جملة من الأخبار في الحياء وفضله فمنها ما في الصحيحين عن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ r :"الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ"، فَقَالَ بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ مَكْتُوبٌ فِي الْحِكْمَةِ إِنَّ مِنْ الْحَيَاءِ وَقَارًا وَإِنَّ مِنْ الْحَيَاءِ سَكِينَةً فَقَالَ لَهُ عِمْرَانُ أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ r وَتُحَدِّثُنِي عَنْ صَحِيفَتِكَ؟!.

وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مَرَّ النَّبِيُّ r عَلَى رَجُلٍ وَهُوَ يُعَاتِبُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ يَقُولُ إِنَّكَ لَتَسْتَحْيِي حَتَّى كَأَنَّهُ يَقُولُ قَدْ أَضَرَّ بِكَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ:" دَعْهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنْ الْإِيمَانِ".

وفي صحيح مسلم قَالَتْ عَائِشَةُ:(نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الأَنْصَارِ لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ).

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ t قَالَ:(كَانَ النَّبِيُّ r أَشَدَّ حَيَاءً مِنْ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي مسند أحمد والبخاري في الأدب المفرد وابن ماجة والترمذي كلهم من طريق عبد الرزاق عن معمر عن ثابت عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ :"مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا شَانَهُ وَلَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَهُ". ولكن قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرزاق.ا.هـ. قلت:وليس فيه ما ينكر، غير الكلام في رواية معمر عن ثابت، فقد قال عنها ابن معين:[حديث معمر عن ثابت مضطرب كثير الأوهام]ا.هـ ذكره ابن رجب في شرح علل الترمذي، وبنحو من هذا قال البخاري، بينما كان الإمام أحمد يحسن رواية معمر عن ثابت.

واعلم أرشدك الله أن أعظم الحياء، هو الحياء من الله تعالى، قياما بحقه، بفعل ما أمر به، والبعد عن محارمه وحدوده، وكذلك الحياء مع رسول الله r ، باتباع هديه وطريقته، نسأل الله الإعانة والسداد والتوفيق.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري:[قوله: مر النبي r على رجل يعظ أخاه في الحياء] تقدم في أول كتاب الإيمان مع شرحه ولم أعرف اسم الرجل ولا اسم أخيه إلى الآن والمراد بوعظه أنه يذكر له ما يترتب على ملازمته من المفسدة قوله الحياء من الإيمان حكى بن التين عن أبي عبد الملك أن المراد به كمال الإيمان وقال أبو عبيد الهروي معناه أن المستحي ينقطع بحيائه عن المعاصي وإن لم يكن له تقية فصار كالإيمان القاطع بينه وبين المعاصي قال عياض وغيره إنما جعل الحياء من الإيمان وان كان غريزة لأن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى قصد واكتساب وعلم وأما كونه خيرا كله ولا يأتي إلا بخير فأشكل حمله على العموم لأنه قد يصد صاحبه عن مواجهة من يرتكب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المنكرات ويحمله على الإخلال ببعض الحقوق والجواب أن المراد بالحياء في هذه الأحاديث ما يكون شرعيا والحياء الذي ينشأ عنه الإخلال بالحقوق ليس حياء شرعيا بل هو عجز ومهانة وإنما يطلق عليه حياء لمشابهته للحياء الشرعي وهو خلق يبعث على ترك القبيح قلت ويحتمل أن يكون أشير إلى أن من كان الحياء من خلقه أن الخير يكون فيه أغلب فيضمحل ما لعله يقع منه مما ذكر في جنب ما يحصل له بالحياء من الخير أو لكونه إذا صار عادة وتخلق به صاحبه يكون سببا لجلب الخير إليه فيكون منه الخير بالذات والسبب وقال أبو العباس القرطبي الحياء المكتسب هو الذي جعله الشارع من الإيمان وهو المكلف به دون الغريزي غير أن من كان فيه غريزة منه فإنها تعينه على المكتسب وقد ينطبع بالمكتسب حتى يصير غريزا قال وكان النبي r قد جمع له النوعان فكان في الغريزي أشد حياء من العذراء في خدرها وكان في الحياء المكتسب في الذروة العليا r انتهى]ا.هـ.

وجاء في كتاب (الآداب الشرعية لابن مفلح):[وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا:"الْحَيَاءُ مِنْ الْإِيمَانِ وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ وَالْبَذَاءُ مِنْ الْجَفَاءِ وَالْجَفَاءُ مِنْ النَّارِ" رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَلِابْنِ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ مِثْلُهُ .

وَفِي الْمُوَطَّأِ مُرْسَلًا:"إنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا وَإِنَّ خُلُقَ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ" وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ.

وَالْحَيَاءُ مَمْدُودٌ الِاسْتِحْيَاءُ قَالَ الْوَاحِدِيُّ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ الِاسْتِحْيَاءُ مِنْ الْحَيَاءِ، وَاسْتَحْيَا الرَّجُلُ مِنْ قُرَّةِ الْحَيَاءِ فِيهِ لِشِدَّةِ عِلْمِهِ بِمَوَاقِعِ الْعَيْبِ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ قَدْ يَكُونُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْحَيَاءُ تَخَلُّقًا وَاكْتِسَابًا كَسَائِرِ أَعْمَالِ الْبَرِّ وَقَدْ يَكُونُ غَرِيزَةً، وَاسْتِعْمَالُهُ عَلَى مُقْتَضَى الشَّرْعِ يَحْتَاجُ إِلَى كَسْبٍ وَنِيَّةٍ وَعِلْمٍ وَإِنْ حَلَّ شَيْءٌ عَلَى تَرْكِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْإِخْلَالِ بِحَقٍّ فَهُوَ عَجْزٌ وَمَهَانَةٌ ، وَتَسْمِيَتُهُ حَيَاءً مَجَازٌ.

وَحَقِيقَةُ الْحَيَاءِ خُلُقٌ يَبْعَثُ عَلَى فِعْلِ الْحَسَنِ وَتَرْكِ الْقَبِيحِ وَاَللهُ أَعْلَمُ.

وَذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ عَنْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْحَيَاءُ نِظَامُ الْإِيمَانِ فَإِذَا انْحَلَّ النِّظَامُ ذَهَبَ مَا فِيهِ، وَفِي التَّفْسِيرِ: {وَلِبَاسُ التَّقْوَى}.

قَالُوا الْحَيَاءُ وَقَالُوا الْوَقَارُ مِنْ الله فَمَنْ رَزَقَهُ اللهُ الْوَقَارَ فَقَدْ وَسَمَهُ بِسِيمَا الْخَيْرِ وَقَالُوا مَنْ تَكَلَّمَ بِالْحِكْمَةِ لَاحَظَتْهُ الْعُيُونُ بِالْوَقَارِ وَقَالَ الْحَسَنُ أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ كَامِلًا، وَمَنْ تَعَلَّقَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ كَانَ مِنْ صَالِحِي قَوْمِهِ دِينٌ يُرْشِدُهُ، وَعَقْلٌ يُسَدِّدُهُ، وَحَسَبٌ يَصُونُهُ، وَحَيَاءٌ يَقُودُهُ]ا.هـ.

خطورة انتزاع الحياء:

واعلم أن من أعظم المخاطر، وأشنع سبل الوقوع في المهاوي والرذائل، انتزاع الحياء من الناس، وهذا ما يعمل عليه الشيطان وأعوانه في أمة الإسلام اليوم، وللأسف الشياطين قد قطعوا شوطا بعيدا في ذلك، حتى وقع تغريب المرأة المسلمة، بل والمجتمع كذلك، فخروج المرأة صار أمرا معتادا، وانتشرت الأفلام والمسلسلات الهابطة، بل والداعية صراحة إلى الفواحش، والرذيلة، وكشف العورات، بل حتى زنا المحارم، ودخلت أجهزة الدمار الشامل، من دجتيلات، وإنترنت، عامة البيوتات، وانتشرت الصور الفاضحة، وظهرت النساء الكاسيات العاريات، بل والعاريات تماما كما في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أفلام الزنا والفجور المبثوثة؛ فانتشرت الفواحش، وعظم البلاء وكثر السفاح، وأعرض الأكثر عن النكاح، وكثر أبناء الزنا، واللقيط، فاللهم رحماك بنا، نسأل الله العافية والسلامة.

فإذا ذهب الحياء من الأمة أو اضمحل، لاسيما عند النساء؛ فَحَدِّثْ عن شر مستطير، وخطر عظيم، وخلل بالغ جسيم، وقد قال النبي r كما في الصحيحين عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ r :"قَالَ مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ"، وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاء".

واعلم رحمك الله، أن كثرة هذه الشعب دالة على سعة فضل الله تعالى، كما في صحيح البخاري من طريق حَسَّان بْنِ عَطِيَّةَ عَنْ أَبِي كَبْشَةَ السَّلُولِيِّ سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"أَرْبَعُونَ خَصْلَةً أَعْلَاهُنَّ مَنِيحَةُ الْعَنْزِ مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا وَتَصْدِيقَ مَوْعُودِهَا إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ بِهَا الْجَنَّةَ"، قَالَ حَسَّانُ فَعَدَدْنَا مَا دُونَ مَنِيحَةِ الْعَنْزِ مِنْ رَدِّ السَّلَامِ وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ وَإِمَاطَةِ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ وَنَحْوِهِ فَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَبْلُغَ خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً.

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t أَنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ:"مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا خَيْرٌ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ"، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ t :(بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا)، قَالَ:"نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ".

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ r أَنَّهُ قَالَ:"يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى"، ونحو ذلك من الأحاديث، والمحروم من حُرم الخير، مع توفره وكثرة أبوابه، ولكن تذكر أن مفتاح القبول دائما وأبدا، هو التوحيد، بتحقيق الإخلاص لله تعالى، والمتابعة للرسول r .

والإيمان المذكور بجملة هذه الشعب في أعلاها وأدناها، هو الإيمان العام، المرادف للإسلام العام، الذي يمثل جملة شرائع الدين، فكأن المؤلف أراد أن يعرف الإيمان العام، بأقواله وأعماله، ثم عطف ببيان الإيمان الخاص، المذكور في حديث جبريل عليه السلام الآتي.

قوله:(وأركانه ستة)، هذا هو الإيمان الخاص، والذي يراد به أعمال القلوب، وهذه الأركان الستة، إذا ترك العبد أحدها؛ كفر بالله جل وعلا، إذ ليس هناك خلاف بين أهل العلم، في أن هذه الأركان الستة شرط في صحة الإيمان، بخلاف أركان الإسلام، فقد أشرنا إلى وقوع الخلاف في بعضها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(ستة): هذا على سبيل الحصر، فإنها جاءت مؤقتة على لسان النبي r ؛فلا يجوز الزيادة فيها، وهذا يتضمن دقة الشريعة، وإحكامها وأن كل شيء محصى مفروغ منه، فليس لأحد أن يدخل فيه ما ليس منه، أو أن ينكر ما تقرر فيه، فإنه دين الله، وويل لمن بدل أو تلاعب.

قوله:(أن تؤمن بالله): الإيمان بالله لا يتحقق في العبد إلا بتحقيق ثلاثة أمور:

١ - إفراده جل وعلا بأفعاله فلا يشركه فيها غيره، وهذا هو المعروف بتوحيد الربوبية، فمن زعم أن في الكون أرباباً يتصرفون مع الله جل وعلا؛ فهذا كافر الكفر الأكبر.

٢ - إفراد الله جل وعلا بأفعال العبادة، بحيث يصرف العبد جميع أعماله التعبدية ظاهرة كانت أو باطنة لله الواحد القهار، وهذا المعروف بتوحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية،وبعض أهل العلم يسمي توحيد الألوهية بالتوحيد العملي.

٣ - إفراد الله جل علا بأسمائه وصفاته، فتثبت إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل، على حد قوله تبارك وتعالى:{ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}، وهدا هو توحيد الأسماء والصفات، وهو المعروف عند بعض أهل العلم بالتوحيد العلمي.

وإن كان كل منهما يتضمن العلم والعمل، وقد تقدم الحديث عن هذه الأقسام الثلاثة، ولكن أقول: لقد ضل في كل باب من هذه الأبواب الثلاثة أقوام، وسنورد أمثلة على كل باب ممن ضل فيها، مع ذكر الدليل عليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أمثلة لأقوام ضلوا في أبواب التوحيد:

أما توحيد الربوبية: فإن الذين أنكروا ربوبية الله جل وعلا على خلقه، هم قلة على مر العصور والأزمان، وهم مع ذلك يَدَّعُون بعض خصائص الربوبية لا كلها، إذ ليس هناك من ادعى أنه هو رب العالمين بأسمائه وصفاته من كل وجه، إلا ما سيأتي من زعم الدجال، أعاذنا الله وإياكم منه.

وممن أنكرها (النمروذ) في زمان إبراهيم عليه السلام، و(فرعون) في زمن موسى عليه السلام ، وكالذي قال الله جل وعلا فيه: {وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه} لما فَتَّ عظماً رميماً، وقال يا محمد هل يستطيع ربك أن يعيدني إذا صرت مثل هذا، فهذا إنكار لبعض أفعال الرب جل وعلا،وكذلك قوم لوط لما شرعوا لأنفسهم حقا في نكاح الذكران من العالمين، وكذلك الأحبار والرهبان الذين اتخذهم أهل الكتاب مشرعين من دون الله تعالى، وفي زماننا هذا كثر أرباب التشريعات الجاهلية.

وكما تقدم أن الكفر بالربوبية أعظم من الكفر بالألوهية، ولكن لكونه كان قليلاً لم تقع فيه خصومة كبيرة بين المشركين والمرسلين، ولهذا قلت الآيات الداحضة لشبة منكري الربوبية، مع أنه قد جاء في الكتاب والسنة ما فيه الكفاية التامة، لدحض شُبَهِ منكري الربوبية.

أما توحيد الألوهية، فهو الذي وقعت فيه أكثر الخصومة، وهو الذي ظفر إبليس فيه بفئام من الخلائق؛ فصرفوا العبادة لغير الله جل وعلا، مع إقرارهم بأن الله هو الرب الخالق الرازق المحي المميت المدبر، فما أكثره اليوم فترى في كثير من البلدان من يصرف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العبادات لغير الله جل وعلا، كالطواف حول القبور، والنذور عند الأضرحة والمشاهد، وسكب العبرات توبة لأصحاب القبور، وتضرعا وتوسلا إليهم، وتمريغ الوجه على عتبة المزارات، وذبح الذبائح والقرابين للأولياء والصالحين، والاستغاثة بهم؛ لتفريج الكربات وقضاء الحاجات، ويسمونهم بالأقطاب والأغواث، ورجالات الغيب، ويعتقدون فيهم أنهم يدبرون الكون مع الرب جل وعلا، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فهذا ينادي البدوي وذاك ينادي السيدة زينب وآخر يستغيث بالحسين وآخر يأتي إلى السيدة خديجة لتهبه الولد ، وجماعة آخرون يشدون الرحال لأداء فروض الطاعة والولاء وطقوس العبودية لهم؛ فتُذبح الذبائح، ويحضر المرضى ذكوراً وإناثاً، صغاراً وكباراً؛ لطلب الشفاء منهم، ومغفرة الذنوب ورفع الدرجات، فماذا تركوا لله جل وعلا؟!!، إذ قد صرفوا جُلَّ عبودياتهم للأموات والغائبين، بل ويعتقدون أنهم يعلمون الغيب الذي لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل، كما ترى هذا في كتب بعض الطوائف كالطائفة (البرهانية) في كتابهم الموسوم بـ(تبرئة الذمة في نصح الأمة) وهذا الكتاب يحكي قواعد عامة، ومعتقدات راسخة عند هذه الطائفة، وهي في الحقيقة أصول لمعظم الطوائف الصوفية، وغير هذا كثير مما تعج به بلدان المسلمين اليوم، وهم يستحلون بذلك الكذب على الله ورسوله، بإيراد الأحاديث الموضوعة والأخبار المكذوبة، إمعاناً منهم في الغي والضلال، وحرصاً منهم على ترويج الباطل، ودعوة الناس إلى جهنم وبئس المصير. فقد كفوا إبليس كثيرا من المؤونة، وقاموا بالدور على أكمل وجه حتى قال قائلهم:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكنت امرء من جند إبليس فارتقى .... بي الدهر حتى صار إبليسُ من جندي

فـإن يمت قبلي كنت أحسن بعـده .... طَـرَائِـقَ فِسْـقٍ ليـس يُحْسِـنها بعدي

قال البوصيري في بردته التي يتغنى بها كثير من المتصوفة، بل وينشرونها، ويرغبـون فيه، ويذكرونها في اجتماعاتهم واحتفالاتهم، قال مخاطباً النبي r في غلو ظـاهر وإشراك بَيِّن، وهذا عين ما خافه النبي r علينا، وحذرنا منه، فلا حول ولا قـوة إلا بـالله العـلي العظيم، قال:

واذكـر نبيـك أعـلى الله منـبره... واحـكـم بـما شئت مدحا فيه واحتكم

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف...ومِن فـخار ومـن فـضـل ومن همـم

وانسب إلى يده ما شئت من منن... وانسـب إلى قـدره مـا شئت من عظم

فإن فضـل رسـول الله ليس لهند ... ونـادبـه فـي الخـطـب لـم يـضـم

إلى أن قال:

يا أكـرم الخلـق مالي من ألـوذ به... وصـرت للضـنك والأنكـاد كـالعـلـم

وليـس لي إمـام الرسـل من سند... سـواك عنـد حلـول الحـادث العمم

ولن يضيق رسول الله جاهك بي... إن أبخس الخصم طيشا في الورى قيمي

ولن أرى الضيم إن أوليتني نظرا ...إذا الـكـريـم تحـلى بـاسـم مـنـتـقـم

فـإن مـن جودك الدنيا وضرتها... وأنـت أكـرم مـن يـمـشي عـلى قـدم

فمن فهومك تفسير الكتاب بدا ... ومـن عـلـومـك عـلـم اللـوح والقلم

يا نفس لا تقنطى من زلة عظمت...ولازمي بـاب بـاب الله واعـتـصـمي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فائدة: لا يصح من أحاديث الأبدال شيء:

قال ابن القيم في كتابه :(المنار المنيف):[ومن ذلك أحاديث الأبدال والأقطاب والأغواث والنقباء والنجباء والأوتاد كلها باطلة على رسول الله r .

وأقرب ما فيها:(لا تسبوا أهل الشام فإن فيهم البدلاء) كلما مات رجل منهم أبدل الله مكانه رجلا آخر ذكره أحمد ولا يصح أيضا فإنه منقطع]ا.هـ.

ومن هنا نعلم خطورة إهمال بيان توحيد الألوهية للعباد، وأن هذا من أوجب الواجبات، وأعظم المقامات والقربات، وأن ترك ذلك، والدعوة إلى غيره، من إقامة الدولة، أو جمع الناس على فضائل الأعمال، لهو من أعظم الظلم في حق الخالق جل وعلا، وحق المخلوقين، وهو من الغش والخداع وعدم الرحمة للعباد، في انتشالهم من أوضار الشرك، وحبائل الشيطان وشراكه، التي أوقع فيها كثيرا من العباد إلا من رحم الله.

وأما النوع الثالث، وهو توحيد الأسماء والصفات، فقد تقدم الحديث عن ذلك، وبينا أنه قد ضل في هذا الباب طائفتان:

١- المعطلة. ٢- الممثلة.

وسيندم كل من هاتين الفرقتين ندماً عظيماً، في موطنين في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا، فما سيقع فيه هؤلاء ومن نحى نحوهم عند ظهور المسيح الدجال، فهم لا يعرفون ربهم، إلا بتشبيهه بالمخلوقين،فإذا أتى الدجال- بما أجرى الله على يديه من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خوارق العادات-؛ وقعوا في الفتنة به،حتى لربما آمنوا بـه ربـاً لهـم، نسـأل الله العافيـة والسلامة.

أما في الآخرة فكما أنهم حجبوا أنفسهم عن رؤية الحق جل وعلا، بمعرفتـه بأسـمائه وصفاته في الحياة الدنيا، وما قدروه حق قدره؛ فلن يعرفوا ربهم يوم القيامة، وهـذا مـا ذكره النبي r عن المنافقين، فإنهم لا يعرفون ربهم، ويفتنون في صفاته تبارك وتعـالى في عرصات القيامة، نسأل الله العافية والسـلامة، وبعـد ذلـك النـار والعيـاذ بـالله،كما في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري t قال النبي r :"حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَنْ كَـانَ يَعْبُـدُ اللهَّ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِـي رَأَوْهُ فِيهَا.قَالَ فَمَا تَنْتَظِرُونَ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. قَالُوا يَا رَبَّنَا فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ. فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِالله مِنْكَ لاَ نُشْرِكُ بِالله شَيْئًا - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا - حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَـادُ أَنْ يَنْقَلِـبَ. فَيَقُـولُ هَـلْ بَيْـنَكُمْ وَبَيْنَـهُ آيَـةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ. فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلاَ يَبْقَى مَنْ كَـانَ يَسْـجُدُ لله مِـنْ تِلْقَـاءِ نَفْسِهِ إِلاَّ أَذِنَ اللهُّ لَهُ بِالسُّجُودِ وَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلاَّ جَعَـلَ اللهُّ ظَهْـرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ"...الحديث.

ومن الإيمان بالله جل وعلا الإيمان بوجـوده تبـارك وتعـالى، وهـذا ثابـت بـالفطرة السليمة، والعقل الصحيح، والشرع المنزل، والحس المدرك، فكل مفطـور عـلى معرفـة وجود الرب تعالى، بل حتى الدواب تعرف ذلك، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(وملائكته): الملائكة خلق من خلق الله تبارك وتعالى، خلقهم الله تعالى من النور، والإيمان بالملائكة ينقسم إلى قسمين:

١ - **الإيمان المُجْمَل**: وهو أن تؤمن أن الله جل وعلا، خلق في الجملة عباداً، من نور، وأَسْمَاهُم بالملائكة، وأنهم كثيرون لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم، وأن لكل واحد منهم عملاً ومقاما معلوما يقوم به بين يدي الرب تبارك وتعالى، وأنهم مطيعون لله جل وعلا أبداً، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، ولا يعصون الله ما أمرهم،وهو ذليلون لله خاضعون خائفون مشفقون، كما قال تعالى في وصفهم إذا تكلم الله جل جلاله، بالوحي في السماء:{وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سبأ:٢٣]، وأن نعلم أن لهم أجنحة وأسماءً، لا نعرف منها إلا الشيء اليسير، وأن منازلهم عند الله متفاوتة، وأن الله جل وعلا أخبرنا، أن بعضهم يتشكلون في صور على ما أراد الله جل وعلا، وأنهم موجودون حقيقةً، لا كما يقول الزنادقة (كابن سيناء) في كتابه (الإشارات) وغيره، من أنهم عبارة عن تصورات روحانية، من قبل الأنبياء، بسبب سمو نفوسهم، وطهارة أرواحهم، وعلو أخلاقهم وهممهم، فعند هؤلاء الزنادقة لم ير الأنبياء شيئاً، ولم يتنزل ملك أصلا، بل لم يخلق الله ملكاً، ولم يتكلم الله بوحي، وهذا لا شك أنه تكذيب محض، وكفر صراح نسأل الله العافية والسلامة، وهذا الإيمان المجمل يلزم جميع المسلمين أن يقنوا به، ويعلمه عوامهم وعلمائهم، وذكورهم وإناثهم ممن كلف منهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن العجائب في هذا الزمان المليء بالعجائب، أن الأمة تعظم ابن سينا القرمطي، وتسمى بعض أبنائها به، وترى كثيرا من الصيدليات والمستشفيات تسمى به، فيا لِغُرْبَةِ العقيدة بين أهلها.

قال ابن القيم في نونيته وهو يُبين مقالة ابن سينا وأشباهه من القرامطة الباطنيين:فصل: في كلام الفلاسفة والقرامطة في كلام الرب جل جلاله:

وأتى ابن سينا القرمطي مصانعا ... للمسلمين بإفك ذي بهتان
فرآه فيضا فاض من عقل هو الـ ... ـفعال علة هذه الأكوان
حتى تلقاه زكي فاضل ... حسن التخيل جيد التبيان
فأتى به للعالمين خطابة ... ومواعظا عريت عن البرهان
ما صرحت أخباره بالحق بل ... رمزت إليه إشارة لمعان
وخطاب هذا الخلق والجمهور بالحـ ... ـق الصريح فغير ذي إمكان
لا يقبلون حقائق المعقول إلا ... في مثال الحس والأعيان

وقال أيضا: فصل: في طريقة ابن سينا وذويه من الملاحدة في التأويل:

وأتى ابن سينا بعد ذا بطريقة ... أخرى ولم يأنف من الكفران
قال المراد حقائق الألفاظ تخييـ ... ـلا وتقريبا إلى الأذهان
عجزت عن الإدراك للمعقول ... إلا في مثال الحس كالصبيان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال في النونية أيضا في مقارنته بين قول أهل الحديث والسنة، وبين قول الزنادقة، كـ (أرسطو وابن سينا ونصير الطوسي وبشر المريسي وحفص الفرد والنظام المعتزلي والشحام وغيرهم):

أهل الحديث جميعهم وأئمة الـ ... ـفتوى وأهل حقائق العرفان
العارفون بربهم ونبيهم ... ومراتب الأعمال في الرجحان
هذا كلامهم لدينا حاضر ... من غير ما كذب ولا كتمان
فاقبل حوالة من أحال عليهم ... هم أمليـاء أولو إمكان
فإذا بعثنا غارة من أخريا ... ت العسكر المنصور بالقرآن
طحنتكم طحن الرحى للحب حـ ... ـتى صرتم كالبعر في القيعان
أنى يقاوم ذي العساكر طمطم ... أو تنكلوشا أو أخو اليونان
أعني أرسطو عابد الأوثان أو ... ذاك الكفور معلم الألحان
ذاك المعلم أولا للحروف والثـ ... ـاني لصوت بئست العلمان
هذا أساس الفسق والحرف الذي ... وضعوا أساس الكفر والهذيان
أو ذلك المخدوع حامل راية الـ ... إلحاد ذاك خليفة الشيطان
أعني ابن سينا ذلك المحلول من ... أديان أهل الأرض ذا الكفران
وكذا نصير الشرك في أتباعه ... أعداء رسل الله والإيمان
نصروا الضلالة من سفاهة رأيهم ... وغزوا جيوش الدين والقرآن
فجرى على الإسلام منهم محنة ... لم تجر قط بسالف الأزمان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أو جعدا وجهم وأتباع له ... هم أمة التعطيل والبهتان
أو حفص أو بشر أوالنظام ذا ... ك مقدم الفساق والمجان
والجعفران كذاك شيطان ويد ... عى الطاق لا حييت من شيطان
وكذلك الشحام والعلاف والنـ ... جار أهل الجهل بالقرآن
والله ما في القوم شخص رافع ... بالوحي رأسا بل برأي فلان
وخيار عسكركم فذاك الأشعر ... ـي القرم ذاك مقدم الفرسان
لكنكم والله ما أنتم على ... إثباته والحق ذو برهان
هو قال إن الله فوق العرش ... واستولى مقتالة كل ذي بهتان
في كتبه طرا وقرر قول ذي الـ ... إثبات تقريرا عظيم الشان
لكنكم أكفرتموه وقلتم ... من قال هذا فهو ذو كفران
فخيار عسكركم فأنتم منهم ... برآء إذ قربوا من الإيمان
هذي العساكر قد تلاقت جهرة ... ودنا القتال وصِيحَ بالأقران
صفوا الجيوش وعبئوها وابرزوا ... للحرب واقتربوا من الفرسان
فهم إلى لقياكم بالشوق كي ... يوفوا بنذرهم من القربان
ولهم إليكم شوق ذي قرم فما ... يشفيه غير موائد اللحمان
تبا لكم لو تعقلون لكنتم ... خلف الخدور كأضعف النسوان
من أين أنتم والحديث وأهله ... والوحي والمعقول بالبرهان
ما عندكم إلا الدعاوى والشكا ... وى أو شهادات على البهتان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هـذا الـذي والله نـلـنـا مـنكم ... في الحـرب إذ يـتـقـابل الصـفان
والله مـا جـئـتـم بـقـال الله أو ... قال الـرســول ونحـن في الميدان
إلا بِـجَـعْـجَعَةٍ وفرقعة وغـَمْـ ... غَـمَـة وقَـعْـقَـعَـةٍ بـكل لســان

وعليه فاعلم رحمك الله، أن الأسماء القديمة[1]، إذا لمعت في سماء الأمة في الزمن المعاصر، إن لم يزكها أئمة الهدى؛ فاعلم أن من وراء تلميعها ورفعها أعداء الله؛ ليخْدَعُوا الأمة ويُخَادعوها.

---

١ - جاء في رسالة للشيخ ناصر الفهد فك الله أسره ونفع بـه، جمـع فيهـا ضـلالات وأقـوال أئمـة السلف في ابن سينا ومن على شاكلته، فنذكر من ذلك مختصرا: فمن هؤلاء ابن المقفع - عبـد الله بـن المقفع - [ت: ١٤٥ هـ]: كان مجوسياً فأسلم، وعرّب كثيراً من كتب الفلاسفة، وكان يتهم بالزندقـة. وجابر ابن حيان [ت: ٢٠٠ هـ]: أولاً: إن وجود جابر هذا مشكوك فيـه. ولـو أثبتنـا وجـوده، فـإنما نثبت ساحراً من كبار السّحرة في هذه الملة، اشتغل بالكيمياء والسّيمياء والسّحر والطلسـمات، وهـو أول من نقل كتب السّحر والطّلسمات، والخوارزمي - محمـد بـن موسـى الخـوارزمي - [ت: ٢٣٢ هـ]: كان من كبار المنجّمين في عصر المأمون والمعتصم الواثق، وكان بالإضافة إلى ذلك من كبار مَـنْ ترجم كتب اليونان وغيرهم إلى العربية. والجاحظ - عمـرو بـن بحـر - [ت: ٢٥٥ هــ]:مـن أئمـة المعتزلة، تنسب إليه "فرقة الجاحظية"، كان شنيع المنظر، سيء المخـبر، رديء الاعتقـاد، تنسـب إليـه البدع والضّلالات، وربما جاز به بعضهم إلى الانحلال، حتى قيل: (يا ويح من كفّره الجاحظ). وابن شاكر - محمد بن موسى بن شاكر]ت ٢٥٩ :هـ:[فيلسوف، موسـيقي، مـنجّم، مـن الـذين ترجمـوا كتب اليونان، وأبوه موسى بن شاكر، وأخواه أحمد والحسن؛ منجمون فلاسـفة أيضـاً، والكنـدي - يعقوب بن اسحاق - [ت: ٢٦٠ هـ]: فيلسوف، من أوائـل الفلاسـفة الإسـلاميين، مـنجّم ضـال،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

متهم في دينه كإخوانه الفلاسفة، بلغ من ضلاله أنه حاول معارضة القرآن بكلامه، عباس بن فرناس [ت: ٢٧٤ هـ]: فيلسوف، موسيقي، مغنٍ، منجّم، نسب إليه السّحر والكيمياء، وكثر عليه الطّعن في دينه، واتهم في عقيدته، وكان بالإضافة إلى ذلك شاعراً بذيئاً في شعره مولعاً بالغناء والمُوسيقى، وثابت بن قرة [ت: ٢٨٨ هـ]: صابئ، كافر، فيلسوف، ملحد، منجّم، وهو وابنه إبراهيم بن ثابت وحفيده ثابت بن سنان؛ ماتوا على ضلالهم، واليعقوبي - أحمد بن اسحاق - [ت: ٢٩٢ هـ]: رافضي، معتزلي، تفوح رائحة الرّفض والاعتزال من تاريخه المشهور، ولذلك طبعته الرّافضة بالنجف، والرازي - محمد بن زكريا الطبيب:] ت ٣١٣ :هـ[من كبار الزّنادقة الملاحدة، يقول بالقدماء الخمسة الموافق لمذهب الحرانيين الصابئة - وهي الرّب والنفس والمادة والدّهر والفضاء - وهو يفوق كفر الفلاسفة القائلين بقدم الأفلاك، وصنّف في مذهبه هذا ونصره، وزندقته مشهورة، و البتّاني - محمد بن جابر الحراني الصابئ - [ت: ٣١٧ هـ]: كان صابئاً، قال الذهبي: (فكأنه أسلم)، فيلسوفاً، منجّماً، والفارابي - محمد بن محمد بن طرخان] ت ٣٣٩ :هـ:[من أكبر الفلاسفة، وأشدهم إلحاداً وإعراضاً، كان يفضّل الفيلسوف على النبي، ويقول بقدم العالم، ويكذّب الأنبياء، وله في ذلك مقالات في انكار البعث والسّمعيات، وكان ابن سينا على إلحاده خير منه، نسأل الله السّلامة والعافية، والمسعودي - علي بن الحسين - [ت: ٣٤٦ هـ]: كان معتزلياً، شيعياً، والمجريطي - مسلمة بن أحمد - [ت: ٣٩٨ هـ]: فيلسوف، كبير السّحرة في الأندلس، بارع في السّيمياء والكيمياء، وسائر علوم الفلاسفة، نقل كتب السّحر والطّلاسم إلى العربية، وألف فيها "رتبة الحكيم" و "غاية الحكيم"، وهي في تعليم السّحر والعياذ بالله.

ومسكويه - محمد بن أحمد - [ت: ٤٢١ هـ]:كان مجوسياً، فأسلم، وتفلسف، وصحب ابن العميد الضّال، وخدم بني بويه الرّافضة، واشتغل بالكيمياء فافتتن بها، وابن الهيثم - محمد بن الحسن بن الهيثم - [ت: ٤٣٠ هـ]: من الملاحدة الخارجين عن دين الإسلام، من أقران ابن سينا علماً وسفهاً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإلحاداً وضلالاً، كان في دولة العبيديين الزنادقة، كان كأمثاله من الفلاسفة يقول بقدم العالم وغيره من الكفريات، وابن النديم - محمد بن اسحاق رافضي، معتزلي، غير موثوق به، والمعرّي - أبو العلاء أحمد بن عبد الله المشهور بالزّندقة على طريقة البراهمة الفلاسفة، وفي أشعاره ما يدل على زندقته وانحلاله من الدين، وابن باجه - أبو بكر بن الصائغ، محمد بن يحيى - [ت: ٥٣٣ هـ]: فيلسوف كأقرانه، له إلحاديات، يعتبر من أقران الفارابي وابن سينا في الأندلس، من تلاميذه ابن رشد، وبسبب عقيدته حاربه المسلمون هو وتلميذه ابن رشد، الأدريسي - محمد بن محمد - [ت: ٥٦٠ هـ]: كان خادماً لملك النّصارى في صقليه بعد أن أخرجوا المسلمين منها، وكفى لؤماً وضلالاً، وابن طفيل - محمد بن عبد الملك من ملاحدة الفلاسفة والصّوفية، له الرّسالة المشهُورة "حي ابن يقظان"، يقول بقدم العالم وغير ذلك من أقوال الملاحدة، وابن رشد الحفيد - محمد بن أحمد بن محمد [٥١] - [ت: ٥٩٥ هـ]: فيلسوف، ضال، ملحد، يقول بأن الأنبياء يخيلون للناس خلاف الواقع، ويقول بقدم العالم وينكر البعث، وحاول التوفيق بين الشريعة وفلسفة أرسطو في كتابيه "فصل المقال" و "مناهج الملة"، وهو في موافقته لأرسطو وتعظيمه له ولشيعته؛ أعظم من موافقة ابن سينا وتعظيمه له، وقد انتصر للفلاسفة الملاحدة في "تهافت التهافت"، ويعتبر من باطنية الفلاسفة، والحادياته مشهورة، نسأل الله السلامة، وابن جبير - محمد بن أحمد - [ت: ٦١٤ هـ]: صاحب الرّحلة المعروفة بـ "رحلة ابن جبير"، ويظهر من رحلته تلك تقديسه للقبور والمشاهد الشّركية، وتعظيمه للصّخور والأحجار، واعتقاده بالبدع والخرافات وغيرها كثير، والطوسي - نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن - [ت: ٦٧٢ هـ]: نصير الكفر والشّرك والإلحاد، فيلسوف، ملحد، ضال مضل، كان وزيراً لهولاكو وهو الذي أشار عليه بقتل الخليفة والمسلمين واستبقاء الفلاسفة والملحدين، حاول أن يجعل كتاب "الإشارات" لابن سينا بدلاً من القرآن، وفتح مدارس للتّنجيم والفلسفة، وإلحاده عظيم، نسأل الله العافية، وابن البناء - أحمد بن محمد - [ت: ٧٢١ هـ]: شيخ المغرب في الفلسفة والتّنجيم والسّحر والسّيمياء، وابن بطوطة - محمد بن عبد الله -] ت ٧٧٩ :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢- **الإيمان المُفَصَّل**: وذلك بأن نثبت ما أثبته الله جل وعلا لملائكته على وجه التعيين والخصوص، من الأسماء، والوظائف، والأشكال، والصور، فنعرف من سماهم الله جل وعلا بأسمائهم، مثل (جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومنكر، ونكير[1]، وملك

هـ:[الصّوفي، القبوري، الخرافي، الكـذّاب، كـان جـل اهتماماتـه في رحلتـه المشـهورة؛ زيـارة القبـور والمبيت في الأضرحة، وذكر الخرافات التي يسـمونها "كرامـات" وزيـارة مشـاهد الشرك والوثنيـة، ودعائه أصحاب القبور وحضور السماعات ومجالس اللهو، وذكر الأحاديـث الموضـوعة في فضـائل بعض البقاع، وتقديسه للأشخاص، والافتراء على العلماء الأعلام، وغير ذلك.

١- وردت تسمية (منكر ونكير) في حديث أبي هريرة مرفوعا والـبراء وابـن عبـاس وأبي الـدرداء موقوفا وجاء عن عطاء بن يسار مرسلا، وهذه الأخبار تكلم فيهـا بعـض أهـل العلـم، ولكـن ذكـر اللالكائي في كتابه:(اعتقاد أهل السنة) في اعتقاد أحمد بن حنبل أنه قال:[والايمان بعذاب القـبر وأن هذه الأمة تفتن في قبورها وتسأل عن الايمان والإسلام ومن ربه ومن نبيه ويأتيه منكر ونكـير كيـف شاء الله عز وجل وكيف أراد والايمان به والتصديق به]ا.هـ.

ونقل أيضا عن علي بن المديني ومن نقل عنه ممن أدركه من جماعـة السـلف....:[والإيـمان بعـذاب القبر إن هذه الأمة تفتن في قبورها وتسأل عن النبي r ويأتيه منكر ونكير كيـف شـاء الله عـز وجـل وكما أراد الإيمان بذلك والتصديق].ا.هـ. قلت:وهذا دال على أن هذه من عقائد السلف، ومما يؤكـد ترجيح الأخبار الواردة بذلك؛ جزم إمامين من أئمة الحديث بذلك في عقيدتيهما، وهمـا الإمـام أحمـد وابن المديني كما تقدم. والله أعلم.

ومما ظاهره القوة ما جاء في مصنف ابن أبي شيبة: حدَّثَنَا غُنْدَرٌ عَنْ شُعْبَةَ عَنْ يَعْلَى بْنِ عَطَاءٍ عَنْ تَمِيمٍ عَنْ غَيْلاَنَ بْنِ سَلَمَةَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ وَهُوَ مَرِيضٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ إِنَّك قَدْ أَصْبَحْتَ عَلَى جَنَاحِ فِرَاقِ الدُّنْيَا، فَمُرْنِي بِأَمْرٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهِ، وَأَذْكُرُك بِهِ، قَالَ: إِنَّك مِنْ أُمَّةٍ مُعَافَاةٍ، فَأَقُمَ الصَّلاَةَ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الموت، ومالك خازن النار، وملك الجبال، وملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، وحملة العرش)، وملك الموت شاع عند العامة أن اسمه (عزرائيل)،وهذا قول لا دليل عليه، بل هو قول باطل؛ لأن السُّنة جاءت بتسميته (ملك الموت)، وأما خازن الجنة، فقد اشتهر أن اسمه (رضوان)، ولم أقف على دليل صحيح صريح في ذلك.

ذكر طرف من وظائف بعض الملائكة:

وأن نعلم أن جبريل، موكل بالوحي والعذاب للأمم الكافرة، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور للبعث والجزاء والنشور، وأن ميكائيل موكل بالقطر من السماء يَزْجُرُ السحاب إلى حيث شاء الله تبارك وتعالى، وأن مالكاً خازن النار،وأن ملك الموت

وَأَدِّ زَكَاةَ مَالِكِ، إِنْ كَانَ لَكَ، وَصُمْ رَمَضَانَ وَاجْتَنِبَ الْفَوَاحِشَ، ثُمَّ أَبْشِرْ، قَالَ: ثُمَّ أَعَادَ الرَّجُلُ عَلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، قَالَ شُعْبَةُ: وَأَحْسَبُهُ أَعَادَ عَلَيْهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، وَرَدَّ عَلَيْهِ أَبُو الدَّرْدَاءِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَنَفَضَ الرَّجُلُ رِدَاءَهُ، وَقَالَ: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ} إِلَى قَوْلِهِ {وَيَلْعَنُهُمُ اللاَعِنُونَ}، فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: عَلَيَّ الرَّجُلِ، فَجَاءَ فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ:(مَا قُلْتَ)؟، قَالَ: كُنْتُ رَجُلاً مُعَلَّمًا عِنْدَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَيْسَ عِنْدِي، فَأَرَدْت أَنْ تُحَدِّثَنِي بِمَا يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهِ، فَلَمْ تَرُدَّ عَلَيَّ إِلاَّ قَوْلاً وَاحِدًا، فَقَالَ له أَبُو الدَّرْدَاءِ:(اجْلِسْ، ثُمَّ اعْقِلْ مَا أَقُولُ، أَيْنَ أَنْتَ مِنْ يَوْمٍ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَرْضِ إِلاَّ عَرْضُ ذِرَاعَيْنِ فِي طُولِ أَرْبَعَةِ أَذْرُعٍ، أَقْبَلَ بِكَ أَهْلُك الَّذِينَ كَانُوا لاَ يُجِبُّونَ فِرَاقَك، وَجُلَسَاؤُك، وَإِخْوَانُك فَأَثْقَنوا عَلَيْك الْبُنْيَان، ثُمَّ أَكْثَرُوا عَلَيْك التُّرَاب، ثُمَّ تَرَكُوك لِمَتَلِّكَ ذَلِكَ، ثُمَّ جَاءَك مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ جَعْدَانِ، اسْمَاهُمَا مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ فَأَجْلَسَاك، ثُمَّ سَأَلاَك مَا أَنْتَ أَمْ عَلَى مَاذَا كُنْت؟، أم مَاذَا تَقُولُ فِي هَذَا، فَإِنْ قُلْتَ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ قَالُوا قَوْلاً، فَقُلْتُ، فَقَد وَاللَّهِ رَدِيتَ، وخَزِيتَ، وَهَوِيتَ، وَإِنْ قُلْتَ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ كِتَابَهُ، فآمَنْتُ بِهِ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ، فَقَدْ وَاللَّهِ نَجَوْتَ، وَهُدِيتَ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ ذَلِكَ إِلاَّ بِتَثْبِيتٍ مِنَ اللهِ، مَعَ مَا تَرَى مِنَ الشِّدَّةِ وَالْخَوْفِ)، قلت: سنده ظاهره الصحة، وهو من الموقوف الذي له حكم الرفع. والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لقبض الأرواح، وأن ملائكة الرحمة لأرواح المؤمنين، وملائكة العذاب لأرواح الكافرين والمنافقين، وأنهم لا يزالون يتعبدون الله جل وعلا بألوان من الطاعات والقربات، من تسبيح لله، واستغفار للمؤمنين، كما قال تعالى:{تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الشورى:٥]، وفيهم من هو بين سجود وقيام لله تعالى، كما في الصحيحين في قصة الإسراء والمعراج من حديث أنس t ، وفيه قال النبي r :"فَرُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ"،ونحو ذلك من العبادات، وأنهم يتسابقون في إرضاء الله جل وعلا، و أن جبريل له ستمائة جناح، إذا قام بها سد الأفق، كما في الصحيحين من طريق أبي إسحاق الشَّيْبَانِيُّ قَالَ سَأَلْتُ زِرَّ بْنَ حُبَيْشٍ عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:{فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} قَالَ أَخْبَرَنِي ابْنُ مَسْعُودٍ :(أَنَّ النَّبِيَّ r رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ)، وقيل إنه حمل قرية (المؤتفكات) وهم قوم لوط، حملهم بما فيها بطرف جناحه، أي بطرف جناح من الأجنحة إلى أن وصل بهم عنان السماء ثم قلب عاليها سافلها، وأن من حملة العرش ملكاً ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، كما في سنن أبي داود بسند جيد عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلاَئِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ"، قال تعالى:{هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [لقمان:١١]، إلى غير ذلك من تتبع الأدلة للإيمان بما أفادته، إما على وجه الإجمال، أو على وجه التفصيل، بحسب موارد الأدلة.

وهذا الإيمان يقرر لنا حقيقة كبرى، وهي أن الله جل وعلا، خلق خلقاً هم أعظم منا أجساماً، ومع ذلك هم أسرع منا إجابة، وأكثر منا طاعة، وأعظم منا قوة، يتسابقون في مراضي الله جل وعلا؛ لئلا نُعجب بأعمالنا، ولا ندلي بها على ربنا، ولنعلم كمال غناه عنا وعن عبادتنا، وأنه معبود في الأرض والسماء، مع غناه جل وعلا عن عبادة كل عابد في السماء والأرض؛ ولنزداد قوة في الحق، وثباتاً على الدين، فعندما يعلم الواحد منا أنه ليس وحده الذي يدعوا الله جل وعلا، ويدافع عن دينه، بل ثمة ملائكة لا يحصى عددهم إلا الله جل وعلا يفعلون ذلك أيضاً، ولكي لا نستوحش من قلة السالكين، ولا نحزن لكثرة المخالفين والمعارضين، فمعنا على هذا السبيل خير خلق الله في الأرض والسماء، فما علينا إلا أن نمضي في سبيل الحق والدين،ولن يضرنا بإذن الله تعالى، خذلان خاذل، ولا مخالفة مخالف، كما أن من وظائف الملائكة تثبيت الذين آمنوا بأمر الله، ومن وظائفهم القتال مع المؤمنين الصادقين بأمر الله رب العالمين، وضرب أعناق الكافرين وبنانهم، وما النصر إلا من عند الله جل وعلا، كما قال تعالى:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [الأنفال:٩-١٢] ، فيجب الإيمان بكل ما أخبر الله جل وعلا عن الملائكة بأعيانهم ووظائفهم أنه حق اليقين، ونؤمن أيضاً أن من الملائكة من يمكن لبعض العباد رؤيتهم، كما رأى الصحابة جبريل في صورة رجل، وكثيراً ما يأتي في صورة، (دحية الكلبي t)، وكما رأى بعضهم الملائكة تقاتل يوم بدر، وهذا الأيمان معرفته على وجه التفصيل مما يجب على العلماء وطلبة العلم بيانه للناس ليكمل إيمانهم بالملائكة وليعرفوا فوائد ذلك.

قوله:(وكتبه) : كذلك الإيمان بالكتب ينقسم إلى قسمين:

١- **الإيمان المجمل**: أن نعلم ونُـيْقِن أن الله جل وعلا، أنزل كتباً كثيرة، وأنها اشتملت على الحق المبين والصراط المستقيم، و سعادة العباد في الدنيا والآخرة، وأن في اتباعها العزة والنصرة والتمكين، وفي تركها الخذلان والذل والهلاك، وأنها كلام الله جل وعلا، وأنها تتفاوت في فضلها،وأن العباد ملزمون بالأخذ بها، واستقاء الهدايات منها، والرد إليها في كل شيء، وفي الخصومات والمنازعات، وأنه لا يجوز لأحد الحكم بغيرها، ولكن لك منهم شريعة أوحى الله بها لا يجوز تخطيها إلى غيرها، فالخلق خلق الله والأمر أمره، ولا بد أن يكون الحكم حكمه، وهذا قد تقدم بيانه وسيأتي.

٢- **الإيمان المفصل**: هو أن نعرف أسماء ما أسماه الله جل وعلا من الكتب، وعلى من أنزلت، (فالصحف على إبراهيم، والتوراة وتسمى الصحف على موسى، والإنجيل على عيسى، والزبور على داوود، والفرقان أو القرآن على محمد r)، وأن نعلم أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القرآن مهيمناً على سائر الكتب،يُصَدِّق ما فيها من الحق، وينفى ما فيها من الباطل، الذي وضعه العباد تحريفاً للكلم عن مواضعه، ومن بعد مواضعه؛ ولهذا نسخها الله جميعها، وختم كتبه بالقرآن العظيم، وأكمل فيه الدين، وأتم به النعمة، ولم يأذن لأحد من أفراد هذه الأمة، وهم كل من حضر بعثة النبي r وإلى قيام الساعة، لم يأذن لأحد أن يتبع غير هذا الكتاب العزيز، وكذلك علينا أن نؤمن بأنه محفوظ حروفاً وحدوداً، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه،فمن شك أو تردد أو زعم زيادة أو نقصانا فيه فقد كفر، فويل للرافضة المارقين، وأنه كلام الله مُنزل غير مخلوق، فهو صفة من صفات الله جل وعلا، وأن من قال بأن القرآن مخلوق فهو كافر بالله، وأن الله جل وعلا ما فرط فيه من شيء، وأنه حوى سائر العلوم التي يحتاجها العباد، النافعة لهم في المعاش والمعاد، وأنه يجب على المسلمين، تلاوته وتدبره، والعمل به والتحاكم إليه، والرضى بحكمه والاستسلام والانقياد لأمره، واجتناب نهيه، والإيمان بمتشابهه، ورده إلى محكمه، والعمل بحكمه، وتأليف بعضه على بعض، وأنه خاتم كتب الله جل وعلا، وأن نؤمن أن هذه الكتب قد اشتملت على الحق المبين، الذي لا باطل معه، وعلى الأخبار الصادقة التي لا كذب فيها، وأنها جاءت بكل ما يحتاجه العباد في معاشهم ومعادهم، وأنه يلزم كل أمة أُنزل إليها كتاب، أن تؤمن بسائر الكتب، ولكن عليها ألا تعمل إلا بالكتاب المنزل إليها، فأمة محمد r يلزمها الإيمان بسائر الكتب التي أنزلها الله جل وعلا، إجمالاً فيما أجمل، وأعياناً فيما وسمى وعين، ولكن يحرم عليها العمل بغير القرآن الكريم، الذي أُنزل على النبي r ، الكفر بكتاب واحد كالكفر بجميع الكتب؛ لأن الكفر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالكتاب كفر بمن أنزله، والمتكلم به وهو الله رب العالمين، والكلام هنا عن أصول الكتب، لا عن الموجودة اليوم، التي دخلها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان، فهذه لا يجوز الإيمان بها، بهذا الاعتبار، ولهذا قيد القرآن الإيمان بما فيها من الحق، فعلينا أن نؤمن بما نزل من عند الله، كما قال تعالى: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [الشورى:١٥].

من اتبع كتابا غير القرآن فهو كافر:

وَيَتْبَع الإيمان بالكتب، اعتقاد كفر من اتبع اليوم كتاباً غير القرآن الكريم، وإن وُجِدَتْ صحف موسى، وإنجيل عيسى، عليهما السلام على وجه لم يحرف منهما شيء، مع أن هذا محال.

فلو أن موسى بن عمران عليه السلام بيننا؛ ما وسعه إلا أن يتبع هذا الكتاب العزيز، وإلا أن يدخل في شريعة محمد r ؛ ولهذا إذا نزل عيسى عليه السلام آخر الزمان، فإنه سيحكم بشريعة محمد r ، ويأخذ بالقرآن العظيم، فيصلى صلاتنا، ويقرأ كتابنا، ويصلي خلف إمام منا.

كما في صحيح مسلم عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ r يَقُولُ:"لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - قَالَ - فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ r فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ تَعَالَ صَلِّ لَنَا. فَيَقُولُ لاَ. إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ. تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الأُمَّةَ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ t عَنْ رَسُولِ الله r قَالَ:"لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ".

قوله:(ورسله): وكذلك الإيمان بالرسل ينقسم إلى قسمين:

١ - **الإيمان المجمل**: فنؤمن أنهم أرسلوا من عند الله جل وعلا، وأنهم صفوة خلق الله تبارك وتعالى، وأنهم معصومون عن الضلال في تبليغ الحق، ومعصومون من الكبائر كلها بما في ذلك الشرك، ومعصومون في كل ما يقدح في عقولهم وأخلاقهم، وأنهم لا يأتون بشيء من عند أنفسهم، بل هم مؤتمنون الأمن التام على تبليغ شرع الله عز وجل، وأنهم لم يدخروا وسعاً في النصح لأممهم، فما من خير إلا ودلوا عليه، وما من شر إلا وقد حذروا منه، وأنهم القدوة في فعل الخيرات، وترك المنكرات، وأن من أعظم ما بينوه أسماء الله وصفاته، وحقوقه تبارك وتعالى على عباده، وأنهم في الجملة قد بلغوا البلاغ المبين، وأنه يحرم المفاضلة بينهم على وجه التنقص والاحتقار والازدراء، كما قال تعالى:{لا نفرق بين أحد من رسله}، وكما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْرِضُ سِلْعَتَهُ أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا كَرِهَهُ فَقَالَ لَا وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَامَ فَلَطَمَ وَجْهَهُ وَقَالَ تَقُولُ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ وَالنَّبِيُّ r بَيْنَ أَظْهُرِنَا فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا فَمَا بَالُ فُلَانٍ لَطَمَ وَجْهِي فَقَالَ:"لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ" فَذَكَرَهُ فَغَضِبَ النَّبِيُّ r حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ:"لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ الله فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالْعَرْشِ فَلَا أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ أَمْ بُعِثَ قَبْلِي وَلَا أَقُولُ إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى"، مع اعتقاد أن بعضهم أفضل من بعض، من جهة منازلهم عند الله تعالى، وأن ذلك من فضل الله جل وعلا يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، كما قال تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة:٢٥٣]، فَحَرَّمَ تفضيل التنقص، وأثبَتَ تفاضل المنزلة.

وأن أفضلهم وأكرمهم وأشرفهم هو محمد r ، فهو النبي الخاتم ولا نبي بعده، وأنهم أولوا عزم، وأن أفضلهم أعلاهم شأنا في ذلك، كما قال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} [الأحقاف:٣٥]، وقد اختلف العلماء في قوله تعالى: {من الرسل} في هذه الآية هل {مِنْ} للتبعيض، أم للجنس؟، على قولين، فمن قال إنها للجنس؛ كان المعنى أن الرسل كلهم من أولي العزم، ومن قال بأنها تبعيضية؛ خص بذلك بعض الرسل، وهم على المشهور،(نوح – إبراهيم – موسى – عيسى – محمد r ، وعليهم أجمعين)، وبعضهم يضيف إليهم (هود)، ولا تعارض بين القولين، فإن مما لا شك فيه أن جميع الرسل أولوا عزم، ولكن هؤلاء الخمسة أعلاهم في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك كَعْباً ومنزلة، صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، وهذا أظهر، ومما يرجح ذلك أن الله تعالى جمع هؤلاء الخمسة، في قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا} [الأحزاب:٧]، وقوله: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } [الشورى: ١٣]، وهم الذين سيأتيهم أهل الموقف في عرصات القيامة؛ يسألونهم الشفاعة بين يدي الله تعالى كما تقدم. والله أعلم.

مسألة: من هم أولوا العزم من الرسل:

واعلم أن هناك نحوا من عشرة أقوال، في تحديد من هم أولوا العزم من الرسل، ولكن أصل الخلاف يدور على ما هو المراد بـ {مِنْ} في آية الأحقاف، وقد تقدم التفصيل والراجح. والله أعلم.

أما القول بأن (آدم) و (يونس) عليهما السلام، ليسا من أولي العزم؛ لأن الله تعالى قال في شأن أبينا آدم عليه السلام: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} [طه:١١٥]، وقال في شأن يونس -وهو صاحب الحوت- عليه السلام: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ} [القلم:٤٨]، فإنه قول مرجوح وفيه نظر؛ لأن الظاهر من العزم المذكور عن آدم عليه السلام، إنما المراد به الإصرار، وتعمد معصية الله تعالى، والمعنى أي لم نجده مصرا، ولا قاصدا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معصيتنا، وإنما غره الشيطان، وعلى القول الآخر فإن الله تعالى تداركه بالتوبة، وقَبِلَها منه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، بل ولربما عاد بعد الذنب أعلى وأفضل وأكمل، وهذا ما حصل مع أبينا آدم عليه السلام؛ ولهذا لم يقبل من موسى عليه السلام مُعَاتَبَتَه إياه على ذنبه، كما تقدم.

وكذلك الأمر في يونس عليه السلام، فقد تداركه ربه تبارك وتعالى، فعاد أكمل وأفضل؛ ولهذا جاءت الآيات بعدها مبينة تدارك الله واجتباءه إياه، وإنعامه عليه،كما قال تعالى:{لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} [القلم:٤٩-٥٠]، وكذلك في قوله تعالى:{وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [الصافات:١٣٩ - ١٤٨]، وفي حديث أبي هريرة **t** المتقدم في الصحيحين قال النبي **r**:"وَلَا أَقُولُ إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى".

وأن الأنبياء يحوطهم الله تعالى بعلمه وتوفيقه وتسديده وتأييده ونصره، ويمدهم بمدد من عنده، فهم أكرم الخلق على الله تبارك وتعالى، كما أنه سبحانه وتعالى يعلمهم ويعاتبهم، ويبين لهم، ويتوب عليهم ويرحمهم، ويدافع عنهم، كما قال تعالى:{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة:٣٥-٣٧]، وقال:{وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [الصافات:١٣٩-١٤٨]، وقوله:{فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ} [هود:٧٤-٧٦]، وقوله:{قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [هود:٤٦-٤٧]،وقوله:{وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأعراف:١٥٠-١٥١]، وقوله:{عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ} [عبس:١-١٢]. فهم أكمل الخلق على الإطلاق، كما أنه يجب عدم وضعهم موضع الاتهام، والاستدراك على أقوالهم وأفعالهم، فهم المنزهون المعصومون، فمن رد أخبارهم، وتنقص أفعالهم فقد كفر بالله العظيم، وقد ظهر في هذا الزمان من يضع الأنبياء في قفص الاتهام، ويحقق في أقوالهم وأفعالهم، إمعاناً منه في الكفر والزندقة والضلال، وما ذلك إلا لتشكيك الناس في مصداقية الرسل فيذهب الدين كله، وهذا ما حصل من أهل الكتاب من قبل، فقد نسبوا إلى أنبيائهم ورسلهم الفواحش وشرب الخمور، بل وأخس أنواع الزنا (زنا المحارم)، وما ذلك إلا ليقعوا في تلك الفواحش، ويبرروها بحجة وقوع الأنبياء فيها، وهذا فيه من أغلظ الكفر وأفحشه، وهو من التنقص العظيم لله عز وجل، ما يجعله من أعظم أنواع الكفر والضلال، فتعالى الله أن يصطفي لتبليغ رسالته من يتعاطى هذه الفواحش، ولكنهم قوم بُهْت، وهم مكذبة الرسل، وقتلة الأنبياء، والمعاندون والمحاربون لشرع الله جل وعلا، والموجودون اليوم من المنتسبين للإسلام ممن حذا حذوهم، هم أفراخ وورثة لهم، فقد تتلمذوا في هذا الزمان في جامعاتهم، ومعاهدهم الماسونية، التي قامت على حرب الفضيلة، ونشر الرذيلة، والتشكيك في الدين والرسل، بل وفي وجود الله تبارك وتعالى، فهم ملاحدة في لباس مسلمين، فنسأل الله العافية و السلامة .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢ - **الإيمان المفصل**: وهو أن يعلم العبد كل ما فصله الله جل وعلا عنهم، في الكتاب العزيز أو النبي r في السنة المطهرة، فمن سماهم الله عز وجل آمنا بتسميته، ومن ذكر الله عز وجل أنه أرسل إلى قوم معينين؛ آمنا بذلك، ونؤمن بأن أول الرسل والأنبياء آدم عليه الصلاة السلام، وهو أبونا، ثم نوح وإدريس، وقد ذكر الله جل وعلا خمسة وعشرين نبياً ورسولاً في كتابه العزيز، فيجب الأيمان بأعيانهم وأسمائهم، ويجب معرفة ما جرى معهم مع أقوامهم وأحوال دعوتهم، احتفاء بهم وتعظيما لهم؛ ولنأخذ من ذلك العبرة، ونعرف سنة الله في الأمم، وأن النصر آتٍ لا محالة، وأن الباطل مهما أرغى وأزبد، وأرعد وهدد، وعلا صوته؛ فإنه إلى اضمحلال وزوال، وأن أهل الحق مهما اعترتهم بعض الفترات من الضعف والتقصير، إلا أن الله جل وعلا يتداركهم بتجديد لمعالم ما انْدَرَسَ من الحق؛ فيثبون إليه، ويرفعون لواءه، ويجاهدون دونه؛ فتكون لهم العاقبة والنصر والتمكين؛ ولهذا كثيراً ما يرد الله جل وعلا عباده إلى تاريخ الأمم الماضية، وهذا ما فعله النبي r أيضاً فقد كان كثيراً ما يفعل ذلك، فيقص على أصحابه والأمة من بعدهم، بعض ما جرى في الأمم الماضية، والقرون الغابرة.

وأنه على كل أمة اقتفاء أثر نبيها الخاص بها، واحداً كان أو أكثر من ذلك، وأن الواجب علينا معرفة نبينا محمد r المعرفة التامة، كما قال تعالى: {أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون}، ولهذا عقد المؤلف الأصل الثالث في بيان ذلك، وسيأتي الكلام عن حياته ودعوته مفصلة فيما يأتي بإذن الله تعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(واليوم الآخر): وهذا الركن أيضا يقال فيه ما تقدم، من وجوب الإيمان المجمل والمفصل، فما ذكر مفصلا آمنا به على وجه التفصيل، وما ذكر ومجملا آمنا به على وجه الإجمال، فلابد من الإيمان بكل ما سيقع في ذلك اليوم، ومع الإيمان بوقوع وتحقق وحصول ذلك اليوم، وأنه آت لا محالة، فهو اليوم الموعود، وهو الحاقة، وهو القارعة،وقد سمى الله جل وعلا ذلك اليوم بأسماء عديدة، تبين عظمة ذلك اليوم، وما سيجري فيه من الأهوال، ويتبع الإيمان باليوم الآخر، ما هو متعلق به، كإثبات الموت وحياة البرزخ، ونعيم القبر، وعذابه، وفتنة القبور، وتصور الأعمال إن حسنة فحسنة، وإن سيئة فسيئة، وتثبيت الله جل وعلا لعباده المؤمنين، وإضلاله للفاجرين.

والإيمان باليوم الآخر يكون بأمور:

أولاً: الإيمان بما سيجرى من الأهوال العظام، والكرب الشديد عند احتضار هذا العالم، من تكوير للشمس وجمعها مع القمر، وتسجير البحار وتفجيرها، وانْكِدَارِ الكواكب وانْتِثَارِها، وتَسْيِيْرِ الجبال حتى تكون كالعهن المنفوش، والناس لا يلوون على شيء كالفراش المبثوث، ثم بعد تطاير الصحف، كالجراد المنتشر، وما سيقع من تَلَوُّن السماء وتشققها، ودك الأرض ومدها حتى تكون كالأديم المنبسط، فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا، وتبديل الأرض غير الأرض والسموات، وكذلك اليقين بالبعث وأن الله جل وعلا يبعث من في القبور، والبعث يكون للأرواح والأجساد معاً، وسيأتي الكلام مفصلاً عن البعث وأدلته؛ لأن المؤلف أعاده بشيء من التفصيل فيما يأتي، وذلك في معرض كلامه على الأصل الثالث.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثانياً: اليقين بحصول الجزاء والحساب، وما يتبع ذلك من شهادة الشهود، ونصب الموازين، ونشر الدواوين، وأخذ العباد كتبهم باليمين، نسأل الله أن يجعلني وإياكم من أصحاب اليمين، وما يتبع ذلك من العز والكرامة لمن أخذ كتابه بيمينه، حيث يسير بين الأولين والآخرين فرحاً مسروراً، كما قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ } [الحاقة: ١٩ - ٢٤]، {إني ظننت} أي أيقنت أني ملاقٍ الحساب، ومعروض على الله تعالى، قد أيقنت نفسي بلقائها لله.

وأننا ما خلقنا عبثاً ولا تركنا سداً، هذه حال المؤمنين نسأل الله من فضله العظيم، وهناك حالة رَدِيَّةٍ وهي حالة المجرمين، أصحاب سقر، عياذا بالله منهم و من حالهم ومآلهم، ونؤمن بما يحصل من الذل والمهانة لمن أخذ كتابه بشماله، فيلعنهم اللاعنون، ويقال هؤلاء الذين كذبوا على الله، فتسود وجوههم، ويجمع بين النواصي والأقدام، ويزوجون، أقران أشقياء فجرة، وتُلوى أيديهم إلى ظهورهم إذلالاً ومهانة لهم، كما قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ} [الحاقة:٢٥-٣٧].

إثبات رؤية الله تبارك تعالى يوم القيامة:

ونؤمن من ذلك أيضا برؤية الرب تبارك وتعالى في عرصات يوم القيامة، وطلب المؤمنين من أهل العلم من الأنبياء والمرسلين الشفاعة، ودنو الشمس من الخلائق على قدر أعمالهم، وأن العباد يحشرون في صعيد واحد ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي، وأنهم يحشرون حفاة عراة غُرْلَا، الرجال والنساء، لا فرق بين عربي ولا عجمي إلا بالتقوى، وأن من العباد من يظلهم الله تعالى تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله، وأن لكل غادر لواء ينصب له عند إسته يوم القيامة، وينادى عليه هذه غَدْرَةُ فلان بن فلان، وأن الفضيحة على رؤوس الأشهاد، والإتيان بالشهود من أنبياء ومرسلين وعلماء وقراء وصالحين وشهداء وصديقين، والأرض تشهد وكذلك الجلود، ونؤمن كذلك بمجيء الرب تبارك وتعالى، مجيئاً حقيقياً كما يحب ربنا ويرضى، كما قال تعالى: {وجاء ربك والملك صفاً صفاً}، وأنه لا يؤذن لأحد أن يتكلم في ذلك اليوم المهيب الرهيب، إلا من أذن له الله جل وعلا ورضي له قولا، وأن جهنم يؤتى بها ولها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها، ونؤمن بالسراط وحِدَّتِه، ودِقَّتِه، والحَسَكُ حوله، وبحال الناس عند المرور عليه، وأنه دَحَضٌ مَزَلَّة، ويشمل ذلك الإيمان بأن الصراط مضروب على متن جهنم، والناس يسيرون عليه بحسب أعمالهم في الدنيا، ويعطى كل عبد نوراً، فأما الكافر فتنطفئ أنوارهم، ويُكَرْدَسُون في جهنم وبئس المهاد، وأما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المؤمنون فبحسب أعمالهم، فَنَاجٍ مُسَلَّم، ومَخْدُوشٌ مسلم، ومُكَرْدَسٌ في جهنم، وأن على الصراط كلاليب مثل شوك السعدان، تأخذ أصحاب النار، ونؤمن برؤية المؤمنين لربهم تبارك وتعالى في جنات النعيم، نسأل الله تعالى ألا يحرمنا ذلك، ووالدينا وأهلينا وذرياتنا وأقاربنا وأشياخنا وأحبابنا وطلابنا، بفضله ومنه وكرمه وجوده وعطائه، وذلك أعظم نعيم أهل الجنة، نسأل الله من فضله العظيم، إلى غير ذلك مما ذكر في الكتاب و السنة، فيما يتعلق بالجزاء والحساب، وأن من نوقش الحساب هلك، ومن عُرض عليه عرضا دون نقاش نجى، فإن الله تبارك وتعالى سيخاطب كل عبد، فمن نوقش في حسابه ألقاه الله في ناره، فنسأل الله تعالى أن يحاسبنا حساباً يسيراً، والحساب اليسير هو العرض دون نقاش، نسأل الله من فضله العظيم.

ثالثا: الإيمان بالجنة والنار، وما في النار من العذاب والجحيم، وما في الجنة من الثواب والنعيم،فنؤمن أن النار دركات، كما أن الجنة درجات، وأن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، وأن أهون أهل النار من يوضع تحت قدميه جمرتين من النار يغلي منهما دماغه، نسأل الله العافية والسلامة، وأن النار ألواناً من العذاب،ففيها الزمهرير الذي ما أن يصل إليه أصحابه حتى تتكسر عظامهم من شدة برده، وأن طعامهم الزقوم والغسلين والضريع، وأنه لا يسمن ولا يغني من جوع، وشرابهم الصديد وطينة الخبال عصارة أهل النار، والحميم الذي انتهى في حره، وهذا التنوع دال على تنوع أحوال المعذبين في النار، فلكل قوم عذابهم وجحيمهم وآلامهم، جزاءً وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد، وأن النار باقية، خلقت ليتجدد فيها العذاب على أهلها أبدا، وقد وكل الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعذاب أهلها ملائكة غلاظاً شداداً، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، كما أخبر ربنا تبارك وتعالى، وأن الكفار عن ربهم لمحجوبون، وأن عصاة الموحدين الذين يدخلونها سيخرجون منها ولابد، إلى غير ذلك مما دلت عليه الأخبار الصحاح.

وأن أهل الجنة يخفف عليهم ذلك اليوم، فيقيلون في الجنة، كما قال تعالى: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا} [الفرقان:٢٤]، وأن فيها من جميع أنواع النعيم، نسأل الله من فضله العظيم، وأن أعظم نعيم أهل الجنة رؤية الجبار جل جلاله في جنات النعيم في يوم المزيد يوم اسْتِزَارَةِ رب العبيد للعبيد جل الله في علاه، كما أن أعظم عذاب النار حجابهم عن رؤية الجبار قال تعالى: {كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم}، وأن أهل الجنة يخلدون فيها أبد الآبدين ودهر الدَّاهِرين، وأن من حبسه القرآن في النار؛ باق فيها، أبد الآبدين ودهر الدَّاهِرين،ويؤتى بالموت على هيئة كبش، فيذبح بين الجنة والنار، ويقال لكل فريق خلود فلا موت.

رابعا: وإثبات إخراج الله تعالى أقواما من أهل التوحيد لم يعملوا خيرا برحمته وهو أرحم الراحمين، ونؤمن بما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ قَالَ النَّبِيُّ r :"تَحَاجَّتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتْ النَّارُ أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ وَقَالَتْ الْجَنَّةُ مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي وَقَالَ لِلنَّارِ إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ قَطْ قَطْ فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِلَى بَعْضٍ وَلَا يَظْلِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا".

الإيمان بالشفاعة:

ونؤمن ونثبت المقام المحمود للنبي r ، ونثبت الشفاعة بأنواعها، وأنها لا تكون إلا بشرط إذن الله تعالى للشافع أن يشفع، ورضاه عن المشفوع له، وأنه تبارك وتعالى لا يقبل شفاعة في مشرك أبدا، وإن شفع فيه الخليل إبراهيم كما سيجري مع آزر والد الخليل إبراهيم، وأن أهل المعاصي من أهل التوحيد منهم من قطعا سيدخل النار، ثم يخرجون منها إلى الجنة، ومنهم من استوجب النار ولكنه لا يدخلها، إما بشفاعة الشافعين، أو برحمة أرحم الراحمين.

قال ابن القيم في (تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته):[وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيث الشَّفَاعَة عَنْ النَّبِيّ r مِنْ حَدِيث أَنَس، وَأَبِي سَعِيد، وَجَابِر، وَأَبِي هُرَيْرَة، وَعَوْف بْن مَالِك الْأَشْجَعِيّ، وَأَبِي ذَرّ، وَابْن الْجَدْعَاء، وَيُقَال:اِبْن أَبِي الْجَدْعَاء، وَعُتْبَة بْن عَبْد السُّلَمِيِّ، وَعِمْرَان بْن حُصَيْنٍ، وَحُذَيْفَة، وَكُلّهَا فِي الصَّحِيح. فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَس بْن مَالِك أَنَّ النَّبِيّ r قَالَ:"لِكُلِّ نَبِيّ دَعْوَة دَعَاهَا لِأُمَّتِهِ ، وَإِنِّي اِخْتَبَأْت دَعْوَتِي شَفَاعَة لِأُمَّتِي يَوْم الْقِيَامَة". وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَنَّ رَسُول اللهَّ r قَالَ:"لِكُلِّ نَبِيّ دَعْوَة مُسْتَجَابَة، فَتَعَجَّلَ كُلّ نَبِيّ دَعْوَته، وَإِنِّي اِخْتَبَأْت دَعْوَتِي شَفَاعَة لِأُمَّتِي يَوْم الْقِيَامَة فَهِيَ نَائِلَة إِنْ شَاءَ اللهَّ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِك بِاَللهِ شَيْئًا":وَلَفْظه لِمُسْلِمٍ، وَرَوَاهُ مُسْلِم مِنْ حَدِيث جَابِر بِنَحْوِهِ. وَفِي صَحِيح الْبُخَارِيّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَالَ:"قُلْت:يَا رَسُول اللهَّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَنْ أَسْعَد النَّاس بِشَفَاعَتِك يَوْم الْقِيَامَة؟ قَالَ:"لَقَدْ ظَنَنْت يَا أَبَا هُرَيْرَة أَنْ لَا يَسْأَلنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيث أَوْلَى مِنْك لِمَا رَأَيْت مِنْ حِرْصك عَلَى الْحَدِيث أَسْعَد النَّاس بِشَفَاعَتِي يَوْم الْقِيَامَة مَنْ قَالَ : لَا إِلَه إِلَّا اللهَّ مِنْ قِبَل نَفْسه". وَفِي صَحِيح الْبُخَارِيّ عَنْ أَنَس قَالَ:سَمِعْت رَسُول الله r يَقُول:"إِذَا كَانَ يَوْم الْقِيَامَة شُفِّعْت فَقُلْت. يَا رَبّ، أَدْخِلْ الْجَنَّة مَنْ فِي قَلْبه خَرْدَلَة فَيَدْخُلُونَ ثُمَّ أَقُول يَا رَبّ أَدْخِلْ الْجَنَّة مَنْ فِي قَلْبه أَدْنَى شَيْء" قَالَ أَنَس "كَأَنِّي أَنْظُر إِلَى أَصَابِع رَسُول الله r ". وَفِي صَحِيح الْبُخَارِيّ عَنْ عِمْرَان بْن حُصَيْنٍ عَنْ النَّبِيّ r قَالَ:"يَخْرُج قَوْم مِنْ النَّار بِشَفَاعَةِ مُحَمَّد . فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّة، وَيُسَمَّوْنَ الْجَهَنَّمِيِّينَ". وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ حَمَّاد بْن زَيْد قَالَ : قُلْت لِعَمْرِو بْن دِينَار : أَسَمِعْت جَابِر بْن عَبْد اللهَّ يُحَدِّث بِحَدِيثٍ عَنْ رَسُول الله r :"إِنَّ اللهَّ يُخْرِج قَوْمًا مِنْ النَّار بِالشَّفَاعَةِ؟ قَالَ:نَعَمْ". وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَس قَالَ: قَالَ رَسُول اللهَّ r :"يَجْمَع اللهَّ النَّاس يَوْم الْقِيَامَة فَيَهْتَمُّونَ لِذَلِكَ فَيَقُولُونَ: لَوْ اِسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبّنَا، حَتَّى يُرِيحنَا مِنْ مَكَاننَا هَذَا –فَذَكَرَ الْحَدِيث - وَفِيهِ: ثُمَّ أَشْفَع فَيَحُدّ لِي حَدًّا. فَأُخْرِجهُمْ مِنْ النَّار، وَأُدْخِلهُمْ الْجَنَّة. ثُمَّ أَعُود، فَأَقَع سَاجِدًا، فَيَدَعنِي مَا شَاءَ اللهَّ أَنْ يَدَعنِي، ثُمَّ يُقَال لِي، اِرْفَعْ رَأْسك يَا مُحَمَّد، قُلْ تُسْمَع، وَسَلْ تُعْطَه، وَاشْفَعْ تُشَفَّع فَأَرْفَع رَأْسِي، فَأَحْمَد رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمنِيهِ ثُمَّ أَشْفَع، فَيَحُدّ لِي حَدًّا. فَأُخْرِجهُمْ مِنْ النَّار، وَأُدْخِلهُمْ الْجَنَّة - وَذَكَرَ بَاقِي الْحَدِيث". وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا مِنْ حَدِيث أَنَس عَنْ النَّبِيّ r قَالَ:"إِذَا كَانَ يَوْم الْقِيَامَة مَاجَ النَّاس بَعْضهمْ فِي بَعْض. - فَيَأْتُونَ آدَم - وَذَكَرَ الْحَدِيث - وَقَالَ فَأَقُول: يَا رَبّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَقَالَ : اِنْطَلِقْ ، فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبه مِثْقَال حَبَّة مِنْ بُرَّة أَوْ شَعِيرَة مِنْ إِيمَان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا فَأَنْطَلِق فَأَفْعَل ثُمَّ أَرْجِع إِلَى رَبِّي، فَأَحْمَدهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِد، ثُمَّ أَخِرّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَال لِي: يَا مُحَمَّد اِرْفَعْ رَأْسك وَقُلْ يُسْمَع لَك، وَسَلْ تُعْطَه، وَاشْفَعْ تُشَفَّع. فَأَقُول: يَا رَبّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَال لِي: اِنْطَلَق فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبه مِثْقَال حَبَّة مِنْ خَرْدَل مِنْ إِيمَان فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا، فَأَنْطَلِق فَأَفْعَل، ثُمَّ أَعُود إِلَى رَبِّي، فَأَحْمَدهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِد، ثُمَّ أَخِرّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَال لِي: يَا مُحَمَّد اِرْفَعْ رَأْسك، وَقُلْ يُسْمَع لَك وَسَلْ تُعْطَه وَاشْفَعْ تُشَفَّع. فَأَقُول: يَا رَبّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَال لِي: اِنْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبه أَدْنَى أَدْنَى مِنْ مِثْقَال حَبَّة مِنْ خَرْدَل مِنْ إِيمَان فَأَخْرِجْهُ مِنْ النَّار فَأَنْطَلِق فَأَفْعَل، ثُمَّ أَرْجِع إِلَى رَبِّي فِي الرَّابِعَة، فَأَحْمَدهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِد، ثُمَّ أَخِرّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَال لِي: يَا مُحَمَّد اِرْفَعْ رَأْسك، وَقُلْ يُسْمَع لَك، سَلْ تُعْطَه وَاشْفَعْ تُشَفَّع فَأَقُول: يَا رَبّ اِئْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَه إِلَّا اللهَّ، قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ لَك، وَلَكِنْ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَعَظَمَتِي وَكِبْرِيَائِي لَأُخْرِجَنَّ مَنْ قَالَ: لَا إِلَه إِلَّا اللهَّ". وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَالَ: أُتِيَ رَسُول الله r يَوْمًا بِلَحْمٍ فَرَفَعَ إِلَيْهِ الذِّرَاع، وَكَانَتْ تُعْجِبهُ - فَذَكَرَ الْحَدِيث إِلَى أَنْ قَالَ - فَأَنْطَلِق، فَآتِي تَحْت الْعَرْش، فَأَقَع سَاجِدًا لِرَبِّي. ثُمَّ يَفْتَح اللهَّ عَلَيَّ، وَيُلْهِمنِي مِنْ مَحَامِده، وَحُسْن الثَّنَاء عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي. ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّد، اِرْفَعْ رَأْسك، سَلْ تُعْطَه، اِشْفَعْ تُشَفَّع، فَأَرْفَع رَأْسِي. فَأَقُول: يَا رَبّ، أُمَّتِي أُمَّتِي. فَيُقَال: يَا مُحَمَّد، أَدْخِلْ الْجَنَّة مَنْ أُمَّتك مَنْ لَا حِسَاب عَلَيْهِ مِنْ بَاب الْأَيْمَن مِنْ أَبْوَاب الْجَنَّة وَهُمْ شُرَكَاء النَّاس فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ الْأَبْوَاب". وَفِي صَحِيح مُسْلِم عَنْ حُذَيْفَة وَأَبِي هُرَيْرَة قَالَا: قَالَ رَسُول الله r :"يَجْمَع اللهَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاس، فَيَقُوم الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تَزْدَلِف لَهُمْ الْجَنَّة، فَيَأْتُونَ آدَم فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا، اِسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَيَقُول: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ الْجَنَّة إِلَّا خَطِيئَة أَبِيكُمْ آدَم. لَسْت بِصَاحِبِ ذَلِكَ - فَذَكَرَ الْحَدِيث إِلَى أَنْ قَالَ - فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ، فَيَقُوم ، فَيُؤْذَن لَهُ وَتُرْسَل الْأَمَانَة وَالرَّحِم - الْحَدِيث". وَفِي صَحِيح مُسْلِم عَنْ أَنَس قَالَ:قَالَ رَسُول الله r :"أَنَا أَوَّل النَّاس يَشْفَع فِي الْجَنَّة - الْحَدِيث". وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيد أَنَّ رَسُول الله r ذُكِرَ عِنْده عَمّه أَبُو طَالِب فَقَالَ:"لَعَلَّهُ تَنْفَعهُ شَفَاعَتِي يَوْم الْقِيَامَة، فَيُحْمَل فِي ضَحْضَاح مِنْ النَّار يَبْلُغ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغه"، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ الْعَبَّاس بْن عَبْد الْمُطَّلِب أَنَّهُ قَالَ:يَا رَسُول اللَّهَ هَلْ نَفَعْت أَبَا طَالِب بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطك وَيَغْضَب لَك قَالَ:"نَعَمْ هُوَ فِي ضَحْضَاح مِنْ نَار ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْك الْأَسْفَل مِنْ النَّار". فَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْأَحَادِيث خَمْسَة أَنْوَاع مِنْ الشَّفَاعَة:

أَحَدهَا: الشَّفَاعَة الْعَامَّة، الَّتِي يَرْغَب فِيهَا النَّاس، إِلَى الْأَنْبِيَاء، نَبِيًّا بَعْد نَبِيّ، حَتَّى يُرِيحهُمْ اللَّهَ مِنْ مَقَامهمْ النَّوْع الثَّانِي: الشَّفَاعَة فِي فَتْح الْجَنَّة لِأَهْلِهَا.النَّوْع الثَّالِث:الشَّفَاعَة فِي دُخُول مَنْ لَا حِسَاب عَلَيْهِمْ الْجَنَّة. النَّوْع الرَّابِع:الشَّفَاعَة فِي إِخْرَاج قَوْم مِنْ أَهْل التَّوْحِيد مِنْ النَّار. النَّوْع الْخَامِس: فِي تَخْفِيف الْعَذَاب عَنْ بَعْض أَهْل النَّار. وَيَبْقَى نَوْعَانِ يَذْكُرهُمَا كَثِير مِنْ النَّاس. أَحَدهمَا: فِي قَوْم اِسْتَوْجَبُوا النَّار فَيُشْفَع فِيهِمْ أَنْ لَا يَدْخُلُوهَا. وَهَذَا النَّوْع لَمْ أَقِف إِلَى الْآن عَلَى حَدِيث يَدُلّ عَلَيْهِ. وَأَكْثَر الْأَحَادِيث صَرِيحَة فِي أَنَّ الشَّفَاعَة فِي أَهْل التَّوْحِيد مِنْ أَرْبَاب الْكَبَائِر إِنَّمَا تَكُون بَعْد دُخُولهمْ النَّار، وَأَمَّا أَنْ يُشْفَع فِيهِمْ قَبْل الدُّخُول، فَلَا يَدْخُلُونَ. فَلَمْ أَظْفَر فِيهِ بِنَصٍّ. وَالنَّوْع الثَّانِي:شَفَاعَته لِقَوْمٍ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فِي زِيَادَة الثَّوَاب، وَرِفْعَة الدَّرَجَات. وَهَذَا قَدْ يُسْتَدَلّ عَلَيْهِ بِدُعَاءِ النَّبِيّ r

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لِأَبِي سَلَمَة، وَقَوْله:"اللَّهُمَّ اِغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَة، وَارْفَعْ دَرَجَته فِي الْمَهْدِيِّينَ". وَقَوْله فِي حَدِيث أَبِي مُوسَى:"اللَّهُمَّ اِغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أَبِي عَامِر، وَاجْعَلْهُ يَوْم الْقِيَامَة فَوْق كَثِير مِنْ خَلْقك".

وَفِي قَوْله فِي حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة:"أَسْعَد النَّاس بِشَفَاعَتِي مَنْ قَالَ:لَا إِلَه إِلَّا اللهَّ"، سِرّ مِنْ أَسْرَار التَّوْحِيد. وَهُوَ أَنَّ الشَّفَاعَة إِنَّمَا تُنَال بِتَجْرِيدِ التَّوْحِيد، فَمَنْ كَانَ أَكْمَل تَوْحِيدًا كَانَ أَحْرَى بِالشَّفَاعَةِ. لَا أَنَّهَا تُنَال بِالشِّرْكِ بِالشَّفِيعِ. كَمَا عَلَيْهِ أَكْثَر الْمُشْرِكِينَ. وَبِاَللهِ التَّوْفِيق]ا.هـ.

قلت: وقول ابن القيم رحمه الله تعالى:[وَيَبْقَى نَوْعَانِ يَذْكُرهُمَا كَثِير مِنْ النَّاس. أَحَدهمَا: فِي قَوْم اِسْتَوْجَبُوا النَّار فَيُشْفَع فِيهِمْ أَنْ لَا يَدْخُلُوهَا. وَهَذَا النَّوْع لَمْ أَقِف إِلَى الْآن عَلَى حَدِيث يَدُلّ عَلَيْهِ]، يمكن أن يستدل له بحديث جابر في صحيح مسلم أَنَّ الطُّفَيْلَ بْنَ عَمْرٍو الدَّوْسِيَّ أَتَى النَّبِيَّ r فَقَالَ يَا رَسُولَ الله هَلْ لَكَ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ وَمَنَعَةٍ - قَالَ حِصْنٌ كَانَ لِدَوْسٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ - فَأَبَى ذَلِكَ النَّبِيُّ r لِلَّذِي ذَخَرَ اللهُ لِلأَنْصَارِ فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ r إِلَى الْمَدِينَةِ هَاجَرَ إِلَيْهِ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَهَاجَرَ مَعَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ فَاجْتَوَوُا الْمَدِينَةَ فَمَرِضَ فَجَزِعَ فَأَخَذَ مَشَاقِصَ لَهُ فَقَطَعَ بِهَا بَرَاجِمَهُ فَشَخَبَتْ يَدَاهُ حَتَّى مَاتَ فَرَآهُ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فِي مَنَامِهِ فَرَآهُ وَهَيْئَتُهُ حَسَنَةٌ وَرَآهُ مُغَطِّيًا يَدَيْهِ فَقَالَ لَهُ مَا صَنَعَ بِكَ رَبُّكَ فَقَالَ غَفَرَ لِي بِهِجْرَتِي إِلَى نَبِيِّهِ r فَقَالَ مَا لِي أَرَاكَ مُغَطِّيًا يَدَيْكَ قَالَ قِيلَ لِيلَنْ نُصْلِحَ مِنْكَ مَا أَفْسَدْتَ.فَقَصَّهَا الطُّفَيْلُ عَلَى رَسُولِ الله r . فَقَالَ رَسُولُ الله r :"اللَّهُمَّ وَلِيَدَيْهِ فَاغْفِرْ". فهذا الرجل t بادر بنفسه، وقد جاء في ذلك الحديث الذي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في الصحيحين من طريق الْحَسَنِ حَدَّثَنَا جُنْدَبٌ t فِي هَذَا الْمَسْجِدِ فَمَا نَسِينَا وَمَا نَخَافُ أَنْ يَكْذِبَ جُنْدَبٌ عَلَى النَّبِيِّ r قَالَ:"كَانَ بِرَجُلٍ جِرَاحٌ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَقَالَ اللهُ بَدَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ". فهذا رجل استوجب النار فعفى الله عنه، وقَبِلَ شفاعة نبيه r في يديه.والله أعلم.

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[وَقَالَ:{قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} فَنَفَى عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ أَوْ قِسْطٌ مِنْ الْمُلْكِ أَوْ يَكُونَ عَوْنًا لله وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ؛ فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} وَقَالَ تَعَالَى عَنْ الْمَلَائِكَةِ:{وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى}. وَقَالَ:{وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}. فَهَذِهِ "الشَّفَاعَةُ" الَّتِي يَظُنُّهَا الْمُشْرِكُونَ؛ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآنُ. وَأَمَّا مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ r أَنَّهُ يَكُونُ. فَأَخْبَرَ:"أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ" لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا. فَإِذَا سَجَدَ وَحَمِدَ رَبَّهُ بِمَحَامِدَ يَفْتَحُهَا عَلَيْهِ؛ يُقَالُ لَهُ:أَيْ مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَك وَقُلْ تُسْمَعْ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ . فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أُمَّتِي فَيَحُدُّ لَهُ حَدًّا فَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ. وَكَذَلِكَ فِي الثَّانِيَةِ وَكَذَلِكَ فِي الثَّالِثَةِ، وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ:مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِك يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ:"مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ". فَتِلْكَ "الشَّفَاعَةُ" هِيَ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اللهِ لَيْسَتْ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاَللهِ وَلَا تَكُونُ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ. وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اللهَ هُوَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ الشَّافِعِ الَّـذِي أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ لِيُكْرِمَهُ بِذَلِكَ وَيَنَالَ بِهِ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ الَّذِي يَغْبِطُهُ بِهِ الْأَوَّلُونَ والآخرون r كَمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا يَسْتَسْقِي لَهُمْ وَيَدْعُو لَهُمْ وَتِلْكَ شَفَاعَةٌ مِنْهُ لَهُمْ فَكَانَ اللهُ يُجِيبُ دُعَاءَهُ وَشَفَاعَتَهُ. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ "فَالظُّلْمُ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ": فَالظُّلْمُ الَّذِي هُوَ شِرْكٌ لَا شَفَاعَةَ فِيهِ. وَظُلْمُ النَّاسِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ إِعْطَاءِ الْمَظْلُومِ حَقَّهُ؛ لَا يَسْقُطُ حَقُّ الْمَظْلُـومِ لَا بِشَفَاعَةِ وَلَا غَيْرِهَا وَلَكِنْ قَدْ يُعْطَى الْمَظْلُومُ مِنْ الظَّالِمِ كَمَا قَدْ يُغْفَرُ لِظَالِمِ نَفْسِهِ بِالشَّـفَاعَةِ. فَالظَّالِمُ الْمُطْلَقُ مَا لَهُ مِنْ شَفِيعٍ مُطَاعٍ وَأَمَّا الْمُوَحِّدُ فَلَمْ يَكُنْ ظَالِمًا مُطْلَقًا بَلْ هُوَ مُوَحِّدٌ مَـعَ ظُلْمِهِ لِنَفْسِهِ. وَهَذَا إِنَّـمَا نَفَعَـهُ فِي الْحَقِيقَـةِ إِخْلَاصُـهُ لله فَيـهِ صَـارَ مِـنْ أَهْـلِ الشَّـفَاعَةِ. وَمَقْصُودُ الْقُرْآنِ يَنْفِي الشَّفَاعَةَ نَفْيَ الشِّرْكِ وَهُوَ:أَنَّ أَحَدًا لَا يَعْبُدُ إِلَّا اللهَ وَلَا يَدْعُو غَيْرَهُ وَلَا يَسْأَلُ غَيْرَهُ وَلَا يَتَوَكَّلُ عَلَى غَيْرِهِ لَا فِي شَفَاعَةٍ وَلَا غَيْرِهَا؛ فَلَيْسَ لَـهُ أَنْ يَتَوَكَّـلَ عَـلَى أَحَدٍ فِي أَنْ يَرْزُقَهُ وَإِنْ كَانَ اللهُ يَأْتِيهِ بِرِزْقِهِ بِأَسْبَابٍ. كَذَلِكَ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى غَيْرِ اللهِ فِي أَنْ يَغْفِرَ لَهُ وَيَرْحَمَهُ فِي الْآخِـرَةِ وَإِنْ كَـانَ اللهُ يَغْفِـرُ لَـهُ وَيَرْحَمُـهُ بِأَسْـبَابٍ مِـنْ شَـفَاعَةٍ وَغَيْرِهَا، **فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ مُطْلَقًا؛ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ وَتِلْكَ مُنْتَفِيَةٌ مُطْلَقًا؛ وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ وَتِلْكَ قَدْ بَـيَّنَ الرَّسُـولُ r أَنَّهَـا لَا تَكُـونُ إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ فَهِيَ مِنْ التَّوْحِيدِ ، وَمُسْتَحِقُّهَا أَهْلُ التَّوْحِيدِ**]ا.هـ.

بيان معنى الشفاعة وممن تطلب وأقسامها:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قلت: والشفاعة من جهة الإطلاق والعموم، هي طلب وتوسط ووسيلة، يرغب بها صاحب الحاجة لتُقْضَى حاجته، من جلب محبوب أو دفع مرهوب، ومنه أخذ الشَّفع، وهو من التعزيز والتقوية، فيقال:[كان وتراً فشفعته بالآخر حتى صار شفعا].

قال في مختار الصحاح :[(شفع) ش ف ع: الشَّفْعُ ضد الوتر يقال كان وترا فَشَفَعهُ من باب قطع والشُّفْعَةُ في الدار والأرض والشَّفِيعُ صاحب الشفعة وصاحب الشَّفَاعَةُ] ....إلى قوله:[واسْتَشْفَعَهُ إلى فلان سأله أن يشفع له إليه وتَشَفَّعَ إليه في فلان فَشَفَّعهُ فيه تَشفيعا]ا.هـ.

والشفاعة بهذا الاعتبار تنقسم إلى قسمين:

١ - شفاعة محمودة: وهذه كذلك تنقسم إلى قسمين:

أ- الشفاعة التي تُطْلَبُ من الله جل جلاله.

ب- الشفاعة التي تُطْلَبُ من المخلوق، فيما يَسَعُهُ ويَقْدِرُ عليه، بالضوابط والمعطيات الشرعية، وهي التي دلت عليها الأدلة الشرعية الصحيحة، فلا تقبل التجارب، والاجتهادات الخاصة، و لا الادعاءات والأكاذيب، والأراجيف الباطلة.

فقد دل الشرع على حدود قدرات المخلوق، ودلت على ما يجوز للمخلوق تعاطيه من الأسباب.

٢ -الشفاعة المذمومة، وهي تنقسم إلى قسمين كذلك:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أ-التي تطلب من المخلوق فيما لا يجوز طلبه إلا من الخالق، كطلب إدخال الجنة والنجاة ومن النار، ومغفرة الذنوب، وإقالة العثرات والتجاوز عن الزلات وقبول التوبة، ومعرفة ما في غد، وإنزال المطر والنصر على الأعداء، وتسخير الرياح والسحاب، ونحو ذلك مما هو من خصائص الخالق تبارك وتعالى، الذي له الخلق والأمر، الذي له ملكوت السموات والأرض المتصرف فيهما وحده لا شريك له، فلا أقطاب ولا أغواث، بل هو الله الواحد القهار.

قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} [سبأ: ٢٢].

وقال سبحانه: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الرعد: ١٦]

ب-التي تطلب من المخلوق العاجز، سواء كان عجزه لغيبته، أو لعدم تمكنه، وإن كان حيا أو حاضرا، مع كون مادة الشفاعة مما هو في وسع المخلوق حقيقة أن يقوم به لو أمكن ذلك، كطلب النجدة والمدد من الأموات، أو الغائبين.

وللإيمان باليوم الآخر ثمرات وفوائد نذكر جملة منها:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١- إثبات عدل الله تبارك وتعالى وقدرته على خلقه، وأنه جامع الناس ليوم لا ريب فيه.

٢- بيان عظيم حكمته عز وجل فلم يخلق الخلق عبثاً ولم يتركهم سدى بل خلقهم لحكمة عظيمة وضرب لهم موعداً للحساب.

٣- فيه الرد على نفاة الحكمة، فيتبين في ذلك اليوم المهيب، أن الله جل وعلا لا يفرق بين المتماثلين، ولا يسوي بين المفترقين، كما قال تعالى:{أم نجعل المتقين كالفجار}.

٤- فيه تخويف العباد لئلا يغتروا برحمة الله فيعبدوه بالرجاء فقط فيبقوا في الضلال.

٥- فيه تعزية للرسل وأتباعهم، وأنهم أوشكوا أن ينتقلوا إلى دار عز لا ذل فيها، وسعادة لا شقاء بعدها، وبقاء تام.

٦- فيه بيان لهوان الدنيا على الله جل وعلا، وإنما سمي باليوم الآخر؛ لأنه لا يوم بعده، أما الدنيا فظل زائل.

٧- فيه حث العباد على التنافس في الباقيات الصالحات رجاء رحمة الله في ذلك اليوم.

٨- فيه تعزية المظلومين، وأن هناك يوما يقتص الله فيه ويقضي بين العباد بالحق، لا وكس ولا شطط، فتنشر الدواوين، وتنصب الموازين، التي تزن مثاقيل الذر، فما السبيل وأين النجاة، قال الله تعالى:{وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء:٤٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٩- فيه تحذير الظالمين من يوم يَعَضُّ الظالم فيه على يديه؛ ولهذا توعدهم الله جل وعلا بذلك اليوم، فقال: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَّ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢)مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} [إبراهيم:٤٢-٤٣]، وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ"، فكيف بحقوق بني آدم؟!.

قال ابن الجوزي في كتابه:(التبصرة):[يا كثير الكلام، حسابك شديد، يا عظيم الإجرام، عذابك جديد، يا مؤثرا ما يضره ما رأيك سديد، يا ناطقا بما لا يجدي ولا يفيد، {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد}، كلامك مكتوب، وقولك محسوب، وأنت يا هذا مطلوب، ولك ذنوب وما تتوب، وشمس الحياة قد أخذت في الغروب، فما أقسى قلبك من بين القلوب، وقد أتاه ما يصدع الحديد {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد}، أتظن أنك متروك مهمل، أم تحسب أنه ينسى ما تعمل، أو تعتقد أن الكاتب يغفل، هذا صائح النصائح قد أقبل، يا قاتلا نفسه بكفه لا تفعل، يا من أجله ينقص وأمله يزيد {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد}.أنا من خوف الوعيد في قيام وقعود، كيف لا أزداد خوفا وعلى النار ورودي، كيف جَحْدِي مَا تَجَرَّمْتُ وأعضَائِي شُهُودِي، كيف إنْكَارِي ذُنُوبِي، أم ترى كيف جُحُودِي، وعلى القَول يحصى بِرَقِيبٍ وعَتِيد].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٠- فيه تعزية للفقراء والمساكين، ولمن فاتهم حظ من هذه الفانية، فبين يدينا الباقية فلنعمل لذلك.

١١- ظهور آثار الأسماء والصفات الإلاهية، بل ورؤية المؤمنين له عيانا حقا نسأل الله من فضله العظيم.

قال المؤلف:(والقدر خيره وشره): أي ونؤمن بالقدر، والقدر: هو قدرة الرحمن، أي لا يمنع من قدر الله شيء، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الله على كل شيء قدير، وهذا ما رجحه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى.

قال ابن القيم في النونية مشيراً إلى هذا المعنى:

وحَقِيقَةُ القَدَرِ الذِي حَارَ ... الوَرَى فيه هُو قَدْرَةُ الرَّحْمَن

واسْتَحْسَنَ ابْنُ عَقِيلٍ ذَا مِن أَحْمَد ... لمّا حَكَاهُ عَن الرِّضَى الرَّبَانِي

قال الإمامُ شَفَى القُلُوبَ بِلَفْظَةٍ ... ذَاتِ اخْتِصَارٍ وهْيَ ذَاتُ مَعَانِي

وتحقيق الإيمان بالقدر يكون بتحقيق أربعة مراتب:

أ- إثبات العلم السابق الشامل لله رب العالمين، وأن الله وسع كل شيء علماً، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وأنه يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهذا العلم صفة من صفات الله جل وعلا، من أنكره كفر،وهذا دالٌ على كمال الخالق تبارك وتعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ب- إثبات أن الله جل وعلا كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم، وأن هذه الكتابة كانت بعلمه جل وعلا، ومشيئته وقدرته، وأنها استغرقت كل صغير وكبير،كما في صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ r يَقُولُ:"كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ - قَالَ - وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ" وفي صحيح البخاري عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ r وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ قَالُوا قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا مَرَّتَيْنِ ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ قَالُوا قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ قَالُوا جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ قَالَ كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ". **وأما حديث أول ما خلق الله القلم، فمعلول لا يصح.**

وقد ضل في باب القدر طائفتان وهما:

١ - **القَدَرِيَّة**: وهم الذين يقولون:إن العبد يخلق فعل نفسه، وأن الله لا يعلم ذلك، قبل فعل العبد له، ولا كتبه عليه، بل إذا فعله المخلوق؛ علمه الخالق وكتبه، وهؤلاء اعترتهم شبهة الظلم، فظنوا أنه من الظلم، أن يكون هناك علم وكتابة ومشيئة سابقة لخلق المخلوق وفعله، فأرادوا أن يَفِرُّوا من وصف الخالق بالظلم - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً -؛ فوقعوا فيما هو أشنع من ذلك وأقبح، إذ أنهم نسبوا الخالق جل وعلا إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجهل، والعياذ بالله، فهو بهذا الاعتبار خلق خلقاً، وهو لا يعلم عنهم شيئاً، لا قولا ولا عملا، ولا حالا ولا مآلا، وهذا من أعظم الظلم والتنقص للخالق تبارك وتعالى.

وهؤلاء قد صنف أهل العلم في الرد عليهم كتباً كثيرا، فمن أشهرها، كتاب (خلق أفعال العباد) للإمام للبخاري، وكتاب (السنة) للإمام أحمد،ولابن أبي عاصم، والخلال، وكتاب (الشريعة) للآجري، و(الإبانة) لابن بطة، وكتاب (اعتقاد أهل السنة) للالكائي، بل وما من كتاب من كتب السلف في العقائد، إلا وغالبا ما تكلمت عن هذه الفرقة الضالة، إما قصدا أو عَرَضا، وقد جزم غير واحد بكفرهم كالإمام أحمد وغيره، وهذا ظاهر صنيع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فيما وقع في قصة معبد الجهني والحديث مشهور معروف وسيأتي معنا وهو المعروف بحديث جبريل المشهور، ففي صحيح مسلم قال يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ فَقُلْنَا لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله r فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلاَءِ فِي الْقَدَرِ فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلاً الْمَسْجِدَ فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلاَمَ إِلَيَّ فَقُلْتُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ - وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لاَ قَدَرَ وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ. قَالَ:(فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ)ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد سماهم غير واحد من السلف بـ (مجوس هذه الأمة)، هـم ومـن تشـعب عـنهم كالجبرية.

٢- **الجَبْرِيَّة**: وهم القائلون بأن المخلوق مجبور على جميع أفعاله، فهو إنما يفعل عـين ما أمر الله به، ونفس ما أراده منه؛ فلا لوم على المخلوق مهما فعـل بهـذا الاعتبار،سـواء كفر أو تزندق، أو آمن أو صلى، إذ ليس له فعل في ذلك، فهو كالميت المنطرح بين يـدي مغسله،يقلبه كيف يشاء، وهؤلاء اعـترتهم شـبهة عـدم التفريـق بـين المشـيئة الكونيـة القدرية، والمشيئة الشرعية القدرية، أو ما يعبر به بعض أهل العلم، بعـدم التفريـق بـين المشيئة والإرادة،فلما ضاق عطن عقولهم عن فهم ذلك وإدراكه – مع أنه واضح جلي في كتاب الله تعالى-؛ تكلموا بكلمات الجهل في دين الله عز وجل؛ فضلوا وأضلوا.

وهؤلاء بهذا الاعتبار، يَعْذُرُونَ حتى إبليس، في كفـره وإلحـاده، إذ أنـه مجبـور عـلى ذلك، بل وبعضهم يرى أنه مطيع للرب جل وعـلا؛ لأنـه مـا فعـل إلا مـا أريـد منـه، وهؤلاء لاشك أنهم من أكفر عباد الله تعالى، بالله العظيم.

واعلم رحمك الله، أن ممن ضل في هذا الباب كذلك أولئك الـذين يسـبون الأقـدار، والذين يتشاءمون ويتطيرون، ويجزعون ويتسخطون.

بين السنة القدرية والشرعية:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فصل: في بيان معنى السنة القدرية الشرعية: وهي الأحكام التي أمر الله جل وعلا بها، وقدرها، فهي داخلة في التقدير السابق، وأنزلها الله في كتبه، وأرسل لبيانها رسله، وكل هذا مقدر مكتوب معلوم عند الله جل وعلا، فهذه الأوامر يحبها الله تعالى ويرضاها، وما نهى عنه، فإنه يكرهه ويأباه، فهي إذن جملة الحقائق الشرعية، من الأمر والنهي، التي تبين ما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، والعباد مأمورون شرعا، بأن يأتوا ما يحبه الله تعالى، وأن يجتنبوا ما منعهم منه، وحذرهم ونفرهم عنه، تبارك وتعالى.

أما الحقيقة القدرية الكونية: فهي ما قدره الله جل وعلا، وأجراه في كونه عز وجل، من جميع مجريات الأحداث في السموات والأرض، بما في ذلك الكفر والإيمان، والطاعة والعصيان، وكل ما يجري في الكون من خير أو شر، وإيجاده تبارك وتعالى لهذه المخلوقات، لا يستلزم محبة الله لكل ذلك، ولما يقع من ذلك، كما قال تعالى: {ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم}، فبين الله تعالى في هذه الآية، وغيرها كذلك، أن الكفر وقع بعلمه ومشيئته وأنه هو الموجد له، ولكنه لا يحبه ولا يرضاه، بل وأمر بمدافعته، والسعي في إزالته.

إذن الحقيقة الكونية، لا تدل أبدا على مراد الله تعالى من عباده تجاه هذه المخلوقات التي قدرها الله تعالى وخلقها بمشيئة كونا، وإنما يتعرف العباد على الموقف من هذه المخلوقات من خلال القدر الشرعي، الذي بين الله تبارك وتعالى فيه ما يحبه ويرضاه وما يكرهه ويأباه، وبهذا تتضح المسألة، فقد أنزل الله إلينا ذكرا، وأرسل رسولا؛ ليبين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للناس ما نُزِّلَ إليهم، فالعباد مأمورون أن يتعاملوا مع ما في هذا الكون من خلال ما أمر الله تعالى به في شرعه، وبهذا تتضح المسألة ويزول الإشكال.

ولهذا وجب مدافعة السنة القدرية الكونية، بالسنة القدرية الشرعية، ومن لم يفرق بين هذا وهذا؛ هلك في باب القدر.

وإليك هذا المثال لتتضح المسألة أكثر وأكثر، إن النبي r أخبر بأن هذه الأمة ستتشبه باليهود والنصارى، إذا هذه معلومة من النبي r تبين أمرا قد قدره الله تعالى كونا، وهو أمر واقع لا محالة، ثم جاءت الآيات الواضحات البينات، في التحذير من اتباع اليهود والنصارى، والمفسدين وفي الأرض، ومن سبيل الذين لا يعلمون، وبين النبي r في الأحاديث الأخرى، بل وبتعامله العملي، ما هو الواجب تجاه اليهود والنصارى، أن نخالفهم، ونسعى في إقامة الحجة عليهم، وأن نقاتلهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

هكذا ينبغي أن نكون دائما وأبدا، أن نرجع إلى الحقيقة الشرعية القدرية،؛ لنتبين ما هو المطلوب تجاه ما يظهر حولنا من مجريات الأحداث في هذا الكون.

فصل: في ذكر بعض الشبه المتعلقة بالقدر، والرد عليهم بما يتيسر بإذن الله جل وعلا:

الشبهة الأولى: الاحتجاج بالقدر على ترك المأمور وفعل المحظور، فإن من العباد من إذا لُمْتَهُ على تركه لما أمر الله جل وعلا به، أو ارتكابه لما نهى الله عنه، قال: هذا أمر قدره الله علي، ولو شاء الله جل وعلا، لفعلت المأمور، وتركت المحظور، وهذه كلمة حق

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أريد بها باطل، إذ لا يجوز بحال، لا شرعاً ولا عقلاً ولا عرفاً، الاحتجاج بالقدر على العزم على ارتكاب المعاصي لا حالا ولا مستقبلا:

أما شرعاً: فلأن الله جل وعلا بين لنا تحريم المعصية، وشؤمها على صاحبها، وبين فضل الطاعة وبركتها على أهلها، الأدلة متكاثرة في بيان تحريم فعل المعصية، والترغيب في الطاعة، وقد تقدم ذكر طرف منها من قبل، فهذه هي السنة القدرية الشرعية التي أُمرنا أن ندافع بها السنة القدرية الكونية.

وأما عقلا وعرفا: فإن السنة القدرية الشرعية يقين معلوم قطعا بالنسبة لنا، وأما السنة القدرية الكونية فهي ظنية محتملة؛ لأننا لا نعلم الغيب، فكيف نجترئ على المعاصي، بحجة أن الله كتبها علينا، ونحن لا نعلم، أكتبها الله علينا أم لا؟، فهذا من اتباع الظن وترك اليقين، وهذا الأمر محرم شرعاً، كما قال تعالى: {إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً}، ثم لماذا لا نقدر أن الله تعالى كتب لنا طاعته والبغض لمعصيته، والبعد عنها واجتنابها؟، لماذا أسأنا الظن بربنا؟، ولكن حقيقة الأمر أننا أحببنا المعصية، فأردنا أن نركبها، بوجه نبرر لأنفسنا فيه الآثام والخطايا والمعاصي، عياذا بالله من الخذلان.

ولهذا لم يقبل الله جل وعلا من المشركين قولهم: {لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا}؛ لأنهم اتبعوا الظن، وأساؤوا الظن بالله جل وعلا، فمن أين لهم أن يعلموا أن الله كتب عليهم، الشرك؟!، فهلا أحسنوا الظن بربهم، وفعلوا صالحاً، وأذعنوا وانقادوا، إذا لكان خيراً لهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومنهم من يحتج بقصة موسى عليه السلام مع آدم عليه الصلاة والسلام، لما احتج آدم بالقدر، وحَجَّ موسى بذلك، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"حَاجَّ مُوسَى آدَمَ فَقَالَ لَهُ أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنْ الْجَنَّةِ بِذَنْبِكَ وَأَشْقَيْتَهُمْ قَالَ قَالَ آدَمُ يَا مُوسَى أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي أَوْ قَدَّرَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي قَالَ رَسُولُ اللهِ r فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى".

وهذا الحديث لا حجة فيه، على ارتكاب المعصية، احتجاجاً بالقدر السابق، بل إن فيه بيانا للوقت الذي يجوز فيه الاحتجاج بالقدر، ومتى يكون ذلك الاحتجاج صائبا مقبولا، فإن آدم عليه السلام تاب إلى ربه، وأقلع عن الذنب، ومن كانت هذه حاله فلا لوم عليه، وله أن يحتج بالقدر؛ لأن الأمر قد وقع ومضى، وقد أحدث منه توبةً نصوحاً، أما أن يكون العبد متلبساً بالمعصية، مصراً عليها، عازما على إتيان المزيد منها، ثم يحتج بالقدر على المزيد منها، فهذا هو المحرم شرعاً، ولن تنفعه هذه الحجة، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، بل هو مفتون مخذول. نسأل الله العافية والسلامة.

قال ابن القيم في الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي:[وَالْقَلْبُ السَّلِيمُ هُوَ الَّذِي سَلِمَ مِنَ الشِّرْكِ وَالْغِلِّ وَالْحِقْدِ وَالْحَسَدِ وَالشُّحِّ وَالْكِبْرِ وَحُبِّ الدُّنْيَا وَالرِّيَاسَةِ، فَسَلِمَ مِنْ كُلِّ آفَةٍ تُبْعِدُهُ عَنِ اللهِ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ تُعَارِضُ خَبَرَهُ، وَمِنْ كُلِّ شَهْوَةٍ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تُعَارِضُ أَمْرَهُ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ إِرَادَةٍ تُزَاحِمُ مُرَادَهُ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ قَاطِعٍ يَقْطَعُ عَنِ اللهِ، فَهَذَا الْقَلْبُ السَّلِيمُ فِي جَنَّةٍ مُعَجَّلَةٍ فِي الدُّنْيَا، وَفِي جَنَّةٍ فِي الْبَرْزَخِ، وَفِي جَنَّةِ يَوْمِ الْمَعَادِ.

سَلَامَةُ الْقَلْبِ: وَلَا تَتِمُّ لَهُ سَلَامَتُهُ مُطْلَقًا حَتَّى يَسْلَمَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ: مِنْ شِرْكٍ يُنَاقِضُ التَّوْحِيدَ، وَبِدْعَةٍ تُخَالِفُ السُّنَّةَ، وَشَهْوَةٍ تُخَالِفُ الْأَمْرَ، وَغَفْلَةٍ تُنَاقِضُ الذِّكْرَ، وَهَوًى يُنَاقِضُ التَّجْرِيدَ وَالْإِخْلَاصَ، وَهَذِهِ الْخَمْسَةُ حُجُبٌ عَنِ اللهِ، وَتَحْتَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ، تَتَضَمَّنُ أَفْرَادًا لَا تَنْحَصِرُ.

الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ: وَلِذَلِكَ اشْتَدَّتْ حَاجَةُ الْعَبْدِ بَلْ ضَرُورَتُهُ، إِلَى أَنْ يَسْأَلَ اللهَ أَنْ يَهْدِيَهُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحْوَجَ مِنْهُ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لَهُ مِنْهَا. فَإِنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ يَتَضَمَّنُ: عُلُومًا، وَإِرَادَةً، وَأَعْمَالًا، وَتُرُوكًا ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً تَجْرِي عَلَيْهِ كُلَّ وَقْتٍ، فَتَفَاصِيلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ قَدْ يَعْلَمُهَا الْعَبْدُ وَقَدْ لَا يَعْلَمُهَا، وَقَدْ يَكُونُ مَا لَا يَعْلَمُهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْلَمُهُ، وَمَا يَعْلَمُهُ قَدْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَقَدْ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ وَإِنْ عَجَزَ عَنْهُ، وَمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ قَدْ تُرِيدُهُ نَفْسُهُ وَقَدْ لَا تُرِيدُهُ كَسَلًا وَتَهَاوُنًا، أَوْ لِقِيَامِ مَانِعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمَا تُرِيدُهُ قَدْ يَفْعَلُهُ وَقَدْ لَا يَفْعَلُهُ، وَمَا يَفْعَلُهُ قَدْ يَقُومُ فِيهِ بِشُرُوطِ الْإِخْلَاصِ وَقَدْ لَا يَقُومُ، وَمَا يَقُومُ فِيهِ بِشُرُوطِ الْإِخْلَاصِ قَدْ يَقُومُ فِيهِ بِكَمَالِ الْمُتَابَعَةِ وَقَدْ لَا يَقُومُ، وَمَا يَقُومُ فِيهِ بِالْمُتَابَعَةِ قَدْ يَثْبُتُ عَلَيْهِ وَقَدْ يُصْرَفُ قَلْبُهُ عَنْهُ، وَهَذَا كُلُّهُ وَاقِعٌ سَارٍ فِي الْخَلْقِ، فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ. وَلَيْسَ فِي طِبَاعِ الْعَبْدِ الْهِدَايَةُ إِلَى ذَلِكَ، بَلْ مَتَى وُكِلَ إِلَى طِبَاعِهِ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَهَذَا هُوَ الْإِرْكَاسُ الَّذِي أَرْكَسَ اللهُ بِهِ الْمُنَافِقِينَ بِذُنُوبِهِمْ، فَأَعَادَهُمْ إِلَى طِبَاعِهِمْ وَمَا خُلِقَتْ عَلَيْهِ نُفُوسُهُمْ مِنَ الْجَهْلِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَالظُّلْمِ، وَالرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَنَهْيِهِ وَأَمْرِهِ، فَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَجَعْلِهِ الْهِدَايَةَ حَيْثُ تَصْلُحُ، وَيَصْرِفُ مَنْ يَشَاءُ عَنْ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ، لِعَدَمِ صَلَاحِيَةِ الْمَحَلِّ، وَذَلِكَ مُوجِبُ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَصَبَ لِخَلْقِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا يُوصِلُهُمْ إِلَيْهِ، فَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وَنَصَبَ لِعِبَادِهِ مِنْ أَمْرِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا دَعَاهُمْ جَمِيعًا إِلَيْهِ حُجَّةً مِنْهُ وَعَدْلًا، وَهَدَى مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ إِلَى سُلُوكِهِ نِعْمَةً مِنْهُ وَفَضْلًا، وَلَمْ يَخْرُجْ بِهَذَا الْعَدْلِ وَهَذَا الْفَضْلِ عَنْ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ لِقَائِهِ نَصَبَ لِخَلْقِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا يُوَصِّلُهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ، ثُمَّ صَرَفَ عَنْهُ مَنْ صَرَفَ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا، وَأَقَامَ عَلَيْهِ مَنْ أَقَامَهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، نُورًا ظَاهِرًا يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ فِي ظُلْمَةِ الْحَشْرِ، وَحَفِظَ عَلَيْهِمْ نُورَهُمْ حَتَّى قَطَعُوهُ كَمَا حَفِظَ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانَ حَتَّى لَقُوهُ، وَأَطْفَأَ نُورَ الْمُنَافِقِينَ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِ، كَمَا أَطْفَأَهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

وَأَقَامَ أَعْمَالَ الْعُصَاةِ بِجَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيبَ وَحَسَكًا تَخْطِفُهُمْ كَمَا خَطَفَتْهُمْ فِي الدُّنْيَا عَنِ الِاسْتِقَامَةِ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ قُوَّةَ سَيْرِهِمْ وَسُرْعَتَهُمْ عَلَى قَدْرِ قُوَّةِ سَيْرِهِمْ وَسُرْعَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَنَصَبَ لِلْمُؤْمِنِينَ حَوْضًا يَشْرَبُونَ مِنْهُ بِإِزَاءِ شُرْبِهِمْ مِنْ شَرْعِهِ فِي الدُّنْيَا، وَحَرَمَ مِنَ الشُّرْبِ مِنْهُ هُنَاكَ مَنْ حُرِمَ الشُّرْبَ مِنْ شَرْعِهِ وَدِينِهِ هَاهُنَا.

فَانْظُرْ إِلَى الْآخِرَةِ كَأَنَّهَا رَأْيُ عَيْنٍ، وَتَأَمَّلْ حِكْمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ فِي الدَّارَيْنِ، تَعْلَمْ حِينَئِذٍ عِلْمًا يَقِينًا لَا شَكَّ فِيهِ: أَنَّ الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ وَعُنْوَانُهَا وَأُنْمُوذَجُهَا، وَأَنَّ مَنَازِلَ النَّاسِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فِيهَا مِنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ عَلَى حَسَبِ مَنَازِلِهِمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ فِي الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَضِدِّهِمَا، وَبِالله التَّوْفِيقُ.

فَمِنْ أَعْظَمِ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ الْخُرُوجُ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]ا.هـ.

وعليه فإن الاحتجاج بالقدر على ما وقع ومضى مع التوبة والندم، نافع وجائز ، أما الاحتجاج به على مزيد من المعاصي في المستقبل، أو لزوم المعصية في الحال الحاضر، أو تبريراً لما هو عازم أن يقع فيه من المعاصي، فهذا هو الأمر الذي لا يجوز شرعاً.

الشبهة الثانية: هل الإنسان مسير أم مخير؟.

والجواب:أنه كما تقدم إذا نظرنا إلى السنة الكونية القدرية؛ فإنه مسير، وإن نظرنا إلى السنة القدرية الشرعية؛ فإنه مخير، والجمع بينهما، أن نقول: إن السنة الكونية أمر بالنسبة لنا غيبي، وأما السنة الشرعية، فيقين، فاحذر من الأخذ بالظن وترك اليقين، فإنه سبيل الهلكة، وسوء الظن بالله جل وعلا.

وعليه فلا إشكال علينا أبدا في هذا السؤال، إذا فهمنا هذا المعنى، فأنت بين أمر يقيني قد أُمِرْتَ به، وبين مآل غيبي لا تعلمه، ولكن الله تعالى أخبرنا في شرعه، أنه يريد الإحسان إلى خلقه، وأنه لا يظلم الناس شيئا، وأنه شكور لعباده جل وعلا، كما قال تعالى: {مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} [النساء:١٤٧].

فإياك وسوء الظن بالله تعالى، وإياك من الرجم بالغيب؛ تَسْلُك، سبيل النجاة بإذن الله جل وعلا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشبهة الثالثة: أنه إذا كان الأمر معلوما مسبقا، ففيم العمل؟.

والجواب: أن نقول: هو معلوم بالنسبة لمن؟، لك، أم لله عز وجل؟، فإنك إن عرفت الفرق بين المقامين؛ زال عنك الإشكال، وحُلَّ الالتباس بحمد الله تعالى؛ ولهذا لما سئل النبي r عن ذلك قال كما في الصحيحين من حديث عَلِيٍّ t قَالَ كَانَ النَّبِيُّ r فِي جَنَازَةٍ فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الْأَرْضَ فَقَالَ:"مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنْ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنْ الْجَنَّةِ"، قَالُوا يَا رَسُولَ الله: أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟، قَالَ:"اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ ثُمَّ قَرَأَ {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} الْآيَةَ".

وتأمل في إجابة النبي r ؛ لتنكشف لكل المسألة، فإن النبي r قرر علم الله السابق، وبين السبيل التي يجب أن يسلكها العبد في هذه الحياة الدنيا، فاستدل بالآية:{فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل:٥-١٠]، وهذه الآية تدل على ربط الأمور بأسبابها، فمن صدق الله تعالى، وأحسن الظن به تبارك وتعالى، فأولئك أهل اليسرى وهي الجنة، وأما من كذب وأبي، ونَفَرَ وعصى، وأساء الظن بالله جل وعلا، فقعد عن العمل؛ فذاك صاحب العسرى، نسأل الله تعالى لنا ولكم اليسرى، ونعوذ به من العسرى.

آيات من سورة الأنعام تكشف الحقيقة:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأمل في هذه الآيات من سورة الأنعام، فإنها تقرب لك الأمر عن كَثَب، وتكشف المسألة عن قرب، وذلك أن الله تعالى، لم يقبل من المشركين الاحتجاج بالقدر على الشرك، مع أن ظاهر كلامهم حق، فإنه لا يقع شيء إلا بمشيئة الله تعالى، فتعالوا ننظر في الآيات، وتَسَلْسُلِها؛ لننظر كيف رَدَّ الله تبارك وتعالى شبهتهم، بما قطعهم وجعلهم في نهاية المطاف يشهدون على أنفسهم أنهم كانوا كافرين، وأنهم حَقِيقُون بدخول النار، فهلم إلى الآيات نتأملها؛ لنستقي الهدايات، فإنه ما من شبهة للمبطلين، إلا وفي كتاب الله وسنة رسوله r ردها وبيانها، لمن كان له قلب يعقل، أو ألقى السمع وهو شهيد.

قال تعالى: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام:١٤٨-١٥٠].

هنا بين الله تعالى شبهة المشركين: {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ}، ثم سمى الله تعالى ذلك تكذيبا، وليس حجة {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}؛ لأنهم اتبعوا فيها الظن والخرص والرجم الغيب، واتبعوا الهوى وتركوا الهدى الواضح البين، وأساءوا الظن بالله جل وعلا، ثم حَجَّهُم الله تبارك وتعالى، بِسِرِّ المسألة، فقال تعالى: {قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا}، أي هل اطلعتم على اللوح المحفوظ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهو هنا يمثل القدر الكوني، هل اطلعتم فيه فأيقنتم أن الله تعالى شاء لكم ذلك، وقدره عليكم، أم أنكم تتبعون الظن والخرص، نعم هو كذلك؛ ولهذا قال تعالى: {إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ}؛ فكشف الله حالهم وفضحهم، وبين أن مرادهم تبرير واقعهم، وتمرير أهوائهم، بسوء الظن بالله تعالى، أنه قدر عليهم ذلك، ثم جاءت الفاضحة الواضحة، فقال تعالى: {قُلْ فَلِلهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}، أي إن كانت تلك هي حجتكم الداحضة الواهية، فاسمعوا حجة الله الدامغة، ألا وهو الخيار الثاني في الأمر الذي غُيِّبَ عنكم، وليس لكم علم فيه، بل اتبعتم فيه التكذيب والخرص والظن والرجم بالغيب، ألا وهو: أن تكونوا من المهتدين، المؤمنين الموحدين.

والمعنى أن هناك خيارين، **الأول**: أن تكونوا مشركين، **والثاني**: أن تكونوا مؤمنين موحدين.

وبالنسبة لكم قد استوى الطرفان؛ لأن الكل مغيب عنكم، والسؤال الذي يطرح نفسه، لِمَ اخترتم أن تكونوا من المشركين، فإنه كذلك لو شاء الله تعالى لكنتم مؤمنين موحدين، ولهداكم أجمعين، ولكنه سوء الظن بالله تعالى، الذي قال الله تعالى فيه: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} [فصلت:٢٣-٢٥]، وقال سبحانه: {لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلله الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[النحل:٦٠].

ثم بين تبارك وتعالى أنهم سَيُمْعِنُونَ في غَيِّهِم، وسَيُشْهِدُونَ على ذلك أولياءهم، فلا تشهد معهم، واعلم أنهم بربهم يعدلون، أي يشركون.

ولهذا من جميل ما حفظ عن السلف، وهو منقول عن الحسن بن يسار البصري رحمه الله تعالى، إن المؤمن أحسن الظن بربه؛ فأحسن العمل، وإن المنافق أساء الظن بربه؛ فأساء العمل، فرحماك يا أله.

وبهذا تكون قد اتضحت المسألة، فنسأل الله تعالى أنه يهدي قلوبنا، وأن يشرح صدورنا للإسلام، وأن ييسر أمورنا، وأن يفتح علينا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

مراتب الإيمان بالقدر:

ثم اعلم رحمك الله تعالى، أن مراتب الإيمان بالقدر أربعة، من استكملها، وتحقق بها، والتزمها بمقتضياتها، وعامل الله بها، فقد حقق الإيمان بالقدر، وهي:

١- **العلم**: والمراد به إثبات علم الله السابق لك شيء، ولك مخلوق، فإن الله تعالى علم الأشياء على تفاصيلها قبل أن يوجدها من العدم.

٢- **الكتابة**: والمراد بها أن الله تعالى أحصى كل شيء وكتبه، في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى، {يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد:٣٩]، ففي هذه الآية أثبت تعالى أم الكتاب، وأثبت ما يمحوه وما يُثبت بمشيئته تبارك وتعالى، والمحو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والإثبات، كله داخل في عموم كتابه الأول، الذي كتبه جل وعلا، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"لَمَّا قَضَى اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي"، وفي رواية مسلم:"لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي".

٣- **المشيئة**: والمراد به إثبات الإرادة الكونية والشرعية لله تبارك وتعالى، ولابد من التفريق بين الإرادتين، فإن المشيئة القدرية الشرعية، تأتي مرادفة للإرادة، أي ما قدره الله تعالى شرعا وأحبه، وأما مطلق التقدير، بغض النظر عن ما أحبه وما أبغضه تبارك وتعالى، فهو مرادف للمشيئة أو الإرادة القدرية الكونية، كما قال تعالى:{وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}[البقرة:٢٥٣]، وقوله:{وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [الأنعام:١٣٧]، وقوله:{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يونس:٩٩]، ونحو ذلك من الآيات الدالة على الإرادة الكونية القدرية، وأما الإرادة الشرعية المتضمنة، بيان ما يحبه الله ويرضاه وما يكرهه ويأباه، كقوله تعالى:{ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة:١٨٥]، وقوله:{يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (٣٠) إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا} [النساء:٢٦-٣١]، وقوله:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [المائدة:١]، وقوله:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [المائدة:٦]، وقوله:{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال:٦٧]، ونحو ذلك من الآيات.

٤- **الخلق**: والمراد به إثبات أن الله تعالى، هو خالق كل شيء، إجمالا وتفصيلا، وأنه سبحانه تعالى خالق العباد وأعمالهم، كما قال تعالى:{وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات:٩٦].

قال المؤلف رحمه الله تعالى:(وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:{لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ): هذا اختيار دال على عظيم فهم المؤلف لكتاب الله تعالى وعظيم تدبره له، فهو استدلال موفق قوي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:{ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبل المشرق والمغرب}: أي ليس البر محصوراً، في تحديد أين تكون تولية الوجوه أثناء أداء العبادة، بل حقيقة البر، هو الذل والانقياد، والطواعية التامة، والاستسلام العام لأمر الله ورسوله، فمن وجد هذا من قلبه، فإنه لن يعترض على أمر من أوامر الله جل وعلا، فإن المشرق والمغرب لله عز وجل، وهو الآمر بالتوجه إليه، ولكن المهم أن تكون الآلة سليمة؛ لتتلقى كل أمر من الله تبارك وتعالى، بالتسليم والرضى والقبول، فليس عندها أدنى تردد، ولا استدراك على أمر الله تعالى ورسوله r ، فأينما تولوا فثم وجه الله، فليعلم العباد ذلك علم اليقين، المستلزم للذل والانقياد والإذعان، فإن الخلق خلق الله، والملك ملك الله، وأنه وحده الآمر المتصرف في هذا الكون كُلِه، وسبب نزول هذه الآية أن الله جل وعلا،لما أمر نبيه r أن يصلى إلى الكعبة، بعد أن كان يصلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا؛ اعترض الكفار والمشركون على ذلك، وظن اليهود أن البر في الصلاة إلى بيت المقدس، وآخرون ظنوا أن البر في الصلاة إلى الكعبة، فبين الله حقيقة البر، وأنه ليس في تولية الوجوه فحسب، بل في تولية الوجوه والقلوب إلى علام الغيوب، بتحقيق الطاعة التامة العامة لله الواحد القهار، والاستعداد التام للاستسلام، فأينما أمرك، فعليك أن تمتثل، ولهذا قال سبحانه:{ولكن البر من آمن بالله ..... الآية} أي البر الحقيقي لا يمكن أن يكون إلا باستسلام القلب، والانقياد التام لله الواحد القهار؛ لأن في الاعتراض على أمر الله عز وجل، دليلاً على عدم تمام الإيمان في القلب، أو انعدامه، بحسب الأمر المُعْتَرَضِ عليه فيه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية:[وأما الكلام على تفسير هذه الآية، فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولا بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم حوَّلهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل، وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجه، واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق إلى المغرب بر ولا طاعة، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه؛ ولهذا قال:{لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ}الآية،كما قال في الأضاحي والهدايا:{لَنْ يَنَالَ اللهَّ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ}]ا.هـ.

وأنت كما ترى أن هذه الآية تضمنت ذكر الأركان الستة للإيمان إلا القدر؛ ولهذا أفرد له المؤلف دليلا خاصا.

ما يميز طالب الهدى من طالب الهوى

وفي ذكر المؤلف لدليل واحد على ذلك، مع كثرة الأدلة في الكتاب والسنة، تذكير بأصل عظيم، ألا وهو أن طالب الحق يكفيه أن يُذْكَر له الدليل الدال على المسألة، بغض النظر عن العدد، وهذا ما يميز طالب الهدى من طالب الهوى.

أما طالب الهوى، فإنك إن حَشَدْتَ له ما حَشَدْتَ من الأدلة؛ فإنه يبقى مُتَنَصِّلا من دلالتها، صَادًّا عنها، يَدْفَعُها بالأَقْيِسَةِ الفاسدة، والآراء الضالة، والاعتراضات الباهتة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المنحرفة، انتصارا لهواه، فلا يطلب سوى لَيِّ أعناق النصوص؛ نصرة لمذهبه وهواه. عياذا بالله. **فكلما أتيته بدليل؛ قال لك: هل من دليل آخر؟!!.**

قوله:(ودليل القدر: قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ})، لما كانت الآية التي استدل بها المؤلف على الأركان الستة، لم يُذْكَر فيها القَدَر، ذكر المؤلف رحمه الله دليلاً آخر خاصاً بالقدر؛ ليستكمل الاستدلال على الأركان الستة كلها.

قوله:{إنا كل شيء خلقناه بقدر}، بين الله تعالى في هذه الآية، أنه ما من شيء إلا والله خالقه، وأنه ما من شيء خلقه الله، إلا وقد قدره قبل أن يخلقه، فوقع الخلق بعلمه وقدرته ومشيئته جل وعلا، وهذا عام في كل المخلوقات، وقد تقدم تفصيل ذلك، بما أغنى عن إعادته.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ، وله رُكْنٌ وَاحِدٌ.كما في الحديث:"أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ".وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ} [النحل:١٢٨]. وقَوْلُهُ تَعَالَى:{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[الشعراء:٢١٧-٢٢٠]. وقَوْلُهُ تَعَالَى:{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} [يونس:٦١].

الشرح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال المؤلف:(المرتبة الثالثة: الإحسان): وهو ضد الإساءة، وهو مرادف للإتقان والإجادة. ويطلق الإحسان ويراد به البر وإيصال الخير للآخرين، ويتحدد المعنى بالسياق الذي وردت فيه، هذا من الناحية اللغوية.

وشرعاً: الإخلاص في العبادة لله الواحد القهار محبة وخوف ورجاء، والصدق في المتابعة للنبي ﷺ، وهو بهذا الاعتبار لا ينفك عنه مسلم بحال، وعليه فالإحسان له معنى عام وخاص، فأما العام فهو ما ذكرته هنا، وأما الخاص فهو ما سيأتي في حديث جبريل، عليه السلام الآتي، وإن كان بينهما أيضا عموم وخصوص، ولكن في الإحسان الخاص قدرا زائدا، من ضبط وإتقان وخوف ومحبة ورجاء؛ ولهذا نجد أن هذه الكلمة، تتوارد في سياقات مختلفة، بمعاني يحددها السياق، فمثلا في قوله تعالى:{الم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [لقمان:١ - ٤]، جاء الإحسان هنا مرادفا للإيمان والإسلام بمعناهما العام كما تقدم، فقد نعت الله المحسنين هنا بما نعت به المتقين في صدر سورة البقرة، فقال تعالى: {الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [البقرة:١ - ٤]، وبما نعت به المؤمنين في صدر سورة النمل:{طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [النمل: ١ - ٣].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة:٥٨]، حث على مزيد من الانقياد والمتابعة، والمعنى امتثلوا أمرنا واحرصوا على الاستزادة من ذلك والتَّكَثُّر.

وفي قوله تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة:١٩٥]، حث على مزيد من الإنفاق والعطاء والكرم، وكذلك في قوله تعالى: {وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} [البقرة:٢٣٦]

وفي قوله تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران:١٣٤]، حث على الترقي في مراتب فضائل الأعمال، وكريم الأخلاق والخصال. وهكذا فبحسب السياق يتحدد المعنى. والله أعلم.

والإحسان بمعناه العام له ركنان:

١ - غاية الإخلاص. ٢ - غاية المتابعة.

وعلى هذا المنوال سمى النبي **r** الإسلام والإيمان والإحسان، دينا، كما في حديث جبريل الآتي، فسمى ذلك كله الدين، حيث قال **r** :"أتاكم يعلمكم دينكم"، والمعنى أن هذه الثلاث تمثل الدين القيم، الذي لا يرتضي الله تبارك وتعالى من عباده سواه،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فنحن إذا مخاطبون بالإسلام والإيمان والإحسان؛ لتكون النجاة؛ ولأجل هذا جاءت هذه الألفاظ والمسميات، مترادفة في بعض مواضع الكتاب والسنة كما تقدم؛ لنعلم أن هناك قدرا من الإحسان لا يكون العبد مسلما إلا به.

الفقه الأكبر:

وهذا معنى قول النبي r :"من يرد الله به خيرا يفقه في الدين" متفق عليه، من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

فليس المراد بالفقه هنا، المصطلح الفقهي الحادث، من حلال وحرام، ومكروه ومستحب، ومباح، بل المراد هذه المراتب الثلاث، المذكورة في حديث جبريل عليه السلام، وهو دال على ضرورة القيام بالدين كله، ولاء وبراء، حبا وبغضا، إيمانا بالله وكفرا بالطاغوت، وأن تكون الآلة سليمة، أي أن يكون القلب مستعدا للقبول والانقياد، والجوارح مستعدة للعمل، فإن الفقه واسع، وليس كل يحيط بأكثره، ولكن المهم أن يكون الإنسان عاملا بما عَلِم، ومستعدا للعمل بما لم يعلم متى ما أتاه، طالبا للمزيد من العلم والعمل، ثم درجة ذلك حكما؛ تتوقف على درجة ذلك العلم، كما تقدم، هل هو فرض عين، أم فرض كفاية، وهل هو في حق المعين، واجب أم مستحب، وهكذا. والله أعلم.

مرتبتي الإحسان:

والمؤلف قد اعتبر ما ذُكر في حديث جبريل المشهور ركناً للإحسان، ويمكن جعل ذلك تعريفاً للإحسان، وبيانا لحقيقة حال أداء العبادات، وأنه على مرتبتين:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١ - **المرتبة العليا**: مرتبة الحب والشوق والطلب، وهو قوله: {أن تعبد الله كأنك تراه}، فإن هذا المعني يحملك على حب الله عز وجل، وتعظيمك إياه، مما يجعلك تجتهد في إحسان العبادة، وكأن قلبك يرى الله عز وجل، بأسمائه وصفاته، فهو مقبل عليه إقبال المشتاق المحب، الطالب لرضاه، فلا تراه إلا خاشعاً متنسكاً، يأنس بالله جل وعلا، أشد من أُنس أهل الدنيا بدنياهم، بل ويجد للعبادة لَذة يَسْلُو بها عن كثير من الآلام، ويفرح بها أشد من فرح الناس بالأحباب والأصحاب، وفي مثل هذا يقول بعضهم:(إنه تمر بالقلب لحظات أقول لو أن أهل الجنة في مثل ما أنا فيه إنهم لفي عيش رغيد)، وقال بعضهم:(إنه لتمر بالقلب لحظات يهتز فيها طرباً)؛ ولهذا كان الأنبياء والمرسلون وأتباعهم، مع عظيم ما يكابدون؛ يجدون راحة وانشراحَ صدر ولذة، من جراء محبتهم لله وأنسهم به، والرضى عنه، وهذا ابن تيمية رحمه الله،لما أوذي في الله كان يجد أُنساً ونعيماً عظيماً، بالله تبارك وتعالى، وقد وصف ذلك تلميذه العلامة ابن القيم في كتابه (الوابل الصيب)، فقال:[وسمعت شيخ الإسلام أبن تيمية قدس الله روحه يقول: أن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة، وقال لي مرة:ما يصنع أعدائي بي؟، أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رُحْتُ فهي معي، لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القاعة ذهبا ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير، ونحو هذا، وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، ما شاء الله، وقال لي مرة:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه، ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: {فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب}، وعِلْمِ الله ما رأيت أحدا أطيب عيشا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشا، وأشرحهم صدرا، وأقواهم قلبا، وأَسَرِّهِم نفسا، تَلُوحُ نَضْرَةُ النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامه؛ فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحا، وقوة ويقينا وطمأنينة، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل؛ فآتاهم من رَوْحِهَا ونَسِيمِهَا وطِيبِهَا ما اسْتَفْرَغَ قُوَاهُم لِطَلَبِهَا والمسابقة إليها]ا.هـ.

٢ - **مرتبة الخوف والهرب**: وهو قوله: "فإن لم تكن تراه فهو يراك"، أي إن لم ترتق نفسك إلى تلك الحالة الرفيعة، فلا أقل من هذه الحالة الثانية، وهي رفيعة كذلك، أن تستشعر مراقبة الله لك، وإحصاءه لأعمالك، وملاقاتك إياه، وأنه ليس ثمة إلا الجنة أو النار، أحدث هذا الشعور إحساناً في القلب والعبادة، فهو يخاف إن لم يخلص أن يحبط عمله، وإن لم يتابع أن يرد فعله، فهو خائف وَجِل من الله عز وجل، حريص على أداء العبادات على ما يحبه الله ويرضاه.

تنبيه: في الخلوات تذكر ثلاثا: {وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} [الزمر: ٤٧]، {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٤٦]، {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[الطلاق: ٢]. **ولا تنس ثلاثا**: نظر الله إليك، ونعمه عليك، وإحسانه إليك. **وراقب ثلاثا**: عظمته في قلبك، وحبك له، وحياؤك منه.

وفي قوله:(أن تعبد الله)، تذكير بأن العبادة لابد أن تكون بإحسان، لا باتباع الهوى، ولابد أن تتحقق من هذه العبادة، أنها من عند الله، وأن المراد بها الله وحده، والمعنى إذا أن تكون في شرائع الإسلام محسنا، وفي شرائع الإيمان ومحسنا، فتعمل بكل ذلك، جامعا بين عمل الظاهر والباطن، حالة كونك، مخلصا لله تعالى، متبعا لرسوله r .

وبهذا تكون قد اتضحت معالم الدين في حديث جبريل، وظهر الترابط بين هذه المراتب الثلاث، فلنتق الله ولنعمل على سبيل النجاة، أسأل الله تعالى، لي ولكم ولمن نحب النجاة.

قال ابن القيم في:(الوابل الصيب) بعد أن ذكر حال الأشقياء، أهل الإساءة، نسأل الله العافية والسلامة:[وهذا عكس أهل السعادة والفلاح، فإن حياتهم في الدنيا أطيب الحياة ولهم في البرزخ وفي الآخرة أفضل الثواب، قال تعالى:{من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة}، فهذا في الدنيا، ثم قال:{ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون}، فهذا في البرزخ والآخرة، وقال تعالى:{والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون}، وقال تعالى:{وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله}، فهذا في الآخرة، وقال تعالى:{قل يا عباد الذين آمنوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب}، فهذه أربعة مواضيع ذكر الله تعالى فيها أنه يجزي المحسن بإحسانه جزاءين:جزاء في الدنيا وجزاء في الآخرة، فالإحسان له جزاء معجل ولا بد، والإساءة لها جزاء معجل ولا بد، ولو لم يكن إلا ما يجازي به المحسن من انشراح صدوره، في انفساح قلبه وسروره ولذاته، بمعاملة ربه عز و جل وطاعته، وذكره ونعيم روحه بمحبته، وذكره وفرحه بربه سبحانه وتعالى، أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه، وما يجازي به المسيء من ضيق الصدر وقسوة القلب وتشتته وظلمته وحزازاته وغمه وهمه وحزنه وخوفه، وهذا أمر لا يكاد من له أدني حس وحياة يرتاب فيه، بل الغموم والهموم والأحزان والضيق عقوبات عاجلة ونار دنيوية وجهنم حاضرة، والإقبال على الله تعالى والإنابة إليه والرضاء به وعنه وامتلاء القلب من محبته واللَّهَجِ بذكره والفرح والسرور بمعرفته، ثواب عاجل وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة.....إلى أن قال: وكان بعض العارفين يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجَالَدُونَا عليه بالسيوف، وقال آخر: مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها؟ قيل:وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره، أو نحو هذا، وقال آخر: إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا وقال آخر: إنه لتمر بي أوقات أقول إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب، فمحبة الله تعالى ومعرفته ودوام ذكره والسكون إليه والطمأنينة إليه وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإرادته هو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم وهو قوة عين المحبين وحياة العارفين وإنما تقر عيون الناس به على حسب قرة أعينهم بالله عز و جل فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، وإنما يُصَدِّقُ هذا من في قلبه حياة، وأما ميت القلب، فيوحشك ما له، ثم فاستأنس بغيبته ما أمكنك، فإنك لا يوحشك إلا حضوره عندك، فإذا ابتليت به فأعطه ظاهرك وترحل عنه بقلبك وفارقه بِسِرِّك، ولا تشغل به عما هو أولى بك، واعلم أن الحسرة كل الحسرة الاشتغال بمن لا يجر عليك الاشتغال به إلا فَوت نصيبك وحظك من الله عز و جل وانقطاعك عنه وضياع وقتك وضعف عزيمتك وتفرق همك، فإذا بليت بهذا ـ ولا بد لك منه ـ فعامل الله تعالى فيه واحتسب عليه ما أمكنك وتقرب إلى الله تعالى بمرضاته فيه واجعل اجتماعك به مَتْجَراً لك لا تجعله خسارة، وكن معه كرجل سائر في طريقه عرض له رجل وَقَّفَه عن سيره، فَاجْتَهِدْ أن تأخذه معك وتسير به فتحمله ولا يَحْمِلُك، فإن أَبَى ولم يكن في سيره مطمع؛ فلا تقف معه بلا رَكب الدرب، ودعه ولا تلتفت إليه، فإنه قاطع الطريق، ولو كان من كان، فَانْجُ بقلبك وَضُنَّ بيومك وليلتك، لا تغرب عليك الشمس قبل وصول المنزلة؛ فَتُؤْخَذ، أو يطلع الفجر، أنى لك **بلماقهم**]ا.هـ. هكذا عندي في الأصل، ولعل الصواب (بِمَلْقَاهُم).

قال المؤلف رحمه الله:(قال عليه الصلاة والسلام: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء"): هذا الخبر أخرجه مسلم في صحيحه عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَنْ رَسُولِ الله r قَالَ:"إِنَّ اللهَّ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ".

وفي هذا الحديث دليل على أن هناك قدراً من الإحسان، لابد من وجوده، وهو الإخلاص والمتابعة.

وللإخلاص والمتابعة، أثار في القلب بحسب قوتها، فتقوى حتى يصل الأمر بالقلب إلى أن يعبد الله كأنه يراه، أو إلى أن يعبده مستشعراً مراقبته لله جل وعلا، خائفاً وجلاً منه تبارك وتعالى.

قوله:"كتب"، أي أمر وأوصى وقدر وفرض، والمعنى أن الله تبارك وتعالى أراد من عباده شرعا أن يكونوا على حالة الإحسان في كل ما يأتون ويذرون، حتى في ذبحهم للبهائم، لابد من الإحسان، وسبيل معرفته الوقوف مع حدود الشرع والعمل به، فإنما سمي إحسانا من الحسن، ولا حسن في مخالفة الشريعة، بل كل الإحسان في مواطأة مراض الله تبارك وتعالى، والبحث عنها والعمل بها.

قوله:(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّ اللهّ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ}، إذا كان الإسلام هو عمل الظاهر، والإيمان هو عمل الباطن، فإن الإحسان ينتظمهما، فإن أعمال الجوارح والقلوب لا تقبل إلا بالإخلاص والمتابعة، ففي فريضة الصيام مثلاً، تظهر حقيقة الإحسان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالعبد يسعه أن يأكل ويشرب في خلوه من العباد، إلا أنه لا يفعل ذلك لاستشعاره رؤية الله جل وعلا وإطلاعه عليه، فهذا إحسان نسبي متعلق بهذه الفريضة، حتى إذا صارت حياة العبد كلها بهذه المتابعة؛ كان من المحسنين الذين قال الله تعالى فيهم: {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون} فأثبت الله جل وعلا في هذه الآية معيته لهذا الصنف من العباد.

ومعية الله جل وعلا على نوعين:

١ - **معيةٌ عامة**: وهي بمعنى العلم والإحاطة والقهر والقدرة.

٢ - **معيةٌ خاصة**: وهي بمعنى التوفيق والسداد، والحفظ والنصر والتمكين، وهذه هي المرادة في هذه الآية، إذ أن المعية الأولى، هي معية عامة، يدخل فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة:٧] ، وَشَرَفُ المتقين وعزهم، وكرامة المحسنين وعلو قدرهم، إنما يتجلى في المعية الخاصة: {مع الذين اتقوا} أي سلكوا سبيل التقوى في جميع أحوالهم، فيحرصون على العمل بالطاعات والقربات، وينأون عن المعاصي والمحرمات، ثم لا يزالون بأنفسهم حتى يرتقوا بها إلى مراتب الإحسان. وحقيقة التقوى ما قاله طلق بن حبيب رحمه الله تعالى:(أن تعبد الله بطاعة الله على نور من الله ترجوا ثواب الله، وأن تدع معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله)، وهذا من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أجمع التعاريف للتقوى، وإنما تميز هذا التعريف؛ لأن فيه لفظة (على نور من الله)، فهي التي تميز المُحسن من غيره، فإن العبد قد يفعل المأمور طلباً لشيء من عرض الحياة الدنيا، كما أنه قد يترك المحظور حِمية وتداوياً، أو يكون وضعه الاجتماعي لا يسمح بتعاطي هذا المحرم أو ذاك، فهذا وذاك ليسا من التقوى والإحسان في شيء، فالواجب إذن فعل الأوامر ابتغاء مرضات الله عز وجل على علم وبصيرة، لا على وفق العادات والتقاليد، أو فعل الأكثر من الناس، أو ضغط الواقع، بل على وفق الكتاب والسنة، وهذا هو النور المشار إليه في كلام طلق بن حبيب المتقدم، فهو يعلم الطاعة ويأتيها محبا محتسبا الأجر من الله تعالى، وكذلك الأمر مع المعصية، يعلم أنها معصية بدليل الكتاب والسنة؛ فيتركها لأن الله يبغضها، ولأن الله نهى عنها، وحذر منها، فهو يفعل ما يفعل، ويترك ما يترك، وفقاً للكتاب والسنة، لا وفقاً للهوى والعادات،وهذا من معاني قوله تعالى: {ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام}، فالحلال والحرام لا يعرف إلا من جهة الكتاب والسنة، وما كان تبعاً لهما كالإجماع الصحيح والقياس المعتبر، فهذا الصنف من العباد هم أحق العباد بمعية الله جل وعلا الخاصة، وهم أولى الناس باسم التقوى والإحسان.

وقوله:{الذين اتقوا}، تقدم معنا أن التقوى قد يراد به الدين كله بحسب السياق، وهنا جاءت التقوى في سياق ذكر الإحسان، فالظاهر أن المراد بها هنا ترك المحرمات، والمراد بالإحسان فعل المأمورات، وقيل التقوى الاقتصار على الواجب من ذلك، بأن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا يفعل محرما ولا يترك واجبا، والإحسان التوسع في فعل النوافل، وترك المكروهات وشيء من المباحات، وهناك أقوال أخرى غير ذلك.

الفرق بين البر والتقوى:

مِثْلُ البر والتقوى إذا اجتمعا في سياق واحد، فالظاهر أن المراد بالتقوى ترك المحظور، وبالبر فعل المأمور، وبينهما عموم وخصوص. وقد يقال بالترادف، ولكن ما ذكرته أوجه. والله أعلم.

قوله:{وهم محسنون}، جملة حالية، والمعنى أي حالة كونهم محسنين في عباداتهم، هذا على القول بأن هذا من قبيل التعميم بعد التخصيص، ولما كانت التقوى والإحسان متعلقين بتحقيق العبودية، ناسب ذكر اسم الله جل وعلا دونما سواه من الأسماء الإلهية، فلم يقل(إن ربك)، بل قال:{إن الله}.

قال المؤلف:(وقَوْلُهُ تَعَالَى:{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}): تقدم الكلام عن التوكل، وأنه عمل القلب، وأنه هو الاعتماد التام على الله عز وجل، في جلب المحبوب ودفع المرهوب؛ ولهذا أمر الله جل وعلا به هنا أمر إلزام، فلا يجوز التوكل على غير الله جل وعلا، إذ أن ذلك شرك أكبر، ولابد للعبد من التوكل على الله جل وعلا، فهذه عبادة يجب صرفها لله رب العالمين وحده.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم بين الله جل وعلا، أنه لا يسوغ التوكل على سواه؛ لأنه هو {العزيز الرحيم} فهو العزيز الذي لا يرام جنابه، ولن يبلغ العباد نفعه فينفعوه، ولا ضره فيضروه، فهو الغني من كل وجه، وما سواه فقير إليه، من كل وجه، وهو الغالب على أمره، فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه؛ لأنه هو مالك الملك عز وجل، وبيده مقاليد الأمور، فهو الذي يصرفها دونما ظهير ولا شريك، كما قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} [سبأ:٢٢]، وهو مع ذلك كله جل وعلا الرحيم بعباده المؤمنين، فهو مع كمال عزه، أرحم بهم من أمهاتهم اللاتي ولدنهم، والمخلوق غالباً إذا ملك، غلب وتَجَبَّر، أما الله جل وعلا، فإذا فزعت إليه، وتوكلت عليه؛ منعك من كل ما يسوؤك؛ لأنه هو العزيز، وعنده كل ما تؤمله ، وهو سيفعل بك ما هو الأصلح لك؛ لأنه هو الرحيم، فكيف يسوغ التوكل على غير الذي هذه صفته،جل الله في علاه، وفي الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلاَئِقُ حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ".

ثم زاد الأمر بياناً ووضوحاً بقوله: **{الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين}**، أي هو الذي لا تخفى عليه خافية، فقد أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بصره بالْمُبْصَرات، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماوات، فالكل عنده سواء، لا تحجبه سماء عن سماء، ولا أرض عن أرض، فالقريب والبعيد عنده سواء جل وعلا،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلا يحجبه شيء عن شيء، ويشغله شيء عن شيء، ولا حال عن حال، كما قال تعالى: {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [الرعد:١٠]، وأما قوله r :"أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد" فالقرب هنا قرب إجابة، وإلا فالكل عند الله قريب، ولهذا قال سبحانه: {إنه هو السميع العليم}، أي العليم الذي وسع كل شيء رحمة وعلما، وهو بكل شيء عليم، فلا أعلم منه جل جلاله، وهو السميع الذي وسع سمعه كل المسموعات، فالنجوى والسر عنده كالعلانية والجهر، ولهذا تقول عائشة رضي الله عنها فيما بوبه البخاري في صحيحه[بَاب قَوْلِ الله تَعَالَى: {وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}، وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ تَمِيمٍ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: الْحَمْدُ لله الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى النَّبِيِّ r : {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا}]ا.هـ.

فهو الله جل وعلا السميع، وهو مع ذلك العليم بأحوال عباده، وما هم فاعلون، وإلى أي شيء يؤولون، وما يمكرون، وماذا يكيدون، وهذه الآية بيان لمعنى:"فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، ففي هذه الآية توضيح لحقيقة الأمر، وأن العبد كلما علم أسماء الله وصفاته؛ عظم الله في قلبه؛ فعبده بالإحسان، وكلما ازداد جهله بأسماء الله وصفاته؛ تخبطته الشياطين؛ فيتوكل على المخلوق الفقير، والإمكانات البشرية التي مهما بلغت فإنها ضعيفة، مقهورة متصرف فيها، ويدع العزيز الرحيم، السميع العليم، ولكن الأمر كما قال تعالى: {وما قدورا الله حق قدره}، وقوله: {مالكم لا ترجون لله وقاراً}. فالله تعالى يعلمنا أسماءه وصفاته لنقوم بحق عبادته.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأمل في هذه الآيات؛ لتحسن التعامل مع الله تعالى، وتحسن الظن به، ويعظم شأن الله تعالى في قلبك، وتعرف حقيقة المخلوق وفعله:قال تعالى:{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [النمل:٤٥-٥٣]، وقوله:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [الأنعام:١٢٣]، وقوله:{وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل:١٢٧-١٢٨]، وقوله:{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ} [فاطر:١٠]، وقوله:{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال:٣٠]، وقوله:{وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[إبراهيم:٤٦-٤٧]، وقوله:{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [الأنفال:٤٩-٥١].

لا تحزن ولا تخف إن كنت من المتقين:

فهاهي خطوب تُدَار، ومَكْرٌ كُبَّار، ومَكَايُد تُحَاك من حَولك الليل والنهار، ولكن لا عليك منها، فقط التفت إلى حق الله تعالى، واعبده بالإحسان، فإنما هم عباد، نَواصِيهِم بِيَدِ مالك الملك، فلا تَحْزَن ولا تَخَف ولا تَبْتَئِس، بل اعمل على عبادة ربك، واسع في مراضيه، حتى يأتيك اليقين.{إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة:٤٠].

فارض به وليا وهاديا ونصيرا، فإنه سبحانه:{نعم المولى ونعم النصير}، وهو القائل:{وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللهِ نَصِيرًا} [النساء:٤٥].

وما أحسن ما قاله بعض أهل العلم: علينا أن نعمل بما يُرَادُ مِنّا، وأما ما يُرَادُ بنا، فالله أعلم وأحكم، وهو خير الحافظين. ولتذكر قوله تعالى:{إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر:١٤].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم رحمك الله تعالى، أن هناك تلازما وثيقا بين التقوى، وقبول الأعمال، كما قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة:٢٧].

قوله: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}، قيل أي في الصلاة، وقيل أي بأمر الدعوة والجهاد لتبليغ الدين، وقيل حالة كونك قائما لا تخفى عليه، ولا حالة كونك ساجدا، فالكل كتاب مفتوح، عند الذي لا تخفي عليه خافية، سبحانه وتعالى.

قال الشنقيطي في (أضواء البيان):[وقوله هنا: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}، يدلّ على الاعتناء به r ، ويوضح ذلك قوله تعالى: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}]ا.هـ.

وجاء في تفسير ابن أبي حاتم:[قَوْلُهُ تَعَالَى: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَاصِمٍ، ثنا أَبِي، أنبا شَبِيبٌ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِ اللهِ:الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ، قَالَ:تَقُومُ الصَّلاةُ.

حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ حَمَّادٍ الطِّهْرَانِيُّ، أنبأ حَفْصُ بْنُ عُمَرَ، ثنا الْحَكَمُ بْنُ أَبَانَ، عَنْ عِكْرِمَةَ، فِي قَوْلِ اللهِ: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}، قَالَ:يَرَى قِيَامَهُ وَرُكُوعَهُ وَسُجُودَهُ.

حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ مُسْلِمٍ الْبَصْرِيُّ، ثنا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُعَاذٍ، ثنا أَبِي، ثنا رَبِيعَةُ بْنُ كُلْثُومِ بْنِ جَبْرٍ، أَنَّهُ سَمِعَ الْحَسَنَ، يَقُولُ فِي قَوْلِ اللهِ: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}، قَالَ:حِينَ تَقُومُ إِذَا صَلَّيْتَ وَحْدَكَ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْوَجْهُ الثَّانِي:حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الأَشَجُّ، ثنا أَبُو بُكَيْرٍ النَّخْعِيُّ، عَنْ جُوَيْبِرٍ، عَنِ الضَّحَّاكِ،{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}، قَالَ:حِينَ تَقُومُ مِنْ فِرَاشِكَ أَوْ مِنْ مَجْلِسِكَ.

حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ، ثنا صَفْوَانُ، ثنا الْوَلِيدُ، ثنا شُعَيْبُ بْنُ رُزَيْقٍ، عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ، عَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ:{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}،مَعَهُمْ وَتَقْعُدُ.

أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى، أنبأ الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ، ثنا يَزِيدُ، ثنا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ:{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}، يَقُولُ:الَّذِي يَرَاكَ قَائِمًا، وَجَالِسًا وَعَلَى حَالاتِكَ.

حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ الْحَسَنِ، ثنا إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْهَرَوِيُّ، أنبأ الْحَجَّاجُ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ:يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ أَيْنَمَا كُنْتَ.

الْوَجْهُ الثَّالِثُ:حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ سِنَانٍ الْبَصْرِيُّ، بِمِصْرَ، ثنا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ الْقَطَّانُ، ثنا رَبِيعَةُ بْنُ كُلْثُومٍ، قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ، يَقُولُ:{ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}،حِينَ تَخْلُو بِهَا]ا.هـ.

قوله:{ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}، قيل في قيام الليل، وقيل في قيامه مع أصحابه، وقيل في تفقده لأهله وأصحابه في قيام الليل وحثهم على ذلك، وقيل تسلسل نسبه وتقلبه في أصلاب الرجال، فَجَدَّاهُ إسماعيل الذبيح عليه السلام، وإبراهيم الخليل r .

جاء في تفسير ابن كثير:[وقوله:{وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}: قال قتادة:{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}، قال: في الصلاة، يراك وحدك ويراك في الجَمْع. وهذا قول عكرمة، وعطاء الخراساني، والحسن البصري.وقال مجاهد: كان رسول الله r يرى مَنْ خلفه كما يرى مَنْ أمامه؛ ويشهد لهذا ما صح في الحديث:"سَوّوا صفوفكم؛

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإني أراكم من وراء ظهري".وروى البزار وابن أبي حاتم، من طريقين، عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: يعني تقلبه من صلب نبي إلى صلب نبي، حتى أخرجه نبيا]ا.هـ.

وجاء في تفسير البغوي:[{وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} أي: يرى تقلبك في صلاتك في حال قيامك وركوعك وسجودك وقعودك. قال عكرمة وعطية عن ابن عباس: في الساجدين أي: في المصلين. وقال مقاتل والكلبي: أي مع المصلين في الجماعة، يقول: يراك حين تقوم وحدك للصلاة ويراك إذا صليت مع المصلين في الجماعة. وقال مجاهد: يرى تقلب بصرك في المصلين، فإنه كان يبصر من خلفه كما يبصر من أمامه. أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أن رسول الله r قال:"هل ترون قبلتي هاهنا، فوالله ما يخفي علي خشوعكم ولا ركوعكم، إني لأراكم من وراء ظهري"، وقال الحسن:{وتقلبك في الساجدين} أي: تصرفك وذهابك ومجيئك في أصحابك المؤمنين. وقال سعيد بن جبير: يعني وتصرفك في أحوالك، كما كانت الأنبياء من قبلك. والساجدون: هم الأنبياء. وقال عطاء عن ابن عباس: أراد تقلبك في أصلاب الأنبياء من نبي إلى نبي حتى أخرجك في هذه الأمة]ا.هـ.

فهذه الآيات وغيرها كثير، من أعظم ما يَثْبُتُ بها فؤاد المؤمن، صاحب الإحسان في عبادة الرحمن، فيطمئن قلبه، وتسكن نفسه، وتعلم أنها تأوي إلى ركن شديد.

قوله:(وقَوْلُهُ تَعَالَى:{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ})، هذا كقوله تعالى:{اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} [الرعد:٨-١١].

قوله:{وما تكون في شأن}: {ما) هنا لِلْجَحْد، والمعنى: أي لست تكون في شأن، إلا وقد علمناه، فلا يخفى علينا منه شيء، كما قال تعالى:{وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام:٥٩]، ولئن كان علم الله جل وعلا، وسمعه وبصره،قد أحاط بأفعال غير المكلفين، فكيف بأفعال المكلفين، وقال سبحانه:{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}[الأنعام:٣٨]، فسبحان من وسع علمه كل شيء وأحاط سمعه بالمسموعات وبصره بالمبصرات.

قوله:{في شأن}، الشأن الأمر، والمعنى، أي شيء من أمرك وحالك لا يخفى علينا، بل قد أحطنا به وبكل شيء علما.

قوله:{وما تتلوا منه من قرآن}: فُسر بمعنيين:

المعنى الأول: أن الضمير في {منه} يعود على الشأن؛ فيكون المعنى: وما يحدث لكمن شأن، أي مهما يكن من أمر من أمورك وأي خطبك ينزل بك، فينزل فيه قرآن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُتْلى إلا، والله أنزله وعلمه، فهو الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

المعنى الثاني: أن الضمير في {منه} يعود إلى القرآن، فيكون المعنى، أي ما من أمر من أمورك وإلا ونحن نعلمه، وأي تلاوة للقرآن تتلوها فنحن نسمعها، فلا يخفى علينا لا قول ولا عمل.

وقوله:{من قرآن}، أي ما تتلوه من هذا القرآن، يعلمه ويسمعه، وتكون كلمة القرآن للتوكيد والتفخيم والتعظيم، أو لبيان ما يتلى.

قوله:{ولا تعملون من عمل}: أي كل عمل وأي عمل معلوم محصى، ليس في وقت عمله فحسب، بل وقبل أن يخلق الله الخلق بخمسين ألف سنة كما تقدم معنا في باب القدر.

وكلمة :(شأن – وعمل – وقرآن) كلها نكرات جاءت في سياق النفي؛ فتفيد العموم، والمعنى أن الله جل وعلا يعلم جميع الأمور على اختلاف الأحوال، ويسمع جميع الأصوات على تفنن الأصوات والحاجات، ويعلم ما العباد عاملون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فقد أحاط بكل شيء علما.

قوله:{إلا كنا عليكم شهوداً}: الشاهد هو المطلع المخبر عن علم، أي مطلعين على ذلك، كما قال سبحانه:{إنني معكما أسمع وأرى}، وقال:{تجري بأعيننا}، فهو سبحانه وتعالى الرقيب والشهيد والمحصي والحفيظ، جل الله في علاه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:{إذ تفيضون فيه}: فُسر بأحد معنيين:

المعنى الأول: أن الضمير في {فيه} يعود على الشأن، أي الأمر والعمل؛ فيكون المعنى، إذ تفيضون فيه: أي تعملون به وتتكلمون به، وفيما يتعلق به، فتكون الإفاضة هنا التوسع في الكلام فيه والأخذ والعطاء.

المعنى الثاني: أن الضمير في {فيه} يعود على القرآن، فيكون المعنى، إذ تفيضون بالكذب في القرآن وتتوسعون في ذلك، فكل هذا وغيره لا يخفى على الله جل وعلا، ولهذا قال بعدها:{وما يعزب عن ربك مثقال ذرة}، كقوله قال تعالى:{ما فرطنا في الكتاب من شيء}، وقوله:{وأحصى كل شيء عدداً}، وقوله:{أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون}، ففي هذه الآية، والتي قبلها بيان لإحاطة الله تعالى بجميع الأقوال والأفعال والأحوال، الظاهرة منها والباطنة؛ لأن الله لا تخفى عليه خافية.

جاء في تفسير ابن كثير:[{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، يخبر تعالى نبيه، صلوات الله عليه وسلامه أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وآن ولحظة، وأنه لا يعزُب عن علمه وبصره مثقالُ ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله:{وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله:{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، وقال تعالى:{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[هود:٦].

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف بعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى:{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} [الشعراء:٢١٧-٢١٩]؛ ولهذا قال تعالى:{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} أي:إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون، ولهذا قال، عليه السلام لما سأله جبريل عن الإحسان قال:"أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"]ا.هـ.

ذكر بعض الأمور التي تعين على دفع الرياء والسمعة والعُجب:

وهذه الآيات التي ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى من أعظم ما يذكر بضرورة الإخلاص لله تعالى والخوف من الرياء وضرورة مدافعته حتى لا تحبط الأعمال، ولنذكر بعض ما يعين على دفع الرياء وتحقيق الإخلاص بإذن الله تعالى، **وذلك بتذكر جملة من الأمور:**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١ - أن الله جل وعلا يطلع على القلوب والأعمال، فاحذر أن يطلع الله على قلبك فيراك قد أشركت معه غيره، ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة t قال: قال رسول الله r :"إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"، وفي رواية:"إِنَّ اللهَّ لاَ يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلاَ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ". وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ.

٢ - تذكر أن الجنة والنار بيد العزيز الجبار ،وأنه لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو.

٣ - تذكر أن هذا العمل الذي تقوم به، إنما قمت به بتوفيق من الله تعالى ونعمته، لا بحولك ولا بقوتك، فلا تبدل نعمة الله كفرا، ولا تقابل الإحسان بالإساءة، كما قال تعالى:{فلولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله}، ولهذا جاء في الحديث:"لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة" وقد تقدم تخريجه.

٤ - تذكر أنه لن يغني عنك شيئا أن يثني الناس عليك، وأنت عند الله مذموم.

٥ - تذكر ضعف المخلوق وقلة حيلته، فالمرائي يصرف عمله عن الذي هو على كل شيء قدير، إلى المخلوق الضعيف الحقير، يرجو بذلك عرضاً زائلاً، يورث هماً وغماً في الدنيا والآخرة، وقد تقدم معنا حديث أبي هريرة t في صحيح مسلم في ذكر الأصناف الثلاثة من أهل الرياء وأن الله تعالى أدخلهم النار.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٦- تجديد التوبة وكثرة الاستغفار من هذا الشرك، وألا يغفل عن ذلك العبد، ولهذا كان من جوامع كلم النبي r في خطبة الحاجة كان يقول:"ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا" أخرجه أحمد، وأصحاب السنن وسنده صحيح.

٧- تذكر حقيقة النفس الأمارة بالسوء، وأنها داعية إلى العصيان، وأنها تبغض الإخلاص؛ لأنه ليس لها حظ فيه ولا معه.

٨- تذكر أن هذا الرياء يحبط الأعمال، فأنت تتعب وتنصب، والله يُحْبِطُ ويُعَذِّب؛ لأنه جل وعلا لا يقبل معه شريك، وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ".

٩- الإلحاح على الله تعالى بالدعاء، والانطراح بين يديه، والانكسار إليه، أن يخلصنا من هذا الشرك، وأن يعيننا على الإخلاص والمتابعة، في جميع الأحوال والأعمال، الظاهرة والباطنة، ولا يهلك مع الدعاء أحد بإذن الله تعالى، والرياء، كما قيل:لا يخافه إلا مؤمن ولا يأمنه إلا منافق، كما نقل ذلك عن الحسن البصري وغيره. وما أحسن ما قيل:

ولو لم يكن من الله عون للفتى ... فأول ما يجني عليه اجتهاده

وفي مسند أحمد وأبي يعلى وعند البخاري في الأدب المفرد وسنن النسائي وأبي داود والترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ t قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مُرْنِي بِكَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ. قَالَ:"قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَالشَّهَادَةِ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ". قَالَ:"قُلْهَا إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ".

فهذه من أبرز الأمور التي تعين على ترك الرياء وتحقيق الإخلاص، والله هو المسؤول أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته إنه ولي ذلك والقادر عليه.

قال ابن القيم في:(الفوائد):[فصل: لا يجتمع الإخلاص في القلب، ومحبة المدح والثناء، والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار، والضَّبُّ والحُوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص؛ فأقبل على الطَّمَع أولا، فَاذْبَحْهُ بِسِكِّينِ اليَأْسِ، وأقبل على المدح والثناء؛ فازْهَد فيهما، زُهْدَ عُشَّاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع، والزهد في الثناء والمدح؛ سَهُلَ عليك الإخلاص، فإن قلت: وما الذي يُسَهِّلُ عَلَيَّ ذَبْحَ الطمع، والزهد في الثناء والمدح؟، قلت: أما ذبح الطمع فَيُسَهِّلُهُ عليك، عِلْمُكَ يقينا أنه ليس من شيء يُطْمَعُ فيه، إلا وبِيَدِ الله وحده خَزَائِنُه، لا يَمْلِكُها غَيرُه، ولا يُؤْتِي العَبْدَ منها شيئا سِوَاه، وأما الزُّهد في الثناء والمدح، فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مَدْحُه ويَزِين، ويَضُرُّ ذَمُّهُ ويَشِين، إلا الله وحده].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورُ: عَنْ عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ t قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ r إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ r فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ فَقَالَ:"أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا اله إلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا". قَالَ:صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ:"أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ". قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ:"أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ". قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ:"مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ". قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ:"أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ". قَالَ: فَمَضَى، فَلَبِثْنَا مَلِيًّا، فَقَالَ:"يَا عُمَرُ أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلِ". قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ:"هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُم".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشرح

قال المؤلف:(والدليل من السنة حديث جبريل المشهور ... الحديث): بعد أن استدل المؤلف فيما تقدم بكثير من آيات الذكر الحكيم، على مراتب الدين الثلاثة، عطف بحديث صحيح من السنة؛ لأن السنة تفصل ما أجمل، وتبين ما أبهم وتفسره، وقوله:(المشهور)، أي صحة ومعنى، وإلا فهناك كثير من المشهورات ضعيفة جدا مثل:(أدبني ربي فأحسن تأديبي)، بل وبعضها لا أصل له، مثل (كذب المنجمون ولو صدقوا)، ومن ألطف الكتب في ذلك كتاب:(المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة) للسخاوي.

وهذا الحديث العظيم، قد تقدم ذكر جملة من مسائله، وشرح تفاصيلها، كالإسلام والإيمان والإحسان، وقد أفردت مؤلفا خاصا ذكرت فيه جملة غزيرة من فوائد هذا الحديث الجليل القدر، حتى بلغت الفوائد ما يزيد على أربعمائة فائدة، في كتاب أسميته (الدرر والزهور من حديث جبريل المشهور)، فمن أراد المزيد فليراجعه مشكورا.

وقد ورد معنى حديث ابن عمر t هذا وبلفظ قريب منه كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ r بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ:"مَا الْإِيمَانُ قَالَ الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ قَالَ مَا الْإِسْلَامُ قَالَ الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَّ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ قَالَ مَا الْإِحْسَانُ قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَّ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَالَ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ مَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتْ الْأَمَةُ رَبَّهَا وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الْإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ r :{إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}الْآيَةَ ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَالَ رُدُّوهُ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا فَقَالَ هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ".

وبما أن عامة جُمَلِ هذا الحديث العظيم القدر قد تقدم بيانها بإسهاب، فسنعمد إلى بيان ما تبقى منه، وهو قوله: قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ:(مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ). قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ: (أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ). قَالَ: فَمَضَى، فَلَبِثْنَا مَلِيًّا، فَقَالَ: (يَا عُمَرُ أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلِ؟). قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: (هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُم).

قوله:(أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: "مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ")، هذا من العلم الذي استأثر به، وهذا محل إجماع من المسلمين، أن الساعة لا يعلمها إلا الله، حتى قال تعالى:{إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى} [طه:١٥]، وقال:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف:١٨٧]، وقال:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[النازعات:٤٢-٤٦]، وقوله:{إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان:٣٤]، وقوله:{ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [الزخرف:٨٥].

ذكر بعض أشراط الساعة:

قوله:(فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا): أي عن بعض أماراتها؛ لأن المذكور في هذا الخبر ليس هو كله أشراط الساعة، فهناك علامات أخرى بعضها في القرآن والأكثر في السنة، وعلامات الساعة منها الكبار ومنها الصغار، فمن ذلك دكُّ سدِّ يأجوج ومأجوج، كما في قوله تعالى:{قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا} [الكهف:٩٨-٩٩]، ومنه قوله:{وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ} [النمل:٨٢]، وقوله عن عيسى عليه السلام :{وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} [الزخرف:٦١].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن السنة، ما في صحيح مسلم عَنْ أَبِي سَرِيحَةَ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ r فِي غُرْفَةٍ وَنَحْنُ أَسْفَلَ مِنْهُ فَاطَّلَعَ إِلَيْنَا فَقَالَ:"مَا تَذْكُرُونَ". قُلْنَا السَّاعَةَ. قَالَ:"إِنَّ السَّاعَةَ لاَ تَكُونُ حَتَّى تَكُونَ عَشْرُ آيَاتٍ خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَالدُّخَانُ وَالدَّجَّالُ وَدَابَّةُ الأَرْضِ وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قُعْرَةِ عَدَنٍ تَرْحَلُ النَّاسَ".

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا الدَّجَّالَ وَالدُّخَانَ وَدَابَّةَ الأَرْضِ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَأَمْرَ الْعَامَّةِ وَخُوَيِّصَةَ أَحَدِكُمْ".

وفي صحيح مسلم من طريق عَبْدِ الْعَزِيزِ - يَعْنِى ابْنَ الْمُخْتَارِ - حَدَّثَنَا أَيُّوبُ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ هِلاَلٍ عَنْ رَهْطٍ مِنْهُمْ أَبُو الدَّهْمَاءِ وَأَبُو قَتَادَةَ قَالُوا كُنَّا نَمُرُّ عَلَى هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ نَأْتِي عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ فَقَالَ ذَاتَ يَوْمٍ إِنَّكُمْ لَتُجَاوِزُونِي إِلَى رِجَالٍ مَا كَانُوا بِأَحْضَرَ لِرَسُولِ اللهِ r مِنِّي وَلاَ أَعْلَمَ بِحَدِيثِهِ مِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ r يَقُولُ:"مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ خَلْقٌ أَكْبَرُ مِنَ الدَّجَّالِ".

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ:"لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَحْسِرَ الْفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ يَقْتَتِلُ النَّاسُ عَلَيْهِ فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ وَيَقُولُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ لَعَلِّي أَكُونُ أَنَا الَّذِي أَنْجُو".

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسٍ t قَالَ سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ r حَدِيثًا لَا يُحَدِّثُكُمْ بِهِ غَيْرِي قَالَ:"مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَظْهَرَ الْجَهْلُ وَيَقِلَّ الْعِلْمُ وَيَظْهَرَ الزِّنَا وَتُشْرَبَ الْخَمْرُ وَيَقِلَّ الرِّجَالُ وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً قَيِّمُهُنَّ رَجُلٌ وَاحِدٌ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ وَيُقْبَضُ الْعِلْمُ وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ وَيُلْقَى الشُّحُّ وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ". قَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ قَالَ:"الْقَتْلُ".

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لاَ يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ وَلاَ الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ".

وفي الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ t يَقُولُ قَالَ رَسُولُ الله :"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ".

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى الْقَبْرِ فَيَتَمَرَّغُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَكَانَ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ إِلاَّ الْبَلاَءُ".

وفي صحيح البخاري من طريق أبي إِدْرِيسَ قَالَ: سَمِعْتُ عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ e فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهْوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ فَقَالَ:"اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ مَوْتِي ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثُمَّ مُوتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ ثمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِئَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا ثُمَّ فِتْنَةٌ لاَ يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلاَّ دَخَلَتْهُ ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ فَيَغْدِرُونَ فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا".

وفي صحيح مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ عَنْ نَافِعِ بْنِ عُتْبَةَ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِّ e فِي غَزْوَةٍ - قَالَ - فَأَتَى النَّبِيَّ e قَوْمٌ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ عَلَيْهِمْ ثِيَابُ الصُّوفِ فَوَافَقُوهُ عِنْدَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَكَمَةٍ فَإِنَّهُمْ لَقِيَامٌ وَرَسُولُ الله e قَاعِدٌ - قَالَ - فَقَالَتْ لِي نَفْسِي ائْتِهِمْ فَقُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ لاَ يَغْتَالُونَهُ - قَالَ - ثُمَّ قُلْتُ لَعَلَّهُ نَجِيٌّ مَعَهُمْ. فَأَتَيْتُهُمْ فَقُمْتُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ - قَالَ - فَحَفِظْتُ مِنْهُ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ أَعُدُّهُنَّ فِي يَدِي قَالَ:"تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ فَيَفْتَحُهَا اللهُ ثُمَّ فَارِسَ فَيَفْتَحُهَا اللهُ ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا اللهُ ثُمَّ تَغْزُونَ الدَّجَّالَ فَيَفْتَحُهُ اللهُ ». قَالَ فَقَالَ نَافِعٌ يَا جَابِرُ لاَ نَرَى الدَّجَّالَ يَخْرُجُ حَتَّى تُفْتَحَ الرُّومُ".

الإكثار من العبادة من أعظم الأعمال في وقت الفتنة:

ومن أعظم ما يُعِينُ العبد على الثَّبات في الأمر، لزوم العبادة وصالح العمل والتقوى عند الفتن، كما في صحيح مسلم عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ t رَدَّهُ إِلَى النَّبِيِّ r قَالَ:"الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ".

وكذلك مما يعين على التخلص من فتنة الدجال، الاستعاذة منه أدبار الصلوات، وكذلك حفظ أول عشر آيات و آخر عشر آيات من سورة الكهف، كما في صحيح مسلم عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ"، وفي وراية:"العشر الآواخر".

قوله: "أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ"، جاء في شرح النووي على مسلم:["أن تلد الأمة ربتها" وفي الرواية الأخرى "ربها" على التذكير وفي الأخرى "بعلها"، وقال يعنى السراري، ومعنى ربها وربتها سيدها ومالكها وسيدتها ومالكتها قال الأكثرون من العلماء هو إخبار عن كثرة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السراري وأولادهن فإن ولدها من سيدها بمنزلة سيدها لأن مال الإنسان صائر إلى ولده وقد يتصرف فيه في الحال تصرف المالكين إما بتصريح أبيه له بالإذن وإما بما يعلمه بقرينة الحال أو عرف الاستعمال وقيل معناه أن الإماء يلدن الملوك فتكون أمه من جملة رعيته وهو سيدها وسيد غيرها من رعيته وهذا قول إبراهيم الحربي وقيل معناه أن تفسد أحوال الناس فيكثر بيع أمهات الأولاد في آخر الزمان فيكثر ترددها في أيدي المشترين حتى يشتريها ابنها ولا يدري ويحتمل على هذا القول أن لا يختص هذا بأمهات الأولاد فإنه متصور في غيرهن فإن الأمة تلد ولدا حرا من غير سيدها بشبهة أو ولدا رقيقا بنكاح أو زنا ثم تباع الأمة في الصورتين بيعا صحيحا وتدور في الأيدي حتى يشتريها ولدها وهذا أكثر وأعم من تقديره في أمهات الأولاد وقيل في معناه غير ما ذكرناه ولكنها أقوال ضعيفة جدا أو فاسدة فتركتها]ا.هـ.

قوله: **"وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ"**، وهذا علم من أعلام نبوته r ، حيث وقع ما أخبر عنه، فاليوم التباهي والتفاخر والتنافس بارتفاع البنايات أصبح شيئا مَهُولا مَلْمُوسا، وأصبحت بوادي معظم البلدان، مليئة بالعمائر المرتفعة، وهذه هي بلاد الخليج، قد بلغت شأوا عظيما من ذلك، حتى أصبح فيها من أطول بنايات العالم، وفيها تنافس عظيم بين الرؤساء والملوك والأمراء وأصحاب رؤوس الأموال، فسبحان الذي يعلم السر وأخفى، الذي أوحى بهذا للمصطفى r .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله: "مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ"، وقوله:(قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ)، هـذا من التربية العملية لنا أن نقول دائما، وبلا أدنى حرج ولا تردد، إذا سئلنا عما لا نعلمـه، أن نقول:لا نعلم، أو لا علم لنا، فإن الذي يعلم كـل شيء هـو الله رب العـالمين، وهنـا كلام جميل أنقله عن القرطبي، قاله في تفسير سورة البقرة:{قالوا سبحانك لا علـم لنـا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم}(الآية: ٣٢).

قال رحمه الله:[الواجب على من سئل عن علـم أن يقـول إن لم يعلـم: الله أعلـم ولا أدري، اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضـلاء مـن العلـماء ....إلى أن قـال: وفي صـحيح مسلم عن أبي عقيل يحيى بن المتوكل صاحب بهية قال: كنت جالسـا عنـد القاسـم بـن عبيد الله ويحيى بن سعيد، فقال يحيى للقاسم: يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظـيم أن يسأل عن شيء من أمر هذا الدين فلا يوجـد عنـدك منـه علـم ولا فـرج، أو علـم ولا مخرج؟ فقال له القاسم: وعم ذاك؟ قال: لأنك ابن إمامي هدى: ابـن أبي بكـر وعمـر. قال يقول له القاسم: أقبح من ذاك عند من عقل عن الله أن أقول بغير علم أو آخذ عـن غير ثقة. فسكت فما أجابه. وقال مالك بن أنس: سمعت ابن هرمز يقول: ينبغي للعـالم أن يورث جلساءه من بعده لا أدري حتى يكون أصلا في أيديهم، فإذا سئل أحدهم عما لا يدري قال: لا أدري. وذكر الهيثم بن جميل قال: شهدت مالك بن أنـس سـئل عـن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري]ا.هـ.

قلت: ومثله كثير عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين.انتهى بتصرف يسير.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في تاريخ ابن معين - رواية الدوري- سمعت يحيى قال حدثنا معن بن عيسى القزاز عن مالك قال:[يقال إذا أغفل العالم لا أدرى أصيبت مقاتله]ا.هـ.

وذكر هذا الأثر محتجا به، الآجري في أخلاق العلماء، والبيهقي في المدخل، وابن عبد البر في جامع بيان العلم، والخطيب في الفقيه والمتفقه، وابن الصلاح في أدب الفتوى والمستفتي، كلهم مسلسلا عن الأئمة أحمد بن حنبل عن الشافعي مالك عن محمد بن عجلان، وروي عن سفيان بن عيينة.

وفي (جامع بيان العلم وفضله) لابن عبد البر قال:[قَالَ ابنُ وَهْبٍ رَحِمَهُ اللهُ:لَوْ كَتَبْنا عَنْ مَالِكٍ: لا أدْرِي، لَمَلأنا الأَلْوَاحَ]ا.هـ.

وَنَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

إِذَا مَا قَتَلْتَ الشَّيْءَ عِلْمًا فَقُلْ بِهِ ... وَلَا تَقُلِ الشَّيْءَ الَّذِي أَنْتَ جَاهِلُهْ

فَمَنْ كَانَ يَهْوَى أَنْ يُرَى مُتَصَدِّرًا ...وَيَكْرَهُ لَا أَدْرِي أُصِيبَتْ مُقَاتِلُهْ

قوله:"هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُم"، فيه عناية الله تعالى بهذه الأمة، وفيه فوائد كثيرة ذكرتها في كتابي المشار إليه آنفا، وكنت قد بينت أن هذه الجمل من النبي **r** ، مع قول ابن عمر فيما بعد موت النبي **r** :(إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ) دال على الاسم يُطْلَق على ما ظهر لنا مما بين أيدينا، بغض النظر عما كان عليه من قبل، وهذا متعلق ببيان شبهة وردها للمجوزين للتصوير الفوتغرافي والمباشر، ونحو ذلك، وإليك نص الكلام من كتابي الاستنباطات:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاستنباط السابع والتسعون

ذهب بعض أهل العلم إلى جواز التصوير الفوتوغرافي والصور التي في الكمبيوترات، والبث المباشر بدعوى أن هذه الصور لا زيادة فيها على الحقيقة فهي مجرد عكس للحقيقة وحبس للظل، فليس هو من باب التصوير ولا تسمى صورة في هذه الحالة، والبعض يعلل بكونها تزول بإغلاق الجهاز، وآخرون يقولون:إن أصلها ليس بصورة، وللإجابة على هذه الشبه أقول وبالله التوفيق:

إن المتأمل في قوله r : «ومن رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي». «متفق عليه»واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة، وفي رواية مسلم : «فإن الشيطان لا يتمثل بي». وفي «صحيح مسلم» من حديث جابر عن النبي r : «من رآني في النوم فقد رآني إنه لا ينبغي للشيطان أن يتمثل في صورتي» وفيه عن جابر أيضا : «من رآني في النوم فقد رآني فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتشبه بي» .

يجد أن هذه الأحاديث كلها دالة على أن المرئي في المنام هي صورة النبي r ، وقد بَيَّنَ r امتناع أن يتمثل الشيطان بصورته، ولا شك أن رؤيته r في المنام ستكون بنفس معالمه وصفاته عليه الصلاة والسلام، فهي صورته حقيقة، وهي مطابقة للواقع، وهذا دليل على أن الصورة وإن كانت مطابقة تمامًا للحقيقة والواقع، فهي لا تخرج عن كونها صورة، فقد سماها النبي r صورة، بدليل هذه الأحاديث الصحاح .

فإن قيل: أنا لم أصور بل عكست فقط، فالجواب أن هذه مغالطة عقلية؛ لأن من أثبت أنها صورة فإنه قد صورها، ولا يغني عنه قوله إنها عكس أو حبس للظل، علمًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بأن الذين صنعوا هذه الأجهزة سموها صورة (photo)، والبعض لا يفهم من التصوير سوى الرسم والنحت وهذا مخالف للغة العرب بل ولعموم النصوص التي تكلمت عن سائر أنواع الصور، وقد ذهب أصحاب المعاجم اللغوية إلى أن الصورة هي الشكل، وعليه فكل ما كان له شكل فهو صورة، وهذا الذي فهمه ابن عباس حيث عمم حكم المنع من التصوير على كل أفراده، ثم استثنى للحاجة ما لا روح له كما في «صحيح مسلم» من طريق سعيد بن أبي الحسن قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إني رجل أصور هذه الصور فأفتني فيها؟ فقال له: ادن مني فدنا منه، ثم قال: ادن مني فدنا حتى وضع يده على رأسه قال: أنبئك بما سمعت من رسول الله ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول:«كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفسًا فتعذبه في جهنم» وقال: إن كنت لا بد فاعلًا فاصنع الشجر وما لا نفس له.

وليست المضاهاة هي العلة الوحيدة في تحريم التصوير؛ بل هناك عدة علل، فمنها التشبه باليهود والنصارى، ومنها أنها كانت أول سبب لوقوع الشرك في الأرض، كما في «البخاري» عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ومنها ضياع الأموال والأوقات وغير ذلك من العلل .

وعليه فالصورة التي تظهر في الشاشات والكمبيوترات والبث المباشر والكاميرات الفوتغرافية؛ هي داخلة في جملة التصاوير، وإن قيل إنها تزول فإن هذا لا يغير من الحكم والمسمى شيئًا؛ لأنه من المعلوم أن الصورة التي في المنام تزول ومع هذا سماها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشارع صورة، فلا يسوغ بعد هذا تسميتها بغير اسمها تجويزًا لها كقولهم: (عكس أو حبس للظل أو ما شابه ذلك).

فإن قيل: إذن رؤية النبي r في المنام، ورؤية ذوات الأرواح على السطوح الصقيلة، والمرايا، وسطح الماء هي الأخرى محرمة ؛ لأنها لا تنفك عن كونها صورة.

قلنا نعم هذا هو الأصل، ولولا أن الشارع فرق بين ما للإنسان فيه عمل، وما ليس للإنسان فيه عمل، لتوجه القول بالتحريم لعموم الأدلة الواردة بأبلغ صيغ العموم في تحريم التصوير والتصاوير جملة وتفصيلًا.

ولكن لما كانت الصور التي تظهر في الرؤى والمرايا والسطوح الصقيلة وسطح الماء لا دخل للإنسان فيها ولا عمل له فيها، لم يُحَمَّل تبعتها ؛ ولم يكلف باجتنابها لكونه لا يد له في ذلك، وإنما مناط التكليف بالأمر والنهي مندرج تحت ما كان بوسع الإنسان أن يقوم به لعموم قوله تعالى: ﴿لاَيُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلاَّوُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولهذا لم تدخل في عموم التحريم، فلازم الآية ومفهوم المخالفة منها أن ما ليس للإنسان فيه كسب لا يؤاخذ عليه، ولا يُحَمَّلُ تَبِعَتَه فلله الحمد والمنة.

ولهذا فرق الشارع بينهما فأحل هذه وحرم هذه ؛ فوجب الوقوف على ما أخبر به الشارع فهو أحكم وأعلم، كما أننا عباد لله تعالى والله تعالى، يقول:﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ﴾ [القصص:٦٨]، فعلينا باجتناب ما نهى عنه وقبول ما أحله لنا هذا مقتضى العبودية لله رب العالمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما أن في الحديث، دليلًا على أن العبرة في هذا الباب، هو بما آل إليه الأمر والشيء، فالحكم إنما يكون على النتائج، فإن النبي ﷺ سماها صورة مع أنها مجرد رؤية منامية، ولكن لما كانت النتيجة أنه رأى الصورة أخذت الحكم والمسمى، وذلك دال على أنه متى ما ظهرت الصورة أخذت الحكم، ولا ينظر إلى المراحل المتقدمة على ذلك لكونها ليست هي محل النزاع ؛ لأنها لم تكن صورة أصلًا، كما أن المسافة بين الواقف أمام السطوح الصقيلة وأمام الماء هي مسافة انتقلت فيها صورته فظهرت عليها، فلم تسم هذه المسافة صورة لكونها لم تظهر بعد فلما ظهرت سميت، ومما يبين ويؤكد هذا المعنى ما جاء في حديث جبريل المشهور في «صحيح الإمام مسلم» وذلك لما قال عمر t :إذ طلع علينا رجل، فمع أنه عرف فيما بعد أن هذا الرجل هو جبريل إلا أنه مازال يروي الخبر قائلًا: إذ طلع علينا رجل وهكذا رواه عنه ابنه عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ ؛ لأن العبرة بما يظهر لنا، أما ما غيب عنا أو مرَّ بمراحل قبل ذلك، فلا تعلق له بالحكم النهائي على الشيء، ولا يمكن بحال أن يغير من مسماه ؛ إذ المقصود هو ما ينتهي إليه الحال.

فالحكم على الأشياء إنما يقع على الشكل المشاهد، لا على ما يخفى أو يكون وراء ذلك.

ألست ترى الطعام يدخله العبد، أو الحيوان في فمه على أحسن ما يكون ثم يتحول إلى بول وغائط، ولما كان الحكم على حالة الشيء المعتبرة كان الطعام المشروع طاهرًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حلالًا، وكان البول والغائط نجسًا حرامًا. فلا يقال إن هذا البول والغائط هو نفسه الطعام الذي تم تناوله، فكل بحسب حاله.فيتم الحكم عليه حلًا أو حرمة.

وفي هذا القدر من الاستدلال الرد على الذين يحللون التصوير بكونها أصلا حبسًا للظل، أو بكونها إشارات، أو ذبذبات أو نحو ذلك، أو أنها مطابقة للواقع.

فنقول : المهم ما هو الشكل النهائي؟ أليس صورة ؟ فإذن فالحكم يتعلق بهذه الحالة لا بالمراحل التي قبلها.والله أعلم.

شبهة شيطانية:

ولعل من الفاضل التنبه إلى مسألة مهمة في هذا الباب، ألا وهي أن كثيرًا من الدعاة وطلبة العلم؛ بل وبعض العلماء يظن أن الله تعالى كلفه بهداية الناس كلهم، وأن الواجب عليه أن يدخل إلى كل بيت، وأن يخاطب كل إنسان، وكأنه شمس تشرق على مختلف بقاع الأرض، ولعل الدافع لهم على هذا رؤيتهم لتسارع الباطل وأهله في الفساد والإفساد في مشارق الأرض ومغاربها، فاستفزهم ذلك إلى سلوك بعض السبل التي أقل ما يقال فيها أنها مظنة ركوب الحرام، كيف وقد يركب بعضهم الحرام ؟!

فأقول : إن هذا السعي الحثيث والحرص الشديد على هداية العباد كلهم في مشارق الأرض ومغاربها، وإن كان مطلبًا حميدًا؛ إلا أن الله تعالى لم يكلفنا به لعلمه تعالى بعدم قدرتنا عليه، فنحن بشر ولنا قدرات محدودة، ولهذا جاء التشريع بما هو في إمكان البشر، كما أنه مما ينبغي أن يتفطن له أن الله تبارك وتعالى لا يمكن بحال أن يعوز الأمة إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحرام، فإن هذا إذا كان ممتنعًا في باب الأرزاق، فلأن يمتنع في باب الدعوة إلى الله تعالى هو من باب أولى؛ولهذا أخبر تعالى أنه طيب ولا يقبل إلا طيبًا، وبذلك أمر المرسلين وأمرهم أن لا يسلكوا في الدعوة إليه أي مسلك محرم، هذا هو الأصل العام في دعوة الرسل كلهم أنهم يدعون إلى الله بما أحل الله من الوسائل المتاحة لهم، وأنهم لا يتكلفون ركوب الحرام في الدعوة إليه، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، وبما أن الهداية عنده تبارك وتعالى وإنما تطلب منه جل وعلا؛ فلهذا أمرنا أن نُجْمِلَ في طلبها، وذلك بأن لا نأتيها إلا من أبوابها التي شرعها الله لنا، ولهذا قال الله تعالى مبينًا أنه سبحانه قادر على أن يهدي العباد كلهم، ولكن على الداعية أن يسعى بما أتيح له قال تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ الله لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[الأنعام:٣٥] . وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى بَل لله الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ الله لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ الله إِنَّ الله لاَ يُخْلِفُ المِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ @وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠].

وإن كان قد تقرر في علم الأصول أنه لا يسوغ تقديم المصالح المتيقنة على المفاسد المتيقنة إذا استويا في المرتبة، فكيف بمن يقدم المصالح الظنية على المفاسد اليقينية، إذ إن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هداية الناس عبر هذه الوسائل أمر ظني، فإن هذه الأجهزة لم توضع لـذلك ففيهـا مـن بحار الباطل ما ينغمر فيه الحق، ولو كان نهـرًا، في حـين أن في الظهـور هنـاك بالصـور مفاسد يقينية، فمنها الترويج لتلك القنـوات، وكـون ذلـك ذريعـة إلى إدخـال بعـض الصالحين الدشوش إلى بيوتاتهم، والتلبيس على الأمة، والتصوير المحـرم، وغـير ذلـك كثير، ألا فلنتق الله تعالى ولنتبع ما أحل الله لنا من الوسائل المشروعة والمباحة، وإن طال الطريق وتطاول الزمن، فإن الهادي هو الله تعالى، وهو الحكيم العلـيم، فلـن نسـتعجل النصر بحرصنا، ولكن بالتقوى والصبر واليقين، والله نعم المولى ونعم النصير .

فالحذر الحذر من أن تكون من الجاهلين الذين يحرصون على هدايـة النـاس كلهـم، ولو عن طريق ركوب أي سبيل ممكن بغض النظر عن مشـــروعيته.والله أعلـم. وهـو الهادي إلى سواء السبيل .

فإن قيل ألا يمكن أن ندافع الباطـل في القنـوات الفضـائية وغيرهـا، فـالجواب: إن مدافعة الباطل لا تكون بالباطل وإنما تكون بالحق، ولهذا قال تعالى:﴿فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾ [يونس: ٣٢]، وليس من الحق في شيء ظهور صور الدعاة في هذه القنـوات المشبوهة، ولا حتى ما تسمى بالإسلامية، وليت شعري مـا هـي المصـلحة مـن ظهـور صور الدعاة هناك أهو الرياء والسمعة أم حب الشهرة؟ حاشا دعـاة الحـق مـن ذلـك، وإنَّا نعيذهم ونُجِلُّهُم مـن أن يكونـوا كـذلك، عـلى أن ظهـورهم لا يعـدو أن يضـفي الشرعية على مواطن الفساد والإفساد، ولكن إن تصورنا وجود قناة إسلامية بحتة ليس

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيها من المحرمات شيء وكان لابد منها فبالصوت فقط دون الصورة وذلك بشروط قررها العلماء المحققون.

شروط إنشاء قناة إسلامية صوتية لا مرئية:

١- أن يكون مخلصًا لله تعالى متقيًّا له خائفًا راجيًا. فيكون أبعد ما يكون عن العُجْبِ والرياء والسمعة، وحب الظهور والشهرة.

٢- أن يقول ما يريد، لا ما يريد المبطلون.

٣- أن يكون حديثه في الأصول والمسائل الكبار، وهموم الأمة التي تعاني منها اليوم، كالولاء والبراء وبيان حقائقه، و التحريض على جهاد أعداء الله تعالى، وكشف خطط العلمانيين والحَدَاثِيِّين والرافضة وأمثالهم والرد على شبههم، والتحذير من اليهود والنصارى ومخططاتهم التوسعية الاستعمارية في العالم الإسلامي، ووجوب الانتفاض في وجوههم حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

٤- أن يُبَيِّنَ فساد أجهزة الإعلام؛ حتى لا يتخذ المبطلون من خروج الدعاة عبر وسائلهم ذريعة لترويج باطلهم تحت غطاء الحرية، أو الديمقراطية، أو الإسلامية، أو بما يعرف اليوم بـ (أَسْلَمَة الإعلام) كذبًا وزورًا.

٥- أن لا يسبق برنامج الداعية فساد ولا عهر ولا باطل، وأن لا يتخلله ذلك من باب أولى وأن لا يعقبه ذلك بداهة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإن قيل هـذه الشـروط لا يمكـن معهـا أن يظهـر أي داعيـة عـلى هـذه القنـوات المفسدة،ولا يتصور هذا إلا في إعلام طاهر من أدران الضلال والانحراف والزندقة .

قيل: لم يكلفنا الله تعالى أن نركب الحرام للدعوة إليه، فإن أَبَـوْا فتـذكر قولـه تعـالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَـدَّلُوا تَبْـدِيلًا﴾ [الأحـزاب: ٢٣].والله تعـالى أعلـم.انتهـى بحروفـه مـن كتـابي الاستنباطات البهية من الأدلة الشرعية.

قوله:(فَلَبِثْنَا مَلِيًّا)، قال النووي:[أي زمانا طويلا، وكان ذلك ثلاثا]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

الأَصْلُ الثَّالِثُ مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ r ، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ، وَلَهُ مِنَ الِعُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشْرُونَ في النبوة. نُبِّئَ بـ{اقْرَأْ}، وَأُرْسِلَ بـ{الْمُدَّثِّرْ}، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ. بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبالَدْعُوة إِلَى التَّوْحِيدِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}[المدثر: ٧.١]. وَمَعْنَى:{قُمْ فَأَنذِرْ}: يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ.{وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ}: أَيْ:عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ.{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}: أَيْ:طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ.{وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ}: الرُّجْزَ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا:تَرْكُهَا، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَواتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَالْهِجْرَةُ الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشرح

قال المؤلف رحمه الله:(الأصل الثالث): تقدم معنا تعريف الأصل، وأنه ما يبنى عليه غيره، وإنما سمى معرفة النبي r أصلاً؛ لكونه عليه الصلاة والسلام، هو الواسطة بين الخلق، والخالق تبارك وتعالى؛ فلا سبيل إلى معرفة الأصل الأول، وهو معرفة الرب تبارك وتعالى، ولا الأصل الثاني وهو معرفة دين الإسلام، إلا عن طريق الرسول r ؛ فلذلك كان لزاماً علينا أن نتعرف على هذه الواسطة معرفة تامة.

ومعرفة النبي r تتضمن أمورا:

١ - تعبد الله جل وعلا بذلك، لقوله تعالى:{أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون}، فهذا أمر من الله تعالى، بالتعرف على هذا الرسول الكريم، بالقراءة في سيرته، ومعرفة حياته، وهديه، وذلك من أعظم القربات إلى الله تبارك وتعالى، فلا سبيل إلى تحقيق الدين والقيام به إلا بمعرفة الرسول r ، ولا شك أن استحضار النية، أمر معتبر في قراءة سيرته r ، وقد كان السلف يعتنون بذلك عناية فائقة، حتى كانوا يعلمونها أبناءهم، ويحثونهم على معرفة سيرة النبي r وغزواته، وهديه، ومعاملاته، ومواقفه، وما جرى معه قبل الهجرة وبعدها، بل وقبل البعثة كذلك.

٢ - تحقيق المحبة له عليه الصلاة والسلام، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره، وحرص على معرفته، عن كثب وقرب، وفي هذا ضرب الصحابة y بعطن، فبلغوا في معرفته عليه الصلاة السلام أعظم المنازل، حتى أن الواحد منهم ليعرف عدد الشعرات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البِيض في لِحْيَتِه الكريمة عليه الصلاة السلام، كما جاء في الصحيحين سئل أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ هَلْ كَانَ رَسُولُ الله r خَضَبَ فَقَالَ :لَمْ يَبْلُغِ الْخِضَابَ كَانَ فِي لِحْيَتِهِ شَعَرَاتٌ بِيضٌ.

واعلم رحمك الله، أن طاعته r ضرورة إيمانية، لا يُتَصَوَّرُ الإيمان بدونها، حتى عَلَّقَ الشَّرْعُ صحة إيماننا على ذلك؛ كما قال تعالى:{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥]، وفي الصحيحين عن أنس أن النبي r قال:"لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ". فَقَدَّمَ محبته r على محبة أقرب الأقربين، فهو r الأب الأعلى في ديننا، فُقُدِّمَ على أُبوَّة النسب. وقد ضرب الصحابة y أروع الأمثلة في ذلك.

٣- معرفة مراد الله تبارك وتعالى، تطبيقا عمليا، كما قال تعالى:{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَّ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَّ كَثِيرًا}[الأحزاب:٢١].

٤- رسالته وصدق ما أخبر به وعظمة ما جاء به دال على وجود الرب تبارك وتعالى، وعظمته، وأنه هو الذي أرسله، وهو الذي أطلعه على ذلك الغيب، حتى يخبر به العباد، فمعرفة النبوات والمعجزات، من أعظم الدلالات على وحدانية الله جل وعلا، ووجوده تبارك وتعالى.

قول المؤلف (نبيكم): تذكير بأنه نبي هذه الأمة خاصة، وأن كل أفراد أمته معنيون بمعرفته ورسالته r ، وإنما سمي النبي نبياً من التنبيء، وهو الإخبار، فإنه يأتيه الخبر من الله جل وعلا، ويقوم هو r بتبليغه إلى العباد، ففي هذا معنى قوله تعالى:{وما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى} وفي الضمير وهو الكاف هنا إشارة إلى نبي مختص بهذه الأمة جمعاء، فليس لأحد أن يدعي النبوة في هذه الأمة بعده، فقد جاءت نبوته ورسالته عامة لأهل الأرض قاطبة من زمان بعثته وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهنا يحسن الكلام عن الفرق بين النبي والرسول، وهي مسألة وقع فيها خلاف بين أهل العلم، على أقوال:

الفرق بين النبي والرسول:

١- أن الرسول هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، بينما النبي هو من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، وهذا تعريف فيه نظر كبير، وإن كان هو المشهور، فإن آكد مهمة للمبعوثين من قبل الله تعالى، البلاغ والبيان، وإقامة الحجة على العباد، فكيف يقال ولم يؤمر بتبليغه، هذا محال قطعا.

٢- أن الرسول هو من أوحي إليه بشريعة جديدة مستقلة، وأما النبي فهو من جاء مجددا لشريعة نبي قبله، وكل منهما أُمِرا بالبلاغ المبين، كموسى وهارون عليهما السلام، ولكن يشكل عليه حال يوسف عليه السلام، وهو نبي، وحال عيسى عليه السلام، وهو رسول، ولكن قيل إنه جاء مجددا لشريعة موسى وناسخا لبعضها، وزائدا عليها، ولكن هذا التفريق لا شك أنه أوجه بكثير مما سبق.

٣- أن النبي والرسول كل منهما معه شريعة من الله تعالى، وأمر الجميع بالبلاغ، وأن الرسول أعلى منزلة من النبي، وليس هناك دليل واضح، ولا قول فصل في تحديد التفريق بينهما.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤- أن الرسول والنبي بمعنى واحد، واحتج هؤلاء بتوارد اللفظين، ترادفا، كقوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء:١٦٣-١٦٥]، وقوله: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ} [غافر:٣٤]، وقوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ} [غافر:٧٨]. ولعل أقوى الأقوال هو القول الثالث. والله أعلم.

أسماء سيد الناس وصفاته r :

قوله:(محمد r): اختلف أهل العلم في أسماء النبي **r**، وهل له أسماء، أم أنها كلها نعوت وصفات، والراجح في ذلك أنه له اسماً عَلَماً على ذاته عليه السلام، وأظهر هذه الأسماء (محمد – أحمد)، وما عدا ذلك فهي أوصاف له عليه الصلاة والسلام، كما في الصحيحين من طريق مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ **t** قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ **r**:"لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِي الْكُفْرَ وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي وَأَنَا الْعَاقِبُ". وسماه أبو هريرة بـ(نبي التَّوْبَة) كما في صحيح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مسلم، وقد ذكر ابن القيم في أوائل كتابه (زاد المعاد) في المجلد الأول جملة من أسمائه وصفاته عليه الصلاة السلام حري بنا أن نراجعها، وإن كان بعضها لا يثبت له r ، كالضَّحُوك والقَتَّال. **وإنما سمي r بمحمد؛** لكثرة الخصال التي يُحْمَدُ عليها؛ ولكونه محموداً في السماء والأرض، وسمي بأحمد لكونه أكثر الناس حمداً لله جل وعلا، وقيل لكونه أكثر الناس خصالاً يحمد عليها فهو الأحمد والأَمْدَح بين العباد r .

ثم شرع المؤلف في ذكر اسمه عليه الصلاة والسلام، فقال هو:(محمد بن عبد الله): وعبد الله هو الذبيح الثاني، والذبيح الأول هو إسماعيل عليه السلام، وقد افتداه أبوه بمائة من الإبل؛ ليدفع عنه الذبح على ما جاء في السير، وقد مات جده وأبوه على الإشراك، وقد جاء في صحيح مسلم عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَيْنَ أَبِي قَالَ:"فِي النَّارِ". فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ فَقَالَ:"إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ". ففيه معنى قوله تعالى:{يخرج الحي من الميت}، وكذلك معنى قوله r كما في مسلم من حديث أبي هريرة t أن النبي r قال:"ومَنْ بَطَّأَ به عمله لم يُسْرِعْ به نسبه".

قوله:(ابن عبد المطلب): وليس هذا اسماً له، وإنما اسمه (شيبة) ويقال (شيبة الحمد)؛ لكثرة جوده، فقد كان ذا خصال يحمده العرب عليها، وكان جماع أمر قريش إليه، وإنما سُمِّيَ بعبد المطلب؛ لأنه سافر سَفْرةً مع عمه المطلب، فلما دخلوا مكة، كان رديفاً لعمه، وكان قد اسمر لونه؛ لطول السفر وشدة الحر، فظنوا أن عمه اشتراه من مكان ما؛ فقالوا هذا عبد المطلب وعلى كل فلابد أن نعلم أنه لا يجوز التعبيد لغير الله تعالى، وأما من احتج بقوله r كما في الصحيحين من طريق أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ الله r يَوْمَ حُنَيْنٍ قَالَ لَكِنَّ رَسُولَ الله r لَمْ يَفِرَّ إِنَّ هَوَازِنَ كَانُوا قَوْمًا رُمَاةً وَإِنَّا لَمَّا لَقِينَاهُمْ حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ فَانْهَزَمُوا فَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْغَنَائِمِ وَاسْتَقْبَلُونَا بِالسِّهَامِ فَأَمَّا رَسُولُ الله r فَلَمْ يَفِرَّ فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَإِنَّهُ لَعَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ آخِذٌ بِلِجَامِهَا وَالنَّبِيُّ r يَقُولُ:"أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ"، فإن من ذكر الأمر الذي لا مدفع له؛ فهذا أمر واقع، وقد كان النبي r وأصحابه y، يخاطبون الناس بأسماء آبائهم وإن كان فيها محذور، ولم يغير ذلك عليه الصلاة والسلام، وإنما غير بعض أسماء أصحابه لا أسماء آبائهم.

قوله:(ابن هاشم): وليس هذا اسماً له، بل اسمه عمرو، وإنما سمي هاشماً؛ لأنه (يهشم الثَّرِيد للحجيج) أي يكسره ويقطعه؛ ليطعم الحاج، وذا الحاجة.

قوله:(وهاشم من قريش): قريش هم أشرف العرب، وقد جاءت أحاديث في بيان فضلهم، وأن الأمر فيهم باق إلى قيام الساعة، وأن الإمامة العظمى منهم، فقد اختارهم الله جل وعلا من بين سائر العالمين؛ ليكون النبي r منهم.

ففي صحيح البخاري عن معاوية t قال سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ لَا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ إِلَّا كَبَّهُ اللهُ عَلَى وَجْهِهِ مَا أَقَامُوا الدِّينَ".

وفي الصحيحين عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ اثْنَانِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ فِي هَذَا الشَّأْنِ مُسْلِمُهُمْ تَبَعٌ لِمُسْلِمِهِمْ وَكَافِرُهُمْ تَبَعٌ لِكَافِرِهِمْ".

وفي صحيح مسلم من طريق عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ كَتَبْتُ إِلَى جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ مَعَ غُلَامِي نَافِعٍ أَنْ أَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ الله r قَالَ فَكَتَبَ إِلَيَّ سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَوْمَ جُمُعَةٍ عَشِيَّةَ رُجِمَ الأَسْلَمِيُّ يَقُولُ:"لاَ يَزَالُ الدِّينُ قَائِمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ يَكُونَ عَلَيْكُمُ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ". وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:"عُصَيْبَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَفْتَتِحُونَ الْبَيْتَ الأَبْيَضَ بَيْتَ كِسْرَى أَوْ آلِ كِسْرَى". وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:"إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ كَذَّابِينَ فَاحْذَرُوهُمْ". وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:"إِذَا أَعْطَى اللهُ أَحَدَكُمْ خَيْرًا فَلْيَبْدَأْ بِنَفْسِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ". وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:"أَنَا الْفَرَطُ عَلَى الْحَوْضِ".

قوله:(وقريش من العرب): والمراد بهم العرب الْمُسْتَعْرِبة؛ لأن العرب ينقسمون إلى قسمين: ١ - عَرَبٌ عَارِبَة . ٢ - عرب مُسْتَعْرِبة .

والعرب لهم فضائل كثيرة وخصال حميدة؛ ولهذا خصهم الله جل وعلا بأن يكون الرسول r منهم، وقد بين الإمام ابن تيمية رحمه الله في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم) فضل العرب على سائر الأمم، لا من جهة اللغة، و لا من جهة الخصال، بل من وجوه كثيرة جدا، فليرُاجع فإنه بحث نفيس وكتاب جليل.

وقد بوب البخاري في صحيحه فقال:(بَاب مَبْعَثِ النَّبِيِّ r مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعبِ بْنِ لؤَيِّ بْنِ غالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ) إلى هذا القدر اتفق العلماء على هذا النسب، واختلفوا فيمن فوق عدنان، إلا أنهم مجمعون على أن نسبه r يتصل إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

قال المؤلف:(والعرب من ذرية إسماعيل): والمقصود بالعرب هنا، هم العرب المُستعربة، وهم المنسوبون إلى عدنان، وهم الذين اصطفاهم الله جل وعلا، إذ جعل من نسلهم أشرف الخلق وأكملهم وأطهرهم وسيدهم، محمد r ، وأُمَّهُم هَاجَر زوجة إبراهيم الخليل عليه السلام، وإنما سُمُّوا بالمُستعربة؛ لأنهم اكتسبوا العروبة واللغة من العرب العَارِبَة؛ لأن إبراهيم عليه السلام أتى بهاجر وابنها إسماعيل عليهم السلام، وأسكنهم بوادٍ غير ذي زرع، عند بيت الله المحرم، فلم يكونوا عَرَباً في الأصل، ثم بعد أن فجر الله تبارك وتعالى زمزما؛ إكراما ورحمة لهاجر، ولابنها إسماعيل عليهم السلام، وكان وجود الماء سببا لاجتماع الناس عليهما، استجابة من الله تعالى لدعوة خليله إبراهيم عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} [إبراهيم:٣٧] ، وهكذا العرب، كانت تتبع الماء والكلأ، فصارت وابنها في محل الفخامة والرفعة والسيادة، فتزوج إسماعيل عليه السلام امرأة من العرب، ثم طلقها وتزوج بأخرى بناء على توجيه أبيه الخليل وأمره، ثم خرج من نسله نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ففي صحيح البخاري قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ نَعَمْ قَالَتْ إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا ثُمَّ رَجَعَتْ فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ رَبِّ:{إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ حَتَّى بَلَغَ يَشْكُرُونَ} وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا فَهَبَطَتْ مِنْ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِيَ ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ النَّبِيُّ r فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا فَقَالَتْ صَهٍ تُرِيدُ نَفْسَهَا ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا فَقَالَتْ قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ فَجَعَلَتْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنْ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ النَّبِيُّ r يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنْ الْمَاءِ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا قَالَ فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللهِ يَبْنِي هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ وَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنْ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ تَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا فَقَالُوا إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا قَالَ وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ فَقَالُوا أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ فَقَالَتْ نَعَمْ وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ قَالُوا نَعَمْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ النَّبِيُّ r فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الْإِنْسَ فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ وَشَبَّ الْغُلَامُ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ فَقَالَتْ نَحْنُ بِشَرٍّ نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ فَشَكَتْ إِلَيْهِ قَالَ فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا فَقَالَ هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ قَالَتْ نَعَمْ جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ قَالَ فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ قَالَتْ نَعَمْ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قَالَ ذَاكِ أَبِي وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَطَلَّقَهَا وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ فَقَالَتْ خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا قَالَ كَيْفَ أَنْتُمْ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ فَقَالَتْ نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ وَأَثْنَتْ عَلَى الله فَقَالَ مَا طَعَامُكُمْ قَالَتْ اللَّحْمُ قَالَ فَمَا شَرَابُكُمْ قَالَتْ الْمَاءُ قَالَ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ قَالَ النَّبِيُّ r وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ قَالَ فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ قَالَ فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ قَالَتْ نَعَمْ أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ قَالَ فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ قَالَتْ نَعَمْ هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ قَالَ ذَاكِ أَبِي وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ ثُمَّ قَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ قَالَ فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ قَالَ وَتُعِينُنِي قَالَ وَأُعِينُكَ قَالَ فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا قَالَ فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَهُمَا يَقُولَانِ: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} قَالَ فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فصل: والذبيح هو إسماعيل عليه السلام: وهذه المسألة قد حصل فيها نـزاع، إلا أن الراجح الذي دلت عليه الأدلة،- وهو اختيار جماعات من السلف والخلف، وبـه قـال الإمام أحمد-، أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق، عليهما السلام.

قوله:(ابن إبراهيم): قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [العنكبـوت:٢٧]، فهـو أبو الأنبياء وخليل الرحمن الذي بلغ مـن المحبـة أعلاهـا، حتـى اتخـذه الله جـل وعـلا خليلاً،كما قال سبحانه: {واتخذ الله إبراهيم خليلاً}، وابتلاه الله جل وعلا بذبح ابنه، فما تلكأ وما تردد، فإسماعيل هو الذبيح الأول، وابـتلاه الله جـل وعـلا بالصـدع بـالحق، ومناظرة المشـركين، أفراداً وجماعات، رؤساءً وأتباعاً، وكان وحده، فقـام بـذلك كلـه على أكمل وجه؛ فرفع الله ذكره، وأعلى منزلته، وجعله أمة وحده، وفضّله الله على كثـير من خلقه تفضيلاً، وجعله إماماً للمسـلمين، وأمـر النبـي r أن يتبـع ملتـه، كـما قـال تعالى: {ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين}.

قوله:(عليه وعلى نبينا): لأن الصلاة مشروعة على سائر الأنبياء والمرسـلين، علـيهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، وهو من مقتضى عدم التفريـق بيـنهم، ففيـه معنـى قولـه تعالى: {لا نفرق بين أحد من رسله}، أي تفريق التنقـيص والازدراء كـما تقـدم، إلا أن الواجب من ذلك الصلاة على نبي هذه الأمة r.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(أفضل الصلاة والسلام): هذا فيه أن الصلاة تتفاضل وتتفاوت، وهذا أمر لا مرية فيه، والصلاة المراد بها هنا الثناء، أي عليه من الله أفضل الثناء؛ لقول أبي العالية في صحيح البخاري:[صَلَاةُ اللهِ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ الدُّعَاءُ]ا.هـ.

وأما السلام، فدعاء له بالسلامة، والأمن، ويتضمن الإخبار بكمال الأنبياء والمرسلين، وسلامة ما جاءوا به من أي نقصان أو تحريف أو خلل، وأنهم معصومون بعصمة الله لهم.

فضل الصلاة على النبي r :

وقد جاءت أحاديث متكاثرة في فضل الصلاة على النبي r ، وأن المحروم البخيل من ضّنَّ بهذا، فمن ذلك ما في الصحيحين عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ t قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ أَمَّا السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ فَكَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكَ قَالَ:"قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ".

وفي الصحيحين عن أبي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيُّ t أَنَّهُمْ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ r :"قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ".

وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ r يَقُولُ:"إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِهَا عَشْرًا ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ".

وفي سنن الترمذي وغيره عن حسين بن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله r :"البَخِيل الذي من ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَل عَلَيَ"، قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح غريب[١].

ليس للصلاة حد ولا ميقات، ولكن بما دلت عليه النصوص:

وليس للصلاة عليه r ميقات معين، من يوم ولا وقت مخصوص، بل المشروع الإكثار من ذلك مهما استطاع العبد، إلا ما دلت الأدلة على المنع منه لانشغال الموضع بعبادة أخرى، فلا يجوز مثلا أن تصلي على النبي r بعد تكبيرة الإحرام، ولا دبر الصلوات مباشرة، وهكذا، وأما حديث أوس بن أوس الذي رواه أحمد وابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي وابن ماجه والدارمي وابن خزيمة كلهم من طريق عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ عَنْ أَبِي الأَشْعَثِ الصَّنْعَانِيِّ عَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ قُبِضَ وَفِيهِ النَّفْخَةُ وَفِيهِ الصَّعْقَةُ فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلاَةِ فِيهِ فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ". قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ

---

١ -ولكن في تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف ذكر نسخة قال فيها الترمذي:حسن غريب، ولكن قال الحافظ في تهذيب التهذيب:وصحح الترمذي حديثها.هـ. ذكره في ترجمة عبد الله بن على بن الحسين، ومدار الحديث عليه، وليس له سوى هذا الخبر عند الترمذي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلاَتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ، يَقُولُونَ: بَلِيتَ. فَقَالَ:"إِنَّ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ".

فهذا الخبر معلول ضعيف١ وذلك لأنه عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ هذا هو عبد الرحمن بن يزيد بن تميم، غلط فيه بعض الحفاظ، وهذا قول أكثر الحفاظ. وابن جابر ثقة، وابن تميم منكر الحديث.

---

١ - جاء في مقدمة المحقق لكتاب تنقيح التحقيق لابن عبد الهادي:[ذكر ابن أبي حاتم هذا الحديث في "كتاب العلل"، فقال: سمعت أبي يقول: عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، لا أعلم أحدًا من أهل العراق يحدث عنه، والذي عندي أن الذي يروي عنه أبو أسامة وحسين الجعفي واحد، وهو عبد الرحمن بن يزيد بن تميم، لأن أبا أسامة روى عن عبد الرحمن ابن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة خمسة أحاديث أو ستة أحاديث منكرة، لايحتمل أن يحدث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر مثله، ولا أعلم أحدًا من أهل الشام روى عن ابن جابر من هذه الأحاديث شيئًا.وأما حسين الجعفي، فإنه روى عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبي الأشعث الصنعاني عن أوس بن أوس عن النبي r في يوم الجمعة أنه قال:"أفضل الأيام يوم الجمعة، فيه الصعقة ، وفيه النفخة ، وفيه كذا". وهو حديث منكر، لا أعلم أحدًا رواه غير حسين الجعفي.وأما عبد الرحمن بن يزيد بن تميم، فهو ضعيف الحديث؛ وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر ثقة.وقال البخاري في "تاريخه":عبد الرحمن بن يزيد بن تميم السلمي الشامي، عن مكحول، سمع منه الوليد بن مسلم، عنده مناكير، ويقال:هو الذي روى عنه أهل الكوفة أبو أسامة وحسين، فقالا:عبد الرحمن بن يزيد ابن جابر.وقال في كتاب "الضعفاء":عبد الرحمن بن يزيد بن تميم السلمي، يعد في الشاميين مرسل، روى عنه الوليد بن مسلم، وعنده مناكير، يقال:هو الذي روى عنه أهل الكوفة أبو أسامة وغيره، فقالوا:عبد الرحمن بن يزيد ابن جابر، وهو ابن يزيد بن تميم ليس بابن جابر.وقال ابن أبي حاتم في كتاب "الجرح والتعديل":حدثني أبي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال:سألت محمد بن عبد الرحمن بن أخي حسين الجعفي عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، فقال: قدم الكوفة عبد الرحمن بن يزيد بن تميم ويزيد بن يزيد بن جابر، ثم عبد الرحمن بن يزيد بن جابر بعد ذلك بدهر، فالذي يحدث عنه أبو أسامة ليس هو ابن جابر، وهو عبد الرحمن بن يزيد بن تميم، قال ابن أبي حاتم:وسألت أبي عن عبد الرحمن بن يزيد بن تميم، فقال: عنده مناكير، يقال:هو الذي روى عنه أبو أسامة وحسين الجعفي، وقالا:هو ابن يزيد بن جابر، وغلطا في نسبه، وهو ابن يزيد بن تميم، وهو أصح، وهو ضعيف الحديث.وقال أبو داود:وعبد الرحمن بن يزيد بن تميم متروك الحديث، حدث عنه أبو أسامة، وغلط في اسمه، فقال:حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الشامي، وكل ما جاء عن أبي أسامة عن عبد الرحمن بن يزيد فإنما هو ابن تميم.وقال أبو بكر بن أبي داود: قدم يعني الكوفة فارًا مع القدرية، وقد سمع أبو أسامة من ابن المبارك عن ابن جابر، وجميعًا يحدثان عن مكحول وابن جابر أيضًا دمشقي، فلما قدم هذا، قال: أخبرنا عبد الرحمن بن يزيد الدمشقي، وحدث عن مكحول، فظن أبو أسامة أنه ابن جابر الذي روى عنه ابن المبارك وابن جابر ثقة مأمون، يجمع حديثه، وابن أبي تميم ضعيف، روى عن الزهري أحاديث مناكير، حدثنا ببعضها محمد بن يحيى النيسابوري في "علل حديث الزهري"، وقال:أحرج على من حدث عني هذه الأحاديث مفردة قال:وقدم ابن تميم هذا مع ثور بن يزيد وبرد بن سنان ومحمد بن راشد وابن ثوبان فروا من القتل، وكانوا قدرية، فقدموا العراق، فسمع منهم أهل العراق.وقال النسائي في "كتاب الضعفاء":عبد الرحمن بن يزيد بن تميم متروك الحديث، شامي، روى عنه أبو أسامة، وقال:عبد الرحمن بن يزيد ابن جابر.وقال موسى بن هارون الحافظ: روى أبو أسامة عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، وكان ذلك وهمًا منه، هو لم يلق عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، وإنما لقي عبد الرحمن بن يزيد بن تميم، فظن أنه ابن جابر، وابن جابر ثقة، وابن تميم ضعيف. وقال الخطيب: روى الكوفيون أحاديث عبد الرحمن بن يزيد ابن تميم، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، فوهموا في ذلك، والحمل عليه، في تلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(وله من العمر ثلاث وستون سنة): أي هذه مدة بقائه في الدنيا، وهذا على المشهور، وفيه خلاف يسير، يمكن توجيهه، فالبعض ذكر أن عمره r ستون، ومنهم من قال اثنان وستون، والأمر قريب على طريقة العرب في التغليب في العدد، فربما حذفوا ما زاد على ألفاظ العقود، إن كان دون الخمسة، وربما أتموه إلى العقد الذي بعده إن زاد على الخمسة. والله أعلم.

وهذا دال على أنه r من سائر البشر، يحيا ويموت عليه الصلاة السلام، ففيه الرد على الغلاة والضالين، وهذا العمر مقارنةً بأعمار الأمم السابقة قصير، ولكنه أطول من سائر الأعمار بالبركة والعمل الصالح والعلم النافع، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

الأحاديث.وقال بعض الحفاظ المتأخرين: قدم عبد الرحمن بن يزيد بن تميم الكوفة فسألوه عن اسمه، فقال: عبد الرحمن بن يزيد الدمشقي، ولم يزد على ذلك، فظنوه ابن جابر، لأنه أشهر الرجلين، فغلطوا في ذلك لتدليسه نفسه.وقال أبو حاتم بن حبان البستي في كتاب "المجروحين":عبد الرحمن ابن يزيد بن تميم من أهل دمشق، كنيته أبو عمرو، يروي عن الزهري، روى عنه الوليد بن مسلم وأبو المغيرة، وكان ممن ينفرد عن الثقات بما لا يشبه حديث الأثبات، من كثرة الوهم والخطأ، وهو الذي يدلس عنه الوليد بن مسلم، ويقول:قال أبو عمرو، وحدثنا أبو عمرو، عن الزهري، يوهم أنه الأوزاعي، وإنما هو ابن تميم، وقد روى عنه الكوفيون أبو أسامة والحسين الجعفي وذووهما.

وقال الحافظ أبو الحسن الدارقطني:قوله"حسين الجعفي روى عن عبد الرحمن بن يزيد بن تميم"خطأ، الذي يروي عنه حسين هو عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، وأبو أسامة يروي عن عبد الرحمن بن يزيد بن تميم فيقول: ابن جابر، ويغلط في اسم الجد]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والله ذو الفضل العظيم، فهو آخر الأنبياء، وهو أفضلهم، وأعظمهم عند الله منزلة، وأكثرهم تابعا، وثواباً، وأعلاهم منزلة في الجنة عليه الصلاة السلام.

مولد سيد الناس[١] r :

كان مولده عليه الصلاة السلام في يوم الاثنين، كما جاء ذلك في صحيح مسلم، ولهذا حث النبي r على صيام ذلك اليوم كما في صحيح مسلم من طريق شُعْبَةُ عَنْ غَيْلاَنَ بْنِ جَرِيرٍ سَمِعَ عَبْدَ الله بْنَ مَعْبَدٍ الزِّمَّانِيَّ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ الأَنْصَارِيِّ t أَنَّ رَسُولَ الله r سُئِلَ عَنْ صَوْمِهِ قَالَ فَغَضِبَ رَسُولُ الله r فَقَالَ عُمَرُ t رَضِينَا بِالله رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً وَبِبَيْعَتِنَا بَيْعَةً. قَالَ فَسُئِلَ عَنْ صِيَامِ الدَّهْرِ فَقَالَ:"لاَ صَامَ وَلاَ أَفْطَرَ". أَوْ :"مَا صَامَ وَمَا أَفْطَرَ". قَالَ فَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمَيْنِ وَإِفْطَارِ يَوْمٍ قَالَ:"وَمَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ". قَالَ وَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمٍ وَإِفْطَارِ يَوْمَيْنِ قَالَ:"لَيْتَ أَنَّ الله قَوَّانَا لِذَلِكَ". قَالَ وَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمٍ وَإِفْطَارِ يَوْمٍ قَالَ:"ذَاكَ صَوْمُ أَخِي دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ". قَالَ وَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الاِثْنَيْنِ قَالَ:"ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ وَيَوْمٌ بُعِثْتُ أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ". قَالَ فَقَالَ:"صَوْمُ ثَلاَثَةٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ وَرَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ صَوْمُ الدَّهْرِ". قَالَ وَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ فَقَالَ:"يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالْبَاقِيَةَ". قَالَ وَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ فَقَالَ:"يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ". وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ رِوَايَةِ

---

١ - جاء في سياق ذكر حديث الشفاعة والمقام المحمود في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ أُتِيَ رَسُولُ الله r بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً ثُمَّ قَالَ:"**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ** يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شُعْبَةَ قَالَ وَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ فَسَكَتْنَا عَنْ ذِكْرِ الْخَمِيسِ لَمَّا نَرَاهُ وَهْمًا.ا.هـ.

أما تحديد تاريخ مولده r بالضبط، فلا يعلم في ذلك دليل صحيح يجب المصير إليه؛ ولهذا فقد وقع في ذلك خلاف بين أهل السير. والله اعلم.

ولكن الأشهر من ذلك أنه r ولد في ربيع الأول، وقد قيل كان ميلاده r عام الفيل، حيث هزم الله تعالى أَبْرَهَةَ وجُنْدَه، ونَصَرَ البَيْتَ والحَرَم.

الاحتفال بالمولد بدعة منكرة:

واعلم رحمك أن أقواما زعموا محبة النبي r ؛ فجعلوا من يوم مولده r ، -على أنه لم يثبت فيه شيء معلوم- مناسبة للطبول والرقص والغناء، وما يتبع ذلك من اختلاط الرجال بالنساء، وأحوال عجيبة يَنْدَى لها الجَبِين، ناهيك عن الأشعار الشركة المتضمنة الغلو في النبي r ، وإطرائه كما أطرت النصارى عيسى بن مريم عليهما السلام. عياذا بالله من الخذلان.

واعلم أن هذا المولد، لا أصل له من عمل النبي r وأصحابه، وأئمة الهدى، ومن سار على دربهم، بل ما زال أئمة الهدي يحذرون من ذلك ، وينادون على أهله بالجهل والضلال، وينهون الناس عن ذلك، ويحذرونهم أشد التحذير، فلا تنخدع عن هدي المصطفى r وأصحابه الكرام y ، وسلف الأمة الأخيار الأطهار. والله المستعان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[وَأَمَّا اتِّخَاذُ مَوْسِمٍ غَيْرِ الْمَوَاسِمِ الشَّرْعِيَّةِ كَبَعْضِ لَيَالِي شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ الَّتِي يُقَالُ: إنَّهَا لَيْلَةُ الْمَوْلِدِ أَوْ بَعْضِ لَيَالِي رَجَبٍ أَوْ ثَامِنَ عَشَرَ ذِي الْحِجَّةِ أَوْ أَوَّلِ جُمْعَةٍ مِنْ رَجَبٍ أَوْ ثَامِنِ شَوَّالٍ الَّذِي يُسَمِّيهِ الْجُهَّالُ عِيدَ الْأَبْرَارِ فَإِنَّهَا مِنْ الْبِدَعِ الَّتِي لَمْ يَسْتَحِبَّهَا السَّلَفُ وَلَمْ يَفْعَلُوهَا وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ]ا.هـ. قلت: ومثل هذا كثير في كتب أصحاب المذاهب.

وقد ذكر أهل السِّيَر جملة من الأحداث التي وقعت إبَّان مولده عليه الصلاة والسلام، فقد تغير الكون بمولده، وجاء النور المبين، إلا أن من هذه الأحداث ما ثبت به الدليل، وهو الأقل، ومنها ما لم يثبت به الدليل، وهو الأكثر، فمنها خُرُورُ الأصنام بمولده، وخروج النور من رحم أمه، واهتزاز عرش كسرى وإيوان قيصر، وظهور النور معه، حتى أضاءت قصور الشام، وهتف الجن به عليه الصلاة والسلام، هذا كله لم يثبت به خبر، وإن كان أهل السير يتجوزون في رواية ذلك، ويكتفون بتناقل الناس له جيلاً بعد جيل.

توفى أبوه وهو حمل في بطن أمه، فولد يتيماً، واسم أمه (آمنة بنت وهب)، فَكَفَلَهُ جده، ثم لما توفي، كفله عمه (أبو طالب)، وكان يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة، عاش قبل البعثة أربعون سنة، ما سجد فيها لصنم قط، ولا شرب فيها خمراً قط، ولا هتك فيها حرمة قط، ولا تعاطى فاحشة قط، فقد عصمه الله جل وعلا، ولم تنكشف له عورة بعد بلوغه إلا مرة واحدة، خرَّ بعدها مغشياً عليه، فلم تر له عورة بعد ذلك، وكان ذلك إرهاصاً وتوطئةً لبعثته، فقد كان أصدق الناس لهجة، وأوفاهم عهدا،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأبرهم وعداً، وأكرمهم ضيفاً، فقد كان كما قالت خديجة أم المؤمنين t :(كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ). متفق عليه من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

حتى سمي بالصادق الأمين، وقد تزوج خديجة رضي الله عنها، وهو ابن خمس وعشرين عاماً، وهي ابنة أربعين سنة، على المشهور، وكلفته فتاجر في مالها، فرأت البركة العظيمة في تجارتها منذ أن وليها النبي عليه الصلاة السلام، وكانت خديجة رضي الله عنها هي أم أولاده ذكوراً وإناثاً، إلا إبراهيم فهو من مارية القبطية رضي الله عنها، وقد كانت خديجة أحب نسائه إليه، وما تزوج عليها حتى ماتت، إكراماً وإجلالاً وحباً لها، فقد واسته بنفسها ومالها، وفعلت ما لم يفعله أحد من الناس، إلا ما كان من أبي بكر الصديق t وأرضاه.

وقيل لم يتزوج عليها لانشغاله بأعباء التبليغ في أول أمره، وما كان عليه من المطاردة والتضييق، ثم لم تنزل آيات الإذن الشرعي بالتعدد إلا فيما بعد، وكان r لا يفعل شيئا حتى يوحى إليه فيه، وكل من القولين وجيه، وقد يكون الأمر مركبا منهما، وذلك لأن التعدد كان معروفا، فاشيا عند العرب لا ينكرونه، والمجتمع كان مهيئا لمثل ذلك، بلا إشكالات. والله أعلم.

وقد كان بأبي هو أمي r أحسن الناس خلقا وهديا وسمتا ودلا، وكان أكرم الناس وأشجع الناس وأكثرهم تواضعا وحياء، ويكفيه قول الله تعالى:{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صفاته الخُلُقية r :

ومما ورد في صفاته الخُلُقية، ما جاء في صحيح مسلم من رواية سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ في سياق حديث طويل وفيه قال:(فَأَتَيْتُ عَلَى حَكِيمِ بْنِ أَفْلَحَ فَاسْتَلْحَقْتُهُ إِلَيْهَا فَقَالَ مَا أَنَا بِقَارِبِهَا لأَنِّي نَهَيْتُهَا أَنْ تَقُولَ فِي هَاتَيْنِ الشِّيعَتَيْنِ شَيْئًا فَأَبَتْ فِيهِمَا إِلاَّ مُضِيًّا. - قَالَ - فَأَقْسَمْتُ عَلَيْهِ فَجَاءَ فَانْطَلَقْنَا إِلَى عَائِشَةَ فَاسْتَأْذَنَّا عَلَيْهَا فَأَذِنَتْ لَنَا فَدَخَلْنَا عَلَيْهَا. فَقَالَتْ أَحَكِيمٌ فَعَرَفَتْهُ. فَقَالَ نَعَمْ. فَقَالَتْ مَنْ مَعَكَ قَالَ سَعْدُ بْنُ هِشَامٍ. قَالَتْ مَنْ هِشَامٌ قَالَ ابْنُ عَامِرٍ فَتَرَحَّمَتْ عَلَيْهِ وَقَالَتْ خَيْرًا - قَالَ قَتَادَةُ وَكَانَ أُصِيبَ يَوْمَ أُحُدٍ. فَقُلْتُ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ الله r . قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قُلْتُ: بَلَى. قَالَتْ: **فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ الله r كَانَ الْقُرْآنَ.**

وفي صحيح مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ من رسول الله r .

وفي صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ : لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لأَجَبْتُ وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ لَقَبِلْتُ.

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ r أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ.

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ الله r أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا وَكَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو عُمَيْرٍ - قَالَ أَحْسِبُهُ قَالَ - كَانَ فَطِيمًا - قَالَ - فَكَانَ إِذَا جَاءَ رَسُولُ الله r فَرَآهُ قَالَ:"أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ". قَالَ فَكَانَ يَلْعَبُ بِهِ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ r أَحْسَنَ النَّاسِ وَأَجْوَدَ النَّاسِ وَأَشْجَعَ النَّاسِ ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَانْطَلَقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ r قَدْ سَبَقَ النَّاسَ إِلَى الصَّوْتِ وَهْوَ يَقُولُ لَنْ تُرَاعُوا لَنْ تُرَاعُوا وَهْوَ عَلَى فَرَسٍ لأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ مَا عَلَيْهِ سَرْجٌ فِي عُنُقِهِ سَيْفٌ فَقَالَ لَقَدْ وَجَدْتُهُ بَحْرًا ، أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ.

وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ مَا ضَرَبَ رَسُولُ الله r شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلاَ امْرَأَةً وَلاَ خَادِمًا إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهَّ وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلاَّ أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهَّ فَيَنْتَقِمَ للهَّ عَزَّ وَجَلَّ.

وفي صحيح مسلم عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ r غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ أَيْ قَوْمِ أَسْلِمُوا فَوَاللهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ. فَقَالَ أَنَسٌ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلاَّ الدُّنْيَا فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الإِسْلاَمُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا.

وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ ، رَضِيَ اللهُّ عَنْهَا ، قَالَتْ كَانَ رَسُولُ الله r يُحِبُّ الْحَلْوَاءَ وَالْعَسَلَ.

صفاته الخُلُقِيَّة r :

وأما صفاته الخَلْقِيّة r ، فقد وردت له r صفات كثيرة، وسأذكر أصح ما ورد في ذلك، ففي صحيح البخاري من طريق رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَصِفُ النَّبِيَّ r قَالَ: كَانَ رَبْعَةً مِنْ الْقَوْمِ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ وَلَا بِالْقَصِيرِ أَزْهَرَ اللَّوْنِ لَيْسَ بِأَبْيَضَ أَمْهَقَ وَلَا آدَمَ لَيْسَ بِجَعْدٍ قَطَطٍ وَلَا سَبْطٍ رَجِلٍ أُنْزِلَ عَلَيْهِ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَلَبِثَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ وَقُبِضَ وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعَرَةً بَيْضَاءَ، قَالَ رَبِيعَةُ فَرَأَيْتُ شَعَرًا مِنْ شَعَرِهِ فَإِذَا هُوَ أَحْمَرُ فَسَأَلْتُ فَقِيلَ احْمَرَّ مِنْ الطِّيبِ.

وفي صحيح البخاري من طريق أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ : سَمِعْتُ الْبَرَاءَ يَقُولُ كَانَ رَسُولُ اللهِ r أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا وَأَحْسَنَهُ خَلْقًا لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ ، وَلاَ بِالْقَصِيرِ. وهو في صحيح مسلم من طريق أبي إِسْحَاقَ قَالَ سَمِعْتُ الْبَرَاءَ يَقُولُ كَانَ رَسُولُ اللهِ r رَجُلاً مَرْبُوعًا بَعِيدَ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ عَظِيمَ الْجُمَّةِ إِلَى شَحْمَةِ أُذُنَيْهِ عَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ مَا رَأَيْتُ شَيْئًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ - r - .

وفي صحيح البخاري عَنْ أَنَسٍ t قَالَ: مَا مَسِسْتُ حَرِيرًا وَلَا دِيبَاجًا أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ النَّبِيِّ r وَلَا شَمِمْتُ رِيحًا قَطُّ أَوْ عَرْفًا قَطُّ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ أَوْ عَرْفِ النَّبِيِّ r .

وفي صحيح البخاري من طريق عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبٍ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ كَعْبٍ قَالَ سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ تَبُوكَ قَالَ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ r وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنْ السُّرُورِ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ r إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ.

وفي صحيح البخاري عَنْ أَنَسٍ t قَالَ كَانَ النَّبِيُّ r ضَخْمَ الْيَدَيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ حَسَنَ الْوَجْهِ لَمْ أَرَ بَعْدَهُ ، وَلاَ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَكَانَ بَسِطَ الْكَفَّيْنِ.

وفيه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، أَوْ عَنْ رَجُلٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ r ضَخْمَ الْقَدَمَيْنِ حَسَنَ الْوَجْهِ لَمْ أَرَ بَعْدَهُ مِثْلَه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفيه عَنْ أَنَسٍ كَانَ النَّبِيُّ r شَثْنَ الْقَدَمَيْنِ وَالْكَفَّيْنِ. وفيه عَنْ أَنَسٍ أَوْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ كَانَ النَّبِيُّ r ضَخْمَ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ لَمْ أَرَ بَعْدَهُ شَبَهًا لَهُ.

وفي صحيح البخاري من طريق أَبِي الْعَالِيَةِ ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَمِّ نَبِيِّكُمْ يَعْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ : رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي مُوسَى رَجُلاً آدَمَ طُوَالاً جَعْدًا كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ وَرَأَيْتُ عِيسَى رَجُلاً مَرْبُوعًا مَرْبُوعَ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ سَبْطَ الرَّأْسِ وَرَأَيْتُ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ وَالدَّجَّالَ فِي آيَاتٍ أَرَاهُنَّ اللهُ إِيَّاهُ فَلاَ تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ.

وفي صحيح مسلم من طريق سِمَاكٍ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ سَمُرَةَ يَقُولُ كَانَ رَسُولُ اللهِ r قَدْ شَمِطَ مُقَدَّمُ رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ وَكَانَ إِذَا ادَّهَنَ لَمْ يَتَبَيَّنْ وَإِذَا شَعِثَ رَأْسُهُ تَبَيَّنَ وَكَانَ كَثِيرَ شَعْرِ اللِّحْيَةِ فَقَالَ رَجُلٌ وَجْهُهُ مِثْلُ السَّيْفِ قَالَ لاَ بَلْ كَانَ مِثْلَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَكَانَ مُسْتَدِيرًا وَرَأَيْتُ الْخَاتَمَ عِنْدَ كَتِفِهِ مِثْلَ بَيْضَةِ الْحَمَامَةِ يُشْبِهُ جَسَدَهُ.

وفي صحيح مسلم من طريق سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ قَالَ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ سَمُرَةَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ r ضَلِيعَ الْفَمِ أَشْكَلَ الْعَيْنِ مَنْهُوسَ الْعَقِبَيْنِ. قَالَ قُلْتُ لِسِمَاكٍ مَا ضَلِيعُ الْفَمِ قَالَ عَظِيمُ الْفَمِ. قَالَ قُلْتُ مَا أَشْكَلُ الْعَيْنِ قَالَ طَوِيلُ شَقِّ الْعَيْنِ. قَالَ قُلْتُ مَا مَنْهُوسُ الْعَقِبِ قَالَ قَلِيلُ لَحْمِ الْعَقِبِ.

وعند أحمد وابن أبي شيبة والنسائي في الكبرى بسند لا بأس به عَنْ مُحَرِّشٍ الْكَعْبِيِّ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ r خَرَجَ مِنَ الْجِعِرَّانَةِ لَيْلاً فَنَظَرْتُ إِلَى ظَهْرِهِ كَأَنَّهُ سَبِيكَةُ فِضَّةٍ فَاعْتَمَرَ وَأَصْبَحَ بِهَا كَبَائِتٍ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فصل في ذكر أسماء زوجاته النبي r ، رضي الله عنهن

وأما زوجاته أمهات المؤمنين فهن:

١ - خديجة بن خويلد رضي الله عنها.

٢ - سودة بنت زمعة رضي الله عنها.

٣ - عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها.

٤ - حفصة بنت عمر رضي الله عنها.

٥ - زينب بنت خزيمة رضي الله عنها.

٦ - أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية رضي الله عنها.

٧ - أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها.

٨ - جويرية بنت الحارث وكان اسمها بَرَّة، فسماها رسول الله r جويرية.

٩ - ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها.

١٠ - صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها.

١١ - زينب بنت جحش رضي الله عنها.

واختلف في ريحانة بنت زيد النضرية هل كانت من زوجاته أم من إمائه؟.

قال ابن القيم في (زاد المعاد):[قيل ومن أزواجه ريحانة بنت زيد النضرية . وقيل القرظية سبيت يوم بني قريظة فكانت صفي رسول الله r فأعتقها وتزوجها ثم طلقها تطليقة ثم راجعها، وقالت طائفة بل كانت أمته وكان يطؤها بملك اليمين حتى توفي عنها فهي معدودة في السراري لا في الزوجات والقول الأول اختيار الواقدي ووافقه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عليه شرف الدين الدمياطي. وقال هو الأثبت عند أهل العلم. وفيما قاله نظر فإن المعروف أنها من سراريه وإمائه والله أعلم. فهؤلاء نساؤه المعروفات اللاتي دخل بهن وأما من خطبها ولم يتزوجها ومن وهبت نفسها له ولم يتزوجها فنحو أربع أو خمس وقال بعضهم هن ثلاثون امرأة وأهل العلم بسيرته وأحواله r لا يعرفون هذا بل ينكرونه والمعروف عندهم أنه بعث إلى الجونية ليتزوجها فدخل عليها ليخطبها فاستعاذت منه فأعاذها ولم يتزوجها وكذلك الكلبية وكذلك التي رأى بكشحها بياضا فلم يدخل بها والتي وهبت نفسها له فزوجها غيره على سور من القرآن هذا هو المحفوظ والله أعلم. ولا خلاف أنه r توفي عن تسع وكان يقسم منهن لثمان: عائشة وحفصة وزينب بنت جحش وأم سلمة وصفية وأم حبيبة وميمونة وسودة وجويرية. وأول نسائه لحوقا به بعد وفاته r زينب بنت جحش سنة عشرين وآخرهن موتا أم سلمة سنة اثنتين وستين في خلافة يزيد والله أعلم]ا.هـ.

قال تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} [الأحزاب:٦].

فصل في ذكر أولاده r رضي الله عنهم

وأما أولاده y عليهم السلام، فأكتفي بما قاله ابن القيم في (زاد المعاد):[فصل في أولاده r : أولهم القاسم وبه كان يكنى مات طفلا وقيل عاش إلى أن ركب الدابة وسار على النجيبة. ثم زينب وقيل هي أسن من القاسم ثم رقية وأم كلثوم وفاطمة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد قيل في كل واحدة منهن إنها أسن من أختيها وقد ذكر عن ابن عباس أن رقية أسن الثلاث وأم كلثوم أصغرهن. أعلم. وهؤلاء كلهم من خديجة ولم يولد لـه مـن زوجـة غيرها. ثم ولد له إبراهيم بالمدينة من سريته مارية القبطية سنة ثمان من الهجرة وبشره به أبو رافع مولاه فوهب له عبدا ومات طفلا قبل الفطام واختلف هل صلى عليـه أم لا؟، على قولين. وكل أولاده توفي قبله إلا فاطمة فإنها تأخرت بعده بستة أشهر فرفع الله لهـا بصبرها واحتسابها من الدرجات ما فضلت به على نساء العالمين. وفاطمة أفضـل بناتـه على الإطلاق وقيل إنها أفضل نساء العالمين وقيل بل أمها خديجة وقيل بل عائشة وقيل بل بالوقف في ذلك]ا.هـ.

فصل في ذكر أعمامه r

وأما أعمامه وعماته، فقال ابن القيم أيضا في (زاد المعاد):[فصل في أعمامه وعماته r : فمنهم أسد الله وأسد رسوله سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب والعباس وأبـو طالـب واسمه عبد مناف وأبو لهب واسمه عبد العزى والزبير وعبـد الكعبـة والمقـوم وضرار وقثم والمغيرة ولقبه حجل والغيداق واسمه وقيل نوفل وزاد بعضهم العـوام ولم يسـلم منهم إلا حمزة والعباس. وأما عماته فصفية أم الزبير بن العـوام وعاتكـة وبـرة وأروى وأميمة وأم حكيم البيضـاء. أسـلم مـنهن صـفية واختلـف في إسـلام عاتكـة وأروى وصحح بعضهم إسلام أروى. وأسن أعمامه الحارث وأصغرهم سنا: العباس وعقـب منه حتى ملأ أولاده الأرض. وقيل أحصوا في زمن المأمون فبلغوا ستمائة ألف وفي ذلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعد لا يخفى وكذلك أعقب أبو طالب وأكثر والحارث وأبو لهب وجعل بعضهم الحارث والمقوم واحدا وبعضهم الغيداق وحجلا واحدا].ا.هـ.

فصل في ذكر أخواله r

وأما أخواله، فقد قيل إن أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب لم يكن لها إخوة لا من الذكور ولا من الإناث؛ ولهذا ذهب بعض أهل العلم إلى أنه ليس للنبي r أخوال مباشرون، وإنما ما كان يُعرف عند العرب من الاتساع في إطلاق اسم الأخوال على الأقارب من ناحية الأم، ومن أشهر أخوله بهذا الاعتبار هم بنو زهرة وبنو النجار. وقيل بل له أخوال مباشرون، فقد قال ابن حزم في (جمهرة أنساب العرب)"[وهؤلاء بنو زهرة بن كلاب، ولد زهرة بن كلاب : الحارث ، وعبد مناف . فولد عبد مناف بن زهرة : وهب ، ووهيب . فولد وهب : آمنة ، أم رسول الله r ، وعبد يغوث بن وهب. فولد عبد يغوث: الأرقم، والأسود. فولد الأرقم: عبد الله ، له صحبة، ولاه عمر وعثمان بيت المال. وولد الأسود، وهو أحد المستهزئين، مات كافراً: عبد الرحمن، له صحبة، وكان فاضلاً، ذكر في شورى أبي موسى وعمرو رضي الله عن جميعهم. وولد وهيب بن عبد مناف بن زهرة: نوفل؛ ومالك، وهو أبو وقاص؛ وهالة، أم حمزة بن عبد المطلب t . فولد نوفل: مخرمة، له صحبة، وهو أحد المؤلفة قلوبهم. فولد مخرمة: المسور، له صحبة، وكان فاضلاً. ومن ولده: أبو بكر بن عبد الرحمن بن المسور، ..... وابن أخيه : عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وولد أبي وقاص: معد بن أبي وقاص، وعمير، وعمارة، وعامر، وعتبة]ا.هـ. أما أبوه عبد الله فقد مات على الشرك كما تقدم.

فصل في ذكر أحوال خاصة به r مع بعض الصحابة y (ونقتصر على الأشهر)

واعلم رحمك الله، أن وزِيرَيْهِ هما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وحُذيفة t كَاتِمُ سِرِّه، والزُّبير t حَوَارِيُّه،وبلال t مُؤَذِّنُه، وابن مسعود t صاحب الوِسَادِ والنعلين، وأنس t خادمه، أبو عبيدة t أمين هذه الأمة، وخالد t سيف الله المسلول.

واعلم رحمك الله، أن النبوة مأخوذة من التنبؤ وهو الإخبار، فإن الأنبياء يأتيهم الخبر من السماء، وحياً من الله جل وعلا، وقيل مأخوذ من النُّبُوْ وهو الارتفاع والظهور، لارتفاع رتبة النبوة وعُلُو منزلتها. **وقد تقدم.**

قوله:(منها أربعون قبل النبوة): وهو سن كمال الرجولة، واشتداد القوى، العلمية والعملية، ولها تُبعث الأنبياء، وهذا في الغالب إلا ما كان من عيسى بن مريم، عليهما الصلاة والسلام.قال تعالى:{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [الأحقاف:١٥].

قوله:(وثلاث وعشرون نبياً رسولا): أي هذه هي مدة دعوته ورسالته،وما قبضه الله جل وعلا إلا بعد، أن أقام به الملة العوجاء، وترك الناس على المحجة البيضاء، ليلها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونهارها سواء، لا يزيغ عنها إلا هالك مفتون، وفي صحيح البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ الله r وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ، فَمَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، ثُمَّ أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ؛ فَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَمَكَثَ بِهَا عَشْرَ سِنِينَ، ثُمَّ تُوُفِّيَ r .

قوله (نبياً رسولا): تقدم الكلام على الفرق بين النبي والرسول، وأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسول، فمرتبة الرسالة أعلى من النبوة. والله أعلم.

النبوة في الذكور خاصة:

والنبوة والرسالة لا تكون إلا في الذكور خاصة دون الإناث، بنص القرآن العظيم،كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ}، في ثلاثة مواضع من الذكر الحكيم، وكل من قص الله تبارك وتعالى علينا من الأنبياء والمرسلين كانوا من الذكور، وهذا بالإجماع[1] أن الله جل وعلا لم ينبئ ولم يرسل امرأة قط.

---

١ - جاء في مجموع الفتاوى لابن تيمية:[وَأَمَّا الْحَصْرُ فِي " إنَّمَا " فَهُوَ مِنْ جِنْسِ الْحَصْرِ بِالنَّفْيِ وَالِاسْتِثْنَاءِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {مَا أَنْتَ إلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا} {وَمَا مُحَمَّدٌ إلَّا رَسُولٌ}. وَالْحَصْرُ قَدْ يُعَبَّرُ عَنْهُ بِأَنَّ الْأَوَّلَ مَحْصُورٌ فِي الثَّانِي وَقَدْ يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْعَكْسِ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ وَهُوَ أَنَّ الثَّانِيَ أَثْبَتَهُ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَثْبُتْ لَهُ غَيْرُهُ مِمَّا يُتَوَهَّمُ أَنَّهُ ثَابِتٌ لَهُ وَلَيْسَ الْمُرَادُ إنَّك تَنْفِي عَنْ الْأَوَّلِ كُلَّ مَا سِوَى الثَّانِي فَقَوْلُهُ: {إنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ} أَيْ: إنَّك لَسْت رَبًّا لَهُمْ؛ وَلَا مُحَاسِبًا؛ وَلَا مُجَازِيًا؛ وَلَا وَكِيلًا عَلَيْهِمْ؛ كَمَا قَالَ: {لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ} وَكَمَا قَالَ: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ} {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ} لَيْسَ هُوَ إلَهًا وَلَا أُمُّهُ إلَهَةً بَلْ غَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ رَسُولًا كَمَا غَايَةُ مُحَمَّدٍ أَنْ يَكُونَ رَسُولًا وَغَايَةُ مَرْيَمَ أَنْ تَكُونَ صِدِّيقَةً. وَهَذَا مِمَّا اُسْتُدِلَّ بِهِ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ: أَنَّهَا نَبِيَّةٌ وَقَدْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإنما قلت من الذكور، ولم أقل من الرجال؛ ليدخل في ذلك من نُبِّىء ولم يبلغ، كعيسى عليه السلام، فقد نُبِّىء في المهد، كما قال تعالى: {فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا} [مريم:٢٧-٣٠].

قوله:(نُبِّئَ بـ اقْرَأ، وَأُرْسِلَ بـ الْمُدَّثِّرْ)، وقع خلاف بين أهل العلم[١]، في أول ما أنزل من القرآن، وما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى هنا، هو القول الجامع بين الأخبار فهو

حَكَى الْإِجْمَاعَ عَلَى عَدَمِ نُبُوَّةِ أَحَدٍ مِنْ النِّسَاءِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ ابْنُ الطَّيِّبِ وَالْقَاضِي أَبُو يَعْلَى وَالْأُسْتَاذُ أَبُو الْمَعَالِي الْجُوَيْنِي وَغَيْرُهُمْ].ا.هـ.

قلت: ويقصد بالمتأخرين ما جاء عن القرطبي وابن حزم وغيرهما، فإنهما محجوجان بإجماع من سبق، وقد نقل القرطبي عن الكرماني إثبات الإجماع كذلك، وابن حزم في "الملل والنحل" أثبت أن هذه المسألة لم يحدث التنازع فيها إلا في عصره في قرطبة.

١ - جاء في تفسير ابن كثير:[ثبت في صحيح البخاري من حديث يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن جابر أنه كان يقول: أول شيء نزل من القرآن: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}وخالفه الجمهور فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولا قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} كما سيأتي [بيان] ذلك هناك.قال البخاري: حدثنا يحيى، حدثنا وَكِيع، عن علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن، قال: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}، قلت:يقولون: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}؟، فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك، وقلتُ له مثل ما قلتَ لي، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله r قال:"اورت بحرَاء، فلما قضيت جواري هبطتُ فنُوديت فنظرت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الراجح، فأول ما أنزل في الإرسال والتنبيء(اقْرَأ)، وأول ما أنزل في البلاغ والصدع (المُدَّثِّرْ).

عن يميني فلم أر شيئًا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئًا، ونظرت أمامي فلم أر شيئًا، ونظرت خلفي فلم أر شيئًا. فرفعت رأسي فرأيت شيئًا، فأتيت خديجة فقلت: دثروني. وصبوا علي ماء باردا. قال: فدثروني وصبوا علي ماء باردا قال:فنزلت:{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ}، هكذا ساقه من هذا الوجه. وقد رواه مسلم من طريق عُقَيل، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة قال: أخبرني جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله r يحدث عن فترة الوحي:"فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري قبَلَ السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فَجَئِثْتُ منه حتى هَوَيتُ إلى الأرض، فجئت إلى أهلي، فقلت: زملوني زملوني. فزملوني، فأنزل الله:{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ} إلى:{فَاهْجُرْ} –قال أبو سلمة: والرجز: الأوثان -ثم حَمِيَ الوحيُ وتَتَابع".هذا لفظ البخاري وهذا السياق هو المحفوظ، وهو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا، لقوله:"فإذا الملك الذي جاءنيبحراء"، وهو جبريل حين أتاه بقوله:{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} ثم إنه حصل بعد هذا فترة، ثم نزل الملك بعد هذا. ووجه الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة، كما قال الإمام أحمد:حدثنا حجاج، حدثنا لَيْث، حدثنا عُقَيل، عن ابن شهاب قال:سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن يقول: أخبرني جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله r يقول:"ثم فتر الوحي عني فترة، فبينا أنا أمشي سمعتُ صوتًا من السماء، فرفعت بصري قِبَل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء الآن قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فَجُئت منه فَرَقًا، حتى هَوَيت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت لهم: زملوني زملوني. فزملوني، فأنزل الله:{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} ثم حمي الوحي بعدُوتتابع". أخرجاه من حديث الزهري، به]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(وبلده مكة): أي التي عاش ونشأ وترعرع فيها، إلا الفترة التي قضاها في البادية (بادية بني سعد) عند ظئره (مرضعته) حليمة السعدية؛ لأنه عليه الصلاة والسلام، نشأ يتيماً، وقد توفى أبوه وهو حملٌ، وتوفيت أمه قبل أن يبلغ سن التمييز، وكانت عادة العرب أن ترسل غلمانها إلى البادية؛ لكي يكتسبوا معاني الشجاعة والرجولة، وقوة البدن، وحدة النظر، وغير ذلك من الأمور، ثم نشأ في حضانة جده عبد المطلب فما لبث أن مات فكفله عمه أبو طالب وكان من أكثر الناس حياطةً له وعنايةً به إلا أنه لم يسلم،ولهذا قال العباس كما في الصحيحين عَنْ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ t ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ، قَالَ:"نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ".

لا عبرة للوطنيات والحنين للأرض إذا كانت الأرض يحارب فيها الدين.

ومع أن بلده r هي مكة، إلا أن أهلها، لما أبوا الإيمان، وأرادوا قتله؛ خرج منها مهاجرا إلى الله تعالى، كما فعل أبوه إبراهيم الخليل r ، بل وقاتل أهلها، وعاداهم في الله تعالى، وتولى المدينة وأهلها المؤمنين، في دلالة واضحة بليغة إلى أن الأوطان إنما تقاس بما فيها من الدين، لا بعرقيات ولا قبليات ولا وطنيات، فلا ولاء وبراء في الأوطان، وإنما الولاء والبراء في الله الواحد القهار، ففيه الرد على دعاة الوطنية، وعباد التراب، ومتَّبعي تشريعات الأمم المتحدة الجاهلية، فكم من الجيوش الجرارة في بلاد المسلمين، مرصودة لحماية الوطن، والمؤمن إنما يحمي ابتداء الدين، فوطن بلا دين لا خير فيه، ولا حنين له،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإنما يقدس المرء عمله، وإلا فإن الأرض لا تقدس أحدا، فكم من ساكن في الحرم وهو ملحد فيه، وكم من بعيد عنه، متق لله تعالى، يعبد الله على بصيرة.

وفي موطأ مالك عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ كَتَبَ إِلَى سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ: أَنْ هَلُمَّ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ فَكَتَبَ إِلَيْهِ سَلْمَانُ: إِنَّ الْأَرْضَ لَا تُقَدِّسُ أَحَدًا، وَإِنَّمَا يُقَدِّسُ الْإِنْسَانَ عَمَلُهُ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ جُعِلْتَ طَبِيبًا تُدَاوِي، فَإِنْ كُنْتَ تُبْرِئُ فَنَعِمَّا لَكَ، وَإِنْ كُنْتَ مُتَطَبِّبًا، فَاحْذَرْ أَنْ تَقْتُلَ إِنْسَانًا فَتَدْخُلَ النَّارَ، فَكَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ إِذَا قَضَى بَيْنَ اثْنَيْنِ ثُمَّ أَدْبَرَا عَنْهُ نَظَرَ إِلَيْهِمَا وَقَالَ ارْجِعَا إِلَيَّ أَعِيدَا عَلَيَّ قِصَّتَكُمَا مُتَطَبِّبٌ وَالله .ا.هـ. قلت: وفيه إرسال. قال ابن المديني في "العلل" عن يحيى بن سعيد الأنصاري:[لا أعلمه سمع من صحابي غير أنس]ا.هـ.

وفي فضائل مكة أُلِّفَت مصنفات عديدة في بيان فضلها وشرفها، حيث اختارها الله جل وعلا، بلداً لخاتم أنبيائه، وسيد رسله، وهي أم القرى ومحط بيت الله الحرام ولها فضائل كثيرة.

قوله:(بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبالَدْعُوة إِلَى التَّوْحِيدِ): تقدم معنا أن هذا هو أصل دين الله تبارك وتعالى، وهو أصل دعوة جميع الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى:{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَّ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُّ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [النحل: ٣٦]؛ ولهذا قال تعالى:{قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الأحقاف:٩]، وهي دعوة أتباعه على الحق إلى قيام الساعة، لا يصدهم عنها طاغوت، ولا مبطل،ولا مضل، ولا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله تعالى، تلك بشارة المصطفى r لهم، كما قال تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: ١٠٨]، وكما في الصحيحين عن مُعَاوِيَةَ t ، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ r يَقُولُ:"لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ". وسيأتي بيان للطاغوت وما هو الواجب معه بإذن الله تعالى.

قوله:(بعثه الله بالنذارة عن الشرك): أي محذراً منه، ومبيناً سوء عاقبته، وأنه يخالف الفطر السليمة، والعقول المستقيمة، بل ويخالف الشريعة المطهرة.

قوله:(ويدعو إلى التوحيد): هذا عطف عام على خاص؛ لإفادة أن التوحيد يشتمل ترك الشرك و يزيد عليه، فكل طاعة لله تعالى فعلها من التوحيد، وكل معصية لله تعالى تركها من التوحيد، وفيه التذكير بعدم الاقتصار على التحذير من الشرك، بل لابد من الأمر بالخير والنهي عن الشر عموما؛ نعم، ترك الشرك هو أصل التوحيد، ولكن التوحيد فيه واجبات يلزم فعلها، ومستحبات يُنْدَبُ إتيانها، وفيه محرمات لابد من تركها، ومكروهات ينبغي الابتعاد عنها، ومباحات الأولى التخفف منها؛ ولهذا أمرنا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله تعالى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا معروف أعظم من التوحيد، ولا منكر أقبح من الشرك.

وقوله:(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}): أي هذا هو الدليل على كونه أُرسل بالمدثر؛ لينذر عن الشرك، ويدعوا إلى التوحيد.

قوله:{يا أيها المدثر}: نداء رباني يتضمن الأمر بالانتقال إلى مرحلة أشد من مراحل التبليغ، وهي مرحلة الصدع بالحق والدعوة المعلنة، وهو يتضمن الحث على الصبر وتحمل المشاق في سبيل ذلك، فالدِّثار هو ما يتغطى به المرء من لحاف ونحوه، وهو مستعمل عند الإخلاد إلى الراحة والسكون والنوم، فجاء الأمر بترك ذلك، وهذا أبدع تمثيل في النهوض بالحق والقيام به.

قوله:{قم}: أي قم به في الناس، فبعد أن نُبِّىءَ r في خاصة نفسه، وفجأه الحق وهو في غار حراء، جاء الدور على القيام بذلك في الناس، فالرسل لا تبعث في خاصة أنفسها، بل في أقوامهم، مبشرين ومنذرين، ولهم في ذلك الأجر العظيم، عند الله تعالى، فكل من اهتدى من بعد دعوته من أمته، فهم في موازين حسناته يوم القيامة، وأوفرهم حظا وأكثرهم في ذلك هو سيدنا محمد r ، إذ كانت دعوته عامة، ولا نبي بعده، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

والمعنى دع عنك هذا التَّدَثُّر، وقم لله جل و علا، قومة رجل واثق في الله ونصره، فقام r قومة لا يدانيه فيها أحد، والمعنى أنت لست كغيرك، فقد شرفك الله جل وعلا،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بهذا الواجب العظيم، فقم به وأنذر قومك، وابدأ بعشيرتك الأقربين، ثم انطلق بذلك في العالمين، وليكن أول ما تنذرهم فيه وتحذرهم منه الشرك، وأنذرهم النار التي وعدها الله الذين لا يؤمنون.

قال الإمام الشنقيطي في (أضواء البيان):[وقد دلت آيات من كتاب الله على أن الله تعالى لا يخاطبه في كتابه باسمه، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم والتوقير، كقوله:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}،{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ}، {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ}، {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} مع أنه ينادي غيره من الأنبياء بأسمائهم، كقوله:{وَقُلْنَا يَا آدَمُ}، وقوله:{وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إبراهيم}، وقوله:{قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ}، قيل:{يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا}، وقوله:{قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ}، وقوله:{إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ}، وقوله:{يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً}، أما النبي r فلم يذكر اسمه في القرآن في خطاب، وإنما يذكر في غير ذلك كقوله:{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ}، وقوله:{وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ}، وقوله:{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ}].ا.هـ.

قوله:(وَمَعْنَى:**{قُمْ فَأَنذِرْ}**: **يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ.{وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ}**: **أَيْ:عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ. {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}**: **أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ**)، شرع المؤلف رحمه الله يفصل في معاني الآيات التي أوردها من سورة المدثر،فاستعمل عبارات موجزة؛ ليسهل حفظها، وقد ذكر فيها ما ترجح عنده من معانيها، وقد تقدم تقرير ذلك فيما مضى من كلام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}، جاء في كلام المفسرين من السلف، حمل معنى الثياب على معنيين، الحسي والمعنوي، واختار المؤلف المعنى المعنوي؛ لأنه أقرب لسياق الدليل في هذا الموطن، وقد قال تعالى مذكرا بكل من اللِّبَاسَين، وبين تعلق أحدهما بالآخر، فقال: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف:٢٦-٢٧]، فبالمعصية حصل عُرِيٌّ حقيقي لأدم وحواء عليهما السلام، ولو شاء الله لأجرى ذلك سنة في كونه، ولكن كما تقدم معنا، من أن الله تعالى يريد منا الإيمان الاختياري لا الإجباري، وإذا كان هذا العُرِي حصل من الأكل من الشجرة، فكيف بِعُرِي يحصل من جراء الفواحش، بل كيف بالذي يحصل من جراء الإشراك بالله تعالى؟. فاللهم استر عوراتنا وآمن رَوْعَاتِنَا واحفظنا ياحفيظ.

أقسام الطهارة:

ولنا أن نتذكر بهذه المناسبة أن الطهارة تنقسم إلى قسمين:

١- **طهارة حسية:** وهي التطهر من الحدث الأكبر والأصغر في البدن، وإزالة النجاسات، والقاذورات، من الثياب والبقاع.

٢- **طهارة معنوية:** وهي طهارة القلب من الأدران والأوساخ، ويأتي على رأسها، الشرك بالله تعالى، ولكن المسلم أو المؤمن لا ينجسه شيء، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هُرَيْرَةَ قَالَ لَقِيَنِي رَسُولُ الله r وَأَنَا جُنُبٌ فَأَخَذَ بِيَدِي فَمَشَيْتُ مَعَهُ حَتَّى قَعَدَ فَانْسَلَلْتُ فَأَتَيْتُ الرَّحْلَ فَاغْتَسَلْتُ ثُمَّ جِئْتُ وَهُوَ قَاعِدٌ فَقَالَ:"أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا هِرٍّ" فَقُلْتُ لَهُ، فَقَالَ:"سُبْحَانَ الله يَا أَبَا هِرٍّ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَنْجُسُ"، وفي رواية:"أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ" قَالَ كُنْتُ جُنُبًا فَكَرِهْتُ أَنْ أُجَالِسَكَ وَأَنَا عَلَى غَيْرِ طَهَارَةٍ، فَقَالَ:"سُبْحَانَ الله إِنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَنْجُسُ"، وفي صحيح مسلم عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّ رَسُولَ الله r لَقِيَهُ وَهُوَ جُنُبٌ فَحَادَ عَنْهُ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ كُنْتُ جُنُبًا. قَالَ:"إِنَّ الْمُسْلِمَ لاَ يَنْجُسُ"، وفي صحيح البخاري معلقا:وَحَنَّطَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ابْنًا لِسَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ وَحَمَلَهُ وَصَلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّأْ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا الْمُسْلِمُ لَا يَنْجُسُ حَيًّا وَلَا مَيِّتًا وَقَالَ سَعِدٌ لَوْ كَانَ نَجِسًا مَا مَسِسْتُهُ.

وهذا الحكم عام في جَنَابَةِ الذكور والإناث من المؤمنين، كما في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كُنْتُ أَغْتَسِلُ أَنَا وَالنَّبِيُّ r مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ كِلَانَا جُنُبٌ وَكَانَ يَأْمُرُنِي فَأَتَّزِرُ فَيُبَاشِرُنِي وَأَنَا حَائِضٌ وَكَانَ يُخْرِجُ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ فَأَغْسِلُهُ وَأَنَا حَائِضٌ. وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ النَّبِيُّ r يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَرَأْسُهُ فِي حَجْرِي وَأَنَا حَائِضٌ. وفي صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كُنْتُ أَشْرَبُ وَأَنَا حَائِضٌ ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ r فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ فَيَشْرَبُ وَأَتَعَرَّقُ الْعَرْقَ وَأَنَا حَائِضٌ ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ r فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ.

وأما الكافر أو المشرك، فنجس، ونجاسته لا تطهرها مياه البحار وإن اغتسل بها، بل وحتى النار لا تقوى على تطهيره ولهذا يبقى فيها أبدا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة:٢٨].

وقد أمر الله بالطهارتين جميعاً، وهما من باب اللازم والملزوم، فلا يمكن أن يأمر الله بتطهير الثياب ويدع تطهير القلب واللُّبَاب، بل هو من باب أولى؛ ولهذا فإن هذه الآية دالة على الأمر بطهارة الظاهر والباطن.

جاء في تفسير ابن أبي حاتم:[قَوْلُهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}، قَالَ:النَّائِمُ، {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}، قَالَ: لا تَكُنْ ثِيَابُكَ الَّتِي تَلْبَسُ مِنْ مَكْسَبٍ بَاطِلٍ، {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ}، قَالَ:الْأَصْنَامُ، {وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ}، قَالَ: لا تُعْطِ عَطِيَّةً تَلْتَمِسُ بِهَا أَفْضَلَ مِنْهَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}، قَالَ: مِنَ الْإِثْمِ، قَالَ: وَهِيَ فِي كَلامِ الْعَرَبِ نَقِيُّ الثِّيَابِ.عَنْ عِكْرَمَةَ، أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ، سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}، قَالَ: لا تَلْبَسْهَا عَلَى غَدْرَةٍ وَلا فَجْرَةٍ، ثُمَّ قَالَ: أَلا تَسْمَعُونَ قَوْلَ غَيْلانَ بْنِ سَلَمَةَ:إِنِّي بَحْمِد اللهِ لا ثَوْبَ فَاجِرٍ لَبَسْتُ وَلا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ]ا.هـ.

قوله:{والرجز فاهجر}: الرجز الأصنام، وقيل الأوثان، وقيل الطاغوت والكل حق، فالمراد ترك كل ما يعارض التوحيد من قليل أو كثير، وقد أطلق النبي r اسم الوثن على كل ما يعبد من دون الله تعالى، كما قال لثابت بن الضحاك:"هَلْ كَانَ فِيهَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ"، وقد تقدم تخريجه، وفي مرسل عطاء بن يسار أن رسول الله r قال:"اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"، أخرجه مالك في الموطأ، وروي مرفوعا والراجح إرساله. والله أعلم.

والمعنى أن الشرك ليس خاصا بعبادة الأصنام من الحجارة أو الأشجار، بل كل ما يعبد من الله يقع به الشرك بالله تعالى، حجرا كان أو بشرا، دستورا كان، أو قانونا، أو نظاما، كله شرك بالله تعالى.

قوله:(وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا): أي هذا هو معنى الهجر المأمور به شرعا، لا الهجر الذي يتخذه البعض لهوا ولعبا، وتَلَوُّناً في الدين والعياذ بالله.

قوله:(تركها): أي ترك عبادتها، وترك إطرائها، أو الركون إليها، أو الدخول في أنصاف حلول معها، أو المساومة في ذلك، مما يستلزم تحطيمها، والتحذير منها، وفضحها والسعي ذلك، وامتهانها في القلوب قبل الواقع، فإن تحطيم الأصنام في القلوب، من أعظم الأسباب المفضية للعمل على إزالتها من الأرض، ولهذا بدء النبي r دعوته ببيان ضعف هذه المعبودات، وقلة حيلتها، وأنها لا تغني عن أهلها شيئا.

وهكذا الرسل تبعث لاجتثاث جميع أنواع الشرك، وإحلال التوحيد مكانها، حتى لا يبقى في الأرض سلطان سوى سلطان الله جل وعلا، بأن تكون كلمة الله هي العليا أبدا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكلمة الذين كفروا السفلى أبدا،وسيأتي مزيد بيان لهذه المعاني الكبار في آخر الكتاب إن شاء الله تعالى.

مسألة: متى يقع الهجران؟.

الجواب: يقع الهجران، متى كان ثَمَّةَ مصلحة وفائدة، وهذا على ثلاثة أنواع:

١ - **النوع الأول**: مصلحة وفائدة لِلمَهْجُور، بحيث لو هُجر؛ تأثر وأقلع عن المعصية، وتاب منها، فهنا الأولى إيقاع الهجران، بل هو الواجب، وإن كان لا يستفيد من الهجران، فالأولى عدم إيقاعه إلا في حالة واحدة، وهي النوع الثاني.

٢ - **النوع الثاني**: إذا كانت المصلحة والفائدة تحصل للهَاجِر، بمعنى أنه لو لم يهجر؛ تضرر في دينه؛ لأن كثرة الإمساس تفقد الإحساس، فهنا يجب عليه إيقاع الهجران، وإلا حصل فساد عريض، قال تعالى: {لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون}، وقد فسر أهل العلم هذه الآية بما جاء في الحديث الضعيف أن صالحيهم كانوا ينكرون على طالحيهم، فلا يقلع الطالحون عن العصيان، فإذا كانوا من الغد، جالسوهم وآكلوهم وشاربوهم؛ فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم.

٣ - **أن تكون المصلحة حاصلة للمجتمع**، وإن لم تحصل للمهجور، فإن هذا الهجران يقلل الشر ويحسم مادته، ويحاصر أهله، وينفر الناس عنه، وعن مُنْكَرِه، فهذا أيضا مما يوجب إيقاع الهجران، وهذا كثير في كتاب الله تعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذاً لابد من التنبه لكل هذه الأنواع، ومن الخطأ فَهْمُ الهجران، على أنه لا يجوز إيقاعه، إلا إذا كانت هناك مصلحة للمهجور، فحسب.

قوله:(وأهلها): أي بغضهم وما هم عليه، مما يستلزم دعوتهم، إذ ليس المراد هنا اعتزالهم فحسب - إلا حال عبادتهم إياها- بل المراد كذلك السعي في إزالة منكرهم بدعوتهم إلى الحق والهدى.

قوله:(والبراءة منها وأهلها): أي البراءة القلبية والعملية من الشرك والمشركين، وهذه هي عقيدة الولاء و البراء، الحب في الله والبغض في الله، والتي لا تقوم للإيمان قائمة بدونها.

حتى إذا طغى على الناس حُبُّ الدنيا والاصطلاح عليها، وقُدمت المجاملات والمحسوبيات، على الدين؛ حصل البلاء العظيم؛ وحلت بالأمة الدواهي والفتن والابتلاءات، نسأل الله العافية والسلامة.

فصل:في ذكر مراتب الهجران و البراءة:

١ - **الهجران والبراءة بالقلب**: وهذا فرض على كل مسلم ومسلمة، ويشمل ذلك الكفر الأكبر والأصغر والمعاصي، فيهجرها العبد بقلبه، ويتبرأ من كل ضلال وانحراف، وعليه أن يجدد هذا المعنى باستمرار في قلبه؛ حتى لا تندرس معالم الولاء والبراء فيه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢- **الهجران والبراءة لأمر الدنيا وحطامها**: وهذا محرم بين المسلمين، إلا إلى ثلاث أيام وخيرهما الذي يبدأ بالسلام.

٣- **الهجران العملي لأصحاب الشرك والكفر والطاغوت**: وهذا إنما يكون باعتزال أوطانهم–إن كانت دار كفار أصليين وفي غيرهم تفصيل سيأتي-، ومَجَامِعِهم، ومؤسساتهم، وبرلماناتهم، ودورهم التي اتخذوها أوثانا مودة بينهم، ويجب بغضهم وما هم عليه،مع وجوب دعوتهم، والاجتهاد في البيان، حتى إذا ما امتنعوا من قبول دعوته، اعتزلهم بدعوته كذلك، كما قال تعالى: {فلما تبين له أنه عدوٌ لله تبرأ منه}، مع تحقيق معنى الاعتزال الشرعي، فلا يداخلهم ولا يداهنهم، ولا ينتسب إلى مؤسساتهم الطاغوتية، ومع ذلك يبذل لهم الدعوة، ويبلغ دين الله تعالى، مع التنبيه إلى أن يكون حذرا من التلبيس في الدين، والتخليط فيه.

أما من لم تكن عنده آلة للدعوة إلى الله، أو كان ممن لا يصبر على أذى الناس، بحيث لو دعا؛ أفسد أكثر مما يصلح، أو لربما تضرر هو في دينه، فليس عنده من قوة التحمل ما يؤهله لذلك، فهو سريع التأثر بما حوله، فهذا الأولى أن يعتزلهم.

٤- **هجران أهل المعاصي من المسلمين**: وهذا كالسابق يستمر العبد في دعوته، حتى يبارزوه بالعداء، ويمتنعوا من قبول دعوته، بشرط ألا يجالسهم حال المعصية، قال تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [النساء: ١٤٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٥- **هجران أماكن العصيان والباطل**: وأوله تحرق القلب لله تعالى، فإن كان العبد صادقا في غيرته على محارم الله تعالى أن تنتهك؛ لم يرض أن يبقى في أماكن الباطل والخبث، فإن القلب سيد الجوارح، كما قال النبي r :"أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ" متفق عليه من حديث النعمان بن بشير، وهذا من صميم سنة اعتزال الباطل وسيأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى، وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ r أَنَّهَا أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا اشْتَرَتْ نُمْرُقَةً فِيهَا تَصَاوِيرُ فَلَمَّا رَآهَا رَسُولُ الله r قَامَ عَلَى الْبَابِ فَلَمْ يَدْخُلْ فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهِيَةَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَتُوبُ إِلَى الله وَإِلَى رَسُولِهِ مَاذَا أَذْنَبْتُ فَقَالَ:"رَسُولُ الله r مَا بَالُ هَذِهِ النُّمْرُقَة" قَالَتْ: فَقُلْتُ اشْتَرَيْتُهَا لَكَ لِتَقْعُدَ عَلَيْهَا وَتَوَسَّدَهَا فَقَالَ رَسُولُ الله r :"إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ وَقَالَ إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الصُّوَرُ لَا تَدْخُلُهُ الْمَلَائِكَةُ". وفي صحيح البخاري عن ابن عمر t : قَالَ وَعَدَ النَّبِيَّ r جِبْرِيلُ فَرَاثَ عَلَيْهِ حَتَّى اشْتَدَّ عَلَى النَّبِيِّ r فَخَرَجَ النَّبِيُّ r فَلَقِيَهُ فَشَكَا إِلَيْهِ مَا وَجَدَ فَقَالَ لَهُ إِنَّا لَا نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ وَلَا كَلْبٌ". وفي صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ وَاعَدَ رَسُولَ الله r جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فِي سَاعَةٍ يَأْتِيهِ فِيهَا فَجَاءَتْ تِلْكَ السَّاعَةُ وَلَمْ يَأْتِهِ وَفِي يَدِهِ عَصًا فَأَلْقَاهَا مِنْ يَدِهِ وَقَالَ:"مَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلاَ رُسُلُه" ثُمَّ الْتَفَتَ فَإِذَا جِرْوُ كَلْبٍ تَحْتَ سَرِيرِهِ، فَقَالَ:"يَا عَائِشَةُ مَتَى دَخَلَ هَذَا الْكَلْبُ هَا هُنَا". فَقَالَتْ: وَالله مَا دَرَيْتُ، فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ فَجَاءَ جِبْرِيلُ فَقَالَ رَسُولُ الله r :"وَاعَدْتَنِي فَجَلَسْتُ لَكَ فَلَمْ تَأْت". فَقَالَ مَنَعَنِي الْكَلْبُ الَّذِي كَانَ فِي بَيْتِكَ إِنَّا لاَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلاَ صُورَة". وقال البخاري في صحيحه:[وَدَعَا اِبْن عُمَر أَبَا أَيُّوب فَرَأَى فِي الْبَيْت سِتْرًا عَلَى الْجِدَار فَقَالَ اِبْن عُمَر: غَلَبَنَا عَلَيْهِ النِّسَاء. فَقَالَ: مَنْ كُنْت أَخْشَى عَلَيْهِ فَلَمْ أَكُنْ أَخْشَى عَلَيْك، وَاللَّهِ لَا أَطْعَم لَكُمْ طَعَامًا. فَرَجَعَ].ا.هـ. قال ابن حجر في (فتح الباري):[وَصَلَهُ أَحْمَد فِي "كِتَاب الْوَرَع" وَمُسَدَّد فِي مُسْنَده وَمِنْ طَرِيقه الطَّبَرَانِيُّ مِنْ رِوَايَة عَبْد الرَّحْمَن بْن إِسْحَاق عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَالِم بْن عَبْد اللَّهِ بْن عُمَر قَالَ " أَعْرَسْت فِي عَهْد أَبِي، فَآذَن أَبِي النَّاس، فَكَانَ أَبُو أَيُّوب فِيمَنْ آذَنَّا وَقَدْ سَتَرُوا بَيْتِي بِبِجَادٍ أَخْضَر، فَأَقْبَلَ أَبُو أَيُّوب فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فَقَالَ: يَا عَبْد اللَّهِ أَتَسْتُرُونَ الْجُدُر؟ فَقَالَ أَبِي وَاسْتَحْيَا: غَلَبَنَا عَلَيْهِ النِّسَاء يَا أَبَا أَيُّوب، فَقَالَ: مَنْ خَشِيت أَنْ تَغْلِبهُ النِّسَاء. فَذَكَرَهُ].ا.هـ. قال ابن القيم في كتابه (إعلام الموقعين عن رب العالمين):[وقد نص الإمام على أن الرجل إذا شهد الجنازة فرأى فيها منكرا لا يقدر على إزالته أنه لا يرجع ونص على أنه دعي إلى وليمة عرس فرأى فيها منكرا لا يقدر على إزالته أنه يرجع فسألت شيخنا عن الفرق فقال لأن الحق في الجنازة للميت فلا يترك حقه لما فعله الحي من المنكر والحق في الوليمة لصاحب البيت فإذا أتى فيها بالمنكر فقد أسقط حقه من الإجابة].ا.هـ.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله في كتابه:(لطائف المعارف فيما المواسم العام من الوظائف):[فالشؤم في الحقيقة هو معصية الله، واليُمن هو طاعة الله و تقواه كما قيل:

إن رأيا دعا إلى طاعة الله ... لرأي مبارك ميمون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والعدوى التي تهلك من قاربها هي المعاصي فمن قاربها وخالطها وأصر عليها هلك وكذلك مخالطة أهل المعاصي ومن يحسن المعصية ويزينها ويدعو إليها من شياطين الإنس وهم أضر من شياطين الجن قال بعض السلف: شيطان الجن نستعيذ بالله منه فينصرف وشيطان الإنس لا يبرح حتى يوقعك في المعصية .....إلى أن قال: ومما يروى لعلي t :

فلا تصحب أخا الجهـ ... ل و إيـاك و إيـاه
فكم من جاهل أردى ... حكيمـا حين آخاه
يقـاس المـرء بـالمـر ... ء إذا ما المرء ماشاه
وللشـيء على الشـي ... ء مقاييس و أشـباه
وللقـلـب على القلـ ... ب دليل حين يلقاه

فالعاصي مشؤوم على نفسه وعلى غيره فإنه لا يؤمن أن ينزل عليه عذاب فيعم الناس خصوصا من لم ينكر عليه عمله فالبعد عنه متعين فإذا كثر الخبث هلك الناس عموما وكذلك أماكن المعاصي وعقوباتها يتعين البعد عنها والهرب منها خشية نزول العذاب كما قال النبي r لأصحابه لما مر على ديار ثمود بالحجر:"لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين خشية أن يصيبكم ما أصابهم" ولما تاب الذي قتل مائة نفس من بني إسرائيل و سأل العالم: هل له من توبة؟ قال له: نعم فأمره أن ينتقل من قرية السوء إلى القرية الصالحة فأدركه الموت بينهما فاختصم فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله إليهم أن قيسوا بينهما فإلى أيهما كان أقرب فألحقوه بها فوجدوه إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القرية الصالحة أقرب برمية حجر فغفر له هجران أماكن المعاصي وأخواتها من جملة الهجرة المأمور بها فإن المهاجر من هجر ما نهى الله عنه قال إبراهيم بن أدهم: من أراد التوبة فليخرج من المظالم وليدع مخالطة من كان يخالطه وإلا لم ينل ما يريد احذروا الذنوب فإنها مشؤومة عواقبها ذميمة وعقوباتها أليمة والقلوب المحبة لها سقيمة السلامة منها غنيمة والعافية منها ليس لها قيمة والبلية بها لا سيما بعد نزول الشيب داهية عظيمة:

طاعة الله خير ما اكتسب العبـ ... د فكن طائعا لله لا تعصينه

ما هلاك النفوس إلا المعاصي ... فاجتنب ما نهاك لا تقربنه

إن شيئا هلاك نفسك فيه ... ينبغي أن تصون نفسك عنه

يا من ضاع قلبه أنشده في مجالس الذكر عسى أن تجده، يا من مرض قلبه احمله إلى مجلس الذكر لعله أن يعافى....]ا.هـ.

أما اليوم فالمجاملات والحرص على مليء البطون، مقدم على الغيرة والغضب لحق الله تعالى، عند رؤية المنكرات؛ ولهذا تجد كثيرا من الناس همته مصروفة إلى مجاملة الناس، وإجابة ولائمهم، وإن كانت الأماكن متضمنة المعاصي والمنكرات؛ ولهذا ازدادت جُرْأة أصحاب المنكرات، وازداد الأمر سوءً والعياذ بالله، حيث الحفلات الصاخبة، والاختلاط، وغيرها من المحرمات.

قوله:(أخذ على هذا عشر سنين): أي مكث داعيا إلى التوحيد، لا يدعو إلا إليه في غالب حاله، فليست هناك شعائر أخرى كان يدعو إليها في تلك الفترة، كما يدعو إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التوحيد، -ولكنه دعا أيضا إلى صلة الأرحام-، مما يدل على أهمية ترسيخ التوحيد في القلوب، وتنزيله في واقع الحياة، وأنه أهم ما يشتغل به الداعية إلى الله، فإنه متى ما امتثلت القلوب التوحيد؛ فإنها لن تتلكأ في قبول الشرائع؛ لأن المرء سيكون قد فهم أنه عبدٌ يجب عليه امتثال الأوامر واجتناب النواهي؛ فيبادر إلى ذلك، بل ويتنافس فيه، واعتبر بحال الصحابة y قبل البعثة وبعدها، لما رسخ التوحيد في قلوبهم؛ بادروا إلى ترك المحرمات، وفعل الطاعات.

قوله:(وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ)، هذا من باب التأكيد على أن دعوة الرسل، إنما تكون أصالة في إقامة حق الله تعالى، وأن قضيتهم العظمى هي التوحيد، وأن هذا هو مراد الله تبارك وتعالى، حتى إنه جل وعلا لم يأمر عباده بالصلاة، مع أنها الركن الثاني، إلا بعد هذه المدة الطويلة من الدعوة إلى التوحيد، وترسيخه في القلوب، وقد تقدم معنا في قصة حديث معاذ وسهل رضي الله عنهما، كيف أن النبي r ، أمر بالبداءة بالتوحيد، ثم بعد ذلك، يأتي أمرهم وتعليمهم بما يجب من حق الله تعالى فيه، وما ذلك إلا لأن الله تعالى لن يقبل من العبد عملا مهما عظم، إذا كان صاحبه متلبسا بالشرك بالله تعالى، كما قال تعالى:{وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان:٢٣]، وقال:{وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ} [التوبة:٥٤].

فالتوحيد يبنى ويشيد، والشرك يهدم ويبيد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(**وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ**)، هذا ما آل إليه الأمر في الصلوات المفروضة على العباد، وإلا فقد كانت خمسين صلاة، فخفف الله على هذه الأمة، وقبل شفاعة نبينا **r** في ذلك، فاللهم لك الحمد كله، وصلى اللهم على نبينا محمد، واجزه اللهم عنا خير ما جزيت نبيا عن أمته ودعوته، ففي الصحيحين في قصة الإسراء والمعراج من حديث أنس **t** قال النبي :"ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى فَقَالَ بِمَا أُمِرْتَ قَالَ أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ قَالَ إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ وَإِنِّي وَاللهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ فَرَجَعْتُ فَقَالَ مِثْلَهُ فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ بِمَ أُمِرْتَ قُلْتُ أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ قَالَ إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ قَالَ سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ وَلَكِنِّي أَرْضَى وَأُسَلِّمُ قَالَ فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَى مُنَادٍ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي".

تاريخ ليلة الإسراء لا يعلمه إلا الله تعالى:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم رحمك الله، أن ليلة الإسراء والمعراج ليلةٌ لم تحدد، فلا يعرف اليوم الذي أسري فيه وعرج بالنبي r ، ولهذا من الكذب والافتراء زعم أن هذا وقع في شهر رجب، وقد ابتدع في هذا الشهر، بدع كثيرة، بحجة الإسراء والمعراج، فمن الاحتفالات إلى الصيام، وصلوات ونفقات وصدقات، وغير ذلك مما لا أصل له في الكتاب والسنة، وعليك بأصحاب محمد r فقد كانوا هم أحرص الناس على اتباع السنة، واحترام وتوقير وتعزير نبي الأمة، عليه الصلاة والسلام، ومع هذا لم يحتفل أحدٌ منهم بشيء من ذلك، ولا التفتوا إليها أصلاً، وفوق هذا كله،فهذا رسول الله r ، قد علم الليلة التي أسري به فيها، ولم يتخذها منسكاً ولا متعبداً، ولم يخصها بشي من ذلك والأمر، كما قال قائلهم:

وخير الأمور السالفات على الهدى ....وشر الأمور المحدثات البدائع

صلاة الرغائب بدعة لا مستند لها:

أما ما يسمى بصلاة الرغائب فلا أصل لها عن النبي r ، وجميع ما ورد فيها، كلها أحاديث منكرة، وهي صلاة مبتدعة، يخصون بها شهر رجب، ولهذا ترى المبتدعة، يكثرون في هذا الشهر بمكة والمدينة، ويزعمون إحياء هذه السنة الجاهلية، وراجع كتاب لطائف المعارف للحافظ ابن رجب؛ لتقف على حظ وافر من العلم في ذلك.

الإسراء والمعراج كان يقظة لا مناما وبالروح والجسد النبوي الشريف r :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم رحمك الله أن الراجح أن الإسراء والمعراج كان بالروح والبدن معاً، وهذا هو الصحيح في المسألة، أما القول بأن ذلك كان مناماً، أو كان يقظة ولكن بالروح دون الجسد، كل هذا خطأ، فلو كان الأمر كذلك، ما تعجب الكفار من وقوع ذلك؛ لأنه بالإمكان حصول هذا المنام، والروح أخف من الجسد بكثير، ولهذا فالصحيح أنه عرج به عليه الصلاة والسلام، بروحه وجسده معاً إلى فوق سبع سماوات، وهذا هو صريح الأدلة، وما عدا ذلك فهو اتباع الظن، بالأخذ بالضعيف والآراء الخاطئة.

قوله:(وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ)، أي صلى هذه الصلوات المكتوبات، على مواقيتها على ما نزل به جبريل عليه السلام، إلى النبي r ، وأما هل كان النبي r يصلي قبل ذلك أم لا؟، في ذلك خلاف، والظاهر أنه كان يصلي، ولكن ليست هذه الصلوات الخمس.

ولم تكن فرضت صلاة الجماعة في ذلك الوقت؛ لوجود الخوف، فكانوا يصلون سراً أو جماعات متفرقة في بعض البيوت، كدار الأرقم ابن الأرقم.والله أعلم.

قوله:(وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ)، لما أذن الله جل وعلا بنصر نبيه، وإظهاره على أعدائه، أمر النبي r بالهجرة، وكان أبو بكر t قد أجمع على الهجرة قبل ذلك بزمن، فخرج من مكة لما كثر الأذى عليه، فرده أحد كفار مكة في جواره فقال له:إن مثل أبي بكر لا يخرج ولا يُخرج، ومنّاه النبي r بالهجرة معه، وقال أبو بكر:(الصحبة الصحبة يا رسول الله)، فصحب النبي r في أعظم هجرة عرفها التاريخ.

فقد غيرت هذه الهجرة بفضل الله جل وعلا التاريخ كله، وقلبت مجريات الموازين البشرية، وتبدلت الأحداث؛ فحصل بعدها ما تعلمون من النصر والتمكين للنبي r

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولدينه وأتباعه؛ ليعلم العباد أن الله على كل شيء قدير، وأنه سبحانه وتعالى لطيف لما يشاء؛ ولتعلم هذه الأمة، عظيم المعاناة التي عاشها نبي الأمة عليه الصلاة السلام، وأنه تحمل الكثير الكثير للقيام بهذا الأمر العظيم.

فحري بنا أن نعرف سنته، وأن نقتفي أثره، وأن لا نقدم عليه أحداً، عليه أفضل الصلاة والسلام.

الدعوة إلى التوحيد كانت ولم تزل حتى توفاه الله تعالى r :

واستمر النبي **r** على هذه الدعوة والصلوات الخمس، حتى هاجر، وبقي على ذلك عليه الصلاة والسلام داعيا إلى التوحيد مصليا لله رب العالمين، حتى توفاه الله، ومن الوهم اعتقاد أن الدعوة إلى التوحيد كانت ببكة، فحسب، بل لم يزل **r** داعيا إلى التوحيد حتى توفاه الله تعالى، كما في الصحيحين من طريق عُبَيْدُ الله بْن عَبْدِ الله بْنِ عُتْبَةَ أَنَّ عَائِشَةَ وَعَبْدَ الله بْنَ عَبَّاسٍ قَالَا لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ الله **r** طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ:"لَعْنَةُ الله عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ" يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا. وفي رواية لعائشة رضي الله عنها: فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ.

والمعنى أنه r لم يزل داعيا إلى التوحيد، حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى r .

تنبيه: واعلم رحمك الله، أن دعوة الرسل جاءت عامة إلى كل أنواع التوحيد، فليس من التوحيد شيء مهمل، وكل آية أو حديث فيه الأمر بعبادة الله تعالى، فالمقصود به

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جميع أنواع التوحيد، وكل دليل دل على النهي عن الشرك، فالمقصود به النهي عن الشرك في كل أنواع التوحيد.

خلافا لما يتوهمه البعض، من أن الرسل إنما بعثت بتوحيد الألوهية فحسب، فإن هذا الفهم الخاطىء لحقيقة دعوة الرسل؛ قد أورث فسادا عريضا.

قال ابن القيم في (زاد المعاد):[فصل في ذكرى الهجرتين الأولى والثانية: وخاف منهم الكفار اشتد أذاهم له r وفتنتهم إياهم فأذن لهم رسول الله r في الهجرة إلى الحبشة وقال إن بها ملكا لا يظلم الناس عنده فهاجر من المسلمين اثنا عشر رجلا وأربع نسوة منهم عثمان بن عفان وهو أول من خرج ومعه زوجته رقية بنت رسول الله r فأقاموا في الحبشة في أحسن جوار فبلغهم أن قريشا أسلمت وكان هذا الخبر كذبا فرجعوا إلى مكة فلما بلغهم أن الأمر أشد مما كان رجع منهم من رجع ودخل جماعة فلقوا من قريش أذى شديدا وكان ممن دخل عبد الله بن مسعود .

(الحصر في الشعب ثم وفاة خديجة فعمه فخروجه للطائف): ثم أذن لهم في الهجرة ثانيا إلى الحبشة فهاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلا إن كان فيهم عمار فإنه يشك فيه ومن النساء ثمان عشرة امرأة فأقاموا عند النجاشي على أحسن حال فبلغ ذلك قريشا فأرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة في جماعة ليكيدوهم عند النجاشي فرد الله كيدهم في نحورهم فاشتد أذاهم لرسول الله r فحصروه وأهل بيته في الشعب شعب أبي طالب ثلاث سنين وقيل سنتين وخرج من الحصر وله تسع وأربعون سنة وقيل ثمان وأربعون سنة وبعد ذلك بأشهر مات عمه أبو طالب وله سبع وثمانون سنة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الشعب ولد عبد الله بن عباس فنال الكفار منه أذى شديدا ثم ماتت خديجة بعد ذلك بيسير فاشتد أذى الكفار له فخرج إلى الطائف هو وزيد بن حارثة يدعو إلى الله تعالى وأقام به أياما فلم يجيبوه وآذوه وأخرجوه وقاموا له سماطين فرجموه بالحجارة حتى أدموا كعبيه فانصرف عنهم رسول الله r راجعا إلى مكة وفي طريقه لقي عداسا النصراني فآمن به وصدقه وفي طريقه أيضا بنخلة صرف إليه نفر من الجن سبعة من أهل نصيبين فاستمعوا القرآن وأسلموا وفي طريقه تلك أرسل الله إليه ملك الجبال يأمره مكة وهما جبلاها إن أراد فقال: لا بل أستأني بهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئا.

(الإسراء): وفي طريقه دعا بذلك الدعاء المشهور اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي.... الحديث، ثم دخل مكة في جوار المطعم بن عدي ثم أسري المسجد الأقصى ثم عرج به إلى فوق السموات بجسده وروحه إلى الله عز وجل فخاطبه وفرض عليه الصلوات وكان ذلك مرة واحدة هذا أصح الأقوال. وقيل كان ذلك مناما وقيل بل يقال أسري به ولا يقال يقظة ولا مناما. وقيل كان الإسراء إلى بيت المقدس يقظة وإلى السماء مناما. وقيل: كان الإسراء مرتين مرة يقظة ومرة مناما. وقيل بل أسري به ثلاث مرات وكان ذلك بعد المبعث بالاتفاق. وأما ما وقع في حديث شريك أن ذلك كان قبل أن يوحى إليه فهذا مما عد من أغلاط شريك الثمانية وسوء حفظه لحديث الإسراء. وقيل إن هذا كان إسراء المنام قبل الوحي. وأما إسراء اليقظة فبعد النبوة وقيل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بل الوحي هاهنا مقيد وليس بالوحي المطلق الذي هو مبدأ النبوة والمراد قبل أن يوحى إليه في شأن الإسراء فأسري به فجأة من غير تقدم إعلام والله أعلم.

(دعوة القبائل والهجرة إلى المدينة): فأقام r بمكة ما أقام يدعو القبائل إلى الله تعالى ويعرض نفسه عليهم في كل موسم أن يؤووه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة فلم تستجب له قبيلة وادخر الله ذلك كرامة للأنصار فلما أراد الله تعالى إظهار دينه وإنجاز وعده ونصر نبيه وإعلاء كلمته والانتقام من أعدائه ساقه إلى الأنصار لما أراد بهم من الكرامة فانتهى إلى نفر منهم ستة وقيل ثمانية وهم يحلقون رءوسهم عند عقبة منى في الموسم فجلس إليهم ودعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن المدينة فدعوا قومهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ولم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله r . فأول مسجد قرئ فيه القرآن بالمدينة مسجد بني زريق ثم قدم مكة في العام القابل اثنا عشر رجلا من الأنصار منهم خمسة من الستة الأولين فبايعوا رسول الله r على بيعة النساء عند العقبة ثم انصرفوا إلى المدينة فقدم عليه في العام القابل منهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان وهم أهل العقبة الأخيرة فبايعوا رسول الله r على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأنفسهم فترحل هو وأصحابه إليهم واختار رسول الله r منهم اثني عشر نقيبا وأذن رسول الله r لأصحابه في الهجرة إلى المدينة فخرجوا أرسالا متسللين أولهم فيما قيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي وقيل مصعب بن عمير فقدموا على الأنصار في دورهم فآووهم ونصروهم وفشا الإسلام بالمدينة ثم أذن الله لرسول الله r في الهجرة فخرج من مكة يوم الاثنين في شهر ربيع الأول وقيل في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صفر وله إذ ذاك ثلاث وخمسون سنة ومعه أبو بكر الصديق وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ودليلهم عبد الله بن الأريقط الليثي فدخل غار ثور هو وأبو بكر فأقاما فيه ثلاثا ثم أخذا على طريق الساحل فلما انتهوا إلى المدينة وذلك يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول وقيل غير ذلك نزل بقباء في أعلى المدينة على بني عمرو بن عوف. وقيل نزل على كلثوم بن الهدم. وقيل على سعد بن خيثمة والأول أشهر فأقام عندهم أربعة عشر يوما وأسس مسجد قباء ثم خرج يوم الجمعة فأدركته الجمعة في بني سالم كان معه من المسلمين وهم مائة ثم ركب ناقته وسار وجعل الناس يكلمونه في النزول عليهم ويأخذون بخطام الناقة فيقول خلوا سبيلها فإنها مأمورة فبركت عند مسجده اليوم وكان مربدا لسهل وسهيل غلامين من بني النجار فنزل عنها على أبي أيوب الأنصاري ثم بنى مسجده موضع المربد بيده هو وأصحابه بالجريد واللبن ثم بنى مسكنه ومساكن أزواجه إلى جنبه وأقربها إليه مسكن عائشة ثم تحول بعد سبعة أشهر من دار أبي أيوب إليها وبلغ أصحابه بالحبشة هجرته إلى المدينة فرجع منهم ثلاثة r بالمدينة ثم هاجر بقيتهم في السفينة عام خيبر سنة سبع].ا.هـ.

قوله:(وَالْهِجْرَةُ الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ)، شرع المؤلف رحمه الله تعالى يتكلم عن الهجرة، وأنها تستلزم الانتقال والخروج، من الديار والأرض، والأهل، وبين أنها باقية إلى قيام الساعة، وأن التي انقطعت فقط هي الهجرة من مكة إلى المدينة؛ لأن مكة صارت دار إسلام، وهذا معنى قوله r :"لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية" متفق عليه من حديث ابن عباس t .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمؤلف هنا خص الحديث عن نوع معين من أنواع الهجرة، **وهي الأعظم والآكد والأعلى**، وأنها هي الفريضة، وهي التي تكون مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ، وسنأتي على ذكر باقي الأنواع، بإذن الله تعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءتْ مَصِيراً * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَآءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً} [النساء: ٩٧-٩٩]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ} [العنكبوت: ٥٦].

قَالَ الْبُغَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:نزلت هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ ولَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ: قوله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشرح

الهجرة تنقسم إلى أقسام:

١ - **هجرة بالقلب**: وهذه تنقسم إلى قسمين:

أ- هجرة إلى الله بالإخلاص. ب- هجرة إلى النبي r بالمتابعة.

وهاتان الهجرتان فرض على كل مسلم ومسلمة، فهما شرطا قبول العمل، وقد أبدع ابن القيم في نونيته إذ قال:

واجعل لقلبك هجرتين ولا تنم.. فهما على كل امرئ فرضان
فالهجرة الأولى إلى الرحمن بالـ ... إخلاص في سر وفي إعلان
فالقصد وجه الله بالأقوال والـ ... أعمال والطاعات والشكران
فبذاك ينجو العبد من إشراكه ... ويصير حقا عابد الرحمن
والهجرة الأخرى إلى المبعوث بالـ حق المبين وواضح البرهان
فيدور مع قول الرسول وفعله ... نفيا وإثباتا بلا روغان
ويحكم الوحي المبين على الذي ... قال الشيوخ فعنده حكمان
لا يحكمان بباطل أبدا وكل الـ ... عدل قد جاءت به الحكمان
وهما كتاب الله أعدل حاكم ... فيه الشفا وهداية الحيران

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والحـاكم الثاني كـلام رسـوله ... ما ثـم غيـرهمـا لـذي إيمـــان
فإذا دعـوك لغير حكمهـما فلا ...سمعا لداعي الكفر والعصيان
قل لا كـرامـة لا ولا نُعْمَى ولا...طـوعا لمـن يـدعـو إلى طغيان
وإذا دعيت إلى الرسـول فقل لهم سمعا وطوعا لست ذا عصيان
وإذا تكاثـرت الخصوم وصيحوا فاثبت فصيحتهم كمثل دخان
يرقى إلى الأوج الرفيـع وبعده ..يهوي إلى قعر الحضيض الداني
هذا وإن قتال حـزب الله بالــ ... أعمـال لا بكتائب الشجعان
والله مـا فتحوا البـــلاد بكثـرة... أنـى وأعْـَداهُم بـلا حسـبان
وكذاك ما فتحوا القلوب بهذه الـآراء بـل بـالـعـلـم والإيـمان
وشجاعة الفرسان نفس الزهد في...نفس وذا محذور كل جبان
وشجاعة الحكام والعلماء زهــد في الثنـاء مـن كل ذي بطلان
فإذا هما اجتمعا لقلب صادق ... شُـدَّت ركـائـبـه إلى الـرحمن

٢- **هِجْرةٌ بمعنى ترك المعاصي، واعتزالها واعتزال أهلها**: وهذه تكون قلبية وبدنية، ومنه حديث عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو قال: قَالَ النَّبِيُّ r :"الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ". متفق عليه.

٣- **الهجرة بالبدن**: وهذه تنقسم إلى أقسام:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أ- الهجرة من بلاد الكفر والشرك إلى بلاد الإسلام، وهذه فرض، وهي التي تحدث عنها المؤلف، ومن هذه الهجرة ما حصل من أصحاب الكهف، أولئك الفتية الكرام البررة الموحدين الخُلَّص المُخْلِصِين المُخْلَصِين.

الحكم العظيمة من الأمر بالهجرة من بلاد الكفر:

واعلم رحمك الله، أن الحِكَمَ والعلل التي لأجلها أمر الله تعالى بهذه الهجرة، كثيرة جدا، وليس كما يتوهم البعض، أنها فقط مسألة إمكانية إظهار الدين من عدمه، فمنها:

أولها: لأن في بقائه بين المشركين تكثيرا لسوادهم.

ثانياً: أن في بقائه ذلاً له في دينه، والله تعالى يقول:{ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين}.

ثالثاً: أنه سيجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً، والله تعالى يقول:{ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً}، فالماكث بين ظهرانيهم، سيضطر إلى التحاكم إلى طواغيتهم، والعمل تحت أيديهم، فيتسلطون عليه، وقد نهى الله جل وعلا أن يذل المؤمن نفسه،بل أمر الله تعالى المؤمنين أن يكونوا هم الأعلون.

رابعاً: أنه سيرى الكفر والكافرين، وشعائر المشركين، وسيسمع أذية الله وسبه صباح مساء، والنيل من الإسلام والمسلمين، ولن يحرك ساكناً؛ لكونه مضطهدا، وكفى بهذه مذلة ومهانة.

خامساً: أنه غالبا ما سيقع في التشبه بهم، ولو على الأقل في لباسهم وهيئتهم، والنبي r يقول كما في مسند أحمد ومصنف ابن أبي شيبة وهو في سنن أبي داود وسكت عنه، فهو صالح عنده كلهم من طريق حَسَّانُ بْنُ عَطِيَّةَ عَنْ أَبِي مُنِيبٍ الْجُرَشِيِّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم):[وأيضا مما هو صريح في الدلالة ما روى أبو داود في سننه حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا أبو النضر يعني هاشم بن القاسم حدثنا عبد الرحمن بن ثابت حدثنا حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله r :"من تشبه بقوم فهو منهم" وهذا إسناد جيد[1] ....إلى أن قال: وهذا الحديث أقل أحواله، أنه يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم، كما في قوله: {ومن يتولهم منكم فإنه منهم}، وهو نظير ما سنذكره عن عبد الله بن عمرو أنه قال:(من بنى

---

١ - قال ابن تيمية في نفس الموضع من الكتاب:[فإن ابن أبي شيبة وأبا النضر وحسان بن عطية ثقات مشاهير أجلاء من رجال الصحيحين وهم أجل من أن يحتاجوا إلى أن يقال هم من رجال الصحيحين وأما عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان فقال يحيى بن معين وأبو زرعة وأحمد بن عبد الله العجلي ليس به بأس وقال عبد الرحمن بن إبراهيم دحيم هو ثقة وقال أبو حاتم هو مستقيم الحديث، وأما أبو منيب الجرشي فقال فيه أحمد بن عبد الله العجلي هو ثقة وما علمت أحدا يذكره بسوء وقد سمع منه حسان بن عطية وقد احتج الإمام أحمد وغيره بهذا الحديث].ا.هـ.

وقال في موضع آخر من اقتضاء الصراط المستقيم:[وقال المروزي سألت أبا عبد الله يعني أحمد بن حنبل عن حلق القفا فقال هو من فعل المجوس، ومن تشبه بقوم فهو منهم]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بأرض المشركين وصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت حشر معهم يوم القيامة)، فقد يحمل هذا على التشبه المطلق، فإنه يوجب الكفر، ويقتضي تحريم أبعاض ذلك، وقد يحمل على أنه صار منهم في القدر المشترك، الذي شابهم فيه، فإن كان كفرا أو معصية أو شعارا للكفر أو للمعصية كان حكمه كذلك]ا.هـ.

سادساً: سيضعف وازع الإيمان في قلبه حتى على مستوى الشركيات والكفريات؛ لأن كثرة الإمساس تفقد الإحساس؛ ولهذا أوجب الشارع الخروج من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، إلا من كان مستضعفاً ولا يجد إلى الخروج سبيلاً، ولهذا احتج المؤلف بقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا}. **والراجح** أن الآية على عمومها، تشمل القادر على إظهار دينه وغيره.

سابعا: أن في بقائه بين الكافرين، تقوية لهم على كفرهم، فإن العبد غالبا ما يبقى بينهم لرغبة في دنياهم، فيرى الكفار أنهم خير من المسلم حالا، مما يزيد في طغيانهم على الحق وتمردهم عليه.

ثامنا: إمكانية أن يقتل إذا أغار المسلمون على ديار الكافرين، وهو السبب في ذلك.

ب- **هجرة من بلاد المعصية إلى بلاد الطاعة**، ودليل هذا النوع قصة الرجل التي في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ r قَالَ:"كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنَ تَوْبَةٍ فَقَالَ لاَ. فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَّ فَاعْبُدِ اللهَّ مَعَهُمْ وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ. فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى الله . وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ".

ج- **الهجرة من بلد البدعة إلى بلد السنة**، وهذه يمكن الاحتجاج لها بقوله تعالى: {وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم .... الآية}، ويحتج لها بالحديث المتقدم أيضاً.

د- **الهجرة إلى طلب العلم**، كما فعل موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام، ومن ذلك ما وقع من الصحابة والسلف الصالح، وهذا أكثر من أن يحصر.

هـ- **الهجرة لنصرة الدين وإرساء قواعده ونصرة المظلوم**، ومن ذلك ما حصل من ذي القرنين t ورحمه.

<u>ضابط هام</u>: **وضابط النوع الثاني والثالث**، أن لا يكون قادراً على التغيير والدعوة والإصلاح، ويخشى على نفسه الضرر في دينه، فإن كان بعيداً من هذا كله؛ فالأولى أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يبقى ببدنه داعياً إلى الله صابراً على الأذى، وفي نفس الوقت يهاجر بقلبه إلى الله ورسوله، فالبدن مع الناس، والقلب معلق بالمحل الأعلى، وهذه التي تسمى باعتزال المبادئ، فمبادئه معه، هو ثابت عليها، وإن كان مع الناس ببدنه، يدعو إليها، ويظهرها، ولا يداهن فيها، ولا يلبس الحق بالباطل.

الهجرة العكسية:

و- الهجرة المحرمة وهي التي وللأسف الشديد قد كثرت في هذا الزمان، وهي الهجرة العكسية، أي عكس ما تقدم ، وذلك بأن يهاجر من بلد الإسلام إلى بلد الكفر، أومن بلد الطاعة إلى بلد المعصية، أو من بلاد السنة إلى بلاد البدعة؛ جرياً وراء الحياة وشهواتها الزائلة الزائفة، غير آبه لدينه ولا ما يجري عليه، وهذا يخشى عليه من قول النبي r الذي في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ الله أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ ".

ولا يغني عن هؤلاء التَّحَجُّجُ بطلب العلم ونحو ذلك، فإن علما دنيويا يكون سببا لفساد الدين، والتعرض لعقوبة الله تعالى، يجب تركه والبعد عنه، وإياك أن تحتج بما أخرج الترمذي وغيره وعلقه البخاري في الصحيح عن زيد بن ثابت قال: أمرني رسول الله r أن أتعلم له كتاب يهود قال:"إني والله ما آمن يهود على كتاب: قال فما مر بي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نصف شهر حتى تعلمته له قال فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم. قال الترمذي:هذا حديث حسن صحيح.

فإن هذا الخبر، أولا فيه انتقاء لا تعميم، فالنبي r انتقى من بين أصحابه، ولم يأمر الأمة بذلك، ثم إنه انتقى أحد العلماء من أصحابه، ثم إن المنعة والغلبة كانت للمؤمنين، ثم إن الأرض والديار كانت ديار المسلمين، واليهود يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، وآخرون في عهد، والغلبة على كل حال للمسلمين، وكلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فأين هذا من الذهاب إلى بلاد الكفار، وللكفار فيها المنعة، والغلبة، وكلمة الكفر هي السائدة هناك، إلى غير ذلك من ألوان الضلال والانحراف، لا شك أن هذا من أفسد أنواع القياس والاحتجاج.

وأما الحال للمريض الذي لا يجد علاجا إلا في بلاد الكفار، فإنه يجب أن يرسل معه أحد العلماء أو طلبة العلم؛ حتى لا يذهب ليعالج بدنه؛ فيتلف قلبه، فيكون موته بمرضه مع سلامة معتقده، خيرا له من حياته بقلب ميت أو سقيم، وعلى كلٍ فالذهاب إلى بلاد الكفر، هو من أضيق الأبواب في الإسلام، والمقصود هو المفاصلة التامة والمفارقة لأعداء الله.

قوله:(وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلام، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ)، بعد أن بين المؤلف معنى الهجرة، - وكما تقدم أنَّ قصد المؤلف النوع الذي هو فريضة -، جاء الدور على بيان حكم هذا الانتقال من بلد الكفر إلى بلد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإسلام، فبين أنها فريضة، فليست هي محلا للمساومات، وضرب الأمثلة، بل تتعين المسارعة إلى القيام بهذه الفريضة، ولو كلف العبد ذلك أن يتنازل عن حطام هذه الحياة الدنيا، التي يراها أو يجدها في بلا الكفر والكافرين، واليوم الأمر بخلاف ذلك والعياذ بالله، فقد حصلت الهجرة العكسية، من بلاد المسلمين إلى بلاد الكافرين، وفرح بذلك فئام من المسلمين، وآخرون يتطلعون لذلك، والواحد منهم إذا حصل على تأشيرة دخول إلى بلاد الكفر، أو عقد عمل، أو ما يسمى بـ (الجِرِين كَارْد)، فرح وتهلل وجهه، ودعا أصحابه إلى وليمة، بل لربما إلى حفلة، عياذا بالله من الخذلان والفتنة.

قوله: (**وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ**)، بيان أن هذا هو دين الله تعالى وحكمه باق، لا يتغير بتغير العوامل والظروف، فإن هذه الفريضة باقية، مهما أرغى وأزبد الأعداء، وأعوانهم من المنافقين، وعباد الحياة الدنيا.

قوله: (**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءتْ مَصِيراً * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَآءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً**})، الآية تحكي حالة أقوام ظلموا أنفسهم، حتى نزل الموت بساحتهم، ولم يتوبوا إلى الله تعالى، وأن الملائكة توبخهم وتقرعهم وتعنفهم، وأنهم متوعدون بجهنم وساءت مصيرا، فما هو هذا الظلم الذي أوقع هؤلاء في هذه الورطة العظيمة، والمحنة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشديدة، والعقوبة الغليظة؟، إنه المقام بين ظهراني الكافرين، والمكث في بلادهم، بلا عذر شرعي معتبر عند الله تعالى.

ومعنى الآية إذا: أن من لم يهاجر من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، مع القدرة على ذلك؛ فإنه قد أحب المُقَامَ بين أعداء الله ورسوله، وأنه أَلِفَ النظر إليهم والعياذ بالله، وهذه من علامات النفاق، ولهذا سيموت ظالماً لنفسه، وتوبخه الملائكة عند موته فبئست الخاتمة، إضافة إلى ما توعده الله جل وعلا به من النار والنكال، ثم استثنى الله جل وعلا المستضعفين، وهم أصحاب الأعذار المعتبرة شرعا، التي دلت عليها نصوص الكتاب والسنة وتعامل سلف الأمة.

أخرج البخاري في صحيحه عن ابْن عَبَّاسٍ أَنَّ نَاسًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يُكَثِّرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله r يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى بِهِ فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ أَوْ يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ فَأَنْزَلَ اللهُ: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} الْآيَةَ.

قلت: والمعنى أي لا تعبئوا بهم، فإنهم القوم رضوا بأن يكونوا مع المشركين، يساكنونهم ويكثرون سوادهم، حتى خرجوا معهم في صفوف القتال فلا تأسفوا عليهم، كاليوم كذلك يخرج بعض المعتنقين للإسلام، في جيوش الكافرين أمريكا وغيرها، ليقاتلوا المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها، ولاشك أن هذه مظاهرة ورِدَّةٌ، ناهيك عن الانخراط تحت النظام الكفري الطاغوتي، والدفاع عنه وعقد الولاء فيه، وتأدية القسم، على التفاني في خدمته وحمايته.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جاء في تفسير ابن كثير:[هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراما بالإجماع، وبنص هذه الآية حيث يقول تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} أي:بترك الهجرة {قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ} أي:لم مكثتم هاهنا وتركتم الهجرة؟ {قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأرْضِ} أي:لا نقدر على الخروج من البلد، ولا الذهاب في الأرض {قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً [فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}.وقال أبو داود: حدثنا محمد بن داود بن سفيان، حدثني يحيى بن حسان، أخبرنا سليمان بن موسى أبو داود، حدثنا جعفر بن سعد بن سمرة بن جندب، حدثني خبيب بن سليمان، عن أبيه سليمان بن سمرة، عن سمرة بن جندب: أما بعد، قال رسول الله r :"من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله" .وقال السدي: لما أسر العباس وَعقِيل ونَوْفَل، قال رسول الله r للعباس:"افد نفسك وابن أخيك " قال: يا رسول الله، ألم نصل قبلتك، ونشهد شهادتك؟ قال: " يا عباس، إنكم خاصمتم فخُصمتم". ثم تلا عليه هذه الآية:{أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً [فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} رواه ابن أبي حاتم.

وقوله:**{إِلا الْمُسْتَضْعَفِينَ [مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلا}**، هذا عذر من الله تعالى لهؤلاء في ترك الهجرة، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال:{لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلا} قال مجاهد وعكرمة، والسدي: يعني طريقا.وقوله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى: {فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ} أي: يتجاوز عنهم بترك الهجرة، وعسى من الله موجبة {وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا}.قال البخاري : حدثنا أبو نُعَيْم، حدثنا شَيْبَان، عن يَحْيَى، عن أبي سَلَمَة، عن أبي هريرة قال: بينا النبي r يصلي العشاء إذ قال:"سمع الله لمن حمده" ثم قال قبل أن يسجد "اللهم نَج عياش بن أبي ربيعة، اللهم نج سلمة بن هشام، اللهم نج الوليد بن الوليد، اللهم نَج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مُضَر، اللهم اجعلها سنين كسِنِيِّ يوسف".....وقال البخاري : أنبأنا أبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن ابن أبي مُلَيْكَة، عن ابن عباس: {إِلا الْمُسْتَضْعَفِينَ} قال:كانت أمي ممن عَذَر الله عز وجل]ا.هـ.

هذه الهجرة فريضة على المتمكن وغير المتمكن من إظهار دينه:

واعلم رحمك الله تعالى، أنه لا فرق في فَرَضِيَّةِ هذه الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، بين المتمكن من إظهار دينه وغير المتمكن، إذ المقصود الأعظم من هذه الهجرة، ترك هذه الأرض التي يشرك فيها بالله تعالى، والبراءة من أهلها، مع بغضهم والكفر بهم، فالمؤمن مطالب أن يأوي إلى المؤمنين، وأن يساكنهم ويكثر سوادهم.

ولم تستثن الآية إلا العاجزين عن هذا الانتقال، ولم تُعَلِّق الحكم على القدرة الفردية على إظهار الدين من عدمه، فتنبه لهذا المعنى الجَلَل، فإنه مقام خطير، ومَزْلَقٌ وَخِيم، تَعَلَّلَ به أقوام؛ لِيُبَرروا مُكُوثَهم بين ظَهْرِانَي المشركين، بل وبعضهم هاجر إلى بلاد الكفر من بلاد الإسلام، طمعا في الدنيا، تحت هذه الدعوى الضالة المنحرفة، عياذا بالله من الخلان والهوان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ}، هذا نداء من الله تبارك وتعالى لعباده المؤمنين، ناداهم باسم العبودية، التي تقتضي توحيد الله وبغض المشركين، وأعداء الملة والدين ورسول رب العالمين، ألا يجاورا المشركين في بلدانهم، وألا يساكنوهم في أوطانهم، فإن من فعل هذا مختاراً مع القدرة على خلافه، دل ذلك على حبه لهم، وموالاته إياهم، وركونه إليهم، وهذا ينافي التوحيد، القائم على الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، ولهذا ناداهم الله جل وعلا باسم الإسلام والإيمان؛ لكي يتذكروا حقيقة الإيمان، وأن ضده الكفر، وأنه لا يجتمع الإيمان والكفر بحال، ولهذا قال تعالى:{إن أرضي واسعة}، أي اخرجوا من هذه الديار الكافرة، التي عشش فيها الشيطان وفرخ،وهاجروا في أرضي الواسعة، ابتغاء مرضاتي، وتحقيقاً للكفر بالطاغوت، المستلزم لمحبة الله جل وعلا، ولهذا قال بعدها {فإياي فاعبدون} أي إن حقيقة العبودية تتنافى مع البقاء بين ظهراني المشركين وحبهم وحب ديارهم، التي يظهرون فيها عزهم بكفرهم، ويرفعون شعارات الطاغوت، ويحاربون الله ورسوله، كيف يرضى المؤمن مساكنة أمثال هؤلاء، فالعبادة لا تسمى عبادة إلا بالإيمان بالله والكفر بالطاغوت، قال تعالى:{لا تجد قوماً يؤمنون الله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله}، وإن من فضّل البقاء بين المشركين؛ لزخرف الحياة الدنيا؛ فإنه قد اشترى العاجلة وباع الآخرة، والله يقول:{ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار}، ويقول:{بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لله جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [النساء:١٣٨-١٤٠]، فعّرض الله جل وعلا بهذا الصنف من العباد بالنفاق، إذ لا يجالس الكافرين حال كونهم مستهزئين بالدين، كافرين برب العالمين، إلا وفي قلبه خبيئة سوء، ودخن ومرض، وسيخرج الله أضغانهم، ولهذا فإن عامة الذين يبقون بين أظهر المشركين يتأثرون بهم، والناس في ذلك درجات بحسب الإيمان، فمنهم من بلغ به التأثر أن تشبه بهم في لباسهم، ومنهج حياتهم،ومنهم من بلغ به التشبه والتأثر أقصى درجاته وغاياته، حتى كفر بالله العظيم، ومنه من هو دون ذلك، ومنهم من بلغ به الحال أن يدافع عنهم، ويفتتن بحياتهم، ويتمدحهم؛ ولهذا حرم الإسلام مجرد المشابهة في الظاهر؛ لأنها تورث مودةً في الباطن، فكيف بمن ساكنهم في ديارهم، تجري عليه أحكام الطاغوت، ويخضع للطاغوت، ويتحاكم إلى الطاغوت، وهو ذليل صاغر في دينه، خائف على نفسه، لا شك أن هؤلاء داخلون في جملة الخطاب في الآية المتقدمة ممن تتوفاهم الملائكة وهم ظالمون لأنفسهم، فبئست الخاتمة، وبئس المولى وبئس العشير.

جاء في تفسير ابن كثير:[{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ}، وهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله، من الكتابيين والمشركين، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون، وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

و أخروي، يتخذونها {هُزُوًا وَلَعِبًا} يستهزئون بها، {وَلَعِبًا} يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد]ا.هـ.

قال الشنقيطي في (أضواء البيان):[قوله تعالى:{يا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ}.نادى اللهَّ جلَّ وعلا عباده المؤمنين، وأكّد لهم أن أرضه واسعة، وأمرهم أن يعبدوه وحده دون غيره، كما دلّ عليه تقديم المعمول الذي هو إياي؛ كما بيّناه في الكلام على قوله تعالى:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}.والمعنى: أنهم إن كانوا في أرض لا يقدرون فيها على إقامة دينهم، أو يصيبهم فيها أذى الكفار، فإن أرض ربّهم واسعة فليهاجروا إلى موضع منها يقدرون فيه على إقامة دينهم، ويسلمون فيه من أذى الكفار، كما فعل رسول اللهَّ r والمسلمون]ا.هـ. ولهذا جاء في الحديث الذي في مسند أحمد ومستدرك الحاكم وسنن النسائي واللفظ له عن بَهْزَ بْنَ حَكِيمٍ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ الله مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى حَلَفْتُ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِهِنَّ لِأَصَابِعِ يَدَيْهِ أَلَّا آتِيَكَ وَلَا آتِيَ دِينَكَ وَإِنِّي كُنْتُ امْرَأً لَا أَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللهُّ وَرَسُولُهُ وَإِنِّي أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ الله عَزَّ وَجَلَّ بِمَا بَعَثَكَ رَبُّكَ إِلَيْنَا قَالَ:"بِالْإِسْلَامِ" قَالَ قُلْتُ وَمَا آيَاتُ الْإِسْلَامِ قَالَ:"أَنْ تَقُولَ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ وَتَخَلَّيْتُ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ كُلُّ مُسْلِمٍ عَلَى مُسْلِمٍ مُحَرَّمٌ أَخَوَانِ نَصِيرَانِ لَا يَقْبَلُ اللهُّ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ مُشْرِكٍ بَعْدَمَا أَسْلَمَ عَمَلًا أَوْ يُفَارِقَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ". وسنده جيد. وراجع تفسير عبد الرزاق وابن أبي حاتم على قوله تعالى:{إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم}، لتعلم عمومها للجميع.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي رواية لعبد الرزاق في مُصَنَّفِهِ وهي في المعجم الكبير للطبراني واللفظ له قَالَ:"تَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله r ، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتُفَارِقُ الشِّرْكَ، وَإِنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ عَلَى مُسْلِمٍ مُحَرَّمٌ، أَخَوَانِ نَصِيرَانِ، لا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ مُشْرِكٍ أَشْرَكَ مِنْ بَعْدِ إِسْلامِهِ عَمَلاً..". وهو في سنن ابن ماجه بلفظ مقارب له، وسلسلة بهز، صححها ابن معين وأحمد وإسحاق وغيرهم، وروى عنه شعبة، وهو خبر صالح المعنى، إذ من لوازم الإيمان تحقيق عقيدة الولاء والبراء، ومن أظهر ذلك مفارقتهم.

فانظروا كيف عَلَّقَ قبول الأعمال من هذا المسلم الجديد على هجرته إلى بلدٍ مسلم، والآيات والأحاديث في هذا المعنى أكثر من أن تُحْصَر، وأظْهَر مِن أنْ تُنْكَر.

وفي سنن البيهقي باب كَرَاهِيَةِ الدُّخُولِ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ فِي كَنَائِسِهِمْ وَالتَّشَبُّهِ بِهِمْ يَوْمَ نَيْرُوزِهِمْ وَمِهْرَجَانِهِمْ: ثم ذكر حديثا سنده جيد من طريق عَوْفٍ عَنِ الْوَلِيدِ أَوْ أَبِي الْوَلِيدِ[1] عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو t قَالَ:"مَنْ بَنَى بِبِلاَدِ الأَعَاجِمِ وَصَنَعَ نَيْرُوزَهُمْ وَمِهْرَجَانَهُمْ وَتَشَبَّهَ بِهِمْ حَتَّى يَمُوتَ وَهُوَ كَذَلِكَ حُشِرَ مَعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

سيخلف الله لك خيرا أيها المهاجر إليه:

وقد وعد الله تعالى من يهاجر في سبيله، ويترك أرض الكافرين؛ لأجل الله تعالى، والمحافظة على الدين، أن الله تعالى سيخلف عليه خيرا، ويرزقه رزقا حسنا، وسيجعل

---

١ - هو صدوق وقد ذكره الإمام الثقة يعقوب بن سفيان في ثقات البصريين، فلا يضره قول أبي حاتم عنه:إنه مجهول، فإن من عرف حجة على من لم يعرف.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

له فرجا ومخرجا، وإن مات فقد وقع أجره على الله،كما قال تعالى:{وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:١٠٠].

وتأمل في هذه الآية الكريمة:{قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر:١٠].

مسألة: ما حكم الهجرة؟، وما حكم الدار؟، إذا كان أكثر أهلها من مسلمين، وغلب على حكمها المنافقون، بمعنى هل إذا كان الغالب على البلد أهل الإسلام، وهي في الأصل أرض للمسلمين، فغلب عليها المنافقون، فلبسوا دين الله تعالى، وحكموا الناس بالطاغوت، قهرا وظلما، هل يلزم الخروج منها أم لا؟.

الجواب: لا يلزمهم الخروج منها إلا إن تعذر عليهم إقامة الصلاة، وإظهار الدين، أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر ودعوة إلى الله، وأما المنافق، فإن الواجب السعي في إزالته بعد بذل النصح والدعوة له، لا الخروج من ديار المسلمين، وقد مرت بالأمة أحوال مثل هذه، فلم يأمر السلف الناس فيها بالخروج والهجرة من بلادهم، كما جرى مع أهل العراق أيام الحجاج، فقد كان جماهير السلف يرون كفر الحجاج، ومع ذلك لم يأمروا الناس بالهجرة، وكذلك في زمان الإمام أحمد، أظهر الخليفة مقولة كفرية بالإجماع، ألا وهي القول بخلق القرآن، وامتحن الناس على ذلك، ومع ذلك لم يخرج

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإمام أحمد، ولم يفت العلماء الناس بالهجرة، إلى أمثلة أخرى على هذا النسق، فلابد أن نستصحب حالة السلف؛ لنتصور المسائل الشرعية على وجهها. والله أعلم.

وهنا أدلة تدل على هذا الأصل، فمنها حديث حذيفة المخرج في الصحيحين، في ذكر أحوال الأمة وفيه:(قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ، قَالَ:"نَعَمْ دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله صِفْهُمْ لَنَا، فَقَالَ:"هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا"، قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ، قَالَ:"تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ"، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ، قَالَ:"فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ". فالنبي r لم يأمره بالهجرة، وإنما أمره بالاعتزال، حتى لو اضطر إلى أن يلجأ إلى الشجر.

ومثله كذلك قول النبي r :"وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ الله فِيهِ بُرْهَانٌ"، وهو في الصحيحين من حديث عبادة t .

فهنا أيضا لم يأمرهم بالهجرة، وإنما أمرهم بالجهاد، إن أمكن، وإلا فيسعى المؤمنون في الدعوة والبيان، وفضح الطاغوت، حتى يأذن الله بالفرج، وهذا هو تعامل السلف كما تقدم.

لا اعتبار شرعا للحدود الطاغوتية:

واعلم أرشدك الله، أن مسألة الهجرة لا تتعلق بالحدود الوهمية التي وضعاها المستعمر الجاهلي الكافر، فليست الهجرة خاصة بالانتقال من قطر إلى قطر، بل إذا خرج

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العبد من قرية إلى أخرى، سُمِّيَ مهاجرا، المهم أن لا يكون للطاغوت عليه سلطان، وأن يكون مستعلنا بدينه، يعبد ربه على بصيرة، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، هذا هو الحال في مثل هذه البقاع من الأرض التي يكون فيها أهلها الأصل فيهم الإسلام، ثم يتسلط عليهم أهل النفاق، والطغيان، ولا حيلة لهم في دفعه.

كيفية الحكم على الديار:

واعلم رحمك الله، أن الحكم على الديار يكون باعتبار حالها، من جهتين، من جهة الحكم فيها، ومن جهة أهلها، فإن كان الغالب على أهلها الإسلام، وتسلط منافق فحكم الدار بالطاغوت، زاعما أنه ما أراد إلا إحسانا وتوفيقا، فلا يجوز أن يطلق عليها أنها دار كفر بإطلاق، بل لابد من التقييد والبيان، والعكس كذلك، وإن كان هذا نادرا، أن يكون الغالب على أهل الدار الكفار من يهود أو نصارى مثلا، والحاكم مسلم يحكم البلاد بالشريعة، فلا يجوز إطلاق أنها دار كفر بإطلاق، بل لابد من التفصيل والبيان.

وبالاستفصال يزول الإشكال، فإن قال هي دار كفر باعتبار، حكامها والحكم المطبق فيها؛ فقد أصاب، ولكن ليست هي دار كفر باعتبار أهلها، والعكس بالعكس. والله أعلم.

فائدة: استنباط متعلق بمناسبة ذكر آيات القتال، عقب آيات التشريع والحاكمية، في سورتي النساء والمائدة، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٠ - ٦٥]....إلى أن قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء:٧١-٧٦].

وقال في سورة المائدة:{وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة:٤٩-٥٠].....إلى أن قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة: ٥٤ - ٥٦].

فإن في ذلك بيانا واضحا من الله تبارك وتعالى، أن من أشرف من تُسَلُّ فيه سيوف الجهاد في سبيل الله، هو إحياء هذه الشعيرة العظمى، وإقامة حق الله تعالى بالتشريع والحكم في عباده، فمهما كانت ثمة شوكة ضاربة؛ تَعَيَّنَ على المسلمين السعي في اجتثاث طواغيت التشريعات الجاهلية؛ حتى يكون الحكم لله وحده، كما أن العبادة لله وحده، ومن هنا كان قول النبي r :"وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ إِلاَّ أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ" متفق عليه من حديث عبادة t .

فصل في بيان أحكام التشبه باليهود والنصارى والكفار والأعاجم

مسألة: هل يجوز التشبه باليهود والنصارى والأعاجم على وجه العموم؟.

الجواب: هذا ينقسم إلى قسمين:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القسم الأول: ما كان من خصائصهم، فهذا يحرم التشبه بهم فيه، سواء في أعيادهم أو شعاراتهم أو مناهج حياتهم أو لباسهم.

القسم الثاني ما ليس من خصائصهم ، فهو ينقسم إلى قسمين:

أ- ما يمكن الاستغناء عنه، ببديل مناسب، فهذا الأولى المصير إليه، حسما لمادة التشبه بهم، وإن كان مباحاً في أصله؛ لأنه ليس من خصائصهم.

ب- ما كان مشتركاً بيننا وبينهم، ولم يكن في يوم من الأيام من خصائصهم، ولا نجد له بديلاً، فهذا جائز ولا حرج فيه.

مسألة: ما حكم التشبه في اللباس بأهل الكتاب والمشركين والأعاجم؟.

الجواب: على ما تقدم تفصيله، فما كان من خصائصهم، ولو في سالف الزمن؛ فيحرم، وما كان مشتركاً ولم يكن من خصائصهم في يوم من الدهر جاز،كما في صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ رَأَى النَّبِيُّ r عَلَيَّ ثَوْبَيْنِ مُعَصْفَرَيْنِ فَقَالَ:"أَأُمُّكَ أَمَرَتْكَ بِهَذَا". قُلْتُ أَغْسِلُهُمَا. قَالَ:"بَلْ أَحْرِقْهُمَا"، وفي رواية له:"إِنَّ هَذِهِ مِنْ ثِيَابِ الْكُفَّارِ فَلاَ تَلْبَسْهَا"، والأعاجم وإن كانوا مسلمين فإنه يحرم التشبه بهم فيما هو من خصائصهم، وللأسف ترى بعض الصالحين فَرَّ من لباس الكفار، فلبس لباس العجم من بلاد الهند والسند وباكستان وأفغانستان وبنجلاديش وغيرهم من الأعاجم، وهذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

منهي عنه أيضا١،كما في مسند أحمد وصحيح ابن حبان من طريق أبي عثمان النهدي عن عمر بن الخطاب t أنه قال:"اتزروا وارتدوا وانتعلوا والقوا الخفاف والسراويلات والقوا الركب وانزوا نزوا وعليكم بالمعدية وارموا الأغراض وذروا التنعم وزي

---

١ - وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن البراء بن عازب قال:"نهانا النبي r عن الْمَيَاثِرِ الْحُمْرِ وَالْقَسِّيِّ ". قال أبو عبيد في غريب الحديث:[وأما المياثر الحمر التي جاء فيها النهي فإنها كانت من مراكب الأعاجم من ديباج أو حرير]ا.هـ. قال شيخ الإسلام في الاقتضاء:[قال محمد بن أبي حرب: سئل أحمد عن نعل سندي يخرج فيه . فكرهه للرجل والمرأة وقال : إن كان للكنيف والوضوء وأكره الصرار. وقال : هو من زي العجم. وقد سئل سعيد بن عامر عنه فقال : سنة نبينا أحب إلينا من سنة باكهن .وقال في رواية المروذي وقد سأله عن النعل السندي فقال : أما أنا فلا أستعملها، ولكن إن كان للطين، أو المخرج فأرجو، وأما من أراد الزينة فلا ورأى على باب المخرج نعلا سنديا فقال : يتشبه بأولاد الملوك. وقال حرب الكرماني:قلت لأحمد: فهذه النعال الغلاظ؟ قال:هذه السندية قال:إذا كان للوضوء، أو للكنيف، أو لموضع ضرورة فلا بأس. وكأنه كره أن يمشي فيها في الأزقة قيل: النعل من الخشب. قال:لا بأس بها أيضا إذا كان موضع ضرورة. قال حرب: حدثنا أحمد بن نصر حدثنا حبان بن موسى، قال:سئل ابن المبارك عن هذه النعال الكرمانية فلم تعجبه وقال:أما في هذه غنية عن تلك؟. وروى الخلال عن أحمد بن إبراهيم الدورقي قال:سألت سعيد بن عامر عن لباس النعال السبتية فقال:زي نبينا أحب إلينا من زِيِّ بَاكَهَن ملك الهند، ولو كان في مسجد المدينة لأخرجوه من المدينة.

سعيد بن عامر الضبعي إمام أهل البصرة علما ودينا، من شيوخ الإمام أحمد قال يحيى بن سعيد القطان وذكر عنده سعيد بن عامر فقال: هو شيخ المصر منذ أربعين سنة. وقال أبو مسعود بن الفرات: ما رأيت بالبصرة مثل سعيد بن عامر].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العجم وإياكم والحرير فإن رسول الله r قد نهى عنه وقال لا تلبسوا من الحرير إلا ما كان هكذا وأشار رسول الله r بأصبعيه" وسنده جيد.والله أعلم.

علة فاسدة تنهدم بها قاعدة النهي عن التشبه بالكفار والأعاجم:

مسألة: ما حكم إذا شاع لباس المشركين الذي هو من خصائصهم بين المسلمين حتى صار الأكثر يستعمله؟.

الجواب: ليس المعيار في الشرع بالكثرة، وإنما العبرة باتباع الكتاب والسنة، فطالما أن اللباس كالبنطال أو الكرفتة أو البرنيطة مثلا، هو سمة من سمات القوم الكافرين؛ فهو تشبه، وللرد على شبهة المتذرعين بفعل الأكثر من المسلمين، ظانين أن هذا يخرجه عن كونه تشبهاً، بحيث يصبح جائزاً بين المسلمين، نذكر آية وحديثا من فَهِمَهُما؛ عرف حقيقة الأمر: أما الآية فقوله تعالى:{وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون}، فهذا الآية تقرر أن الأكثر دائماً، وليس غالباً، على الضلال، وأنهم يفعلون ما يفعلون ليس بناءً على العلم الصحيح، واتباعا للكتاب والسنة، بل على الظن و الخرص والهوى، فاستصحب هذا المعنى في ذهنك.

وأما الحديث فهو ما جاء في الصحيحين من حديث أَبِي سَعِيدٍ t أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالَ فَمَنْ ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهذا الحديث يقرر سنةً قدرية كونية، وأنها واقعة لا محالة، وهي أن هذه الأمة ستأخذ مأخذ الأمم السابقة، وستتبع هدي اليهود والنصارى، ومن هنا نخلص بالحقيقة العامة،التي بينتها تلك الآية وهذا الحديث، وهي أن أكثر هذه الأمة سيكون على الضلال، وسيتبعون اليهود والنصارى، والمعنى أنه كلما ظهر أمرٌ في اليهود والنصارى.

ولا شك أن اللباس من ذلك؛ سيبادر الأكثر إلى اتباعهم؛ لأنهم لا حلم ولا علم، فما هو إلا الخرص والظن واتباع الهوى؛ وبالتالي، فلو قلنا بهذا القول، وهو أنه كلما فشا الأمر بين المسلمين وشاع مما هو من خصائص الكفار جعلناه جائزاً بدعوى فُشُوِّه.

فإن هذه المقولة ستهدم قاعدة التشبه بالكلية؛ لأن الأكثر كما تقدم نصا على الضلال، والأكثر كذلك سيتبعون اليهود والنصارى، وبالتالي فلا تشبه محرم بالكلية، ولاشك أن هذا باطل واتباع محض للهوى، وتخبط وخرص في دين الله جل وعلا.

الهيئات معتبرة:

واعلم رحمك الله، أن التأثير في هذا الباب للهيئات، وذلك لأن بعض أهل العلم ينظر إلى أصل الملبوس فيقول مثلا: السروال مشروع، والبنطال سروال كذلك؛ فيجوز، وهذا لا شك أنه خلل واضح في تصور هذه المسألة، فإننا نقول لهم، فبهذا الاعتبار إنه لم يزل الناس يلبسون ما يستر أسفلهم وأعلاهم ورؤوسهم، وعليه فكل ما ستر الإنسان فلا تشبه فيه، أهذا مقبول شرعا؟!؛ إذا لانهدمت مادة التشبه على الإطلاق، ولهذا نقول إن الاعتبار بالهيئات هو الأصل في هذا الباب، فلو لبست المرأة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثوبا، هَيْئَتُهُ رجالية، ووضعت فيه وُرُوداً مثلا، فهل ستخرج بذلك عن كونها قد لبست لبسة الرجال؟!، والعكس كذلك، لو لبس رجل فستان النساء، وأزال ما فيه من الورود والأشكال، فهل سيخرج عن كونه متشبها بالنساء، ولاحظ أن الكل قد ستر بدنه؟!!.

والعجيب أن بعضهم إذا سئل عن البُرنيطة، قال هذا تشبه فهو حرام، مع أنه على قاعدته فإن البرنيطة كالقلنسوة (الطاقية) تستر الرأس، وعليه فنعود لنؤكد أن المعتبر هي هيئة اللباس، وأنه وإن اشترك لباس الكفار مع لباس المسلمين في الستر لجزء ما من البدن، فتبقى الهيئة هي المؤثرة في الحكم. فتنبه لهذا فإنه نافع ومفيد في بابه.

ولنتذكر هذه الآيات المباركات التي نرددها في كل يوم مرات ومرات: قال تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة:٦-٧]، فالمؤمنون لهم صراط، وكذلك لهم سِيمَا، وهديا، يتميزون به عن أهل الكفر والإلحاد، من المغضوب عليهم والضالين، فاعمل على تحقيق ذلك، بأن تكون من الصادقين في مسألتك الله تعالى، أن يهديك هذا الصراط، المُزَكَّى، المبارك.

الخطأ على الإمام مالك في ذلك:

وأما من احتج بأن الإمام مالكا قال بجواز ارتداء لباس الكفار إذا شاع بين المسلمين، فهذا قول باطل على الإمام مالك، إذ أن الإمام مالكا لم يصرح بهذا مطلقا،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد كان كغيره من الأئمة يشددون في هذا الباب، ولكن البعض فهم من كلامه هذا؛ فأخطأ وأبعد النجعة، وإليك ما نُقِل عنه في ذلك، وهو ما جاء في فتح الباري لابن حجر:[وَقَدْ كَرِهَ بَعْض السَّلَف لُبْس الْبُرْنُس لِأَنَّهُ كَانَ مِنْ لِبَاس الرُّهْبَان، وَقَدْ سُئِلَ مَالِك عَنْهُ فَقَالَ: لَا بَأْس بِهِ. قِيلَ: فَإِنَّهُ مِنْ لُبُوس النَّصَارَى. قَالَ: كَانَ يُلْبَس هَاهُنَا. وَقَالَ عَبْد اللَّهِ بْن أَبِي بَكْر: مَا كَانَ أَحَد مِنْ الْقُرَّاء إِلَّا لَهُ بُرْنُس].ا.هـ.

ثم نقول وبكل صراحة، هذا النقل لا يوجد في كتب الإمام مالك، بل لم أجده عن أصحابه المتقدمين عنه، فلعل وهما حصل في النقل، أو يكون كما هو حال كثير من المنقولات عن الأئمة، ينقلها البعض عن الأصحاب، ثم تُعْزَى إلى الأئمة خطأ؛ فتصل إلينا على أنها قول للإمام، ولعل هذا ما وقع للحافظ ابن حجر، لأنه كما تقدم هذا النقل لا نجده في كتب مالك رحمه الله تعالى، بل وجدنا خلافه.

ومما يؤكد أن هناك وهما أو تصحيفا حصل، ما جاء في كتاب (البيان والتحصيل) لابن رشد القرطبي وهو من أئمة المالكية، ومن المعتنين بأقوال مالك ومذهبه، قال:[مسألة: وسئل مالك عن الصلاة في البرنس، قال هي من لباس المصلين، **وكانت من لباس الناس القديم**، وما أرى بها بأساً، واستحسن لباسها وقال هي **من لباس المسافر للبرد والمطر**. قال: ولقد سمعت عبد الله بن أبي بكر، وكان من عُبَّادِ النَّاس، وأهل الفضل، وهو يقول: ما أدركت الناس إلا ولهم ثوبان، برنس يغدو به وخميصة يروح بها، ولقد رأيت ناساً يلبسون البرانس، فقيل له ما كان ألوانها؟ قال صفر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال محمد بن رشد: البرانس ثياب مِتَان في شكل الغفائر عندنا مفتوحة من أمام تلبس على الثياب في البرد والمطر مكان الرداء، فلا تجوز الصلاة فيها وحدها إلا أن يكون تحتها قميص أو إزار وسراويل، لأن العورة تبدو من أمامه. **وهذا في البرانس العربية، وأما البرانس الأعجمية فلا خير في لباسها في الصلاة ولا في غير الصلاة، لأنها من زي العجم وشكلهم.** أما الخمائص فهي أكسية من صوف رقاق معلمة وغير معلمة يلتحف بها، كانت من لباس الأشراف في أرض العرب، فقوله برنس يغدوا به، يريد يلبسه على ما تحته من الثياب، وخميصة يروح بها، يعني يلتحفها على ما عليه من الثياب، والله أعلم، وبه التوفيق]ا.هـ..

فتبين من هذا النقل المعتمد من كتب المالكية، أن مالكا أخبر أن هذا من لباس الناس، أي العرب، وهذا ما فهمه ابن رشد، أنها البرانس العربية، وليست الأعجمية، فإن هناك اشتراكا في اللفظ حصل، كما بين هذا النقل أن المالكية يرون الإنكار والتشديد على من تشبه بالأعاجم من روم وفارس وغيرهم، وأنها لا خير فيها. فتأمل.

حكم الألبسة المشتركة التي لم تكن من خصائصهم:

ثم على فرض صحة النقل، نقول بأن الإمام مالك هنا احتج بأن هذا اللباس ليس من خصائص النصارى، بدليل قوله:(كان يلبس ها هنا)، والمقصود بأنه ليس من خصائصهم بل هو لباس شائع عندنا وعندهم، ومن علم طبيعة البرنس، مما تقدم؛ علم يقينا أنه كذلك، فهو من الألبسة المشتركة، التي لا خصيصة لقوم بها دون الآخرين،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن هذا الذي يستطيع أن يزعم أن هذا اللباس كان من خصائص النصارى وأنه كان شعارا لهم، فانتبه رعاك الله.

وكذلك القول في غيرها من الألبسة المشتركة، وهذا قد تقدم الحديث عنه، فالألبسة المشتركة لا حرج فيها كما تقدم، ومنها الجبة، والطيالس، والقلنسوة، ونحوها، فإنها ألبسة يتقى بها الحَر والقَر، ولا تميز لقوم بها دون الآخرين، بدليل أن النبي r كان يلبسها، وفي نفس الوقت كان ينهى عن ألبسة معينة، ويعلل ذلك r بأنها من لباس الكافرين، والمعنى أي مما اختصوا به، فمن ذلك ما جاء في الصحيحين عن البراء t من نهي النبي r عن القِسِّي وهي من مراكب العجم، وكذلك ما تقدم من نهي النبي r عن الثياب المعصفرة، وبين أنها من لباس المشركين، فإذن كان النبي r يفرق بين لباس ولباس، وقد وقع الانتقاء من لباس العرب لأن الشارع جعله هو الأصل، ثم أُمِرَ النبي r باتقاء بعضه، والضابط في ذلك ما كان من خصائص المشركين، وشعارهم.

حتى إن النبي r كان ينهى عن بعض الهيئات في الصلاة؛ خشية المشابهة للكفار، كما في صحيح مسلم عَنْ جَابِرٍ قَالَ اشْتَكَى رَسُولُ الله r فَصَلَّيْنَا وَرَاءَهُ وَهُوَ قَاعِدٌ وَأَبُو بَكْرٍ يُسْمِعُ النَّاسَ تَكْبِيرَهُ فَالْتَفَتَ إِلَيْنَا فَرَآنَا قِيَامًا فَأَشَارَ إِلَيْنَا فَقَعَدْنَا فَصَلَّيْنَا بِصَلاَتِهِ قُعُودًا فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ:"إِنْ كِدْتُمْ آنِفاً لَتَفْعَلُونَ فِعْلَ فَارِسَ وَالرُّومِ يَقُومُونَ عَلَى مُلُوكِهِمْ وَهُمْ قُعُودٌ فَلاَ تَفْعَلُوا ائْتَمُّوا بِأَئِمَّتِكُمْ إِنْ صَلَّى قَائِمًا فَصَلُّوا قِيَامًا وَإِنْ صَلَّى قَاعِدًا فَصَلُّوا قُعُودًا".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعلى كل فالأدلة صريحة في أن التشبه بأهل الكتاب والمشركين والأعاجم لا يجوز مطلقاً، ولو وقع فيه من وقع من الصالحين، فالعبرة بالحق لا بالرجال، و الكتاب والسنة يقضيان على أقوال الرجال وأفعالهم، وليست أقوالهم وأفعالهم قاضية على الكتاب والسنة، فإنما نعرف الرجال بالحق، ولا نعرف الحق بالرجال، وهذا هو الراجح في هذه المسألة التي عمت وطمت، وزلت فيها أقدام، وليت شعري هل يرضى أحد العلوج الكافرين، أن يلبس لباس المسلمين، فلو أتينا بأحد كبرائهم وعلمائهم أيرضى أن يفتي أهل بلده بأن يلبسوا لباس المسلمين، كلا والله، والواقع خير شاهد؛ لأنهم لا يرضون أصلاً التشبه بنا، لا في قليل، ولا في كثير، إمعاناً منهم في بغض هذا الدين وحَمَلَتِه، وكل من يمت إليه بصلة، من قريب أو من بعيد، واحتقارا لنا وتهوينا من شأننا، فلا أقل من معاملة القوم من جنس ما يعملون، فكيف وقد أمر الشارع بذلك، وأكد وألزم، وأبدى وأعاد، في وجوب مصارمتهم، ومخالفتهم وجهادهم، في كل شيء، صغيرا كان أو كبيرا، مما هو من شعارهم وخصائصهم، فإن المسألة دين وعبادة لله رب العالمين، فنشكوا إلى الله غربة الإسلام بين أهله، والله المستعان.

التشبه لا يسقط بالتَّقَادم ولا بالانتشار والذيوع:

ومن المسائل المهمة التي يجب معرفتها أن قاعدة التشبه مطردة في الماضي والحاضر والمستقبل، **فالتشبه لا يسقط بالتَّقَادم ولا بالانتشار والذيوع**، بمعنى أن كل أمرٍ ثبت أنه من خصوصيات المشركين وشعارهم في زمن من الأزمان، فإن الحكم بالتحريم باق في ذلك الشيء، على المسلمين عموما، فليس كون الشيء اختفى في زمن من الأزمنة،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مسوغاً للبسه فيما بعد، ولهذا لا يزال السلف كالإمام أحمد وغيره ينهون عن كل ما كان من خصائص الكافرين ولو في زمن مضى. وقد تقدم الإشارة إلى هذا المعنى والمنقولات في ذلك.

ومن المسائل المهمة أيضاً ما عليه بعض المسلمين اليوم، من انتقاد المسلم الذي يتشبه بلباس المسلمين، إذا انتقل إلى غير بلده، كأن يكون مثلاً من أهل مصر فينتقل إلى الجزيرة العربية، فلبس لباس أهل الجزيرة، فتجد بعض المسلمين ينتقد هذا الرجل، ويصفه بأنه إمَّعَة، وأنه لا يعتز بلباس وطنه، ونحو ذلك من الكلام الذي لا يساوي شيئا، بل هو من الضلال المبين، مع أن هذا العبد ما زاد على أن تشبه بالمسلمين في تلك البلاد وبلباسهم، ولو لبس هذا المصري البنطال والبدلة والكرفتة لم ينتقدوه، بل وترى هذا الناقد يرى في بلده من يلبس لباس الكفار، وربما كان هو كذلك لابسا له، ولكنه لا ينتقد ذلك، مع أن هذه الألبسة هي من خصائص المشركين، ولباسهم وهيئاتهم، وهذا من تلبيس إبليس، وإرجاف الشيطان بالعامة، وهذا من جراء العصبيات المذمومة، والتفرقة المقيتة الجاهلية، التي جعلت المسلم يرضى أن يتشبه بالكفار، ولا يرضى أن يتشبه بلباس مسلم مثله في بلد أخرى، فهو أولى بالنقد والإنكار ممن أنكر عليه، ولكن الله المستعان.

النية غير معتبرة في هذا الباب عند إطلاق الوصف:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن المسائل الهامة أيضا، أنه لا يلزم في قاعدة التشبه النية ولا القصد، فسواء نوى، أم لم ينو؛ فقد حصل التشبه؛ لأنه من أعمال الظاهر، لا من أعمال القلوب، ولو قصد لكان أشد وأعظم.

ومن المسائل التي ينبغي أن تُعلم حتى لا يشغب بها المبطلون على أصل هذه المسألة، أنه ليس من التشبه، الاستفادة من علومهم وصناعاتهم، التي لا تخالف الشرع، فقد أباح الله لنا صنعتهم من الآنية ونحوها، وهذا ليس خاصا بالآنية بل هو عام في الصناعات كلها، مما لم يأت في الشرع نهي عنها بخصوصها؛ ولهذا استعمل النبي r المنبر، واتخذ خاتما يختم به كتاباته، وأذن باستعمال آنية اليهود والنصارى، بالضوابط المعروفة في كتب الحديث والفقه، إلى غير ذلك، وإنما قلت هذا؛ لأن بعض المخلطين، لبس على الناس بهذه الصناعات، فقال كما أننا نستعمل سياراتهم، وصناعاتهم؛ فيجوز أيضا لباسهم، والتشبه بهم، فمرر بهذا القول الخبيث مسائل التشبه بالكفار؛ فلبس على الناس دينهم، حتى بلغ الحال، إلى قياس الديمقراطية الكافرة المأفونة الملعونة، على الشورى في الإسلام، واختزلوا المسألة في صناديق الاقتراع، وطريقة التصويت، مع أن الديمقراطية دين مستقل، لا يقوم إلا أنقاض الإسلام، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن المسائل الهامة أيضا، أن بعضهم غاير بين قولك التشبه بالكفار، وقولك مخالفة الكفار، وبعضهم لم ير ذلك شيئا، بل جعلوه بابا واحدا، والذين فرقوا قالوا المخالفة تكون في المتروكات، فمثلا اليهود لا يغيرون الشيب بلون آخر، فأمرنا أن نخالفهم،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بتغيير الشيب وأن نجتنب السواد فهو أحوط لدين العبد، ومن ذلك تركهم لبس الإزار، فنخالفهم، فنتسرول ونَتَّزِر، ومن ذلك أنهم لا يأتون النساء مُجَبِّيات، فأجاز شرعنا ذلك، حتى قالت يهود، مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلاَّ خَالَفَنَا فِيهِ، وهو في صحيح مسلم وقد تقدم.

قالوا وأما المشابهة فهي في الأفعال التي يفعلونها ويتميزون بها، أو تكون شعارا لهم، والأمر في ذلك قريب، والكل منهي عنه، والحمد لله رب العالمين، على استبانة السبيل، {وقل رب زدني علما}.

حكم تعلم لغة الكفار:

ومن المسائل كذلك ما يقع اليوم من التوسع في تعلم لغة الكفار، حتى بلغ حد التباهي والتفاخر، وهذا كله من التشبه المذموم، وأما شبهة أمر النبي r صاحبه زيد بن ثابت t أن يتعلم لغة يهود؛ ليقرأ كتابهم، فهذا قد تقدم الرد عليه في حديثي عن الهجرة وأنواعها.

قال شيخ الإسلام في كتابه:(اقتضاء الصراط المستقيم):[واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل، والخلق، والدين تأثيرا قويا بينا، ويؤثر أيضا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق.

وأيضا فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم منها ما هو واجب على الأعيان، ومنها ما هو واجب على الكفاية، وهذا معنى ما رواه أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا عيسى بن يونس عن ثور عن عمر بن زيد قال: كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري t :"أما بعد: فتفقهوا في السنة وتفقهوا في العربية وأعربوا القرآن، فإنه عربي".

وفي حديث آخر عن عمر t أنه قال:"تعلموا العربية فإنها من دينكم، وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم"، وهذا الذي أمر به عمر t من فقه العربية وفقه الشريعة، يجمع ما يحتاج إليه؛ لأن الدين فيه أقوال وأعمال، ففقه العربية هو الطريق إلى فقه أقواله، وفقه السنة هو فقه أعماله]ا.هـ.

وقال رحمه الله تعالى في مجموع الفتاوى:[وَمَا زَالَ السَّلَفُ يَكْرَهُونَ تَغْيِيرَ شَعَائِرِ الْعَرَبِ حَتَّى فِي الْمُعَامَلَاتِ وَهُوَ "التَّكَلُّم بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ" إلَّا لِحَاجَةِ، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ مَالِك وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَد، بَلْ قَالَ مَالِك:مَنْ تَكَلَّمَ فِي مَسْجِدِنَا بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ أُخْرِجَ مِنْهُ.

مَعَ أَنَّ سَائِرَ الْأَلْسُنِ يَجُوزُ النُّطْقُ بِهَا لِأَصْحَابِهَا؛ وَلَكِنْ سَوَّغُوهَا لِلْحَاجَةِ وَكَرِهُوهَا لِغَيْرِ الْحَاجَةِ وَلِحِفْظِ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ كِتَابَهُ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَبَعَثَ بِهِ نَبِيَّهُ الْعَرَبِيَّ وَجَعَلَ الْأُمَّةَ الْعَرَبِيَّةَ خَيْرَ الْأُمَمِ فَصَارَ حِفْظُ شِعَارِهِمْ مِنْ تَمَامِ حِفْظِ الْإِسْلَامِ فَكَيْفَ بِمَنْ تَقَدَّمَ عَلَى الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ - مُفْرَدِهِ وَمَنْظُومِهِ - فَيُغَيِّرُهُ وَيُبَدِّلُهُ وَيُخْرِجُهُ عَنْ قَانُونِهِ وَيُكَلِّفُ الِانْتِقَالَ عَنْهُ إنَّمَا هَذَا نَظِيرُ مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ أَهْلِ الضَّلَالِ مِنْ الشُّيُوخِ الْجُهَّالِ حَيْثُ يَصْمُدُونَ إلَى الرَّجُلِ الْعَاقِلِ فَيُؤَهِّلُونَهُ ويحنثونه؛ فَإِنَّهُمْ ضَادُّوا الرَّسُولَ إذْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بُعِثَ بِإِصْلَاحِ الْعُقُولِ وَالْأَدْيَانِ وَتَكْمِيلِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ وَحَرَّمَ مَا يُغَيِّرُ الْعَقْلَ مِنْ جَمِيعِ الْأَلْوَانِ.

فَإِذَا جَاءَ هَؤُلَاءِ إِلَى صَحِيحِ الْعَقْلِ فَأَفْسَدُوا عَقْلَهُ وَفَهْمَهُ وَقَدْ ضَادُّوا اللهَّ وراغموا حُكْمَهُ. وَالَّذِينَ يُبَدِّلُونَ اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ وَيُفْسِدُونَهُ لَهُمْ مِنْ هَذَا الذَّمِّ وَالْعِقَابِ بِقَدْرِ مَا يَفْتَحُونَهُ؛ فَإِنَّ صَلَاحَ الْعَقْلِ وَاللِّسَانِ مِمَّا يُؤْمَرُ بِهِ الْإِنْسَانُ. وَيُعِينُ ذَلِكَ عَلَى تَمَامِ الْإِيمَانِ وَضِدُّ ذَلِكَ يُوجِبُ الشِّقَاقَ وَالضَّلَالَ وَالْخُسْرَانَ. وَاَللهُ أَعْلَمُ]ا.هـ.

قال المؤلف رحمه الله:(قَالَ الْبُغَوِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: نزلت هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ ولَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ): هذا النقل بهذه الحروف لم أجده في تفسير البغوي رحمه الله، ولا أدري مكان هذه المقولة، إلا أننا نكاد نجزم أن المؤلف قد وقف عليها في مكان ما، ولعله في غير التفسير، ومن تتبع كلام البغوي رحمه الله يرى أنه ينتصر لما نقله الشيخ هنا، من أن هذه الآية خطاب من الله جل وعلا للمؤمنين المقيمين بمكة، بعد الأمر بالهجرة، ناداهم الله باسم الإيمان؛ لكي يتذكروا حقيقة الإيمان، وأنه قام على الولاء والبراء، والكفر بالطاغوت، والمعنى: أي لو كنتم مؤمنين حقاً، لما سمحت نفوسكم، ولا رضيتم بالبقاء بين أظهر المشركين، تكثرون سوادهم، وترون شعائر الكفر ترفع بينهم، ويعمل بها من حولكم، كل هذا وغيره كثير من المخالفات الشرعية، أفلا يكون في هذا حث لكم للخروج من بلادهم، وإذا لم تفعلوا فهذا دليل على ضعف واضمحلال الإيمان في قلوبكم، ولهذا توعد الله جل وعلا من فعل هذا بسوء الخاتمة، وتوبيخ وتقريع الملائكة له عند الموت، إلا من استثنى الله تعالى، من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المستضعفين رجالاً كانوا أو نساءً أو ولداناً كما هو نص القرآن، وهذا المعنى قد تقدم قريبا.

وما قرره المؤلف، وما نقله عن البغوي، هو الوجه الأول في معنى هذه الآية وهناك وجه آخر أنقله من تفسير ابن أبي حاتم حيث قال:[وَالْوَجْهُ الثَّانِي:حَدَّثَنَا أَبِي، ثنا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُنِيبٍ، ثنا أَبُو مُعَاذٍ النَّحْوِيُّ، ثنا عُبَيْدُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنِ الضَّحَّاكِ قَوْلَهُ:{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ}، قَالَ: هُمْ أُنَاسٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ r بِمَكَّةَ، فَلَمْ يَخْرُجُوا مَعَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَخَرَجُوا مَعَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ إِلَى بَدْرٍ، فَأُصِيبُوا يَوْمَئِذٍ فِيمَنْ أُصِيبَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ هَذِهِ الآيَةَ}]ا.هـ.

قلت: وهذا من اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد، فإن المعنى واحد، والمُؤَدَّى واحد، وهو إلزام المؤمنين أن يخرجوا من بين أظهر الكافرين.

قال المؤلف رحمه الله:(وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ: قَوْلُهُ r :"لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا"): قلت: هذا الحديث رواه أحمد والدارمي والنسائي وأبو يعلى وأبو داود وغيرهم، كلهم من طريق حَرِيزِ بْنِ عُثْمَانَ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي عَوْفٍ الْجُرَشِيُّ عَنْ أَبِي هِنْدٍ الْبَجَلِيِّ قَالَ كُنَّا عِنْدَ مُعَاوِيَةَ وَهُوَ عَلَى سَرِيرِهِ وَقَدْ غَمَّضَ عَيْنَيْهِ فَتَذَاكَرْنَا الْهِجْرَةَ وَالْقَائِلُ مِنَّا يَقُولُ انْقَطَعَتْ وَالْقَائِلُ مِنَّا يَقُولُ لَمْ تَنْقَطِعْ فَاسْتَنْبَهَ مُعَاوِيَةُ فَقَالَ مَا كُنْتُمْ فِيهِ فَأَخْبَرْنَاهُ وَكَانَ قَلِيلَ الرَّدِّ عَلَى النَّبِيِّ r فَقَالَ تَذَاكَرْنَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ r فَقَالَ:"لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا" وهذا لفظ الإمام أحمد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا الخبر مختلف فيه، وفيه لين وضعف، فأبو هند البجلي هو الشامي قال عنه الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب:[ذكره العسكري في الصحابة، وقال عبد الحق: ليس بالمشهور، و قال ابن القطان:مجهول].ا.هـ.

ولكن معناه صحيح، ولأفراده شواهد في الصحيحين وغيرهما، فالآيات والأحاديث الأخرى دالة على أن الهجرة باقية مشروعة، طالما نفع الإيمان،فإذا جاء وقت لا ينفع فيه الإيمان؛ فلا تنفع فيه الهجرة، كما قال تعالى:{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ} [الأنعام:١٥٨].

أما حديث:"لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية"، فالمقصود كما تقدم، أنه لا هجرة من مكة؛ لأنها صارت بلد توحيد وإسلام، فلا يهاجر منها بل إليها،، ولا تنقطع التوبة إلا حين لا تنفع، وذلك في مواطن دلت عليها الأخبار الصحاح.

متى لا تقبل التوبة:

١ - إذا غرغرت النفس في الحلقوم، كما قال تعالى:{وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء:١٨]، وقال عن فرعون، وقد أراد الإيمان بعد أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عاين الغرق:{حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس:٩٠-٩١]، وقال في شأن الذين يريدون تناوش الإيمان أي تناوله، عند الموت وقد عاشوا مكذبين بالحق، متبعين للهوى،فيقولون آمنا به، وأنى لهم الإيمان، وأنى لهم تناوله من مكان بعيد، أي هو بعيد عنهم، ولا يقبل منهم، إذ كانوا يكفرون به من قبل، ويتبعون الظن ويقذفون بالغيب، ويسيئون الظن بالله تعالى، قال تعالى:{ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ} [سبأ:٥١-٥٤].

٢-إذا طلعت الشمس من مغربها، كما في الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ t قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا فَذَاكَ حِينَ :{لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ}".

٣- إذا خرج الدجال.

٤- إذا ظهرت الدابة.

والدليل ما جاء في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"ثَلاَثٌ إِذَا خَرَجْنَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَالدَّجَّالُ وَدَابَّةُ الأَرْضِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مسألة: هل عدم قبول التوبة مستمر حتى بعد ذهاب هذه الآيات، أم أنه مرهون ببقائها، فإذا زالت؛ عاد الأمر على ما كان من قبل، فتقبل التوبة؛ على اعتبار أن هناك أجيالا ستنشأ، ويندرس العلم فيها، ثم تتوب؟.

الجواب: قولان لأهل العلم:

١ - انتفاء قبول التوبة مطلقاً بعد ظهور الآيات، لما جاء في البخاري من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن النبي r قال:"ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمنوا كلهم وذلك يوم لا ينفع نفسا إيمانها أو كسبت في إيمانها خيراً"؛ ولأن ظهور هذه الآيات نقل العباد من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، وفي عالم الشهادة يقع الإيمان الجبري، وهذا ليس بمقبول بل لا بد أن يكون الإيمان اختياريا، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

٢ - أنه متى زالت هذه الآيات، على القول ببقاء الدنيا زمناً طويلاً بعد ذلك، فإن التوبة تقبل؛ لِانْدِرَاسِ الآيات، ونسيانها؛ فتعود إمكانية الإيمان الاختياري.

والراجح القول الأول لأن هذه الآيات حتماً لا تنسى؛ ولأن الدابة تختم على كل عبد، (مؤمن وكافر)، حتى يبقى الناس يتبايعون، ينادي بعضهم بعضا (يا مؤمن أعطني يا كافر أعطني)، وأما قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} [النساء:١٥٩] ، فهذا محمول على أمرين:

١ - إما على فترة ما قبل نزوله، وهذا مقبول.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢- إذا نزل فإنه يقع الإيمان به من البعض، ولكن قيل لا ينفعهم ذلك الإيمان؛ لأن الدجال إذا ظهر لا تقبل توبة، كما في الحديث المتقدم، وعيسى عليه السلام، سينزل بعد الدجال لعنه الله، والأمر يحتاج إلى مزيد من التحقيق. والله أعلم.

قال الإمام النووي في كتابه:(رياض الصالحين):[قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب. فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط: أحدها أن يقلع عن المعصية والثاني أن يندم على فعلها والثالث أن يعزم أن لا يعود إليها أبدا فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته. وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة : هذه الثلاثة وأن يبرأ من حق صاحبها . فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه وإن كانت غيبة استحله منها. ويجب أن يتوب من جميع الذنوب فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقى عليه الباقي. وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة]ا.هـ. قلت:ولها شروط أخرى فلنذكرها:

فصل: في شروط التوبة النصوح، وفي صحيح البخاري:[قَالَ قَتَادَةُ: {تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا} الصَّادِقَةُ النَّاصِحَةُ].ا.هـ.، واعلم أن أهل العلم ذكروا شروطا للتوبة، مستقاة من الأدلة الشرعية وهي ما يلي:

١- أن تكون خالصة لله تعالى، لا من جراء أمر قاهر، ولا حطام دنيوي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢ - أن تكون في زمن المهلة، وهي المدة التي يقبل الله تعالى فيها التوبة، على ما تقدم.

٣ - الإقلاع عن الذنب.

٤ - الندم على ما بَدَر.

٥ - العَزْم على عدم العود في الذنب.

٦ - التحلل من مظالم العباد.

فصل في ذكر آيات وأحاديث تحث على التوبة والاستغفار:

أما من القرآن: قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة:٥٤]، وقوله: {يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [التوبة:٧٤]، وقوله: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة:١١٨-١١٩]، وقوله: {وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور:٣١]، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} [البروج:١٠]، وقوله:{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ} [المائدة:٦٥-٦٦]، وقوله:{أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة:٧٤]، وقوله:{وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} [هود:٣] ، وقوله:{يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ} [هود:٥٢]، وقوله:{وإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ} [هود:٦١]، وقوله:{وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} [هود:٨٩-٩٠]، وقوله:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التحريم:٨].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما من السنة: فعَنْ أَنَسٍ t قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"اللهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ" متفق عليه.

وعن أبي هُرَيْرَةَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"وَالله إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً". متفق عليه.

وفي صحيح البخاري عن ابن مسعود موقوفا: قَالَ:(إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا). يعني فأطاره عن أنفه، وهو غير مبال لذلك.

وفي صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ الله r يُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ:"سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ". قَالَتْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله أَرَاكَ تُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ. فَقَالَ:"خَبَّرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي فَإِذَا رَأَيْتُهَا أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلِ سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ. فَقَدْ رَأَيْتُهَا:{إِذَا جَاءَ نَصْرُ الله وَالْفَتْحُ}، فَتْحُ مَكَّةَ، {وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ الله أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}" أصله في البخاري أيضا.

وفي صحيح مسلم عَنِ الأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ - وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ - أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ".

وفي صحيح مسلم عن عَائِشَةَ تَقُولُ إِنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةِ مَفْصِلٍ فَمَنْ كَبَّرَ اللهَ وَحَمِدَ اللهَ وَهَلَّلَ اللهَ وَسَبَّحَ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ اللهَ وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ شَوْكَةً أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلَاثِمِائَةِ السُّلَامَى فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ".وفي لفظ:"فَإِنَّهُ يُمْسِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ".

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري t عن النبي r قال:"إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها" رواه مسلم.

وعن أبي هريرة t قال قال رسول الله r :"من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه"رواه مسلم.

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"مَنْ قَالَ سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ".

وفي الصحيحين عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنْ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ".

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لاَ يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعن أبي هريرة t أن رسول الله r قال:"يضحك الله سبحانه وتعالى إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة : يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيستشهد" متفق عليه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله r قال:"لو أن لابن آدم واديا من ذهب أحب أن يكون له واديان ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب" متفق عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[وَقَدْ ذَكَرَ عَنْ آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ أَنَّهُ اسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَتَابَ إلَيْهِ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَاهُ ؛ وَعَنْ إبْلِيسَ أَبِي الْجِنِّ - لَعَنَهُ اللهُ - أَنَّهُ أَصَرَّ مُتَعَلِّقًا بِالْقَدَرِ فَلَعَنَهُ وَأَقْصَاهُ فَمَنْ أَذْنَبَ وَتَابَ وَنَدِمَ فَقَدْ أَشْبَهَ أَبَاهُ وَمَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ]ا.هـ.

قال ابن القيم في (الوابل الصيب):[فإذا أراد الله بعبده خيرا فتح له من أبواب التوبة والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجأ إليه ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به رحمته حتى يقول عدو الله: يا ليتني تركته ولم أوقعه.

وهذا معنى قول بعض السلف:إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة ويعمل الحسنة يدخل بها النار قالوا:كيف؟ قال:يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه منه مشفقا وجِلا باكيا نادما مستحيا من ربه تعالى ناكس الرأس بين يديه منكسر القلب له فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العبد وفلاحه حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة، ويفعل الحسنة فلا يزال يمن بها على ربه ويتكبر بها ويرى نفسه ويعجب بها ويستطيل بها ويقول فعلت وفعلت فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيرا ابتلاه بأمر يكسره به ويذل به عنقه ويصغر به نفسه عنده وإن أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه، فإن العارفين كلهم مجمعون على أن التوفيق أن لا يكلك الله تعالى إلى نفسك والخذلان أن يكلك الله تعالى إلى نفسك فمن أراد الله به خيرا فتح له باب الذل والانكسار ودوام اللجأ إلى الله تعالى والافتقار إليه ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره وغناه وحمده فالعارف سائر إلى الله تعالى بين هذين الجناحين لا يمكنه أن يسير إلا بهما فمتى فاته واحد منهما فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه.

قال شيخ الإسلام:العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل وهذا معنى قوله r في الحديث الصحيح من حديث بريدة رضي الله تعالى عنه:" سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت" فجمع في قوله r :"أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي" مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل، فمشاهدة المنة توجب له المحبة والحمد والشكر لولي النعم والإحسان ومطالعة عيب النفس والعمل توجب له الذل والانكسار والافتقار والتوبة في كل وقت وأن لا يرى نفسه إلا مفلسا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس فلا يرى لنفسه حالا ولا مقاما ولا سببا يتعلق به ولا وسيلة منه يمن بها بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصرف، والإفلاس المحض، دخول من كَسَرَ الفقرُ والمسكنةُ قلبَهُ حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع وشملته الكسرة من كل جهاته وشهد ضرورته إلى ربه عز و جل وكمال فاقته وفقره إليه وأن في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك وخسر خسارة لا تجبر إلا أن يعود الله تعالى عليه ويتداركه برحمته، ولا طريق إلى الله أقرب من العبودية ولا حجاب أغلظ من الدعوى والعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها : حب كامل وذل تام ومنشأ هذين الأصلين عن ذينك الأصلين المتقدمين وهما مشاهدة المنة التي تورث المحبة ومطالعة عيب النفس والعمل التي تورث الذل التام وإذا كان العبد قد بنى سلوكه إلى الله تعالى على هذين الأصلين لم يظفر عدوه به إلا على غره وغيلة وما أسرع ما ينعشه الله عز و جل ويجبره ويتداركه برحمته]ا.هـ.

وقال أيضا في (الوابل الصيب):[فمشاهدة المنة توجب له المحبة والحمد والشكر لولي النعم والإحسان ومطالعة عيب النفس والعمل توجب له الذل والانكسار والافتقار والتوبة في كل وقت وأن لا يرى نفسه إلا مفلسا وأقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس فلا يرى لنفسه حالا ولا مقاما ولا سببا يتعلق به ولا وسيلة منه يمن بها بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصرف والإفلاس المحض دخول من كسر الفقر والمسكنة قلبه حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع وشملته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكسرة من كل جهاته وشهد ضرورته إلى ربه عز و جل وكمال فاقته وفقره إليه وأن في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك وخسر خسارة لا تجبر إلا أن يعود الله تعالى عليه ويتداركه برحمته، ولا طريق إلى الله أقرب من العبودية ولا حجاب أغلظ من الدعوى والعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها: حب كامل وذل تام ومنشأ هذين الأصلين عن ذينك الأصلي المتقدمين وهما مشاهدة المنة التي تورث المحبة ومطالعة عيب النفس والعمل التي تورث الذل التام وإذا كان العبد قد بنى سلوكه إلى الله تعالى على هذين الأصلين لم يظفر عدوه به إلا على غره وغيلة وما أسرع ما ينعشه الله عز و جل ويجبره ويتداركه برحمته]ا.هـ.

ومن جميل ما قيل في هذا الصدد:

يا من عَدَى ثم اعْتَدَى ثم اقْتَرَف ... ثم انتهى ثم ارْعَوَى ثم اعْتَرَف

ابشر بقول الله في آياته ...{إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف}

قال ابن القيم في (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين):[فههنا أربعة أمور: ذنوب وسيئات ومغفرة وتكفير، فالذنوب: المراد بها الكبائر، والمراد بالسيئات: الصغائر، وهي ما تعمل فيه الكفارة من الخطأ، وما جرى مجراه؛ ولهذا جعل لها التكفير، ومنه أخذت الكفارة؛ ولهذا لم يكن لها سلطان ولا عمل في الكبائر في أصح القولين، فلا تعمل في قتل العمد ولا في اليمين الغموس في ظاهر مذهب أحمد وأبي حنيفة، والدليل على أن السيئات هي الصغائر والتكفير لها : قوله تعالى:{إن تجتنبوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما}، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله كان يقول:"الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر".

ولفظ المغفرة أكمل من لفظ التكفير؛ ولهذا كان مع الكبائر، والتكفير مع الصغائر، فإن لفظ المغفرة يتضمن الوقاية والحفظ، ولفظ التكفير يتضمن الستر والإزالة، وعند الإفراد: يدخل كل منهما في الآخر، كما تقدم فقوله تعالى:{كفر عنهم سيآتهم} يتناول صغائرها وكبائرها ومحوها ووقاية شرها، بل التكفير المفرد يتناول أسوأ الأعمال، كما قال تعالى:{ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا}، وإذا فهم هذا؛ فهم السر في الوعد على المصائب والهموم والغموم والنصب والوصب بالتكفير دون المغفرة، كقوله في الحديث الصحيح:"ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه".

فإن المصائب لا تستقل بمغفرة الذنوب، ولا تغفر الذنوب جميعها إلا بالتوبة، أو بحسنات تتضاءل وتتلاشى فيها الذنوب، فهي كالبحر لا يتغير بالجيف، وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث، فلأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهرون بها في الدنيا، فإن لم تَفِ بِطَهرهم؛ طهروا في نهر الجحيم يوم القيامة: نهر التوبة النصوح، ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها، ونهر المصائب العظيمة المكفرة، فإذا أراد الله بعبده خيرا أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة؛ فورد القيامة طيبا طاهرا، فلم يحتج إلى التطهير الرابع.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فصل: وتوبة العبد إلى ربه محفوفة بتوبة مِنَ الله عليه قبلها، وتوبة منه بعدها، فتوبته بين توبتين من الله، سابقة ولاحقة، فإنه تاب عليه أولا: إذنا وتوفيقا وإلهاما فتاب العبد فتاب الله عليه، ثانيا: قبولا وإثابة، قال الله سبحانه وتعالى: {لقد تاب الله سبحانه تعالى على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم}، فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سببا ومقتضياً لتوبتهم، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم، والحكم ينتف لانتفاء علته، ونظير هذا: هدايته لعبده قبل الاهتداء؛ فيهتدي بهدايته؛ فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته، فإن من ثواب الهدى: الهدى بعده، كما أن من عقوبة الضلالة: الضلالة بعدها، قال الله تعالى: {والذين اهتدوا زادهم هدى}، فهداهم أولا فاهتدوا فزادهم هدى ثانيا، وعكسه في أهل الزيغ، كقوله تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم}، فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم، وهذا القدر من سِرِّ اسْمَيْهِ: الأول والآخر، فهو المعد وهو المُمِد، ومنه السبب والمسبب، وهو الذي يُعِيذُ من نفسه بنفسه، كما قال أعرف الخلق به: "وأعوذ بك منك"، والعبد تواب، والله تواب، فتوبة العبد: رجوعه إلى سيده بعد الإباق، وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإمداد]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أهمية وأثر الاستغفار على العبد:

ومما ينبغي ألا نغفل عنه، أن الاستغفار سبب للمغفرة، والتوفيق والهداية والستر، وسعة الأرزاق وزيادة القوة، كما قال تعالى: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ} [هود:٥٢].

وقوله: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لله وَقَارًا} [نوح:١٠-١٣].

وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ r كَانَ يَقُولُ:"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ وَالْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ اللَّهُمَّ اغْسِلْ عَنِّي خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ".

وفي الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله r يَسْكُتُ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَبَيْنَ الْقِرَاءَةِ إِسْكَاتَةً- قَالَ أَحْسِبُهُ قَالَ هُنَيَّةً - فَقُلْتُ بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله إِسْكَاتُكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ مَا تَقُولُ، قَالَ:"أَقُولُ اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ اللَّهُمَّ اغْسِلْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأنت ترى في هذه الأخبار الاعتراف بالخطايا، ونسبتها إلى النفس، في تربية عملية واضحة المعالم للأمة أن يكونوا كذلك، وأن يستصحبوا ذلك، فالعبد محل للنقص والتقصير، والرَّبُّ أهل التقوى وأهل المغفرة.

وفي صحيح مسلم عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ r إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلاَتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلاَثًا وَقَالَ:"اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلاَمُ وَمِنْكَ السَّلاَمُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ".

وهذا الخبر دال على أن العبد مهما عمل من الصالحات، وحرص على الكمالات، فلابد له من استصحاب الاستغفار؛ لِجَبْرِ مَا يَقَعُ من سَهْوٍ وخلل وتقصير.

وقال تعالى عن الخليل وابنه عليهما السلام:{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة:١٢٧-١٢٨].

كما يجب علينا أن نجتهد في تحصيل أسباب التوبة، وأن نسأل الله تعالى أن يتوب علينا، وأن يوفقا إلى التوبة النصوح، كما قال تعالى:{وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة:١٠٢-١٠٤]، وقوله:{حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْمَصِيرُ} [غافر:١-٣]، فهو سبحانه وتعالى قابل التوب؛ فعلينا أن نسأل الله تعالى ذلك، وقال تعالى:{ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة: ١١٨]، فهو سبحانه الذي يتوب على عباده، وهو الموفق للتوبة؛ فلنسأل الله تعالى ذلك، بصدق وإخلاص وإقبال، وثقة ويقين.

تَوْبَةُ الكَذَّابين:

ولنحذر من توبة الكذابين: قال عبد الله بن محمد بن عبيد البغدادي أبو بكر في كتابه :(الوجل والتوثق بالعمل):[قال الحسن إن قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم حسنة، يقول إني أحسن الظن بربي، كذب ولو أحسن الظن بربه؛ لأحسن العمل].ا.هـ.

الاستتار بالمعصية سبب للنجاة والعافية:

فصل: واعلم غفر الله لي ولك، أن من أعظم ما يُعين على التوبة والإقلاع عن الذنب، أن يستتر به العبد عن العباد، **ولا يَتَلاعَبَنَّ بك الشيطان، بأن يقول لك: كيف تخاف الناس ولا تخاف الله؟!، وتستخفي منهم والله يراك؟!**، فإن هذا منه من قبيل كلمة الحق التي أريد بها باطل.

ففي الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ t قال سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَاةٌ إِلاَّ الْمُجَاهِرِينَ وَإِنَّ مِنَ الإِجْهَارِ أَنْ يَعْمَلَ الْعَبْدُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً ثُمَّ يُصْبِحُ قَدْ سَتَرَهُ رَبُّهُ فَيَقُولُ يَا فُلاَنُ قَدْ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ فَيَبِيتُ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ". **فاعلم أن هذا طِبٌّ نَبَوِيٌّ عظيم في هذا الباب، وذلك من وجوه: أولا**: أن الله تعالى يحب الحياء، والاستتار بالذنب دال على حرص العبد على الحياء، واتقاء الفحش وإظهاره، وهذا من أعظم أسباب إعانة الله وتوفيقه.

ثانيا: أن الاستتار بالذنب، يدل على عدم حرص العبد على نشر المنكر، وتجرئة الآخرين عليه، وهذا من أعظم أسباب إعانة الله وتوفيقه.

ثالثا: أن في الاستتار محاصرة للمنكرات، ودفعا لانتشارها وإغراء الآخرين بها، فمصلحته ومنفعته متعدية للأمة جمعاء.

رابعا: أن فيه تضييقا لفرص تعاطي المنكر، فإن صاحب المعصية، سيحتاج إلى مكان يتوارى فيه، وكثيرا ما لا يتيسر له ذلك، مما يكون عونا له على الإقلاع.

خامسا: أن في هذا الاستتار استشعارا للذنب، بخلاف المجاهرة التي تُميت الإحساس تجاه الذنب.

سادسا: أن هذا الاستتار دال على وجود خوف من الله تعالى، فهو برجاء أن يتوب الله عليه.

سابعا: أن في تقليل ظهور المنكرات سببا عظيما لرحمة الله تعالى، أما مع ظهورها وانتشارها؛ يحصل غضب الله تعالى، وما يتبع ذلك من آثار على العباد والبلاد والشجر والدواب، كما قال تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم:٤١].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثامنا: أن الاستتار دال على حرص العبد على أن يستره الله تعالى، فهو بفعله طالب للطف الله تعالى به، وأن يستره ويتوب عليه.

فعلينا أن نعلم أن الله تعالى أعلم وأحكم، وأن نبيه r أحرص على هدايتنا ونجاتنا، فإيانا ومكر الشياطين وأعوانهم، قال تعالى:{وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا} [النساء:١٢٢].

لا تفوت الفرصة فقد لا تعود:

واعلم أرشدني الله وإياك، أن الله تعالى يعطي لعباده فُرَصاً للتوبة، فإن الله تعالى يحب من عباده أن يتوبوا إليه، وأن يَثُوبُوا إلى رشدهم، فيراجع أمر ربهم؛ فَيَلْتَزِمُوهُ ويعملوا به، والأدلة دال على ها المعنى العظيم.

فما من أمة إلا وقد أعذر الله تعالى إليها،- إلا من اسْتُثْنُوا ممن يُدْلِي على الله تعالى بحجة، فهؤلاء يُبْتَلَونَ يوم القيامة، إعذارا من الله تعالى- فيعطي الله تعالى لعباده، الفرصة تِلْوَ الأخرى للهداية والتوبة، مهما تعاظم الذنب، كما قال تعالى: {وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (١٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا } [النساء: ١٥ - ١٨]، وقوله: {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَّ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ} [هود: ٧٧، ٧٨]، وقوله: {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهَّ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهَّ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهَّ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهَّ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [البقرة: ٩٩-١٠٣]، وقوله: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهَّ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُّ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُّ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ } [المائدة: ٦٤-٦٦].

بل وهؤلاء أهل النفاق، يكشف الله تبارك وتعالى لهم مخبآت صدورهم؛ لعلهم أن يعلمون بذلك حقيقة الأمر؛ فَيَتُبُوا، ويعلموا أنه تنزيل من حكيم حميد، وأن الكتاب حق، وأن الرسول حق، كما قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ٨-٢٠]، وقوله: {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ للهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [آل عمران: ١٥٤]، وقوله:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا } [النساء:١٣٧-١٤٧]. فمع هذا النفاق العظيم دعاهم الله تعالى إلى التوبة، ورغبهم فيها: { مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا }.

بل حتى الشيطان الرجيم، خاطبه الله تبارك وتعالى بما يَدُورُ في خَلَدِه، وما انْطَوَت عليه نفسه الأَمَّارَةُ بالسُّوء؛ لعله أن يرجع عن غَيِّه وكِبْرِه وشِرْكِه، ولكنه أَبَى إلا الْمُضِيَّ قُدُماً، إلى سَخَطِ الله وغضبه، وعَذَابِه العظيم الأليم، نار تلظى خالدا فيها أبدا، قال تعالى: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ} [ص:٧٥].

فأعلمه الله تعالى بما خَالَطَه من فَسَادِ نِيَّتِه وسُوءِ طَوِيَّتِه، فما هما إلا خِيَارَان، أنت في أحدهما أو كليها وَاقِع، ولكنه أَصَرَّ واستكبر استكبارا؛ فكانت عاقبة أمره خُسْرا، نسأل الله العافية والسلامة من الخذلان، ومن سخط وغضب العزيز الجبار القهار.

لا تَقْنَط من رَحْمَةِ الله، ولا تُسَوِّف:

واعلم غفر الله لي ولك، أنه ليس هناك ذنب تتعاظم على الله أن يغفره إن حققت التوبة، واستغفرت الله تعالى منه، كما قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهَّ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَّ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الزمر:٥٣-٥٧].

وفي الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ e قَالَ : إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا - فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ ، وَرُبَّمَا قَالَ أَصَبْتُ - فَاغْفِرْ لِي فَقَالَ رَبُّهُ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ ، أَوْ أَصَبْتُ - آخَرَ فَاغْفِرْهُ فَقَالَ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا ، وَرُبَّمَا قَالَ أَصَابَ ذَنْبًا- قَالَ : قَالَ رَبِّ أَصَبْتُ ، أَوْ أَذْنَبْتُ - آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي فَقَالَ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي - ثَلاَثًا - فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com